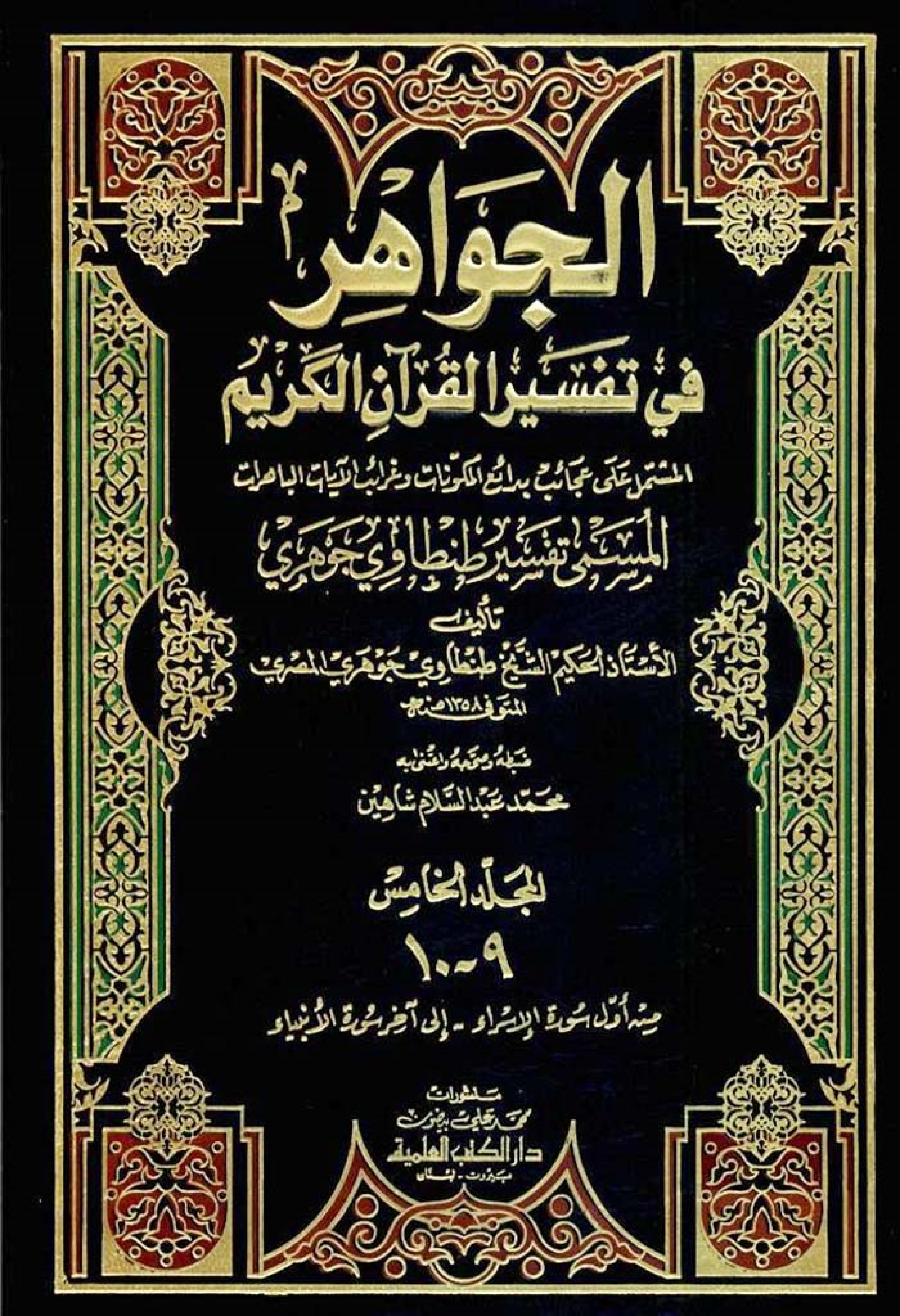

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الخامس
٩ - ١٠
من أول سورة الإسراء - إلى آخر سورة الأنبياء
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

٩ - ١٠

المحتوى:

من أول سورة الإسراء - إلى آخر سورة الأنبياء

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[ق: ٣٧]

سورة بني إسرائيل «الإسراء»

وهي مكية إلاّ قوله: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾[الإسراء: ٧٣] إلى آخر ثمان آيات.

وهي مائة وعشر آيات

هذه السورة قسمان:

القسم الأول: من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾.

القسم الثاني: من قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾[الآية: ٥٠] إلى آخر السورة.

القسم الأول فيه:

(١) الإسراء.

(٢) وتاريخ بني إسرائيل ارتقاء وانحطاطاً.

(٣) وحكم تتبع ذلك وعظات للأمة الإسلامية لئلا تذهب دولها كما ذهبت دولة اليهود.

(٤) ثم تبيان أن كل ما في السماوات والأرض مسبح لله رجوعاً إلى مبدأ السورة مع نصائح.

القسم الأول

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ

وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟
تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾
إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ
دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ
وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ
شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ
فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ
حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا
لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ
مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ
إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا
تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ
ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ
كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا
﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ
عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً
إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ
وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا
﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا

فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أسبح ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ الله، أي: تنزيهه، فـ « سبحان »: اسم بمعنى التنزيه، أي: أنزّه الله أن يعجز عما سيذكر بعده ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، وسرى وأسرى: لغتان، ﴿ لَيْلًا ﴾ في مدة قليلة منه دلّ عليها تنكير « ليل »، ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ هو المسجد بعينه لا الحرم كله، لقوله عليه الصلاة والسلام: « بينا أنا نائم في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق وقد عرج بي إلى السماء في تلك الليلة » وكان العروج به من بيت المقدس، وقد أخبر قريشاً عن عيرهم وعدد جمالها وأحوالها، وأخبرهم أيضاً بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة. والخلاف مشهور أكان باليقظة أم في المنام؛ فعائشة رضي الله عنها تقول: بروحه، والجمهور يقولون: بجسده، وسيأتي تحقيقه، وقوله: ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ أي: بيت المقدس إذ لم

يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿ ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ ﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء من أيام موسى عليه السلام وحوله الأشجار المثمرة والأنهار الجارية ﴿ لِنُرِيَهُۥ ﴾ أي: محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ ﴾ من عجائب قدرتنا، كذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر، ومشاهدته بيت المقدس، وتمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له ووقوفه على مقاماتهم، ورؤيته عجائب السماوات وغرائب المخلوقات فيها ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لأقوال محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ بأفعاله فيكرمه ويقرّبه على حسب ما استعد له بذلك.

ولما كان بيت المقدس مقرّ الأنبياء من أول موسى عليه السلام ولهم دول تتابعت وأمم تناسقت في تلك الأقطار أطلع الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم على أحوالهم ليطلعنا عليها، وأوحى إليه ما حل بقوم موسى من عزة وذلة وشرف وحطة، وقد أنزل عليهم كتاب التوراة المنزل على موسى ليدلنا على ما سيكون لنا في مستقبل الزمان وأنا سنلاقي ما لاقت الأمم فلنحترس مما وقعوا فيه ولذلك أعقبها بآداب ونصائح وفضائل لم تكن في سورة قبلها متتابعة على هذا المنوال، وشدّد في ذلك حتى أعطى (٢٥) نصيحة في نسق واحد. فأما التوراة فإن مدار نصائحها على الكلمات العشر المعروفة، فقال سبحانه موضحاً ذلك: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُ ﴾ أي: الكتاب ﴿ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾ يعني قلنا لهم لا تتخذوا من دوني رباً تكلون إليه أموركم يا ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ ﴾ في السفينة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ يحمد الله على جميع حالاته ويقوم بحق النعمة ويصرف كل ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، فلذلك أنجيته من الغرق، فإذا سرتم على طريقه أنجيتكم من الهلاك فاشكروني بمعرفة حق النعمة أدم لكم النعم كما أدمتها عليه.

ثم أخذ يفصل ما حصل لبني إسرائيل، وهل هم قاموا بالشكر كنوح أبيهم أم هم ضلوا السبيل فغضب عليهم، وكل ذلك ليس يقصد منه إلا نحن أصحاب هذا القرآن. ثم قال: ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: وقضينا على بني إسرائيل في كتابنا الذي كتبناه على الخلق وقدرناه عليهم قبل خلقهم وأن لكل دولة أيام رفعة وأيام ذلّ وأقسمنا ﴿ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: أرض الشام وبيت المقدس ﴿ مَرَّتَيۡنِ ﴾ كما هو شأن كل أمة نالت حظاً من الحضارة والترف وسكرت بالنعيم ﴿ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ أي: ولتستكبرن ولتظلمن ظلماً كبيراً ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا ﴾ أولى المرتين بأن خالفتم أحكام التوراة وركبتم المحارم فقتلتم شعياء في الشجرة مثلاً ﴿ بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ أشداء في القتال لأنكم لم تسيروا على سنن أبيكم نوح في شكر نعمائي، وهؤلاء العباد بختنصر وجنوده فقتلوا علماءكم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا سبعين ألفاً ﴿ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ ﴾ ترددوا للغارة فيها. والجوس: طلب الشيء بالاستقصاء، ﴿ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾ وكان وعد العقاب وعداً لابد أن يفعل، ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم وتهذبتم ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾ مما كنتم، والنفير جمع نفر، وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ

فَلَهَا ﴾ أي: إن الإحسان والإساءة مختصان بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم. وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه. ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ وعد العقوبة المرة الآخرة بعثناهم ﴿ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ أي: ليجعلوا آثار المساءة بادية فيها، ﴿ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ ﴾ بيت المقدس ونواحيه ﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾ أي: وليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه وهؤلاء هم الروم حاصروهم وافتتحوا بيت المقدس وأفحشوا في القتل والأسر والتحريق وخربوا البيت وأجلوهم إلى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد ويسمى الجلوة الكبرى، ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ ﴾ بعد المرة الأخرى ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ ﴾ نوبة أخرى ﴿ عُدْنَا ﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم وقد عادوا بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم بعد الثانية كما عادوا بعد الأولى بتكذيب عيسى فسلط الله عليهم الروم إذ ذاك، فهكذا هنا سلط عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم فقتل قريظة وأجلى بني النضير وقرر الجزية على الباقين، هذا لهم في الدنيا ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ محبساً لا يخرجون منه أو بساطاً كما يبسط الحصير. هذا ما كان من أمر التوراة ونتائجها في الأمة التي اتبعته، وهذا القرآن أنزلناه لأمم ستأتي وأنزلناه فيه حكماً أرقى مما في التوراة لأن العالم سائر إلى الأمام ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ للطريقة التي هي أقوم الطرق ﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ هذه هي القاعدة العامة في القرآن وفي كل دين. ثم أخذ يفصل ذلك، والتفصيل قسمان: قسم علمي، وقسم عملي.

فأما القسم العلمي فهو:

(١) أن يتثبت الإنسان ويتبصر في أموره.

(٢) ويعينه على ذلك اطلاعه على حساب الليل والنهار وعجائبهما، فإن الدقة في حركات الأفلاك وحسابها تعلم الإنسان الثبات والصبر والسير على النهج الأكمل في الحياة.

(٣) ومتى علم ذلك فليقرأ علوم النفس البشرية ونظامها فإنها ذات حساب، بل حساب أعمالها قائم فيها ثابت، وهو مخبوء في الدنيا لا تطلع عليه إلا بعد الموت، كما لا يطلع الناس على حساب الأفلاك إلا بدراستها والخلوص من الجهالة بالعلوم الرياضية، ويوم القيامة يقرأ كل إنسان كتابه بنفسه لأنه حاضر فيها.

(٤) وهكذا الدول والأمم، فإن لكل دولة نظامها في كيانها، ولو اطلعت عليه لأدركت سبب سقوطها، فهي متى غمست في الترف والنعيم هلكت وساء مصيرها، وذلك آت من نفسها وطباع أهلها فكأنه مكتوب في جبلتها يقرأ في صحائف نفوسها كما يقرأ الناس صحائف أعمالهم يوم القيامة.

(٥) وهذا قانون الأمم كلها متى طغت هلكت، فلا فرق بين الأمم التي بعد نوح وهم كثيرون وبين الأمم الآتين من دول الإسلام والشرق والغرب.

(٦) هذا قانون عام فمن قصر نظره على الأمور الوقتية نالها وحرم غيرها، ومن اتسعت بصيرته فأدرك الحقائق وعمل للمستقبل فاز به. هذا القسم العلمي وما تفرع منه.

وأما القسم العملي فهو ٢٥ نصيحة سيأتي ذكرها.

فهذه هي الطرق التي سنها الله في القرآن ليحترس علماء الإسلام مما وقع فيه اليهود من ضياع ملكهم وخراب ممالكهم، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾.

القسم العملي

الفصل الأول منه قوله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ﴾، فيدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولده كما يدعو لهم بالخير، ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ يتسرع إلى طلب ما يقع في قلبه ولا يتأنى، ومن هذا ما حصل من النضر بن الحارث قال: «اللهم إن كان هذا هو الحق الخ»، فإذا كانت هذه حال الإنسان فليس ينبغي أن نتركه وشأنه بل نرسل له الأنبياء ونعلمه ولا ندعه يسرع إلى أهوائه، فإذا كره البنات مثلاً جبرناه على تربيتهن وإلا فسد ملكنا وأمرناه بطريق الدين وبالشفقة المحرقة للأفئدة أن يحافظ عليهن فهذا من التسرع بلا فكر ولا روية. وإذا تنعم وشره وظلم سلطنا عليه من يهلكه لئلا يفسد في الأرض كما حصل لبني إسرائيل.

الفصل الثاني: فلنطلعكم على نظامنا وحسابنا؛ فعلم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة وما فوق ذلك من علم الفلك نلهمكم بقراءتها أبواب الخيرات والحكمة كما يقوله الحكماء، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ تدلان على قدرتنا وعلمنا وعلى نسقنا العجيب، ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: الآية التي هي الليل، أي: جعلناه ممحوّ الضوء مطموساً مظلماً لا يستبان فيه شيء، ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ مضيئة تبصر فيها الأشياء رؤية بينة، ﴿ لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ تطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ ﴾ باختلافهما وبحركاتهما ﴿ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ أي: وجنس الحساب. فكما كان الليل لنومكم والنهار لمعاشكم كان تعاقبهما لتعليمكم السنين والحساب. فالأول بالضوء والظلمة، والثاني بالحساب المبني على الحركات، فالضوء نعمة والظلمة نعمة والحركات الفلكية نعمة، فنعمة الضوء للأمور المحسوسات ونعمة الحركة تعم العقليات والحسيات، فنحن ما فرطنا فيما ينفعكم، ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ ﴾ تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم ﴿ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ فيما أبدعناه من النظام وما خلقناه من الأجرام العظام وحركاتها وإبداعها، ومن ذلك التفصيل التام ما فصلنا في النفس الإنسانية، فإنما هي صورة لما فصلناه في السماوات والأرض بل هي على طبقها.

الفصل الثالث: قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ ﴾ عمله ﴿ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ أي: إن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل للعنق، كما تقول: جعلت هذا في عنقك، أي: قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به، وإنما عبر بالطائر على عادة العرب أنهم كانوا يتشاءمون ويتيمنون بيروح الطائر وسنوحه، فاستعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى فكل امرئ قد ثبت في نفسه كأنه مكتوب فيها ما عمل من خير أو شرّ فأصبح كأنه مطبوع فيها لا يفارقها، ثم يكشف الغشاء عن الإنسان فيقرأ ما عمله ويجده حاضراً في نفسه فيسره أو يسوؤه ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩] لأنهم هكذا شأنهم وطباعهم واستعدادهم، فأصبحوا على مقتضاه فحزنوا أو فرحوا، ثم قال: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ أي: حال كونه غير مطوي عنه كما كان في الدنيا، ونقول له:

﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ ﴾ أي : كتاب أعمالك فيقرؤه ، ﴿ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ﴾ الباء زائدة ، أي : كفى نفسك ، و« حسيباً » : تمييز ، و« عليك » متعلق به ، أي : حاسباً عليك ، من قولك : حسب عليه كذا . وإذا كان المرء يرى أعماله مسطورة مكشوفة يطالعها فالأمر إذن واضح ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ ﴾ فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ ولا تحمل نفس حاملة وزرها وزر نفس أخرى ، بل إنما تحمل وزرها لأنه هو المسطور فيها والذي تطالعه والذنوب على مقدار العلم والمعرفة والقدرة ، فمن قصر فيما علم تنعم ، كما هي الحال في الدنيا . إن المرء ملزم بعمل ما يطيق وما يعلم ، فلا يجب على الباعة والتجار تعليم العلم ولا نظام الدولة ، بل كل ملزم بما علم واستعد له ، والأمم في الجاهلية لا شيء عليهم إذ لا علم لهم ، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ يبين الحجج ويمهد الشرائع . ولا جرم أن النفس الإنسانية التي سطر فيها أعمالها كما كتب في سجل الأفلاك حسابها ونهجت منهجها فيه على قاعدة : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ ﴾[الملك : ٣] حكم الواحد منها حكم جميعها . فما الأمم إلا أفراد مجتمعة ولها طباع وأحوال ، وقد كتب في سجلها ما كتب في سجل الأفراد من ذنوب وطاعات . وكما يعذب الأشخاص يوم القيامة وفي الدنيا ، هكذا تعذب الأمم متى طغت في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بجهنم ، وطغيان الأمم باتباع الشهوات والظلم والجور الذي ينجم عن التمتع والتنعم ، وهذا قوله في :

الفصل الرابع والخامس : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً ﴾ أي : وإذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قوم لإنفاذ قضائنا السابق عليهم ﴿ أَمَّرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾ أي : أكثرنا المنعمين فيها . يقال : أمرت الشيء وآمرته فأمر ، كفرح ، إذا أكثرته وذلك بأن نصبّ عليهم النعم فنبطرهم ونفضي بهم إلى الفسق كما حصل لبني إسرائيل فيما تقدم ، فلتحذر أمة الإسلام ذلك ، وهذا قوله تعالى ﴿ فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ أي : خرجوا عن طاعة أوامرنا ﴿ فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ ﴾ أي : فوجب عليها الوعيد كما جرى لبني إسرائيل إذا سلطت عليهم بختنصر أولاً ، ودولة الروم ثانياً فأخذوا إلى أصبهان وما والاها من البلدان أولاً وشتتوا في بلاد الروم وأخرجوا من ديارهم ثانياً ﴿ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ فأهلكناها إهلاكاً وليس ذلك خاصاً ببني إسرائيل المذكورين ، بل هذا قانون عام يعم الأمم السابقة واللاحقة ، وهذا قوله تعالى : ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ ﴾ بيان لكم ﴿ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ ﴾ كعاد وثمود وغيرهما ، وهذا الإهلاك بالسبب المتقدم وهو التنعم والترف فيكون الجبن من جهة والظلم من جهة أخرى ليسدوا جشعهم ، ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ وإن أخفوها في صدورهم ، فإذا نسوها فلم ننسها نحن ﴿ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾[المجادلة : ٦] فلذلك نعاقب في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بجهنم ، وذلك كله بحب الإنسان العاجلة وقصر نظره . فهذا هو الدرس الذي ألقاه الله لنا ليبين العجلة التي تحمل الإنسان على مطامع وقتية فيما تقدم إذ يدعو الإنسان بالشر كما يدعو بالخير ، ومثل ذلك في طلبه العاجلة بالتنعم ، فهو كما يطلب الشر بالدعاء فكلاهما تسرع وطلب للشيء قبل وقته ، وليس التنعم محط الآمال في الدنيا ، بل الدنيا محط التعليم والتهذيب . فإذا تعجل الناس واغتروا بما لديهم أهلكهم وأضاع دولهم وهذا هو الفصل السادس الآتي ، وقبل أن نبدأ فيه نختم هذا الفصل بما شاع من العثور على حضارة قديمة جداً يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦ وهو ما يأتي .

اكتشاف حضارة غابرة في أمريكا الوسطى

عاد إلى إنجلترا حديثاً من غابات أمريكا الوسطى ومفاوزها كل من المستر « متشل هدجس » و« اللايدي رتشمند براون » المستكشفان ، بعد أن قضيا عاماً هناك في البحث عن بقايا حضارة غابرة وقد لاقيا كثيراً من الصعاب وكشفا النقاب عن كثير من الأسرار . ولقد بدأت البعثة عملها بأن تلاشت في الفضاء الواسع المجهول بغية العثور على خرائب مدينة « مايا » القديمة في « لوبانتان » من « هندراس » البريطانية . ولقد مرت على البعثة المستكشفة أوقات أيقنوا فيها بفقدان الأمل ، ولكن عزم المستر « هدجس » وزميلته « لايدى براون » كان باعثاً على الاستمرار وعدم اليأس . ولقد كانت تخوض بهم خيولهم المستنقعات حتى رقابها خلال الغابات والأدغال .

واجتاز المستر « هدجس » وجماعته النهر يصحبهم المرشدون من الهنود ، وأخذوا طريقهم خلال الأدغال طويلاً حتى ظهر لهم فجأة هرم عظيم يبلغ ارتفاعه ثلاثمائة قدم . وهنا تأكدوا أنهم عثروا على شيء في غاية القدم كما أنه في منتهى الجدّة للعالم ، وكان ذلك هو أهرام « مايا » الكبير .

ولقد كانت « مايا » هذه تمثل أسمى نوع من أنواع الحضارات في القارّة الأمريكية . وفي اليوم التالي ظهر من الاكتشاف والبحث أنه كان هناك ما لا يقلّ عن ستة أهرامات على ساحة كبرى حجرية مساحتها ربع ميل مربع . وفي اليوم الثالث اكتشف أهراماً يبلغ ارتفاعه مائة وثمانياً وثلاثين قدماً وعرضه ست وثلاثون قدماً . ولما جردت الأدغال وجدت سلالم حجرية هائلة متدرجة يبلغ وزن الدرج الأسفل منها ما يقرب من طنين . ويقول المستر « هدجس » إنه على ثقة من أنه في وسط وشمال وجنوب أمريكا يوجد مفتاح لأسرار غامضة لو أنها تفتحت للعالم جلياً لسببت حيرة عامة في الأفكار العلمية لنظريات النشوء والارتقاء . انتهى .

ولنشرع في الفصل السادس وهو إتمام لتبيان ما تقدّم من أن الإنسان عجول ، فقال تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ مقصوراً همه عليها ، ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ بدل من « له » بإعادة الجار ، بدل البعض من الكل ، فالذين قصرت هممهم على العاجلة نعطي بعضهم بعض ما يطلبون ، وآخرون نحرمهم مما يطلبون جميعه ، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ مطروداً من رحمة الله ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أي : عمل لها عملها وحقها من السعي لكفاها من الأعمال الصالحة ، ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ مقبولاً عند الله .

فالقسم الأوّل إتمام لإيضاح : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾[الآية : ١١] .

والقسم الثاني من هذه الآيات في مقابله ، وهم المؤمنون ، ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ أي : كل واحد من الفريقين ، و« هؤلاء » بدل من كل ، والعطاء الرزق ، و« من » متعلق بـ« نمد » فلا نبخل على مطيع ولا عاص ، بل نزيدهم جميعاً من عطائنا ونجعل اللاحق منه مدداً للسابق ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ ممنوعاً عن عباده إن عصوا .

ولا ضير في ذلك فالإنسان العاصي أو الكافر لم يخرج عن حظيرة النعمة الحيوانية ، فليكن حيواناً كتلك التي ترتع في البوادي ، وإذا متعنا الحيوان وأكثرناه في الأرض وانضم فريق من الإنسان

إليه وصار في عداده فهل نبخل عليه؟ كلا. وهل عطاؤنا محظوراً؟ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ في الرزق والعمل، « كيف »: منصوب بـ« فضلنا » على الحال، فتشاهد أنهم درجات شتى ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أي: أن التفاوت في الآخرة أكبر مما تراه في الأخلاق والأرزاق والأعمال. انتهى القسم العملي.

القسم الثاني العلمي

لما فرغ من الكلام على القسم العملي من: نظر في السماوات والحساب والسنين، وأن كل شيء مفصل تفصيلاً، وأن كل إنسان قد سطرت في صحيفة عقله أعماله فهو يقرؤها متى قامت قيامته بموته وبالقيامة الكبرى وانحل بدنه، وهكذا الأمم كالأفراد يطبع على أفرادها طبائع الكسل والشره والظلم والترف فنهلكها وذلك لقصر نظرهم واتباعهم أمر العاجلة والحياة الفانية، فألق نظرك لمن حولك من الناس تجدهم درجات كثيرة، والآخرة أوسع نطاقاً وأكثر مراتب. فلما فرغ من هذا شرع يبين القسم العلمي وهو ٢٥ نوعاً، وقليل فيه عملي كالنوع الأول وهذه الأنواع هي:

(١) عدم الشرك اعتقاداً. (٢) وعبادة الله. (٣) النهي عن عبادة غيره. (٤) الإحسان للوالدين وجوباً. (٥) وهذا الإحسان يوجب أن لا يقول لهما أفّ. (٦) ولا ينهرهما. (٧) وأن يقول لهما قولاً كريماً. (٨) وأن يخفض لهما جناح الذل تواضعاً. (٩) وأن يدعو لهما بالرحمة. (١٠) وأن يؤتي ذا القربى حقه. (١١) والمسكين. (١٢) وابن السبيل. (١٣) وأن لا يبذر. (١٤) وأن يقول لمن لم يجد مالاً يعطيه قولاً ميسوراً. (١٥) وأن لا يجعل اليد مغلولة إلى العنق فيقبضها، وأن لا يبسطها كل البسط. وقد جعل هذا داخلاً في الخامس عشر، والأولى أن يجعل قسماً مستقلاً ويكون هو الخامس عشر، ويكون الثاني والثالث واحداً وهو أن لا تعبدوا إلا إياه، فقد جعل ذلك اثنين. (١٦) ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق. (١٧) ولا تقتلوا النفس. (١٨) ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً. (١٩) فلا يسرف في القتل. (٢٠) وأوفوا بالعهد. (٢١) وأوفوا الكيل. (٢٢) وزنوا بالقسطاس المستقيم. (٢٣) ولا تقف ما ليس لك به علم. (٢٤) ولا تمش في الأرض مرحاً. (٢٥) لا تجعل مع الله إلهاً آخر. ولنرجع إلى بقية التفسير اللفظي فنقول:

قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أيها الإنسان ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ فتصير ﴿ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ يذمك الملائكة والمؤمنون ويخذلك الله تعالى، ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ أمر أمراً مقطوعاً به بأن لا تعبدوا ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ وَ ﴾ بأن تحسنوا ﴿ بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ أي: براً بهما وعطفاً عليهما، ولفظ الإحسان قد يوصل بحرف « الباء » تارة وبحرف « إلى » تارة أخرى، وكذا الإساءة تقول: أحسنت به وإليه وأسأت به وإليه، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ ﴾[يوسف: ١٠٠]، وقال الشاعر:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلت

وقال تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ أي: إن يبلغن، و« ما » زائدة للتأكيد ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ أي: فلا تتضجر مما يستقذر منهما ولا تستثقل من مؤنتهما، و« أف »: اسم فعل الضجر، وهو مثلث الآخر منوناً وغير منون على اختلاف القراءات ففيه ست قراءات، ﴿ وَلَا

﴿ تَنْهَرْهُمَا ﴾ تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك، ونهره وانتهره بمعنى ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ حسناً جميلاً كما يقتضيه حسن الأدب معهما ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ تذلل لهما وتواضع، وقد جعل للذل جناحاً، وأراد جناحه هو، أي: اخفض جناحك، كقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الحجر: ٨٨] وأضيف إلى الذل للمبالغة، كما أضيف حاتم إلى الجود، أي: واخفض لهما جناحك الذليل ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ من فرط رحمتك وشفقتك ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾ وادع الله لهما أن يرحمهما برحمته الباقية فإن رحمتك الفانية لا تكفيهما، ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ أي: رحمة مثل رحمتهما لي وتربيتهما وإرشادهما حين كنت صغيراً. روي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن أبويّ بلغا من الكبر وإني ألي منهما ما وليا مني في الصغر، فهل قضيتهما حقهما؟ قال: لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما »، ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ﴾ من بر الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير وعدم عقوقهما، ﴿ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ ﴾ مطيعين قاصدين البرّ بعد تقصير كان منكم أو بعد ما فرط منكم في حال غضب فاستغفرتم من ذلك فإن الله يغفر لكم ﴿ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ ﴾ التوابين ﴿ غَفُورًا ﴾. قال سعيد بن جبير: هو لرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ بها ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبرّ بهم ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ ولا تسرف إسرافاً وذلك بصرف المال فيما لا ينبغي وأصل التبذير: التفريق ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ أمثالهم في الشرّ، وذلك غاية المذمة، أو يقال: إنهم من حيث إنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ شديد الكفر فكيف يطيعونه؟ ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾ أي: وإن أعرضت عن ذوي القربى والمسكين وابن السبيل وأنت تستحي أن تردّ عليهم ﴿ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ لانتظار فرج من الله ترجوه أن يأتيك ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ أي: فقل لهم قولاً ليناً جميلاً، أي عدهم وعداً طيباً تطيب به قلوبهم ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ هذا أمر بالتوسط الذي هو الكرم، فلا يكون الإنسان شحيحاً ولا مسرفاً وخير الأمور الوسط ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾ على الشحّ بجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴿ مَّحْسُورًا ﴾ منقطعاً بك لا شيء عندك، من: حسره السفر، إذا بلغ منه، فالأول للبخل والثاني للتبذير. ذكر المفسرون عن جابر رضي الله عنه قال: « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبي فقال: أمي تستكسيك درعاً. فقال صلى الله عليه وسلم: من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا. فذهب إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه للصبي وقعد بلا لباس، وأذن بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج فأنزل الله ذلك »، ثم تلاه بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يقتر ويضيق لمصلحة العباد فليس الإرهاق بالإضافة لشيء سوى مصالح العباد ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا ﴾ بمصالحهم ﴿ بَصِيرًا ﴾ بحوائجهم فيقضيها، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ أي: لا تئدوا بناتكم ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ خيفة فقر ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ نهى عن القتل وضمن الرزق ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي: إثماً عظيماً. الخطء والخطأ كالحذر

والحذر، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدّمات فضلاً عن فعله ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ فعلة ظاهرة القبح ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ وبئس طريقاً طريقه ففيه قطع الأنساب وتهييج الفتنة، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ وذلك في ثلاث كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم عمداً، ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ أي: لم يستوجب القتل ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ ﴾ للذي يلي أمره بعد وفاته، وهو الوارث ﴿ سُلْطَٰنًا ﴾ تسلطاً فإن شاء أخذ الدية، وإن شاء استفاد منه، وإذا اختار القود ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ﴾ بأن يقتل غير القاتل من أشراف قومه أو يقتل جماعة منهم أو يمثل بالقاتل كما كان ذلك في الجاهلية ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ والضمير للولي فإن الله نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاة بمعونته، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ وإذا كان قربه منهياً عليه فكيف يكون التصرف فيه، ﴿ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي: إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي حفظه والقيام عليه وتنميته ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ مطلوباً فعلى المعاهد ألا يضيعه ويفي به ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ ولا تبخسوه ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي: بالميزان السويّ، و«القسطاس»: القبان، وهو عربي من القسط ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي: أحسن عاقبة، من: آل، إذا رجع، وهو ما يؤول إليه أمره ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي: ولا تتبع ذلك، فلا تقل: رأيت، ولم تر، ولا سمعت ولم تسمع، ولا علمت ولم تعلم، ولا تقل في أحد ما ليس لك به علم ولا تتبعه ولا تتكلم فيه بالحدس والظنّ. ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ أي: كان كل واحد منها مسؤولاً عن نفسه فيقال له: ما فعل بك صاحبك؟ كما في آية: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٨-٩] فتشهد على القاتل وهذه الأعضاء تشهد على صاحبها ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: ذا مرح، أي: ذا بطر وكبر وخيلاء ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها ﴿ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ أي: لا تقدر أن تطاول الجبال وتسويها بكبرك، فمن أنت أيها المتكبر المختال البطر؟

* أطرق كرا إنّ النعام في القرى *

عن عليّ رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صبب». ومعنى التكفؤ: التمايل في المشي إلى قدّام، ومعنى ينحط من صبب، أي: ينحدر من موضع عال وهو قريب من التكفؤ. وعن أبي هريرة رضي الله عنه «ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث» والاكتراث: الأمر الذي يشق على الإنسان ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أي: الإشارة إلى الخصال الخمس والعشرين المتقدّمة وسيئها ما نهى عنه فيها. أما المأمورات فليست بسيئة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة للأحكام المتقدّمة ﴿ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ وهي معرفة الحق والخير، فالأول لذاته والثاني للعمل له، أي: الحكمة العلمية والحكمة العملية، وأكثرها من النوع الثاني. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ لائماً نفسك مبعداً من رحمة الله، وقد بدأ بالتوحيد وختم

به للمبالغة في الحضّ عليه، إذ لا تتمّ تلك الصفات إلا به. ثم خاطب من قالوا: الملائكة بنات الله، فقال ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾ بناتاً لنفسه ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ إذ تضيفون الأولاد إليه.

إن المقاصد السابقة عظيمة الوقع بديعة النظم تربو على ما في التوراة من الوصايا العشر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات وهي الوصايا الخمسة والعشرون مكتوبة في ألواح موسى عليه السلام وهذا حق، ولكن هذه تعلو عليها لأن أهمّ ما في الألواح الوصايا العشر وهي: «لا تسرق لا تزن الخ»، وهذه أفضل منها، وقد جاء قبلها بآيات: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء: ٩].

فلما أتم القسم العلمي والقسم العملي قال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ عسى ألا يكونوا كبني إسرائيل إذ جاء لهم موسى بالتوراة فعتوا فأبيدت دولتهم، فالتكرار هنا لهذه الفائدة ليشدد على الناس أن لا يتهاونوا، قال تعالى: ومع ذلك يزدادون نفوراً ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ عن الحق ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ أو تقولون أيها المشركون ﴿ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ أي: لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة كما تفعل الملوك بعضهم مع بعض، و«إذن» تدل على أن ما بعدها جواب لـ«لو» قبلها ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ ينزه تنزيهاً ﴿ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا ﴾ تعالياً ﴿ كَبِيرًا ﴾ تباعداً غاية البعد، وهذا رجوع لأول السورة، فهناك تنزيه له عن أن يكون كالحوادث كما سأوضحه، وهنا يقول: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ فإنه في أعلى المراتب، وكيف يكون له شركاء وقد نزهه عن ذلك السماوات والأرض ومن فيهن. فكل هذه ناطقات بلسان الحال أنه لا إله إلا هو ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أنزل العوالم منزلة العقلاء، أو تغليباً، وعلى الأول يكون ذلك لأن دلالتها مفهمة كما يفهم عن العقلاء، يقول: أنتم أيها الكفار لا تفقهون تسبيح هذه المخلوقات، أي: لقصر عقولكم واختلال آرائكم، ولكنه لا يعجل عليكم بالعقوبة ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا ﴾ إذ لم يعاجلكم بالعقوبة على الفعلة التي أوجبت إشراككم ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب منكم. فهؤلاء حجبت عقولهم عن فهم ما في السماوات والأرض وتسبيحهما كما حجبت عقولهم عن فهم القرآن حين تتلوه عليهم ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا ﴾ عن فهم ما تقرؤه ﴿ مَّسْتُورًا ﴾ بحجاب آخر فهم لا يفهمون ولا يفهمون أنهم لا يفهمون ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ كراهة ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ثقلاً يمنع من الاستماع، وإذن لا يعقلون اللفظ كما لم يفهموا المعنى.

ثم بين ما هو كالسبب في ذلك، فقال: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ ﴾ أي: حال كونه واحداً غير مشفوع به آلهتهم ﴿ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ حال كونهم نافرين جمع نافر، كقعود جمع قاعد أو هرباً من الاستماع ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ أي: بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن، ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ ظرف لـ«أعلم» ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ ظرف آخر له، أي: ذوو نجوى فبعضهم يقول مجنون، وبعضهم يقول كاهن، وبعضهم يقول ساحر، اذكر ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا

﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ سحر فجن ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ مثلوك بالشاعر وبالساحر وبالمجنون ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب طريقاً يسلكه في التيه فلا يقدر عليه فهو متحير ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ أجزاء مفتتة ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وكيف تقترب حال الحي الغض من حال الرميم اليابس. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة.

وفي هذا المقام لطائف:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾[الآية:١] الخ، ومناسبة هذه السورة لما قبلها.

اللطيفة الثانية: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الآية:٢] وفيها بيان دعوة موسى لقومه في التوراة ونتائجها ودعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المذكورة في آخر «النحل» وكيف يجب أن تكون.

اللطيفة الثالثة: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾[الآية:٤] الخ.

اللطيفة الرابعة: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الآية:٩].

اللطيفة الخامسة: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾[الآية:١١] الخ.

اللطيفة السادسة: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾[الآية:١٢] إلى قوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا﴾[الآية:١٢].

اللطيفة السابعة: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[الآية:١٣] إلى قوله: ﴿حَسِيبًا﴾[الآية:١٤].

اللطيفة الثامنة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الآية:١٥]، وكيف جاء بعدها: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾[الآية:١٦]، إلى قوله: ﴿بَصِيرًا﴾[الآية:١٧]، وما القصد بهذا التعقيب.

اللطيفة التاسعة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾[الآية:١٨] إلى قوله: ﴿تَفْضِيلًا﴾[الآية:٢١].

اللطيفة العاشرة: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾[الآية:٢٣] الخ.

اللطيفة الحادية عشرة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الآية:٣٦].

اللطيفة الثانية عشرة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[الآية:٤٤] الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ الخ

اعلم أن هذه السورة متصلة بما قبلها، جارية على نسقها، منتظمة معها في سلك، فإنه أفاض في سورة «الحجر» وفي سورة «النحل» في شرح النظام العام في هذا العالم، فانتظمه أولاً من مبدأ الخليقة سائراً إلى نهايتها، ومن أبسط المخلوقات إلى أرقى الموجودات، وذلك في سورة «الحجر»، ثم كرّ راجعاً إلى نفس السلسلة فابتدأها من أعلاها إلى أدناها، وأخذ ثالثاً يذكرها بطريق وسط بحيث كان الإنسان الذي جاء في أولها تارة وفي آخرها أخرى قد جاء وسطاً في نظامها كما قدمنا، ليكون حاكماً على هذه العجائب عالماً متوسطاً مطلعاً على طرفيها ووسطها.

ولما فرغ من ذلك شرع يلقي الحكم والنصائح والعدل الذي شرحناه، ونظام الأمم الذي بيناه وسنّ القانون، وأعلم الجماهير أن العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وغيرها هي الموجبات للحياة والسعادة. ثم أتم السورة السابقة بذكر إبراهيم وما له من الخلال الشريفة والخصال الحميدة.

وقد قلنا إنه اتصف بأربعين صفة قدمناها في سورة «البقرة» نقلاً عن المفسرين، فهو للفلك ناظر، وللطبيعة دارس، وللفضل غارس، وللعلم حارس، والله عابد، وللناس هاد ومرشد، وهو على صراط مستقيم، وهو أمة واحدة. أتبعه بذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه على قدمه، فيكون أيضاً جامعاً للصفات الحميدة. وختم السورة بهيئة الدعوة التي يقوم بها حتى يكون على قدم إبراهيم عليه السلام ويكون ذخراً للآخرين، فأمره أن يسلك سبيل الحكمة مع الخواص والموعظة مع العوام والمجادلة مع المعاندين، وكل ذلك تجلى في سورة «النحل»، وانتهت السورة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وإذا لم يكن الأنبياء محسنين، فمن هم المحسنون؟ فإذن هو صلى الله عليه وسلم أول المحسنين، فهو مع الله والله معه، فوجب أن تكون السورة بعدها مبتدئة بما يفيد معنى المعية، وهل هي جسمية أم هي معنوية، فلذلك قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

يقول الله تعالى: إن إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام قد عرجا إلى سماء الجمال ومقام الكمال، وبلغا مبلغاً لم يبلغه أعاظم الرجال، فليس ذلك مفيداً أنهما هما وسائر الأنبياء مع الله معية حقيقية فإن الله منزّه عن المخلوق متعال عن الحدثين، فإن الله تعالى وإن أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فليس معناه المعية المعهودة بينكم. فقرب الأنبياء وقرب الأولياء قرب الهداية والإرشاد والارتقاء العلمي ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] ويطلع على عجائبنا ويقف على ما حواه العالم العلوي والسفلي مما يرفع الغشاوة عن أعين أمته ويخرجها من ظلمتها وينير بصيرتها. فانظر رواية البخاري في ذلك، وهي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، وذكر كلاماً في ذلك، ثم أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل. وهنا ذكر كيف شق ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه. وذكر أن الطست من ذهب فيه إناء من ذهب محشوّ إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديده ـ يعني عروق حلقه ـ ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا، وهنا ذكر سؤال أهل السماء عنه وقول جبريل: معي محمد، فيقولون: وقد بعث إليه؟ فيقول: نعم، فيقولون: مرحباً وأهلاً به، وذكر مقابلته في السماء الدنيا لآدم، وأن هناك نهرين وأن جبريل قال: هما النيل والفرات عنصرهما، ثم رأى نهراً آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك، فلما سأل جبريل قال: هذا الكوثر الذي خبأه لك ربك، وهكذا، وأن هناك في السماء الدنيا عن يمين آدم أسودة وعن شماله أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، وقال له جبريل: إن الأسودة عن اليمين وعن الشمال، قسم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة وأهل الشمال أهل النار. ووجد في السماء الثانية يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة فسلم عليهما ورداً عليه ورحبا به. ووجد في السماء الثالثة يوسف. وفي السماء الرابعة إدريس. وفي الخامسة هارون. وفي السماء السادسة موسى، وقد بكى فسأله صلى الله عليه وسلم، فقال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخلُ الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي. وفي السماء السابعة وجد إبراهيم، ثم رفع إلى سدرة

المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها مثل آذان الفيلة. قال جبريل: هذه سدرة المنتهى، فإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، وأخبره جبريل أن الظاهرين النيل والفرات، وأن الباطنين نهران في الجنة، ثم رفع إلى البيت المعمور، وأتي له بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك، وهنا ذكر مسألة الصلاة وفرضها وأنها كانت خمسين صلاة، ثم راجع ربه بإشارة موسى عليه السلام حتى صارت خمساً في اليوم والليلة.

وقد جاء في رواية مسلم في وصف البيت المعمور: أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. وفي وصف سدرة المنتهى: أنها لما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، وسميت سدرة المنتهى بهذا الاسم لأن علم الملائكة ينتهي بها.

وقد جاء في روايات أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال: «مثل لي النبيّون عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم، ثم خرج إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشاً، فتعجبوا منه وارتدّ ناس ممن آمن به وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: إن كان قال لقد صدق، فقالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك، فسمي الصدّيق، وكان في القوم من أتى المسجد الأقصى قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ فنعته لهم وكان ينظر إليه كأنه وضع دون دار عقيل، قال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه، ثم سألوه عن عيرهم، فقال: مررت بعير بني فلان وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيراً وهم في طلبه وفي رحالهم قدح ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان، فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا. ثم قال: ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان ما كان قعوداً لهما بذي مر، فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده، فسلوهما، فسألوه عن عيرهم فوصفها وصفاً تاماً ووصف أحمالها، وقال: يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس، ثم خرجوا عند الثنية حتى أتوا كداء فرأوا العير عند طلوع الشمس يقدمها بعير أورق، فقالوا: هذا سحر. ولما ذكر الأنبياء في الصلاة ذكر أن موسى كأنه من رجال شنوءة، وأن عيسى كعروة بن مسعود الثقفي، وإبراهيم يشبه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: إنه رأى مالكاً خازن النار، وكانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم مع الأنبياء في بيت المقدس، وقد جاء أيضاً أن البراق دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض وهو يضع خطوه عند أقصى طرفه، وهو الذي انطلق به إلى السماء». وهل كان ذلك كله قبل الهجرة بسنة؟ وهل كان في المنام أو كان في اليقظة؟ بروحه أو بجسده؟.

والأكثر على أنه أسري به بجسده إلى البيت المقدس، ثم عرج به إلى السماوات حتى انتهى إلى سدرة المنتهى. ولم يرد في هذه السورة عروجه إلى السماء، وإنما ذكر الإسراء فقط إلى المسجد الأقصى. أما العروج فلم يذكر إلا في الحديث. وأقرب الأمرين إلى الناس الإسراء إلى المسجد الأقصى ولذلك امتحنوه بعلامات تدل على الصدق، فلذلك صرح بها في القرآن وجعلت قبل عروجه إلى السماء، ليكون المحسوس دليلاً على ما لا يحس، وإذا صدق في الأولى فليصدق في الآخرة. هاأنا ذا أيها الذكي قد لخصت لك ما جاء في الروايات المختلفة وآراء العلماء المتناقضة حتى تكون أمامك واضحة جلية بأخصر عبارة.

إيضاح المقام

إن هذه الأمور الغائبة عنا لا تحل بالفكر الإنساني وحده، فإن عقولنا قاصرة على ما حولنا فأنى لنا أن ندرك تلك العجائب النبوية، ولكن ورد قوله تعالى في التنزيل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] وهانحن أولاء الآن علماء الأرواح يقولون ما يأتي:

إن هذه الأجسام البشرية في الدنيا تنظمها أرواحها وكل جسم يربى فيه جسم آخر على مثاله نوراني أثيري، أي: من مادية أثيرية، وهذا الجسم الأثيري البرزخي منطبق تمام الانطباق على هذا الجسم المادي، وأن الإنسان إذا تجرد من هذا الجسم سواء كان التجرد بالموت أم بالرياضة أم بأعمال أخر صناعية عندهم يرى أنه في جسمه كأنه هو وكأنه لم يكن هناك فرق بين الجسمين. وقد ألفوا كتباً كثيرة في هذا، حتى قالوا: إن بعض الناس بعد الموت يظن أنه هو الذي كان حياً ولا يعرف أنه مات لأحوال خاصة، ثم ينبه بعد ذلك إلى خطئه.

وهذه حكاية «أوليفر لودج» وابنه الذي مات في الحرب الألمانية وهو المسمى «ريموند» إذ قال لأبيه: يا أبت إن أجسامنا هنا كالأجسام عندكم، والأعضاء كلها تامة، ولكنها أجسام من عالم لطيف ونراها بحسب مشاهدتنا كالأجسام عندكم. إذا عرفت هذا فسواء أكان الإسراء بالجسم المادي أو بذلك الجسم الأثيري اللطيف فليس أمراً بعيداً وكلاهما في القدرة. فأما الجسم المادي فإن حركات الأفلاك أظهرت عجباً في سرعة سيرها تعرفها في سابق التفسير، والمطلع على سير الضوء يرى عجباً عجاباً. هكذا إذا قلنا: إن المعراج والإسراء بالجسد البرزخي، فلا بدع في ذلك، فيسير في أقل من لمح البصر كلمع البرق إلى أقصى العالم، ويرجع وقد وعى ما لا يتناهى من الحوادث، وهذا عالم البرزخ المسمى عند علمائنا «عالم المثال»، وهكذا عند أفلاطون، فهذا العالم هو الذي تمثلت فيه الأنبياء فعلاً وصلوا معهم، ثم رآهم على مراتبهم في السماء. وإذا كان الإنسان قد يرى في المنام الذي لا قيمة له أعمالاً تستغرق سنين في ثانية واحدة فما بالك بعالم البرزخ الذي تتجلى فيه صورة الحقائق بارزة لمن هم في حال برزخية. وهناك تجلى له آدم وعيسى وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم، وكان أقرب الناس شبهاً به.

أولست ترى أن في ذكر إبراهيم وشبهه به مناسبة، فإنه قد ذكر في آخر سورة «النحل» أن محمداً صلى الله عليه وسلم أمر أن يتبع ملة إبراهيم، فلذلك رآه في السماء السابعة وقال: إنه يشبهه. ومتى قلنا: إن الإسراء والمعراج بهذه الحالة البرزخية كانت جميع الأقوال المتناقضة متحدة. فإذا قالت السيدة عائشة: إنه كان بروحه، قلنا: صدقت لأن هذه الحالة ليست جسمية بحتة. وإذا قال غيرها إنه بجسمه، قلنا: نعم، إذ لا فرق عند علماء الأرواح بين الجسم البرزخي والجسم المادي. فالجسم البرزخي ويسمى الأثيري وسط بين عالم الأرواح الصرف وبين عالم المادة؛ فمن قال: بالروح فقد اقترب من الحقيقة، ومن قال: بالجسم، فقد اقترب منها، لأنها حال متوسطة وسرعتها أشبه بسرعة المنام، وصورتها أشبه بصورة الجسد، فهو جسد كالمادة يطير أسرع من البرق، بل سرعته كسرعة الخاطر، وترى أحدنا يجلس في حجرته ويكون في الشرق بفكره ثم يكون في الغرب في أسرع من لمح البصر فهذه في فكرنا كالحال المعتادة هناك عملاً. ويقول علماء الأرواح: إن الروح وراء ذلك الجسم

البرزخي، بل قد جعلوا درجات الأجسام سبعة، والروح وراء ذلك في عالم يجل عن الوصف، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]، وإنما ذكرت هذا لأفتح باب البحث لذوي النفوس الشريفة من بعدنا ليفكروا وليعلموا بأنفسهم.

ما القصد من ذكر الإسراء لنا؟

وليعلموا أن الله لم ينزل الإسراء في القرآن وهو يتلى علينا للآن لمجرد التلاوة أو لمعرفة حال الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب. كلا. إنه يريد منا أن نتبع الدين والشريعة ونخلص وندعو الناس كما دعا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله له: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقد قال هذا في وسط السورة وأمره أن يتهجد بالليل نافلة لأجل ذلك. ففي أول السورة ذكر أنه أسري به، وفي أواخرها أفاد أنه يبعث مقاما محموداً بالتهجد، وذكر أن الروح من أمر ربنا وأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا. وعليه يكون ذكر ذلك في هذه السورة ليدلنا على أن الإسراء أمر وراء معارفنا، وإذا عثرنا على شيء مثل ما بينته لك عن الفرنجة، فإن هذا ليس كل شيء لأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا. ولكن جاء في سورة «طه»: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه: ١١٤]، فازدياد العلم مطلوب، ولكن لا نقف عند حد واحد لئلا نكون مقلدين، بل نظل مجدّين في البحث والطلب لأنه قال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٦]، وعليه فلنجدّ في تهذيب النفوس وهداية الناس والنوافل في ظلمات الليالي حتى تصفو النفوس، وإذا أسري به صلى الله عليه وسلم فليس القصد أن يسري بنا، بل القصد أن تصفو نفوسنا ليرينا الله من آياته، وكم لله من آيات، فالقصد من أمثال هذا الموضوع في القرآن أن يفتح لنا باب التفكر في عالم الأرواح، فنفهم كيف تخلص أرواحنا بالتهذيب، وكيف نلحق بالأفق الأعلى وما حقيقة الأرواح، وإذا لم نقف على حقائقها فلنلتمس من العلوم ما يشم منه رائحتها، وهذا لعمرك هو علم الأرواح الذي انتشر في الأقطار الأوروبية. وهذا العلم لا يفترق عن العلوم التي ورثناها عن قدمائنا في مثل هذا الموضوع.

إن الناس كلهم أرواح من عالم أعلى، وبالتصفية وبطرق صناعية يرون هذا العالم وهناك تعرف بعض حقائقه، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور: ٤٦]. ومما يلحق بهذا الموضوع ما رواه البخاري في باب تعبير الرؤيا، وهو وإن لم يكن ليلة الإسراء فإنه فيه معارف وعلوم لا يعرف قيمتها إلا المطلعون على علوم الحكماء، فإنه عليه الصلاة والسلام أطلع في عالم البرزخ المذكور على صور للحقائق، تعب في مثلها الفلاسفة قديماً، وأضاعوا فيها أعمارهم كلوحة «قابس» الفيلسوف اليوناني الذي ذكرنا مقالته في سورة «البقرة»، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكتب ولم يقرأ وأطلع على صور عجيبة تمثل الرذيلة والفضيلة، وهذه من دلائل النبوة ومن بحر قوله تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الإسراء: ١]، فبإذا رأى ليلة المعراج آدم يضحك تارة ويبكي أخرى فإنه من ذلك العالم، فهكذا في الحديث الآتي إذ روى البخاري بسنده عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قال: فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر

قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى، قال: قلت لهما: سبحان الله ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه.

وفي رواية: فيشق ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به ما فعل المرة الأولى. قال: قلت: سبحان الله ما هذان؟ قالا: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: فأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا، قال: قلت لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر فاه فيلقمه حجراً، فينطلق يسبح ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فغر فاه فألقمه حجراً، قال: قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مرآة وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها، قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل نور الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا، ما هؤلاء؟ قال: قالا: انطلق انطلق، فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن، قال: قالا لي: ارقَ فيها، قال فارتقينا فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجال، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قال: قالا لي: هذه جنة عدن وهذاك منزلك، قال: فسما بصري صعداً فإذا قصر مثل الربابة البيضاء، قال: قالا لي: هذاك منزلك، قال: قلت لهما: بارك الله فيكما ذراني فأدخله قالا: أما الآن فلا وأنت داخله، قال: قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجباً فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك، أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة. وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق. وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني. وأما الرجل الذي أتيت عليه الذي يسبح في النهر ويلقم الحجر فإنه آكل الربا. وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم. وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة، قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأولاد المشركين. وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسناً وشطر منهم قبيحاً فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم. اهـ.

اللطيفة الثانية في قوله تعالى:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

وفيها بيان أن الإسراء يشير إلى الارتقاء في عالم الإنسانية

وإلى أن الأمة الإسلامية الحقيقية تسبق الأمم في علومها

وأنها تؤمها كلها بعد أن تستوعب فضائلها

اعلم أن ذكر موسى في هذا المقام وذكر إبراهيم قبله في آخر سورة «النحل» له صلة بحديث الإسراء، فالقرب بينه وبين إبراهيم في السنة وفي القدوة وفي دين الفطرة هي التي جعلت درجته في السماء السابعة، والنبي صلى الله عليه وسلم قد ارتقى فوق ذلك للإشارة إلى أن اللاحق يتقدم على السابق، وأيضاً هذه الأحاديث تشير إلى ارتقاء العالم الإنساني وأن الأمة الإسلامية المستقبلة ستمر على هذه الأمم أمة أمة، ثم تطير إلى المعالي ولا تقف عند حد ولا تقلد بل تفكر، وإذن تطير إلى سماء المجد، كما أن نبينا صلى الله عليه وسلم مر على آدم، فعيسى ويحيى فيوسف فإدريس فهارون فموسى فإبراهيم، فارتقى إلى سدرة المنتهى فالبيت المعمور. وفي رواية أنه سمع صريف الأقلام.

فالذي يشار به إلينا من هذا أمران: ارتقاء المسلمين في عقولهم حتى يصلوا إلى الحقائق. وارتقاؤهم في مدنيتهم ونظامهم حتى يسبقوا أمة عيسى وموسى وإبراهيم وإدريس. هذا هو القصد وهذا يشبه النشوء والارتقاء. وإذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صلى إماماً للأنبياء فمعناه أننا خير أمة أخرجت للناس وأننا أئمة الأمم كلها. فيا عجباً للمسلمين يكون هذا دينهم وهذا نبيهم ثم ينامون وتدوسهم الأمم. يمر نبينا على أنبياء الأمم أمة أمة ثم يغادر عيسى في السماء الثانية ويوسف في الثالثة وإدريس في الرابعة وهكذا، ثم ينام المسلمون عن هذا كله، يمر على الأنبياء حتى يتركهم ويصل إلى مستوى فوق السبع الطباق، والمسلمون يسمعون هذا الكلام كأنهم لا يعلمون. ولكن بعد ظهور هذا الكتاب سيظهر في هذه الأمة رجال يعقلون ويعملون فيعرفون ما الحكمة في هذا الارتقاء ولم يخبرنا الله به. نحن لسنا نفرح كالعامة أن نبينا ارتقى، بل نحن يجب أن نعمل، يقول لنا نبينا صلى الله عليه وسلم: أيها المسلمون، هاأنا ذا ذاهب إلى المعالي، وقد سموت وعلوت وتركت موسى في السماء السادسة وإبراهيم في السماء السابعة، وها هو ذا إبراهيم مذكور في آخر سورة «النحل» وقد أمرت أن أكون تابعاً له، ولكني سأرقى عليه، وهذا الرقيّ معناه أن الأمم في ارتقاء كما هي القاعدة التي تفتخر بها أوروبا عليكم. فأما موسى فها هو ذا يقول لي: راجع ربك يخفف عن أمتك ظاناً أن أمتي كبني إسرائيل يصيبها ما أصابهم، ولكن لما وصلت إلى خمس صلوات لم أراجع ربي، ولكن موسى طلب مني أن تنقص الصلوات عن خمس، لماذا؟ لأن أمته ضعفت في العمل ولكني أنا لا أقول ذلك. وعليه هذه الأمة ستكون أرقى من أمة موسى.

إن الحديث يشير إلى الآية لأن فيها أن موسى آتيناه الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ثم قص قصصهم فكانوا مثلاً سوءاً، وأتبعه بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، فهو

إذن أحسن من التوراة وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أحسن من أمة موسى عليه السلام، فلتدرس أمة الإسلام علوم الأمم، فإذا مر على عيسى فليدرس المسلمون علوم النصارى، وإذا مر على يوسف وإدريس فليدرس المسلمون علوم قدماء المصريين لأنهما نبيان مصريان. وإذا مر على هارون وموسى فليدرس المسلمون علوم اليهود. وإذا مر على إبراهيم فليدرس المسلمون علوم سائر الملل لأن إبراهيم لهم. وإذا جاوز النبي صلى الله عليه وسلم السماوات السبع فليدرس المسلمون الحقائق التي لا تطيقها الأمم. فإذن هذه النبوة سيظهر أثرها في أمم آتية لا هذه الأمة الحالية.

بهجة الإسراء في حديث:

«فرض الله على أمتي خمسين صلاة فراجعت ربّي وسألته التخفيف حتى جعلها خمساً في العدد وخمسين في الأجر»

اعلم أن هذا المقام غزير الفائدة جمّ العائدة كثير المزايا جامع الحكم سار لمجموع الأمة الإسلامية، يظهر سره في هذا الزمان. ذلك أن كلام النبوة لم يكن رمية من غير رام، ولم يكن ذكر الخمسين ثم إرجاعها إلى الخمس مجرد خبر لا نتيجة له، بل ذلك إشارة إلى أن الله عز وجل هو الأول وهو أصل الوجود، وجميع الناس على الأرض لا فائدة من وجودهم ولا معنى لحياتهم إلا إذا اتصلوا بأصل وجودهم ومنشأ حياتهم. وليس معنى هذا الاتصال تلاصق الأجسام، إذ لا جسم له تعالى وإنما هو توجه أرواحهم إلى روح الأرواح وهو الله عز وجل.

إن الناس في الدنيا أرواح حالة في أجسام، فالأجسام متصلة دائماً بالطين والهواء والماء والحرارة والضوء، فكان يجب أن تلتجئ الأرواح دائماً إلى مبدئها ومبدعها وتفكر فيه وتذكره. ولكن الحياة الدنيا لشدة اتصالها بعالم المادة لا تسمح لكل امرئ أن يكون على الدوام ذاكراً ربه، فهاهنا أمران: الأول أن الروح يجب ذكرها لله على الدوام. الثاني أن تعلقها بالمادة يمنعها من ذلك الدوام لشدة ارتباطها بها، وللأول الإشارة بفرض الخمسين صلاة لأن الإنسان ينام ثمان ساعات أو سبع ساعات ومدة اليقظة ما بين ١٦ و١٧ ساعة والصلاة المشروعة ربما تستغرق (٢٠) دقيقة مع مقدماتها ونوافلها وهذه بضربها في (٥٠) تستغرق مدة اليقظة. إذن معنى الخمسين صلاة دوام استحضار الله والاتصال به ذكراً ليقاوم اتصال الجسم بالمادة فعلاً، فكأن اللازم الواجب بحسب الأصل دوام الذكر لتقاوم الروح اللطيفة الجسم الكثيف الثقيل فترتفع إلى عالم الملائكة.

ولما تعذر ما ذكر على نوع الإنسان استبدل الخمس بالخمسين وجعل الخمس أجرها كأجر الخمسين. واعلم أن أجرها لا يكون كأجر الخمسين إلا إذا كان المصلي عاملاً بصلاته فاهماً لحكمها جارياً على مقتضاها حتى يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾[المعارج: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[طه: ١٤]، فالصلاة تكون دائمة وتستوجب ذكر الله. إذن رجعت الصلوات الخمس إلى الخمسين لأن المقصود من الخمسين أن يكون مصلياً دائماً فاستعيض عنه بخمس صلوات بحيث يكون المصلي دائماً على صلاته ذاكراً ربه. وهاهنا يجب إيضاح المقام فنقول:

اعلم أن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم. الله أكبر. جل العلم وجمل تعريف الفقهاء للصلاة.

ذلك أن الصلاة كلها ترجع لأمرين اثنين لا ثالث لهما.

أولهما: ذكر الله وتعظيمه كالشق الأول من الفاتحة من الثناء عليه ووصفه بالرحمة الخ، وكألفاظ التشهد الأولى من أن التحيات خاصة بالله تعالى الخ، ومثل وصف الله بأنه فطر السماوات والأرض حنيفاً الخ، ومثل وصفه بأن الحمد له ملء السماوات وملء الأرض الخ، ومثل وصفه بأنه خلق الوجه وصوره وهكذا.

وثانيهما: الالتجاء إليه أن يجعلنا في سلام وأمان وهداية إلى الصراط المستقيم، مثل الدعاء بالهداية في الفاتحة، ومثل السلام على النبي وعلى عباد الله الصالحين في التشهد. أفلا ترى أن الشق الأول أشير له كله بتكبيرة الإحرام، والثاني أشير له بالتسليم في ختام الصلاة. إذن التكبير في أول الصلاة يشرحه توجه المصلي إذ يوجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وذلك كالخليل الذي قال الله فيه: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الحج: ٧٨] الخ.

فيا ليت شعري لماذا جعلنا على ملة أبينا إبراهيم ولم خصصه بالذكر؟ أقول: خصصه بالذكر وجعل ملتنا منسوبة له لأنه لم يوجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً توجيهاً جسمياً فحسب، بل وجهه توجيهاً عقلياً. ألا ترى أنه لم يتوجه ذلك التوجه إلا بعد أن أراه الله ملكوت السماوات والأرض وكان من الموقنين. وقد فصله بعد ذلك بأنه نظر الكوكب والقمر والشمس ثم توجه إلى الله. هذه هي ملة إبراهيم الذي جعله الله أبا المسلمين الأبوّة العلمية العامة التي هي أشرف من الأبوة النسبية الخاصة ببعض العرب كقريش ونحوهم، فهذا توجه الخليل وهو بالعلم، ويجب أن يكون كذلك توجه خواص هذه الأمة، أي: أنهم يدرسون هذه العوالم العلوية والسفلية التي درسها الخليل حتى يكونوا كاملين في العلم بهذه العوالم المذكرات بربها، ويكونوا على صلاتهم دائمين، وتكون الصلاة مذكرة بالله على الدوام.

وهنا لك تكون الصلوات الخمس في حكم الخمسين من حيث الثواب، ولا ثواب إلا على عمل، والعمل هنا ذكر الله، وذكره بالتحقق من جمال هذا العالم حتى يذكر الله عند كل حجر وشجر، ولا يرى شيئاً إلا رأى الله قبله أو معه أو بعده، كما نقل عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كل خصلة من هذه نسبت لأحدهم. فهذه هي الصلاة الدائمة، يرى المؤمن جمال الله في الشمس والقمر والنجم كالخليل، وفي النبات وفي الحيوان، كما أنه أيقن بالبعث لما أخذ أربعة من الطير فقطع رؤوسها ثم دعاها فحييت. فإذن يكون المسلم في ذكر الله بين العالم العلوي والسفلي.

هذا كله مأخوذ من قول المصلي: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض الخ»، فيكون كالخليل إذا أيقن بملكوت السماوات إذ نظر فيها، وملكوت الأرض إذ نظر فيها فأيقن، فلما تم له ذلك قال: إني وجهت وجهي الخ. هذا هو التوجه لله، وهذه هي الصلاة الدائمة بدوام ذكر الله كما قال: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[طه: ١٤]، فهذا هو الذكر الدائم المذكور في قوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾[المعارج: ٢٣]، وهذا كله شرح لتكبيرة الإحرام. فقول المصلي: الله أكبر، في أول الصلاة يشرح معناها ما ذكر، وكذلك البسملة والحمد لله وبقية نصف الفاتحة الأول. إن الحمد لا يكون إلا على نعمة، والنعمة لا يحمد عليها إلا إذا عرفت.

إذن المسلم يتوجه لله بالعلم، أي بعلم ما في السماوات والأرض وبحمد الله بعد العلم بالمحمود عليه. فأما التكبير فهو يشمل الحمد ويشمل غيره. إن المصلي يقول بعد الصلاة: سبحان الله والحمد لله والله أكبر، فالتسبيح تنزيه والحمد شكر، وتكبير الله هو تعاليه وعظمته، كأنه قيل: إن حمدنا لله على نعم معلومة لنا، ولكن هناك نعم أخرى، فهو إذن أكبر مما نحمد عليه. فقول المصلي في أول الصلاة: الله أكبر، بيان أن الحمد المذكور في الفاتحة والبسملة وكذلك التحيات وما عطف عليها وتصويره السمع والبصر وخلقه لها وخلقه لجميع العالمين، كل ذلك قليل بالنسبة لعظمة الله، فهذا معنى كونه أكبر، فالمصلي في أول صلاته يكبر وفي آخر أذكار الصلاة يكبر. إذن المسلم يقول إن الله أكبر من كل ما علمناه من العلوم ومن النعم المحمود عليها.

إيضاح التكبير والتسليم أيضاً

يا ليت شعري، هل يعلم الناس أن التكبير والتسليم اللذين هما ملخص صلاة المسلم هما كل علوم أهل الأرض؟ وما علوم أهل الأرض؟ هي العلوم الرياضيات والطبيعيات والإلهيات، هذه علوم علمية، وعلم تدبير المنزل وتهذيب الشخص وتدبير المدينة وهذه الثلاث هي العلوم العملية. فكل ما تسمعه من علم النبات أو الزراعة أو الطب أو الهندسة أو الحساب أو الفلك أو الميقات أو الهيئة أو علم النفس الخ، فكل ذلك وغيره راجع للقسم الأول، ويتبعه الصناعات، كالنجارة التابعة لعلم النبات، والحدادة التابعة لعلم المعادن، وهكذا مما يعد بالمئات بل الألوف من الصناعات. والقسم الأول المذكور هو التكبير لله، فتكبير الله معناه أنه أكبر مما نعلم والذي نعلمه هو هذه العلوم. وكل ما تسمعه من علم التهذيب والأخلاق أو تدبير المنزل والمعاشرة وسياسات الأمم وأمثالها فذلك كله راجع للسلام العام أو الخاص. ولا معنى لتهذيب النفس إلا لتستقيم مع الناس، ولا لتدبير المنزل إلا لحفظ الأسرة في المنزل من التفرّق والشتات، ولا لعلوم السياسة إلا لصيانة الأمم وحفظها من الاصطدام والشجار والقتال.

فيا ليت شعري هل يعلم الناس ذلك؟ وأن أول الفاتحة راجع للتكبير وآخر الفاتحة راجع للسلام، فالأول للأول والآخر للآخر. وأن أول الفاتحة أيضاً مجمل العلوم العلمية، وآخرها مجمل العلوم العلمية، فهداية الصراط المستقيم إنَّما هي السلوك المستقيم والسير على سنن العدل وذلك في المنزل وفي النفس وفي الدولة، وهل يعلم الناس أن قول المصلي: «السلام عليك أيها النبي»، وقوله: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» راجع لآخر الفاتحة وللسلام في آخر الصلاة ولتهذيب النفس في السلام عليها وللأدب مع الناس في المنزل وفي السياسة العامة في السلام على عباد الله الصالحين. ثم إن السلام على النبي والصلاة عليه وعلى إبراهيم وعلى آل إبراهيم، كل ذلك راجع لحفظ الجميل وذكر المحسنين والدعاء لهم والبرّ بهم وتذكر إحسانهم وربط القديم بالحديث وتذكر فضائل السلف الصالح والسير على منوالهم والجري على منهجهم.

الصلاة رمز لتعميم التعليم ولتعميم السلام في الأرض

هل يعلم الناس أن الصلاة في الإسلام توحي بالسلام بين الأمم، وتأمر بالعلوم كافة، بدليل أن الذي يصلي هو كل مسلم، فكأن كل مسلم تأمره صلاته أن يكبر الله بمعرفة سائر العلوم على قدر طاقته،

فإن كان من العامة فليعرف الظواهر التي في متناوله، وإن كان من الخواص فليزد في العلم ما يشاء. يظهر لي أن هذا الدين لو علمه أهل الأرض لاتحدوا. يظهر لي أن أكثر المسلمين الذين اعتنقوا هذا الدين لم يدرسوا علوم الصلاة. يظهر لي أن ما أكتبه الآن سيقوم به قوم وينشرونه بين أمم الإسلام.

يظهر لي أن هذا الدين لم يأخذ حظه من البحث. يظهر لي أن القتال في هذا الدين إنَّما جاء على سبيل الاضطرار كما يضطر الفلاح لتنقية الشوك والأعشاب من الأرض لإصلاح الأرض. يظهر لي أن نشر الإسلام في المستقبل سيكون أكثره بالجهاد العلمي، لأن العلم الآن هو السلام لكل مطلوب.

المعراج والعلوم

جاء في بعض الروايات أنه شقّ عن صدره صلى الله عليه وسلم وغسل بماء زمزم حتى نقي وأنه أتي له بطست من ذهب فيه نور محشواً إيماناً وحكمة. ولما عرج به إلى السماء الأولى وما بعدها رأى آدم ويحيى وعيسى الخ، أفليس هذا يذكرنا بتهذيب النفوس والسلام العام؟ وبعبارة أخرى أن غسل قلبه وحشوه إيماناً وحكمة يفيض على الأمة علماً جماً بأن نقلده في طهارة نفسه، فهو قد طهره الله لأنه اجتباه، ونحن لابد لنا من العلاج وذلك بالعلوم العملية المتقدّمة. ثم إن آدم ومن بعده لكل منهم مزية علمية. أفلا ترى إدريس في السماء الرابعة كيف كان هو نبيّ المصريين المسمى «أخنوخ» و«سوزستريس»، ألم تقرأ ما مرّ في سورة يونس من أنهم وضعوا على صندوق أحد كبرائهم سورة «البروج» وقد تقدم إيضاحها ورسمها هناك. أليس ذلك دليلاً على أن القوم كانوا مغرمين بهذه العلوم الجميلة، فهكذا فليكن المسلمون بعدنا مغرمين بها لأن الله يقول: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٨٢]، وأيضاً الفلك علم أبينا إبراهيم الذي رآه في السماء السابعة، وتراه في السماء الأولى رأى آدم، وفي الثانية عيسى ويحيى وهما ظاهران إشارة إلى أن متبعيه يجب أن يقتبسوا من أنوارهما، ويوسف صاحب النظام الاجتماعي في الثالثة لنقتدي به كما تقدم في سورة «يوسف»، ثم هارون وموسى وهكذا إبراهيم، فلكل من هؤلاء مزية تستحقها هذه الأمة. إذن المعراج مفتاح العلوم وعروج إلى الله بها، فهي إما طهارة النفس في يحيى وعيسى، وإما نظام المدينة في يوسف، وإما العلوم الفلكية في إدريس، وإما الجهاد والخروج من الظلم في هارون وموسى. إذن المعراج أيضاً رجع إلى العلم والعمل أو التكبير والسلام فهو كالصلاة. إذن هذا الدين أوله وآخره علوم جهلها المسلمون اليوم. اللهم إنك أنت المنتقم ممن يصدون المسلمين عن العلوم.

ثم هنالك تكون العلوم والمعارف التي تكون فوق متناول الناس، فيفتح على الإنسان بما لم يتعلمه، ولذلك الإشارة بسدرة المنتهى التي أوراقها كآذان الفيلة وثمرها كقلال هجر وقد غشيها من أمر الله ما غشي فتغيرت، فما من أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. ولا جرم أن ذلك راجع للعلوم.

ثم إن المخلوقات على قسمين: مخلوقات تحس بالحواس الخمس ومخلوقات تعرف بالعقل.

ثم إن التعبير بآذان الفيلة وبأن الثمر كقلال هجر الخ، يرجع إلى ما في العالم من عظائم وجلائل، وقد امتلأت الكرة الأرضية بعلوم الكواكب الكبيرة العظيمة، وإن شمسنا بالنسبة لها ليست شيئاً مذكوراً.

إن المسلمين أولى بهذه العلوم هاهو ذا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول لنا: أيها الناس، إن هناك عوالم أرقى من عوالمكم وقد رأيتها، قال هذا وقد رفع إلى ربه. أفليس يخجل المسلمون من هذه الجهالة؟ يقول صلى الله عليه وسلم: «فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها»، فماذا يريد المسلمون بعد ذلك. ماذا كان يقول لنا نبينا صلى الله عليه وسلم؟ هاهو ذا يقول لكم: إن هناك عوالم لا يمكن نعتها من حسنها. أيها المسلمون، هاهو ذا علم الفلك الحديث الذي ذكرت لكم منه نبذاً كثيرة في هذا التفسير. ألم تروا إلى الكواكب العظيمة كالسماك الرامح إذ يكون ضوؤه أعظم من ضوء الشمس ثمانية آلاف مرة، وهناك كواكب أعظم وأعظم. ولست أقول إن هذا مقصود الحديث. كلا، وإنَّما أقول فيه الجمال الذي لا يمكن أحداً أن ينعته. وهناك جمال أرقى وأرقى وهو جمال النظام كما تقدم في سورة «الرعد» من نبات يفترس حيواناً ومن مسدسات منتظمات ثلجية مهندسات هندسية إلهية، فارجع إليها هناك ترها مرسومة جميلة.

وفي سورة «الحجر» ترى هناك عند قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الآية: ١٩] وكيف كان للورقات نظام بديع له قوانين، فراجعها هناك مرسومة مشروحة. كل ذلك من أنواع الجمال الذي يشير له قوله صلى الله عليه وسلم: «فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها»، نعم هذا قد استطعنا نعته وفيه حسن، ولكن الحسن الذي لا ينعته الناس في النظام يفوق الوصف، وذلك الذي يفوق الوصف رآه نبينا صلى الله عليه وسلم، فلنجد في معرفة ما أمامنا حتى نستعد لما فوقه ونلحق بالنبيين والصديقين الخ، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

الإسراء والمعراج والحسن والجمال في الخلق

هاهنا ذكرت الإسراء والمعراج والحسن والجمال. نبيّ أرسله الله لأمته فقال لهم: أتيت بالبراق ووصفه بأنه دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبه وأتى إلى بيت المقدس، ثم اخترق السماوات العلى ووصل إلى سدرة المنتهى، فوصف أوراقها وأنها غشيها من أمر الله ما غشيها، وأنها تغيرت ولا يستطيع أحد من خلق الله أن ينعتها من حسنها، وهنالك أوحى الله له فرض الصلوات الخمس.

الأنبياء أرسلوا لإرشاد الناس. هذه القصة قيلت لنا نحن. إن هذه القصة لبّ العلوم وخلاصة الحكمة، فيا ليت شعري كيف أعرض الناس عنها؟ فرض الله الصلوات ولكن ذلك الفرض كان بعد الإسراء والمعراج ونظر الجمال. إن هذه القصة تدعو حثيثاً المسلمين أن يخترقوا حجب هذه العوالم بالتعليم ويرتقوا. هل كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول ذلك مجرد حكاية أو إثبات نبوة؟ كلا، بل كان أيضاً يقولها للاقتداء به في علو الهمة واختراق الآفاق سياحة وعلماً. من ذا كان يظن أن أمة يخترق الجوّ نبيها ويصل إلى السماء لا تكون أسبق أمة إلى اختراق طبقات الجوّ القريبة بكل طيارة وبكل منطاد؟ من ذا الذي كان يظن أن أمة هذه أحوال نبيهم صلى الله عليه وسلم لا يكونون أسبق الأمم إلى دراسة علوم الكواكب والنجوم وسيرها وعددها وأبعادها وكل سديم ومجرة في السماء؟ اخترق الأفلاك النبي صلى الله عليه وسلم ليعلمنا، فلماذا لا نقرأ تلك الأفلاك؟ ثم هو فوق ذلك وصل إلى سدرة المنتهى ورأى هناك الحسن الفتان والجمال الذي لا يقدر أحد من الناس أن ينعته، هذا

هو نبينا صلى الله عليه وسلم فهل هكذا يكون أتباعه . إن أتباع نبي هذه صفته يكونون أسبق الناس إلى دروس الجمال ولا جمال يظهر لنا إلا بالعلم والحكمة . ولقد ملأ الله الأرض اليوم بالجمال ، وذلك الجمال لا يراه إلا الحكماء ، واضرب لذلك مثلاً :

لو أن نجاراً وقف أمام شباك مصنوع بصناعة بديعة وهيئة غريبة ، وهو من العلماء بهذا الفن المتقنين ، فإنه يقف مبهوتاً أمام ذلك المنظر وهو ذاهل عمن حوله ، والناس لا يدركون من ذلك شيئاً حوله . ومثل النجار علماء العربية الذين لهم ذوق في الإنشاء ، فهؤلاء إذا وقع لهم موضوع جميل مكتوب كتابة محكمة فرحوا به وأعجبوا وأخذوا يدركون دقائق المحاسن ، والناس حولهم لا يعقلون ما يقولون ، وهكذا في كل صناعة . فانظر إلى الصنعة العامة وهذا الوجود ، فهذا الوجود كله خلق الله له أناساً في الأرض واصطفاهم لذلك يدرسون علوم الأمم وهم ليسوا بأنبياء ، ومن هؤلاء من هم أتباع الأنبياء فهؤلاء يزدادون سعادة بازدياد الدراسة ويرون من الحسن والجمال ما لا يعقله سواهم ، فهؤلاء هم الذين يفهمون قول نبينا صلى الله عليه وسلم : « فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينظر إليها » .

ترك المسلمون العلوم ، تركوها غفلة وجهالة . الله أكبر الله أكبر . اشتغل المسلم بالصلاة ولم يدر أكثر المسلمين أن الصلاة يراد بها الحسن والجمال . ألا ترى إلى أنه صلى الله عليه وسلم في الحديث لم تفرض عليه الصلاة إلا بعد مشاهدة الجمال الذي يدهش العقول؟ كأنه قيل لنا هذه الصلاة لذكري وذكري يقويه كل علوم هذه الدنيا ، وعلوم هذه الدنيا تفتح لكم طرق البحث . وإدراك الجمال إما بهبة ربانية للأنبياء وإما بالبحث العلمي لأفراد الأمم ، والصلاة فيها الحمد والتكبير وفيها التشويق إلى جميع العلوم كما تقدم . فاستبان من هذا أن فرض الصلاة بعد إدراك الجمال والحسن في سدرة المنتهى يقصد به أن نتيجة الصلاة العلم ، والعلم يعرف هذا الحسن كله ، كأن الله يقول : يا محمد هاأنت ذا قد شاهدت الجمال في سدرة المنتهى فافتح باب هذا الجمال والحسن لأمتك وقل لهم يصلون الصلوات الخمس التي يقصد بها أمران : معرفة العوالم التي يعيشون فيها ، وإفشاء السلام بينهم ، فبهذا يدركون من الجمال ما يناسبهم كما أنك أدركت ما يلائمه . هذا هو الذي فهمته في مسألة الإسراء أن الصلاة لهذا أنزلت .

هذا وإني أذكرك أيها الذكي بما نقلته فيما تقدم في سورة « هود » من كتابين من مؤلفات الفرنجة عند قوله تعالى على لسان هود : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] ، الكتاب الأول هو المسمى « مملكة الظلام » مؤلفه « مترلنك » والثاني « موسوعات العلوم » لمؤلفه « روبرت براون » .

فقد جاء في الأول أننا نحتاج إلى دراسة علم الحشرات حتى نعرف سليقة أعضاء أجسامنا التي تختفي فيها أسرار الحياة والموت ، وأن أعضاءنا كلها متحدة مندمجة ، وتلك الحشرات متفرقة ظاهراً متحدات حقيقة برباط خفي .

وجاء في الثاني أن في أجسامنا من الوظائف والأعمال وأنواع الإحساس عجائب وغرائب مدهشات ، ولكن لما كنا معتادين عليها أصبحت لا يلتفت إليها النظر ولا تدهش العقل ، فإن المألوف يظن أنه معروف لاعتياده والدأب عليه ، وإنَّما الذي يلفتنا لغرابة هذه الأعمال في أجسامنا والإحساس

في إدراكنا إنَّما هي المواهب العلمية الخاصة، فهي التي تدفع ما أسدلته يد العادة على عجائب أعمالنا وإحساسنا من الأستار، وتوحي إلينا جمال أنفسنا وغرائب أجسامنا وبدائع تركيبها بطرق الملاحظات والتفكير فيما حولنا وما يحيط بنا من العوالم. ثم قال: إن دراسة العوالم التي تحيط بنا أسهل تناولاً من دراسة أنفسنا. إن دراسة أنفسنا جسماً وعقلاً قد عجزت عن إيقافنا على بعض من عويصات المسائل المادية والعقلية. أما دراسة العوالم المحيطة بنا فهي نبراس لدراسة أنفسنا الخ.

هذا ما نقلته هناك في سورة «هود». نقلته هناك وما كنت لأعلم أو ليجيش في خاطري أن ذلك نفسه معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم، كيف لا وهاهم أولاء حكماء أوروبا وفلاسفتها ينطقون بحديث المعراج. المعراج جاء فيه ذكر الحسن والجمال وأن من الجمال ما لا يقدر على نعته أحد من خلق الله، وجاء بعد ذلك فرض الصلوات. وبعبارة أخرى يحث على العلوم، إذ الصلاة في الإسلام هذا مقصدها، والعلوم هي الدالة على الجمال إذ لا جمال إلا بعلم بما هو جميل.

أيها المسلمون هل تعلمون؟ هل تعلمون أن حديث الإسراء جاء ما يطابقه عند فلاسفة أوروبا؟ هل تعلمون أيها المسلمون، هاأنتم أولاء تصلون وأكثركم لا يعلمون لم تصلون. يصلي المسلم خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة، وهذا حسن، يصلي المسلم وهو يحافظ على أركان الصلاة وشروطها وآدابها، هذا حسن وحسن، ولكن أحسن منه وأحسن أن يعرف المسلم لماذا فرضت الصلاة، ولماذا لم تفرض إلا عند ظهور الجمال، ومنتهى الجمال لنبينا صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك الفرض إنَّما كان لتوجيه النفوس إلى ما تضمنته الصلاة من معرفة العوالم العلوية والسفلية، إذن الصلاة درس علم، الصلاة متن تشرحه العلوم.

ومن عجب أن نسمع هذا القول: «الصلاة معراج» فبهذا تبين أنها معراج، وإني أبشر الأمم الإسلامية أن هذه الأمة سيظهر فيها مصلون حقيقة بعد نشر هذا التفسير سيصلون صلاة تشرح صدورهم لحوز العلوم.

اللهم إن الدنيا مقفلة على عقولنا مسدلة حجبها على أفهامنا، وأنت الذي أرشدت نبينا صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يعرف أكثرنا ما يراد من ذلك إلا أنهم يخافون من نارك أو يطمعون في جنتك، فأرنا اللهم سبل الهداية وافتح قلوبنا للعلوم واجعل الصلاة مفتاحاً للدروس، بحيث يصلي المسلم مستحضراً المعنى، واستحضاره المعنى يحفزه إلى الدرس والتفكر، وبهذا يصلون إليك مقتدين بنبينا صلى الله عليه وسلم الذي رأى الحسن والجمال.

اللهم إنك تعلم أن المسلمين وقفوا عند ألفاظ الصلاة ولم يدرك أكثرهم أن علوم الكائنات مطلوبة منهم، بل وقفوا على علم الفقه وعلى قشور من علم التوحيد، فافتح لهم باب العلوم والمعارف حتى يسعدوا في الدارين.

اللهم إنك قلت: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٣٩] وذلك حق، إنها ترجع إلى أمرين كما أوضحناه: درس العلوم، وإفشاء السلام، والعلم يدفع الجهل والمعاصي. وتعميم السلام بين الناس لا يكون معه فحشاء ولا منكر. هذا بعض سرّ حديث المعراج وبعض سر الصلاة، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

الإسراء والمعراج والسياحات والقوى العاقلة

نامت الأمم الإنسانية قبيل النبوة؛ فالرومان كانوا في أيام انحطاطهم بما نالوا من عزّ وسعة وبسطة في الرزق والملك فانحطت عزائمهم وهكذا الفرس. وهاتان المملكتان كانت لهما السيادة في الأرض. ودين البراهمة والبوذية في الهند تراكمت عليهما الخرافات فهوت بأتباعهما، وهكذا أهل الصين ودياناتهم. إن الله خلق الناس وأودع فيهم قوى عاقلة وأهمها المخيلة والمفكرة والذاكرة، فبالذاكرة يكون علم التاريخ بجميع أقسامه، وبالمخيلة تكون الأسفار والاختراع والفنون الجميلة، وبالمفكرة تكون العلوم المختلفة من الرياضيات والطبيعيات ومعرفة الله تعالى ونظام الجسم الإنساني والنفس ونظام الطبيعة، ويتفرع عن علم النفس المنطق والأخلاق وعلوم الجمال ونظام الأمم وسياساتها.

هذه هي القوى الإنسانية التي كمنت وسكنت قبيل البعثة المحمدية، فأرسل الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم فأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومما قاله ما نصه: «مثل لي النبيون كلهم فصليت بهم»، ثم خرج إلى المسجد الحرام، ولما رفع إلى السماء قابل النبيين ومنهم موسى، ولما تجاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، وأيضاً لما رفع إلى البيت المعمور أتي بإناء من خمر وإناء فيه لبن وإناء من عسل، فأخذ اللبن وقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك، ثم فرضت الصلوات. وأيضاً لما رأى آدم وجد أسودة عن يمينه وأسودة عن شماله، فالأولون أهل الجنة من بنيه والآخرون أهل النار منهم، فكان يضحك إذا رأى الأولين ويبكي إذا رأى الآخرين. ولما وصل إلى سدرة المنتهى رأى ما لا يصفه الواصفون.

هذا بعض ما جاء في الإسراء. فيا ليت شعري كيف تمر هذه على المسلمين وهم نائمون. ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن الإسراء نموذج لنا وسنة سنت لنا، وبيانه أن العقول الخامدة والنفوس النائمة عليها ألا تذر علماً من العلوم إلا درسته.

(١) ألا ترى أنه عليه الصلاة والسلام ساح في الأرض واخترق السماء، وهل العلوم جميعها تخرج عن الأرض والسماء.

(٢) ليقرأ الناس علوم الأرض وعلوم السماء.

(٣) صلى النبي صلى الله عليه وسلم بالنبيين ثم عرج إلى السماء، هكذا الصلاة معراج، وبفهم الصلاة والعمل بمقتضاها يعرج الناس إلى ربهم، يعرجون بعلم وعمل. أما العلم فقد شرحناه قريباً. وأما العمل فكذلك، فالسلام العام في الأمم بتهذيب النفوس وحفظ الأسرات، وحفظ الأمم هو العمل، وقراءة علوم الرياضيات والطبيعيات والفلكيات هي عروج النفوس إلى ربها وفهمها نظام عمله في هذا الوجود، هذا هو مقتضى الصلاة، فالصلاة كتاب علم أوحى به الله إلى نبيه وقال: صلوا ثم اعرجوا إلى ربكم بالعلم الذي تضمنته الصلاة. فإذا كان صلى الله عليه وسلم عرج بعد الصلاة فهكذا أنتم بعملكم بما تضمنته الصلاة من العلوم العلمية والعلوم العملية تعرجون إليّ.

(٤) إن نبينا قد أمَّ الأنبياء في الصلاة، وهذا إشارة إلى أن جميع الأمم التي تتبع الأنبياء قد أخذت لها قسطاً من الآراء الإسلامية، فقد حررت العقول في أوروبا وفي أمريكا وبلاد الشرق. كل هذا

بسبب الإسلام، فارجع إلى هذا المقام في سورة « التوبة » فقد نقلت لك هناك عن « سديو » الفرنسي وغيره أن تحرير العقول في أوروبا إنَّما جاء من دين الإسلام. هكذا بكى موسى من أن غلاماً بعث بعده دخل الجنة من أمته أكثر مما دخل من أمة موسى، وهذا حق لأن أتباع دين عيسى هم اليهود وهم شرذمة قليلة لا تبلغ (١٥) مليوناً والمسلمون نحو (٣٦٠) مليوناً، ومسألة آدم وبكائه وضحكه ظاهرة واضحة، ومسألة اللبن واختياره لأنه الفطرة ترجع إلى هذه العلوم التي حظيت بها الأمم، فإن علوم الطبيعة وعلوم الفلك الخ هي الفطرة التي فطر الله هذا العالم عليها، فإذا درسناها فقد رجعنا إلى الفطرة. ومعلوم أن اللبن يفسر بالعلم كما في حديث آخر.

(٥) هذه الوقائع التي حصلت له صلى الله عليه وسلم في معراجه قد تمت وظهر مصداقها ولكن أتباعه صلى الله عليه وسلم فهموا دينه أيام الصحابة والتابعين وغفلت عنه أمم كثيرة بعدهم ولم يعلموا أنه قد سنّ لنا السياحات العقلية.

السياحات على قسمين

اعلم أن السياحات على قسمين: سياحات جسمية وسياحات عقلية. والسياحات الجسمية مقدمة على السياحات العقلية وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ ﴾ [النمل: ٦٩]، والسير بلا نظر لا يفيد. فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ساح في الأرض بالإسراء وعرج في السماء ولم تكن سياحاته ولا عروجه خاليين من الروح العلمية، بل تراه بين السياحين صلى ليعلمنا أن الصلاة قد تضمنت العلوم التي بها المعراج، فلما عرج إلى السماء لم يترك واقعة بلا فائدة. فهاهو ذا يرى آدم وهو يبكي ويضحك، وموسى وهو يبكي على قلة من يدخلون الجنة من أمته، وهكذا إبراهيم وقد قال له: « يا محمد بشر أمتك بأن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وغراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر »، ولا جرم أن هذه هي ملخص الصلاة، إذ الصلاة حمد يرجع إلى كل العلوم وتنزيه الله بالتسبيح في الركوع والسجود الخ.

ولو أن امرأ ساح في الأرض ورفع إلى السماء وساح في أقطارها بلا عقل ولا فكر لكان ذلك أشبه بأضغاث الأحلام ولا فائدة له. إذن الإسراء والمعراج قد جاءا لإيقاظ نفوس المسلمين لإحياء عقولهم وخيالهم وتعقلهم وذاكرتهم، لأن المقصود من السياحات تعقلها وفهمها والتبصر فيها، ذلك هو مقصود السياحات في هذه الدنيا. الصلاة يراد بها الحث على العلوم، والعلوم بها تعرف السماوات والأرض. عرج صلى الله عليه وسلم بعد أن صلى، ولما تم معراجه ورأى عجائب لا توصف فرضت الصلاة على أمته. لماذا هذا؟ لأنه عرج إلى السماء بعد الصلاة، فهو يريد أن تعرج أمته كما عرج، ولكن عروج أمته بالعلم والتعليم، فعروجه بالوحي والنبوة وعروج أمته بالعلم والتعليم ومبدأ التعليم ما تحث عليه الصلاة، والصلاة كما قدمناه وأوضحناه حثت على العلوم العلمية والعلوم العملية.

(٦) وما مثل المعراج بعد الصلاة إلا كمثل ابتداء سورة «النجم» بعد أواخر سورة «الطور» ففي آخر سورة «الطور»: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾، وفي أول سورة «النجم» ذكر قربه صلى الله عليه وسلم من ربه، إذ قيل: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾، فآخر « الطور » التسبيح والصلاة في آخر الليل، وفي أول « النجم » القرب من الله. هكذا هنا صلى النبي

صلى الله عليه وسلم بالأنبياء فهو كآخر « الطور »، وعرج إلى السماء فهو كأول « النجم »، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾[العلق: ١٩]، فهاهنا سجود وهاهنا اقتراب وقد عرفت سره، فالأنبياء يلهمون ويوهبون والأتباع يجدّون ويتعلمون، فالصلاة كتاب يقرؤه المسلم صباحاً ومساء، وهذا الكتاب مختصر العلوم كلها علوية وسفلية، ناهيك ما تراه في هذا التفسير عند تفسير سورة « الفاتحة » وقد زدت عليه في أول هذا المقال مسألة السلام والهداية في التشهد و« الفاتحة »، فإنهما يشملان علوم الأخلاق ونظام الأمم.

فإذا سمعت قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[مريم: ٥٤] الخ، فاعلم أن ذلك من علم الأخلاق الداخل في قول المسلم: « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين »، ومثل هذا: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾[لقمان: ١٢]، وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[لقمان: ١٨]، وقوله: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾[لقمان: ١٩] الخ، وهكذا مما تراه في (٧٥٠) آية في القرآن.

وإذا سمعت قول المصلي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]، أو قوله: « التحيات لله » الخ، فاعلم أن ذلك ظاهر في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[يونس: ١٠]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾[الحج: ٦٣] الخ.

(٧) إن الإسراء والمعراج درسان ألقيا للمسلمين ليعرجوا بالعلم وليفتحوا عقولهم وخيالهم وقواهم الفكرية وذاكرتهم النفسية، ذلك ليسيحوا في الأرض بعقولهم لا بمجرد أجسامهم. فأما إذا صلوا ولم يعرجوا، أي: لم يدرسوا ولم يفكروا فيما تتضمنه الصلاة فإنهم يكونون محكوماً عليهم بالهلاك، ذلك لأن المسلم إذا صلى ووقف عند ألفاظ الصلاة أو فهم معناها واستحضره، ولكنه لم يعمل بمقتضاه كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإسراء والتعقل في أثناء الإسراء، فإنه يكون مغروراً اغترّ بمجرد الصلاة، وأنام قواه العقلية ولم تفتح بصيرته لما حوله من عجائب هذه الدنيا وهذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾[الماعون: ٥-٧].

المسلمون يصلون ولكن أكثرهم لا يعلمون بما تحثّ عليه الصلاة فانحطت مداركهم فتخطفتهم الأمم، هم ساهون عن الصلاة لاهون عنها. إن الصلاة لأمرين: ذكر الله على سبيل العبادة وارتقاء النفس بذلك الذكر، فهاهنا أمران: أمر عملي وأمر علمي، فأكثر المسلمين اقتصروا على الأمر العملي ونسوا العلمي، ونسوا أنه صلى الله عليه وسلم عرج إلى السماء بعد أن صلى، كأنه يقول عروجكم العقلي إنَّما يكون بعد الصلاة، أي: بالعمل بما تضمنته من العلوم. إذن الإسراء والمعراج درسان علميان، والصلاة هي كتاب ذينك الدرسين.

(٨) غفل الناس عن الإسراء وعن عقولهم، من عادة الناس أن لا يعقلوا ما شاع عندهم وما يحيط بهم، هذا الإنسان في هذه الأرض لا يعقل ما هو حاضر عنده مبصر أو مسموع أو مذكور. لكل امرئ مخيلة وعاقلة وذاكرة كما تقدم، فقد يعيش المرء ويموت ولا يخطر بباله ما تلك القوى وما عجائبها، وهكذا يرى أنه له سمعاً وبصراً وشماً وذوقاً وأعضاء داخلة وأخرى خارجة، وكلها طافحة

بالعجائب مملوءة بالغرائب، ولكنه لا يخطر بباله أن يفكر فيها أو يرى فيها عجائب، وهكذا أكثر هذا النوع الإنساني يعيشون كالحيوان ويموتون ولا هم يذكرون، لذلك أرسل الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فأسري به وعرج، والإسراء والمعراج لفتح هذه القوى العقلية فينا، وفعلاً تمّ ذلك في عصر الصحابة والتابعين فإن أحوالهم كلها اعتراها انقلاب وتغيرت وتحولت إلى الأحسن.

أما الأمم المتأخرة فإنها تسمع الإسراء والمعراج كما تعرف يدها وعقلها وجسمها. فالإسراء والمعراج أصبحا متداولين بين المسلمين فلم يبق تعجب منهما ولا تذكر بهما، كما نسي الناس نفوسهم وعقولهم ومخيلاتهم وأعضاءهم، فسيان عندهم عقولهم وأعضاءهم وإسراء نبيهم.

واعلم أن هذا التفسير سيكون من المبشرات بنهضة مقبلة قريبة، وسيخرج جيل جديد سائح سياحات علمية وعارج إلى رب البرية.

كيف يسري المؤمنون ويعرجون ليصلوا إلى اليقين بالعلم

اعلم أن الأمم جميعها قد جاء في تاريخها أن أناساً حكموا أنفسهم بالرياضيات فوصلوا إلى ما قصدوا، وهؤلاء كثير في أمم الهنود والأمم الإسلامية، ولكن الذي ظهر أن هؤلاء غالباً لم يحدثوا في الأمم انقلاباً كثيراً إلا قليلاً منهم، وأكثر انقلاب الأمم إنَّما يكون برجال مفكرين نالوا حظاً من العلم باجتهادهم لا برياضاتهم.

فلأذكر لك هنا مسألة واحدة وهي تفسير قوله تعالى في سورة «تبارك»: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾[الآية: ٣]، أي: شقوق، وقبل الشروع في هذا المعنى أذكر مقدمة فأقول:

اعلم أنه قد سبق في هذا التفسير أن العوالم التي نعيش فيها مركبة من ذرات، وتلك الذرات مركبات من جواهر فردية، وتلك الجواهر الدقيقة جاريات حول نواتها جرياً حثيثاً، فترى كل ذرة بعضها أشبه بالشمس، وبعضها أشبه بالسيارات، وهذه التي تشبه السيارات تدور حولها، وكل ما في الوجود مركب من تلك الذرات، وتلك الذرات ما هي إلا كالمجموعة الشمسية. فإذا رأيت الحديد والنحاس والأحجار وظننت أنها ساكنة فأنت لم تقرأ علماً، بل العلم أثبت أنها متحركات كما شرحته لك، بل قال المحققون مثل «جوستاف لوبون»: كلما كانت حركات الذرات أسرع كان الجسم المركب منها أصلب، وكلما كانت أبطأ كان الجسم المركب منها أبعد عن الصلابة وأقرب إلى التفرق أو السيلان الخ.

وهناك مسألة أخرى ستأتي في سورة «تبارك» وهي أن طيف الضوء المركب من الألوان السبعة المعروفة يتخلله خطوط سود، وذلك بواسطة آلة للنظر مذكورة هناك مصورة من ثلاثة مناظر معظمة، وتلك الخطوط السود عمودية على ذلك الطيف، وهذه الخطوط السود واضحة في شكل ستراه هناك وكل خط له هيئة خاصة، وقد شاهدوا مثل هذه الخطوط في لهب المعادن فحكموا من ضوء الشمس على المعادن التي تركبت منها هي، فكلما رأوا خطاً في الطيف الشمسي بهيئة توافق نظيرها في لهب معدن من المعادن قطعوا بأن ذلك المعدن من عناصر الشمس، وهكذا الكواكب الأخرى. هاتان النظريتان هما أسّ ما سأذكره من الإسراء العقلي والمعراج الفكري الذي يسير عليه المسلمون.

فهاهنا نقول في تفسير الآية :

(١) فإذا أبقينا على ما هو معلوم من التفسير المعروف قلنا : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] ، لأن البصر لا يرى في السماء المشاهدة فطوراً ، ولا جرم أن السماء من فعل الله فلتكن أفعاله كلها على هذا النظام .

(٢) وإذا لاحظنا أن في المادة فراغاً معلوماً بين جميع الذرات كما هو مقرر في الطبيعة حتى أنهم أثبتوا أن الخلاء بين كل ذرة وأخرى بالنسبة لحجمها لا يقلّ عن الفراغ الحاصل بين الأرض والسماء بنسبتهما ، وهذا وإن كان بعيد التصديق مسلم في علم الطبيعة . وهكذا نلاحظ أن في طيف الضوء في تلك الخطوط المتقدمة إذا اعتبرنا ذلك كله قلنا : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] ، مع ما فيه من الخلاء بين الذرات والخطوط السود وسط الألوان ، وذلك لشدة إحكامه وتمام إتقانه ، فذلك الإتقان جعله لا خطوط فيه ولا فراغ والبصر لا يدرك شيئاً من ذلك ، ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك : ٣] فيه بين الألوان وبين الذرات ، مع أن ذلك كله موجود فعلاً ، فالفطور مع وجودها أصبحت لا ترى لشدة إحكام المادة وانتظام النور ، كما أن العالم كله يتحرك ولكنه لشدة الإحكام يرى ساكناً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام : ١٣] الخ .

(٣) والوجه الثالث أننا نلاحظ ما في الوجه الثاني أيضاً ، ولكنا نقول : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] ، وهذه الرؤية عقلية لا بصرية ، فالعقل أدرك أن الذرات تشبه السيارات وصغير العالم ككبيره ، فأشبه جزؤه كله وكبيره صغيره من وجهين : الأول : أن الذرات تشبه السيارات من حيث الفراغ الحاصل بينهما ومن حيث دوران جزئياتها حول نواتها دوراناً منتظماً . والثاني : أن تركيب الشمس مثلاً كتركيب الأرض ولم يعلم ذلك إلا بتلك الخطوط السود في الطيف التي أبانت باختلافها اختلاف العناصر في الشمس وحينئذ قال : هل ترى ببصرك من فطور حتى تحكم بها على تشابه المادة بحيث تشابه الذرات السيارات ويشابه المعدن بالخطوط المعترضة في لهبه نظيره في الكون فيحكم بوجوده فيه وبهذا يحكم بتشابه العوالم ، كلا ، أنت لا ترى ذلك ببصرك مطلقاً ، بل البصر يرى المادة لا خلاء فيها ويرى آثار الضوء في قوس قزح لا أثر للخطوط السود فيه ، مع أن الحقيقة أن المادة وألوان الطيف فيهما فراغ ، ففي الأول بين الذرات ، وفي الثاني خطوط سود بين تلك الألوان ، وإنما لم تبصر ذلك لأن البصر لا يقوى على ذلك ، وإنما يقوى الإنسان عليه بالآلات التي اخترعها العقل البشري وبالاستنتاج بالعقل والفكر . انتهى .

فهذه الآية بدرسها من علم الطبيعة في الأرض فتحت لنا باب العروج إلى السماوات ، فأدركنا تركيب أجسامها وعرفنا عناصرها . فهذا مثال واحد من الأمثلة التي لا تحصى ، بها أدركنا نظام العالم العلوي بمضاهاة نوره بأنوار معادن العالم السفلي . فهذه سياحة عقلية بها يرتقي العقل الإنساني ويشاهد حكماً وعلوماً ، متبعاً في ذلك نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم إذ رأى جمالاً لا يصفه الواصفون . هكذا فلنجدّ في العلم ولنرتق في الأسباب .

إن الإسراء والمعراج جعلا لنا درساً لنجدّ ونسري في العلوم الأرضية ونعرج إلى العلوم العقلية والحمد لله رب العالمين ، انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الخ

اعلم أن بني إسرائيل من بعد موسى لم يكونوا ملزمين بالجهاد كالأمة الإسلامية، بل كانوا يحافظون على شرائعهم ويدافعون عن بلادهم، فبقي القوم بعد موسى ويوشع عليهما السلام نحو أربعمائة سنة على هذه الحالة لا يعنيهم شيء سواها، وكان القائم بأمرهم يسمى « الكوهن » كأنه خليفة موسى عليه الصلاة والسلام يقيم لهم أمر دينهم، ولا بدّ أن يكون من ذريّة هارون، لأن موسى لم يعقب، ويكون مع « الكوهن » سبعون شيخاً يقومون بأحكامهم العامة تحت إشراف « الكوهن »، وفي أثناء ذلك غلبوا الكنعانيين على بيت المقدس وما جاوره، وحاربوا أهل فلسطين والأردن وعمان ومأرب، ولكن لم تكن لهم صولة الملك فطلبوا من شمويل نبيهم أن يجعل الله لهم ملكاً يجمع شملهم، فتملك طالوت وقتل داود من عسكره جالوت عدوّه، فتولى داود الملك بعد طالوت فسليمان ابنه عليهما السلام.

واستفحل الملك وامتدّ إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم أطراف بلاد الروم، ثم افترق الأسباط من بعد سليمان إلى دولتين: إحداهما كانت بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة، والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين، ثم غلبهم بختنصر ملك بابل فاستولى على الأسباط العشرة أولاً، ثم ثانياً على بني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة، وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم، ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق، إلى أن ردّهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم، فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول.

تغلب اليونان على الفرس فاليهود

ولما غلب الإسكندر واليونانيون قومه على الفرس أصبح اليهود في قبضتهم، فلما فشل أمر اليونان اغترّ اليهود بعصبيتهم وأخرجوهم من ديارهم وأقاموا دينهم على الطريقة الأولى، وكهنتهم من بني حشمناي، فلما غلب الروم اليونان على أمرهم رجعوا إلى بيت المقدس وفيه بنو هيردوس أصهار بني حشمناي وبقية دولتهم، فاستحوذوا عليهم وبقوا في قبضتهم ففتحوها عنوة، حتى أرسل عيسى في أيامهم ودالت دولتهم بعد رفعه إلى السماء بنحو (٧٠) سنة، فأجلوهم عن بلادهم إلى رومية وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسجد، ويسميه اليهود الجلوة الكبرى، فلم يقم لهم بعدها ملك بفقدان العصبية منهم، وبقوا بعد ذلك في مملكة الروم، ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن.

ثم إن عيسى عليه السلام أرسل في مدة « هيردوس » ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمناي أصهاره في أيام الملك « أوغسطس »، فحسد اليهود، فكاتب « هيردوس » ملكهم ملك القياصرة « أوغسطس » فأذن لهم في قتله، وكان ما كان مما قصه الله في القرآن، ثم افترق الحواريون فدخلوا بلاد الروم داعين إلى النصرانية، وبعد ذلك أجلاهم الروم كما تقدم. هذا هو التاريخ الذي يشير له القرآن: فالمرة الأولى هي غزوة الفرس لهم، والمرة الثانية: غزوة الروم لهم لما عصوا بعد عيسى عليه السلام. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾

لما ذكر أمر اليهود وتفرق دولهم وتسلط الأمم عليهم وأنهم أجلوهم عن بلادهم، فالفرس إلى أصبهان وما والاها من البلدان، والروم إلى رومية وما والاها من أوروبا، وكانت مدتهم إلى زمن عيسى عليه السلام نحو ١٤٠٠ سنة، أربعمائة إلى حكم سليمان، وستمائة إلى جلوتهم في بلاد الفرس وأربعمائة إلى جلوتهم الكبرى. ولقد كانوا في مصر قبل ذلك نحو أربعمائة سنة، فمدتهم من أيام يوسف إلى زمن المسيح ١٨٠٠ سنة، وقد اعتراهم الذل بعد رسالة موسى بألف سنة، فأخرجوا من ديارهم، ثم بعد أربعمائة أخرى أذلهم الروم. ولقد اتفق لأمة الإسلام أن غلب بعضها على أمره ولكن لم يحصل إجلاء عن البلاد إلا في الأندلس بعد النبوة بما يقرب من ألف سنة، فأخرج الإسبانيون العرب من أمتنا من ديارهم بأوروبا، ولم يعم الإخراج المسلمين جميعاً لأنهم أمة عظيمة وليس فيهم جشع اليهود الذي بغض الأمم فيهم فأذلوهم.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، ولقد بينا في اللطائف السابقة الإرشادات الدالة على أن للإسلام أمماً ستفوق غيرها. إن اليهود اليوم هم أصحاب العلم في العالم الإنساني. إن اليهود هم الذين أشاعوا الدول البلشفية، وهم هم الذين بفلسفتهم قد حركوا ألمانيا إلى الحرب الكبرى، وفيلسوفهم «نيتشيه» أشاع فيهم هذه الفكرة: «الرحمة ضعف وخور فليمت الضعيف وليعش القوي».

اليهود اليوم هم الذين يديرون العالم كما يشاؤون. يقوم الفيلسوف منهم فيحرك العالم تحريكاً بعقله. جاء في «التلمود» وهو ملخص دين اليهود وقد تقدم في التفسير: إن الله فرقنا في الأمم لأنه يعلم أنا شعبه وأبناؤه، وأن العالم الإنساني كله خادم لنا، وهذا الإنسان كله وسط بيننا وبين البهائم، نستعملهم للتفاهم بيننا وبين الحيوانات، فوجب علينا أن نجعلهم متشاكسين متقاتلين متعادين وندخل في سياساتهم ونجعلهم في حرب لنستفيد منهم، ونزوج بناتنا لعظمائهم، وندخل في كل دين لنفسده على أهله، وتكون لنا السيادة على هذا الإنسان الذي سخره الله لنا. انتهى.

ولقد فعلوا ذلك أو قريباً منه. وهاهم أولاء قد أسسوا دولة البلشفية في بلاد الروس، ومنهم «لينين» وأعوانه الذي توفي قريباً، وهاهي دولتهم تناظر دول أوروبا وقد اتسعت اليوم، ولا ندري ما يفعل الله بالإنسان غداً. هذا ما كان من أمر اليهود الذين مضى على دينهم نحو ٣٤٠٠ سنة، فهل يقوم الإسلام بأمر العالم ويعلو في فلسفته وحكمته على الأمم ومنهم اليهود، ويجعل أهل الأرض في حال أخوة وسلام ولا تنابذ ولا شقاق، وإذا كان هذا هو الذي وصل إليه اليهود الذين على يديهم أرسل عيسى منهم، وهم هم الذين نشروا دينه في الشرق والغرب ثم اخترعوا البلشفية، فهم إذن سادة العالم الأدنى.

فهل المسلمون الذين جاء دينهم بعد الدينين اليهوديين يقومون بدور يناسب ديننا؟ وهل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩] يشير إلى أن أمماً ستكون بعد الآن في الإسلام تحمل أهل الأرض قاطبة على الرقي؟ إن «ماركس» الألماني الذي هو أصل البلشفية يهودي ألماني، وهو الذي أخرج العالم من حال إلى حال بعد موت موسى بثلاثة آلاف وأربعمائة سنة، فهل

يقوم في المسلمين بعد اليوم وقد مضى الإسلام ١٤ قرناً قائم يرقي المسلمين ويرقي العالم كله، ويكون ذلك سعادة للناس لا شقاء، كما فعل اليهود في أوروبا والشرق؟ وهل زمن عيسى الذي جاء في شريعتنا وفي شريعة النصارى أنه سينزل حياً، هل هذا الزمن بعيد حصوله؟ إنه ليس ببعيد، أي: أن المسلمين إذا قاموا بدورهم الإنساني ورقوا الأمم وساد الإسلام على يديهم فهناك يعم السلام في الأرض، وتكون جيوش المسلمين مؤدبة للأمم لا ظالمة كما تفعل أوروبا الآن. هذا هو الذي يرتقب من أمة الإسلام، وهذا هو الذي فهمته من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وأن أمة الإسلام ستلعب دورها يوماً ما، وتبني مجداً للعالم كله، ويكون الناس جميعاً أبناءنا. إن هذه المدّة التي مضت في الإسلام كالمدة التي مضت على بني إسرائيل حين أجلاهم الروم الجلوة الكبرى، فقد كانت نحو ١٤٠٠ سنة، فذل اليهود إذ ذاك وذل المسلمون الآن، ولكن فرق بين الذلين، فالمسلمون لهم دول مستقلة وإن كانت قليلة، فإذا قسنا هذه الحال بتلك قلنا: إن ما قلته ربما يتمّ لأنه إذا مضى بعد ذلك مئات السنين يكون هناك دول تتعارف من الإسلام، ويكونون رحمة للعالمين وهم يمنعون الظالمين عن المظلومين.

فهذا هو الذي نفهمه من ذكر قصة موسى بعد الإسراء ومن العلاقة بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام، ومن ارتقاء نبينا عليه فهو في السماء السادسة ونبينا فوق السابعة، ولا معنى لهذا بالنسبة للأمم إلا ما ذكرنا. انتهت اللطيفة الرابعة.

اللطيفة الخامسة:

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾

لما ذكر الله أمة بني إسرائيل وما حلّ بهم، وأتبع ذلك بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وسيذكر بعد ذلك سنن الكون ونواميسه وحسابه، أبان في هذه الآية المذكورة ما بين القرآن الذي هو أقوم وما بين النواميس والحساب السماوي، فقال: إن هذا الإنسان خلق عجولاً بطبعه ميالاً إلى ما لا تحمد عقباه. فطرة فطرناه عليها فهو يتمادى في الشهوات ويتغالى فيما يظنه خيرات، فهو يحرص على المال والولد والصيت والشهرة وافتتاح البلدان وإزالة الممالك، وهو يظنّ ذلك خيرات بشهوته وعجلته الطبيعية، ثم يتمادى في ذلك الذي ظنه خيراً إلى أن يصل إلى ما ظنه شراً فيدعو على نفسه وعلى ولده وعلى أهله ويتمنى الموت. كل ذلك لعجلته. وإذا كان هكذا أمره فإنه لا ينبغي أن يترك وشأنه، ولتهذّب طباعه بالكتب الدينية والعجائب الكونية والحساب السماوي والعالم الطبيعي والنظام الإلهي.

هذا شأن الإنسان بيناه، وهذا أمره كشفناه. فليقم بالدين وليقرأ العلوم حتى يقف على الحقائق ويعلم أن أكثر ما يظنه خيراً إنّما هو شرّ من وجه، فإذا فتح البلدان لقهر الأمم عاد ذلك عليه بالوبال كما حصل لبني إسرائيل. فليحترس المسلمون أن يغلبوا الأمم لقهرها لا لتعليمها، وإلا حلّ بهم ما حلّ باليهود، وقد كان ذلك ومضى. وحلّ بالأمم الإسلامية ما يقابل أفعالها الظالمة في بعض القرون واضمحلت الشوكة. لماذا؟ لأن الإنسان جهول. فليقرأ العلوم، وإنما قال الله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] لأنه أرشد إلى علم الكائنات. فالقرآن لا يقف عند تلاوة الألفاظ فحسب. ولذلك ترى هذه الآية جاءت بعدها، فقال: إن الإنسان عجول فلتهذبه العلوم، ثم أتبعها بذلك النظام.

إن القرآن يهدي للتي هي أقوم، إنه يدعو إلى قراءة كتاب الله المفتوح، كتاب السماوات والأرض كتاب الطبيعة، كتاب النبات، كتاب الحيوان، كتاب الإنسان، كتاب علم النفس، كتاب علم التشريح، كتاب علم السياسة، كتاب علم الأجنة، كتاب علم آثار الأمم، كتاب كتاب الخ.

فهذه هي الهداية للطريق الأقوم، وهذا هو دين الإسلام، وهذه هي طريقه، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور: ٤٦]. انتهت اللطيفة الخامسة.

اللطيفة السادسة: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾
إلى قوله: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾

لقد قدمت في هذا التفسير حساب الأفلاك مراراً وتبين لك فيه كيف فصل الله العالم تفصيلاً. ولكن لأذكر لك درة يتيمة وجوهرة مضيئة وآية شريفة وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء والماسة بيضاء وحكمة بديعة وشمساً مضيئة، فأقول: انظر مسألتين اثنتين:

المسألة الأولى: مسألة السنين القمرية

وأن كل سنة منها ٣٥٤ يوماً وسدس يوم وخمسه، وهذا السدس وهذا الخمس باجتماعهما سنة بعد سنة يكونان أياماً، وتلك الأيام التامة تكون السنة التي تمت فيها كبيسة، والتي لم يضم لها يوم يقال لها بسيطة. ولقد وجد ذلك في كل ثلاثين سنة ١١ كبيسة و١٩ بسيطة، وتكون النسبة منتظمة عجيبة لا خطأ فيها ولا خطل، وكل (٧) أدوار يقال لها دور كبير وهو ٢١٠ سنة، فكل دور من الأدوار الصغيرة يكون مماثلاً لنظيره في الأدوار الكبيرة التالية أياماً وشهوراً، ويمكن أن يجعل نسبة منتظمة فيقال هكذا: نسبة ١١ إلى ١٩ كنسبة ٢٢ إلى ٣٨ كنسبة ٤٤ إلى ٧٦ كنسبة ٨٨ إلى ١٥٢ وهكذا إلى تمام الدور، فالأدوار تتابع والحساب لا يتغير والنسبة منتظمة ولها جداول لا خطأ فيها، والسنة ٣٥٤ يوماً و٣٥٥ يوماً على مقتضى البسيطة والكبيسة وهكذا.

فقل لي بربك. ألست ترى أن الله هكذا فعل وهكذا بين. ألست ترى أنك بهذا الحساب المتقن تحسب السنين العربية من أول التاريخ العربي وتسقط أدوارها ثلاثين و٢١٠ و٢١٠ وهكذا، وقد أوضحناه في هذا التفسير سابقاً فارجع إليه في مظانه لتعرف أوائل السنين العربية في آخر آل «عمران» ولست اليوم أقول هذا لمعرفة أوائل السنين، وإنما أقوله لما هو أعلى، أقوله للتفسير، الله يقول: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[الإسراء: ١٢] فهكذا يكون التفصيل وهكذا يكون البيان ولهذا أنزل القرآن. أنزل القرآن ليلفتنا إلى كتاب الله الذي خلق قبل إنزال القرآن بالوحي، كتاب الله الذي في الطبيعة وهو الكتاب المفصل وهو الكتاب المبين، هو الكتاب الذي كتبه الله بيده وأودعه في الطبيعة، وقال: يا محمد أشر إلى تفصيلي، ودل أمتك على بياني، وقل لهم: هذا خلق الله وهذا جمال الله وهذا بيان الله، فبه فاقتدوا وبعلومه فانتفعوا. القرآن يقرؤه الجاهل والعالم، والطبيعة لا يدركها إلا العلماء فلذلك كفر بها كثير من جهلة الإسلام، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٣٩]. انتهت المسألة الأولى.

المسألة الثانية: النظر في جسم الإنسان وحسابه

إذا خرج الإنسان من الرحم تامّ البنية سالماً من سوء الأخلاط يكون فيه أشياء متماثلة، وأشياء تزيد بالثلث وبالربع، وأشياء بالمثل والثمن وما أشبه ذلك. فالتي هي متساوية إذا قيست بشبره نفسه هي:

(١) من رأس ركبته إلى أسفل قدميه يساوي الذي من ركبته إلى حقويه، يساوي الذي من حقويه إلى رأس فؤاده، يساوي الذي من رأس فؤاده إلى مفرق رأسه، فكل مقدار من هذه شبران بشبره.

(٢) إذا فتح يديه كالطائر كان هكذا ما بين رأس أصابع يده إلى مرفقه يساوي مقدار ما بين مرفقه إلى ترقوته، يساوي مقدار ما بين ترقوته إلى مرفقه اليسرى، يساوي ما بين مرفق اليسرى وأطراف أصابعها إلى منها شبران.

(٣) إن الإنسان إذا صنع دائرة مركزها سرته ومر محيطها بأصابع رجليه ومد يديه إلى أعلى فإن المحيط يمر بأطراف أصابعهما، فتزيد عن قامته ربعها، ويكون النصف خمسة أشياء من أعلى النصف ومن أسفل النصف.

(٤) طول وجهه من رأس ذقنه إلى منبت الشعر فوق جبينه شبر وثمن وطول جبينه ثلث شبر.

(٥) طول عينيه كل واحدة منهما ثمن شبره وطول أنفه ربع شبره يساوي شق فمه وشفتيه.

(٦) طول كتفه من رأس الكرسوع إلى رأس الإصبع الوسطى شبر.

(٧) الإبهام والخنصر متساويان، وما بين ثدييه يساوي ما بين عانته وسرته، يساوي ما بين رأس فؤاده وترقوته. وقد تقدّم في هذا التفسير أكثر من هذا وأعدناه هنا للمناسبة.

هذا بعض ما ذكروه في جسم الإنسان، وقالوا: إن كل حيوان بل كل نبات منظم تمام الانتظام على هذا المنوال، وقد ظهر في هذه الأمثلة المماثلة والثمن والربع والثلث. ومن هاتين القاعدتين في النسب الهندسية بنوا علم الموسيقى وعلم الجمال، ولقد أوضحناه في كتاب «الفلسفة العربية».

فانظر كيف فصل الله هذا العالم تفصيلاً، وانظر كيف جعل الحساب مفصلاً واضحاً لا يخطئ بعد آلاف الآلاف من السنين، وكيف فصل أعضاءنا وقدر الجمال إذا تم حسابها، والقبح إذا حصل اختلاف يسير. إن هذا هو التفصيل وهذا هو البيان. ولقد ظهر ذلك الجمال في علم الشعر والنسبة الهندسية فيه وفي ظلال الأشجار وفي السفينتين على وجه الماء، ونسبتهما ونسبة الماء الذي أزاحاه من ماء البحر وهكذا الثمن والمثمن، وأن بينهما ثمان نسب: أربعة طردية وأربعة عكسية، كل ذلك في كتاب الفلسفة كتب تذكرة للمؤمنين وعظة للمتقين.

إن الحساب يعلم الصبر والصدق وذلك ضد عجلة الإنسان الذي يسعى في فتوح البلدان يظنها خيراً مطلقاً، وما درى أن السم في الدسم، وهكذا المال والولد والصيت فكل ذلك سعادة وتحته آلام. فليكن الصبر هو الملجأ، ولتكن العلوم هي السلوة. وليكن الجمال هو المنظر. جمال هذا العالم البديع المتلئ بهجة وحسناً وكمالاً ونظاماً وبهاء. لقد بينت يا الله بعض معاني القرآن وإني قادم إليك من هذا العالم، وبرئت من الكتمان وأنت المستعان.

اللطيفة السابعة: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ الخ

اعلم أن هذا الجسم الإنساني قصر النفس ومسكنها ولوحها المقروء وكتابها الذي تدرس تشريحه وتفصيله، وهذا الكتاب يوماً ما ستذره الروح وتتركه ولكنها تجد كل ما عملت مسطراً فيها مكتوباً مفصلاً تفصيلاً كما فصلت أعضاؤه التي رأيتها، وكما فصل حساب السماوات التي عرفها، لهذا ذكر علم النفس بعد علم العوالم المادية لتعرف أن هذه الظواهر السماوية والأرضية المفصلة

الموضحة البديعة الجميلة وراءها أرواح مفصلة موضحة أكثر من هذه، ولأقرب لك الأمر بما هو مشاهد معروف. انظر إلى الدول الأوروبية، وإلى دولتنا المصرية، وتوجه إلى محافظة مصر، وانظر كيف جعلوا علامات الإبهام لكل إنسان دالة عليه، ووجدوا أنه لا إبهام يشابه الأخرى، أي أن إبهام زيد إذا طبعه على الورق يكون أصدق من ختمه الصناعي، لأن هذا الختم لا يقلد، فإن الخطوط التي في إبهام زيد تخالف الخطوط التي في إبهام عمرو فلا يتشابهان كل المشابهة. فهذا أيضاً من معنى قوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[الإسراء: ١٢].

وانظر أيضاً إلى لون كل امرئ وإلى صورته، وإذا كان الجنس الأبيض من الناس والجنس الأحمر والجنس الأصفر كل طائفة منهم قد اشتركوا في اللون، فإنك لا تجد واحداً يشبه لونه لون الآخر سواداً وبياضاً وحمرة وصفرة.

هكذا هيئة الوجه والأعضاء. هذا هو معنى: ﴿ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[الإسراء: ١٢] ووضحناه إيضاحاً. هذا توضيح الله لنا. هكذا نقول في أرواحنا كما قدمناه في هذا التفسير، فإن الأرواح الإنسانية يسطر فيها كل شيء عملناه وبالتكرار يصير هذا العمل ملكة راسخة، وهذه الملكة الراسخة فينا تبقى ثابتة. فالجهل والعداوة والحرص والطمع والبخل وما أشبه ذلك يصبح فينا جزءاً منا فهو يؤذينا كما نحس بالأذى من الأخبار المحزنة. وهذا الأذى لا يفارق النفس ويؤلمها أشد الألم، بل هو يؤلمها في الحياة الدنيا كما يحس الإنسان بالوخز في ضميره، فإذا وقعت الواقعة وانشقت سماء رؤوسنا فهي يومئذ واهية وزلزلت المادة الأرضية في أجسامنا وأخرجت أثقالها فرمتها بالأرض، ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾[الزلزلة: ٣-٤] بأن الموت قد أتى لها وإذن تبقى النفس خالصة لا شيء يحجبها فتحزن حزناً شديداً، فإن فارقت المألوفات حزنت عليها، وإن اقترفت الخطيئات احترق قلبها عليها، وإن جهات علوم الكائنات أصبحت في ألم عظيم إذ تحس بأن العلماء ارتقوا إلى أعلى الدرجات وهي باقية في الظلمات. وهذه قيامة كل امرئ، فكل امرئ تقوم قيامته بموته كما روي: «من مات فقد قامت قيامته»، وهذا مبدأ الحساب، والحساب واضح لا يحتاج لشرح، فإذا نظر الإنسان لصورته الحقيقية ورآها ملوثة قذرة، أنف أن ينظر إليها وكره منظرها وهو غير قادر على التخلص منها وهذا له الدنيا؛ فإن أصحاب العلاقات العشقية الذين حكم عليهم أن يعيشوا مع أخس النساء، والذين يتعاطون المسكرات، ويعلمون أن هذين الوضعين يضيعان شرفهم وصحتهم وسمعتهم ووظائفهم، فهؤلاء يقولون: نودّ لو نقدر على الترك ولكن الملكة فينا متمكنة فلا نقدر على المفارقة، فكل من هؤلاء يود لو يتوب، ولكن استحكام العادة يقعده عن الخروج منها، فهذا سجن وحسرة وإحراق قلبيّ زيادة عن الجسميّ، هذا هو قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾[الإسراء: ١٤]، فليست قراءة كتابية، بل قراءة نظرية علمية يقرؤها الجاهل والعالم والذكي والغبي والكافر والمؤمن، لا تحتاج إلى ذكاء ولا إلى عين وضياء، ويقال للإنسان إذ ذاك: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: ٢٢]، وأي بصر أحدّ من هذا. إن هذا العذاب يحس ببعضه الناس في الدنيا ولكنه مخبوء عنهم أكثره، فتجد العقلاء في أوقات فراغهم إذا رأوا عالماً أحسوا بحزنهم على تقصيرهم في العلم، وإذا رأوا ذا خلق حميد ودّوا لو يكونون مثله، ويذكرون نقائصهم فتحزنهم وهكذا.

فعذاب الإنسان بعد الموت أكثر مقدماته معلومة من الآن، فإن الجاهل يبقى في مزرعته أو تجارته مثلاً لا يفارقها، وإذا كان عنده علم رأيته يخلو به في بعض أوقاته ليرقي نفسه.

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو ما بينه الله، وهو أن حساب النفس في أخلاقها وأعمالها مسطر فيها مفصل كحساب الأفلاك وحساب ظواهر الأجسام.

واعلم أن هذا القول هو الحقيقة، أي: أن الناس اليوم في الحياة الدنيا مسطرة في نفوسهم نقائصهم وكمالاتهم، وأن ذلك ينكشف بالموت ويبتدي النعيم والجحيم، ويزيد الانكشاف يوم القيامة الكبرى، فالأطفال والنساء والصبيان يكتفون بعذاب جهنم، والعقلاء يستبعدون ذلك، فجاءت هذه الآية لتريهم سرعة العذاب. وهذا أيضاً ربما لا يكفي بعض النفوس فجعل الله العذاب في الدنيا، وكتمه عنهم، وأظهر علاماته، ليرتدع الناس عن الذنوب، وليعلموا أن لكل ذنب جزاء مبتدئاً من العمل منتهياً إلى آجال غير معلومة. هذه هي الحقائق الناصعة والآيات الواضحة.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

اعلم أيدك الله أن العالم الذي نعيش فيه يكاد ينطق بهذه الآية. يخيل للإنسان أن أعماله لا أثر لها، ولكن المفكرون الدارسون من علمائنا السابقين وعلماء القرن العشرين يعلمون بمزاولة الدراسة هذا المقام علماً إقناعياً تارة ويقينياً أخرى، ولأقدم لك مقدمة فأقول:

إن تفاوت الحركات في المادة بطأ وسرعة كتفاوت الأجسام خفة وثقلاً، وتفاوت الآثار ذهاباً وبقاء. أما كون التفاوت عظيم في الحركات فإن الناس يشاهدون السلحفاة القليلة الخطوات والأرنب السريع العدو والرياح العواصف وقطرات السكة الحديدية والبرق والنور، فأي نسبة بين السلحفاة والأرنب؟ وزد على ذلك ما بينهما وبين الريح.

يرينا الله البرق ويرينا السلحفاة ويقول أنا أخلق هذا البطء لحكمة وهذه السرعة لحكمة أخرى ولا أضن على خلقي بكل ما هو في الإمكان، والبخل بالممكن ظلم، والظلم لا يتصف به الحكيم العليم. وترى العلماء يقولون: إن سرعة الصوت في الهواء ١٠٩٠ قدماً في الثانية بميزان «فارنهيت» و١٤٦٣ قدماً في الهيدروجين في الثانية، وفي الأكسوجين ١٠٤٠ قدماً، كل هذا في الثانية، وفي الماء ٤٧٠٨ أقدام في الثانية وفي الحديد ١٦٨٠٠ قدماً في الثانية، وفي النحاس ١٦٠٠ قدماً في الثانية، وذلك نحو عشرة أمثال سرعته في الهواء، وفي السنديان ١٠٩٠٠ قدماً في الثانية. إذا فهمت هذا فانظر النور فإنه يقطع في الثانية الواحدة ١٩٢,٠٠٠ ميل في الثانية. ومعلوم أن محيط الأرض ٢٣٨٠٠ ميل. إذن النور يقطع محيط الكرة الأرضية ثمان مرات في الثانية، وبعبارة أخرى ٤٠ ألف كيلو مضروبة في (٨) وهو ٣٢٠٠٠٠ كيلو، مع أن قطر سكة الحديد يقطع في الثانية الواحدة نحو واحد من ستين من الكيلو وذلك نحو ١٨ متراً، فتكون سرعة النور أكثر من سرعة القطر في سكة الحديد ٣٢٠٠٠٠ في ٦٠ أو ١٩٢٠٠٠٠٠ أي: ١٩ ألف ألف ومائتي ألف مرّة تقريباً. ومعلوم أن قطر سكة الحديد أسرع من جري الخيل والخيل أسرع من الحمير وهكذا إلى السلحفاة، فاعجب لقطار أعجبنا جريه أصبح كسلحفاة بالنسبة للنور.

الكثافة واللطافة

وكما عرفت اختلاف الصوت تعرف اختلاف الأحجام خفة وكثافة، فترى الماء ألطف من الأرض نحو خمس مرات، والهواء ألطف من الماء ٨٠٠ مرة، والبخار ألطف من الماء ١٧٢٨ مرة كما تقدم في التفسير، فيكون ألطف من الهواء مرتين فأكثر قليلاً، ثم وراء البخار الذي يعلو على الهواء النور فهو ألطف وألطف. وما هو النور؟ هو إما مادة لطيفة وإما عرض قائم بالمادة، فإذا كان مادة لطيفة فكيف ينتقل من الشمس والكواكب إلينا إلا على جسم يحمله إلينا كما تنقل الدواب أجسامنا وأمتعتنا، وإن كان عرضاً في المادة بأن يكون تموّجاً في الأثير حصل المقصود وهو تلك المادة اللطيفة. إذن النور لابد أن يكون دالاً على شيء موجود، إما أن يكون هو نفس ذلك الشيء، وإما أن يكون هو قائماً به.

الله أكبر، جلّ العلم وجلت الحكمة اقتربنا من المقصود وهو ما جاء في كتاب «إخوان الصفاء» وما جاء في كتاب اللورد «أوليفر لودج». إن الذي جاء في كتاب «إخوان الصفاء» هو أن هذا الفراغ الذي نراه ليس فراغاً، والفراغ مستحيل لأننا لا نتصور هذا الفراغ إلا ظلمة أو نوراً، والظلمة والنور إما عرضان وإما جوهران وإما أحدهما عرض والآخر جوهر؛ فإن كانا جوهرين فقد تم المقصود وهو أنه لا خلاء في الكون، وإن كانا عرضين كالبياض والسواد فلابد أنهما قائمان بجوهر وقد تم المقصود، وإن كان أحدهما جوهراً والآخر عرضاً فحكمهما قد ظهر مما قبلهما وهذا برهان يقيني. هذا ما جاء في «إخوان الصفاء» فاسمع إذن لما جاء في كلام اللورد «أوليفر لودج» المعاصر لنا الذي ألف كتاباً سماه «الأثير والحقيقة» طبع في شهر مايو سنة ١٩٢٥ ثلاث طبعات أي قبل كتابة هذه المقالة بسنتين اثنتين وبضعة أشهر. فانظر ماذا يقول في هذا الكتاب، يقول: النور إما أن يكون مادة أو ظاهرة طبيعية ـــ يريد عرضاً قائماً بالمادة ـ فإن كان مادة منبعثة من الأجرام السماوية في كل ذرات دقيقة فلابد من شيء يحمله كما يحمل الماء البواخر. وإذا كان النور ظاهرة طبيعية أي: تموجاً، وجب أن يكون هناك شيء يتموج، وعلى كلتا الحالتين لا بد من وجود شيء يحمل النور أو يتموج فيكون النور وذلك الشيء هو الأثير. ألست تعجب معي أن يكون ما يقوله «أوليفر لودج» الإنجليزي هو عين ما يقوله «إخوان الصفاء»! وبينهما نحو ١١٠٠ سنة.

اللهم إن العقول الإنسانية الفاضلة في عالمك الذي خلقته متلاقية متصاحبة، والعقول الجاهلة متباعدة متنافرة. هاأنا ذا وصلت معك من الكثيف إلى اللطيف وذكرت لك الحركات ودرجاتها. فهاهنا مادة كثيفة وأخرى لطيفة وحركة بطيئة وأخرى سريعة. وبعبارة أخرى حجر وسلحفاة أولاً ونور وحركات النور ثانياً، فالنور مقابل للحجر، وحركات النور مقابلة لحركات السلحفاة. واعجب كيف يتلاقى الأمران في النور جوهره وحركته. ثم انظر في الأمر الثالث معي وهو ذهاب الآثار وبقاؤها فبقاء الآثار أشبه بالحجر وبحركات السلحفاة، وذهابها أشبه بحركات النور.

فانظر أمواج البحار وأمواج الهواء بالعواصف والرياح فهذه آثار سريعة الزوال، ثم تذكر بعد ذلك صور العناصر المركبة في أرضنا مثل النبات والحيوان، فلها مدى أطول ثم أطول جداً من مدى أمواج البحار وحركات الرياح من يوم إلى شهر إلى سنة إلى مائة سنة إلى أطول في بعض الأشجار

وبعض الحيوان. ثم انظر إلى ما هو أطول من ذلك كآثار المؤلفين الذين أودعوا نفائس علومهم في بطون الكتب والطوامير، وبقي ذلك مئات ومئات السنين، ثم انظر لما فوق ذلك مما أودعه القدماء من الكتابة على الأحجار والجدران المتينة الصلدة، بحيث بقيت تلك الآثار آلافاً وآلافاً من السنين. فانظر لهذا الوجود واعجب! مواد جامدة وأخرى لطيفة وحركات بطيئة وأخرى سريعة وآثار باقية وأخرى زائلة. وجود مليء بالأمور المتقابلة وكلها نافعة في هذا الوجود.

ثمرة هذا المقام معرفة حقيقة النفس الإنسانية وموافقة أبحاث اللورد «أوليفر لودج» في كتابه «الأثير والحقيقة» المتقدم ذكره للآراء التي أودعها الرئيس «ابن سينا» في كتاب «الإشارات»، وأنا موقن أنك أيها الذكي في أعظم الشوق إلى أن أقص عليك قصصهما، لتعجب من العلم الذي ملأ الكرة الأرضية، والمسلمون اليوم هم النائمون. ثم تعجب بعد ذلك كيف يكون هذا القول فيه مناسبة لمساق الآية التي نحن بصددها. وإذن وجب أن أظهر لك هنا ثلاث زبرجدات:

الزبرجدة الأولى: في آراء الرئيس ابن سينا.

الزبرجدة الثانية: في آراء العلامة «أوليفر لودج» في الكتاب القديم.

الزبرجدة الثالثة: فيما يناسب ما تقدم من مساق هذه الآية.

الزبرجدة الأولى: في آراء ابن سينا

جاء في كتاب «الإشارات» مع كلام شارحه هذه الجملة: «القوى المحركة للسماء غير متناهية وغير جسمانية فهي مفارقة عقلية»، يريد بذلك أن المحرك لهذه العوالم كلها قوة عقلية ليست في المادة بل هي مفارقة لها، ثم ذكر بعد ذلك أن هذا العقل العام تنبعث منه نفوس، وهو يمدها دائماً بما عنده من العلم، وتلك النفوس هي التي تقوم بعوالم السماء، فكل جرم سماوي أشبه بالجسم الإنساني، له قوة كامنة فيه كقوة الإنسان نسميه نفساً، وفوق هذه القوة شيء نسميه عقلاً، وله السلطة عليها، كما تجد فينا نحن عقلاً له السلطان على نفوسنا الشهوية، ويقول: إن الله أول ما خلق إنَّما خلق العقل الأول الذي ليس بجسم ولا هو جزء من جسم ولا يتعلق بجسم، بل هو عقل محض، وهذا العقل المحض تولدت منه النفس المذكورة، والنفس المذكورة أهل لملابسة الأجسام، وكل جرم سماوي له عقل وله نفس، وآخر العقول العقل الإنساني، وله اتصال بالعقول العالية المستمدة من العقل الأول الذي يستمد من الله، وهذه العقول كلها مع اختلافها في الدرجة ليست في مادة، كما أنها ليست مادة ولا جزءاً من مادة فهي مفارقة.

ومما يستدل به هو وغيره على أن الآثار في الأرض للعقول لا للأجسام، أننا نرى الشمس تسخن الأرض وتجعلها قابلة لبعض الأعراض، والسخونة نراها باقية بعد ذهاب ضوء الشمس. وهكذا نرى الثمار والحبوب قد صارت صالحة لما يراد منها بواسطة الشمس وحرارتها، وتبقى تلك الصفات فيها وإن فارقت حرارة الشمس، فذلك من الدلائل على أن هذه الآثار ليست للعالم الجسمي بل لعالم عقلي، وما الشمس ولا الهواء ولا الحرارة ولا البرودة ولا الرطوبة إلا معدات ومؤهلات لا مؤثرات، وكيف يكن مؤثرات وقد بقي الأثر مع عدمها هي. فهذا من ثمرات كون المؤثر في العالم المادي عالماً عقلياً مفارقاً للمادة.

ثم يقول بعد ذلك : أول موجود هو العقل الذي له السلطان على هذه العوالم كلها، وهكذا العقول الأخرى، ثم يليها صور الأفلاك والعناصر، ثم يليها مواد العوالم العلوية والسفلية، والمادة «الهيولى» هي أخس مراتب الوجود، ثم يرتقي الوجود فيكون معدناً فنباتاً فحيواناً فإنساناً، والعقل الإنساني أعلاه يكون منه عقول الحكماء ونحوهم، وهي العقول التي رسمت فيها صور الوجود على ما هو عليه بقدر الطاقة البشرية، فصار هؤلاء أقرب إلى العقول العالية الفلكية والعقل الأول وإن كانت صور الموجودات في الإنسان انفعالية وهي في العقول العالية فعلية. ومعنى هذا أن صور الموجودات في العقول الإنسانية جاءت بواسطة المخلوقات التي وجدت بتأثير العقول العالية المحيطة بهذا الكون، وبتأثيرها هي في عقولنا، فلا عقل في الأرض يدرك علوماً إلا إذا استمد هذه القوة من العقول العالية، كما أن أرضنا قد استمدت جرمها من جرم الشمس ونحن استمددنا أجسامنا وأغذيتنا من الأرض، فالأصغر يستمد من الأكبر عقلاً كما استمد منه جسماً، هاهنا وصلنا إلى بيت القصيد من هذا الموضوع.

لقد قدمنا أن الحجر والسلحفاة يغايران الضوء وحركة الضوء. وأن بقاء الأمواج المائية والهوائية أقل من بقاء النبات والحيوان، وهذان بقاؤهما أقل من بقاء بعض الكتب المؤلفة، والكتابة على الأحجار أبقى وأدوم. فهاهنا نقول: هانحن أولاء نرى أن علماء الفلسفة قديماً كالرئيس ابن سينا، يقولون: إن هناك دواماً لصور العلوم في العقل الأول والعقول التي بعده، وأن هذه العوالم العلوية كلها ذات نفوس كنفوسنا وعقول كعقولنا، وأن عقولنا مستمدة من العقل الفعال الذي في فلك القمر. هذا كلامهم وهذا رأيهم على مقتضى ما وصل إليه العلم في زمانهم. ويقولون: إن هذه العقول الإنسانية لهذا العقل الفعال أشبه بآلات له، وهذه العقول السماوية تدبر هذه العقول الإنسانية. هذا قولهم، ويقولون: إن تلك العقول العالية بالنسبة للعقول الإنسانية أشبه بالشمس بالنسبة للعيون البصرية، فكما أن العين لا تبصر إلا بضوء كضوء الشمس، كذلك هذه العقول الإنسانية لا بصيرة لها ولا فهم إلا بإشراق تلك العقول العالية، وهذه العقول رسم فيها هذا العالم كله. إذن نرجع لمثالنا ونقول: هذه العقول تبقى العلوم فيها سرمداً أبداً، فهي تفوق في البقاء الأمواج في الهواء والماء وصور النبات والحيوان وكتب المؤلفين والكاتبين على الأحجار، وعقولنا نحن تصبح بعد الموت حافظة لكل ما وقع لها لا تنساه، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]. هذا كلام المتقدمين من الفلاسفة الإسلاميين وبه تمت الزبرجدة الأولى.

الزبرجدة الثانية:

في ذكر ما قاله العلامة «أوليفر لودج» الموافق لآراء الرئيس ابن سينا

هاأنت ذا اطلعت على آراء الفلاسفة المتقدمين وطريق تفكيرهم بطريق الرئيس ابن سينا الذي نقل هو والعلامة الفارابي قبله:

(١) علوم علماء الإسكندرية الذين لخصوا فلسفة اليونان والرومان.

(٢) وعلوم علماء اليونان الذين هم أستاذة علماء الرومان كسنيكا وشيشرون ومن بعدهم، وقد جاء في تاريخ الفارابي أنه قرأ الفلسفة على أساتذة تعلموها من علماء بالإسكندرية، وقد كانت النصرانية حرمت عليهم التوغل فيها بعد الصدر الأول من التاريخ المسيحي.

فها هو ذا طريق تفكيرهم ، يقولون بالعقول وبالنفوس السماوية ثم بالعقل الإنساني الذي تفيض عليه العقول العالية المفارقة للمادة ، وهو مثلها مفارق لها . فإذا مات الإنسان لم تمت روحه لأنها في طبعها مفارقة للمادة فكيف تفنى .

هذا كلامهم فاسمع إذن لما يقوله السر « أوليفر لودج » :

(١) المادة . (٢) الحي . (٣) العاقل . (٤) الأثير .

(٥) كل من علاقة الحياة والعقل والنور والكهرباء والمغناطيس بالأثير .

(٦) تأثير العقل في المادة وسيادة ما لا نراه من العواطف على ما نراه من المادة .

(٧) انتقال الآراء من الدماغ إلى الأعصاب إلى الأيدي مثلاً إلى الورق أو الهواء إلى عقول الآخرين بتوسط حواسهم وأعصابهم .

ثم أبان فهم العقل الإنساني لآثار العقل الكلي الذي أحاط بهذه العوالم كفهمه لآثار العقل الإنساني . هذه صفة تفكير السر « أوليفر لودج » . هذه صفة تفكير علماء العصر الحاضر . هؤلاء الذين درسوا عالم السماوات والأرض ، فرأوا أن الشموس والكواكب ليست شيئاً سوى أنها مركبة من عناصر مثل التي ظهرت لنا في أرضنا كالنحاس والحديد والبوتاسيوم والصوديوم ، عرفوا ذلك بطريق النور ، ذلك النور الواصل من تلك الأجرام المضيئة الذي هو مركب من ألوان سبعة تتخللها خطوط سود ، تلك الخطوط تتنوع في الأجسام المضيئة بحيث تخالف خطوط الحديد السوداء مثلاً نظائرها في النحاس عند التهابهما . فبهذا عرفوا مواد الشمس وغيرها من الكواكب الثابتة والسيارة . فإن صرفوا طرق التفكير عن منهج القدماء الذين ظنوا أن هذه عوالم من عنصر غير عناصر الأرض . الفلاسفة القدماء كانوا يفكرون ذلك التفكير ليوصلهم إلى ما شعروا به في نفوسهم من بقاء الأرواح ، فتحيلوا على ذلك بما سمعته ، فإنهم رأوا هذه النفوس الإنسانية قد تخبر بما غاب في الرؤى ، فيتم ذلك ؛ فاحتالوا بالطرق العلمية على إثبات بقائها واتصالها بعوالم أخرى .

هكذا علماء العصر الحاضر كاللورد « أوليفر لودج » ، هؤلاء الذين لما صدق بعضهم بعوالم الأرواح ومناجاتها أخذوا يقررون ذلك بالطرق العلمية المعروفة في زماننا ، فتراهم يقولون : إن العالم الذي نحن فيه ليس من المادة وحدها ، بل فيه عالم غير مادي . يقول السر « أوليفر لودج » الذي هو سائر على نهج التفكير العصري : إننا نظرنا المادة فوجدناها خالية من الحياة في العناصر والمعادن والسوائل والغازات والكهرباء ، ثم رأيناها ارتقت في « البروتوبلازم » .

(١) المادة والحياة هي المادة التي ظهرت فيها الحياة بصفة مركب هلامي ، ثم نرى تلك الحياة تزداد ارتقاء طبقاً عن طبق حتى وصلت إلى العقل .

(٢) ولا ريب أن الحياة العامة والعقل الإنساني لم ندركهما وإنما عرفناهما بآثارهما . فنرى الحيوان يتحرك ويحس ، ونرى الإنسان يبني ويزرع وينظم ، فحكمنا بالحياة في الأول ، والحياة والعقل في الثاني .

(٣) ثم رأى العلماء أمرين عجيبين منذ القرن التاسع عشر في عهد « نيوتن » وهما : الجوهر الفرد الذي أثبتوه بالامتحان العلمي ، والأثير الذي لم يحكموا عليه لعدم خضوعه للامتحان العلمي لأنه لا شكل له كالمادة ولا هو مركب ، وإنما عرفوه كما قدمناه في هذا المقال بطريق النور إلى آخر ما تقدم .

(٤) النور والمغناطيسية الخ مع الحياة والعقل . ثم إن هذا النور فيه حرارة ، والحرارة تنقلب إلى حركة ، والحركة إلى كهرباء ، والكهرباء تنقلب ضوءاً . فهذه الظواهر ينقلب بعضها إلى بعض ، فالنور كهرباء والكهرباء نور ، وكل هذه الظواهر في العالم الذي سميناه « أثيراً » .

تأثير ما لا نراه من العقل والحياة فيما نراه من المادة

يقول السر « أوليفر لودج » ما ملخصه : إن هذا العالم كما تقدم فيه المادة وغير المادة وأكثر العلماء على ذلك ، فالحياة والعقل والحب والرحمة والغرائز المتنوعة في سائر الحيوان هي التي لها السلطان على المادة . ألا ترى أننا نعلم أن في خلايا الدماغ قوة تنبع من هناك وتسير في الأعصاب فالأعضاء ، فيتكلم اللسان وتكتب اليد ، والكلام يحمله الهواء ، والكتابة يحملها الورق أو الأحجار أو المباني ، والهواء يسلم الكلمات لأذن السامع ، وأذن السامع توصلها للأعصاب ، والأعصاب توصلها إلى خلايا الدماغ عند السامع ، وهكذا الكتابة يراها القارئ صوراً في الورق أو على الأحجار ، فيعقل صور معانيها ، فتنتقل إلى المخ فيعقلها الإنسان بطرق مجهولة للناس كل الجهل ، وهكذا إرسال البريد البرقي بسلك وبلا سلك على هذا النمط ، بل من الناس من يخاطب بعضهم بعضاً بطريق أخرى لا دخل للمادة فيه المسمى « التلبثية » .

فهاهو ذا الإنسان استخدم المادة لتحمل ما في ذهنه إلى ذهن الآخرين . إذن المادة نراها وراكبها العقل والعواطف لا نراها . رأينا الدابة وما رأينا راكبها ، راكبها من عالم لطيف لا يرى كما لا يرى الأثير الذي يحمل رسائل عقولنا في البريد البرقي « التلغراف والتلفون » ويحمل صور الموجودات في النور فيوصلها إلى العين ومنها إلى العقل . إن الحامل لذلك هو الأثير الذي يحمل النور ، أو النور ظاهرة من ظواهره .

ويقال في علم الأرواح الحديث : إن للجسم الإنساني جسماً آخر على صورته من عالم الأثير أشبه بما يراه الإنسان من صورته في المرآة . فصورة الإنسان في المرآة من عالم الأثير ولذلك أمكن بقاؤها بالتصوير الشمسي ، فهذا الأثيري يتربى مع هذا الجسم الطبيعي ، فهل إذا فني الجسم الطبيعي تفنى الروح ؟ أي : هل إذا فني الفرس يحتم فناء الفارس ؟ كلا ، إن الجسم الإنساني أيضاً لا يفنى بعد الموت ولكن مادته تحوّلت إلى أجسام أخرى . إذن الجسم لا يفنى وقد تحول ، فكيف نحكم بفناء الروح ؟ فهذه الروح الباقية التي لا تفنى والتي استقرت فيها علوم الإنسان ومعارفه باقية ، وقد استخدمت المادة والأثير في فهم عقل الإنسان الآخر .

وهكذا فهمت هذه النفس النظام العام للعقل الكلي المحيط بعوالمنا الأرضية والسماوية ، وعلى قدر فهمها من تدبير ذلك العقل ونظامه يكون ارتقاؤها واختراعها ، وباتصال بعض النفوس في الأرض بذلك العقل تقدر على الاختراع والابتداع ونظام الجمال وجمال النظام .

وعلى ذلك أصبحت النفس اليوم في العلم الحديث أشبه بالرجل الذي يضرب على آلة الطرب فإذا كسرت الآلة فهو حيّ باق . ذلك هو رأي اللورد « أوليفر لودج » في النفوس الإنسانية ، والحمد لله رب العالمين .

الزبرجدة الثالثة:
في مساق هذه الآية ومناسبته للعلم الحديث
وأن هذه من عجائب القرآن

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٢-١٤] الخ.

يا عجباً كل العجب! هاهو ذا ذكر النور والظلمة وجعل النور مبصراً. لماذا؟ لنطلب الرزق ولنعرف علم الفلك ولنعرف علم الحساب، ثم يقول بعد ذلك كلاماً آخر، يقول: إن كل شيء مما يرى ومما لا يرى فصله تفصيلاً. فأما ما يرى فقد تقدم، وأما ما لا يرى فهو مسألة كتاب حساب الإنسان الذي جعله الله ملازماً للإنسان، وهذا الكتاب سيقرؤه الإنسان يوم القيامة. إذن ما السبب في ذكر هذه الجملة بعد النور والحساب المستنتج منه ذكر النور وذكر سير الكواكب والحساب الذي لا يتم ذلك إلا به؟ ثم أتبعه بجملة تصل ما يرى بما لا يرى. ثم شرع في ذكر ما لا يرى، وقال: إنكم ستقرؤون كتابكم بأنفسكم وتعرفون حسابكم منه.

أفلا ترى أيها الذكي أن للنور علاقة بهذا الموضوع؟ والنور هو تموج في عالم الأثير، وعالم الأثير هو الباقي كبقاء أرواحنا، وأرواحنا تكمن فيها آثارنا. إن لذكر النور هنا وذكر طلب المعاش الذي هو أمر مادي، ثم إتباعه بذكر ما هو ألطف من علم سير النجوم والحساب، ثم ما هو ألطف وهو كتاب أعمال الإنسان، يدل على أن المساق واحد، وأن النور الذي نراه كما كان مكملاً لأمر المعاش المحسوس وأمر الحساب المعقول، قد سرى إلى ألطف من ذلك، وهو كتاب الحساب للإنسان بعد الموت، الذي هو أقرب إلى عالم الأثير الذي هو باق لا يفنى والذي كان النور المذكور ظاهرة من ظواهره.

فإذا سمعت الله يقول: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فهمت أن الأمر عظيم، فإن هذا النور الذي نراه ولا نعقله يتصل بأمر باق عظيم لطيف وهو الأثير، والأثير لا يضيع فيه شيء، بل هو حافظ لما فيه، فلا يذهب منه شيء فهو أشبه بمرآة للوح المحفوظ، إذن نحن نعيش في عالم الجمال ونتصل بالبهجة والكمال، وتحيط بنا العلوم والعقول ونحن محبوسون. اللهم أنر بصائرنا حتى ندرك الجمال ونعشق ذلك العالم الجميل حتى نفرح بالموت فرح العاشق الذي غاب عن معشوقه فتمنى لقاءه.

إن هذه الحياة إن لم تكن سبباً في حبنا للخلوص من المادة وللموت، فإنها تكون حملاً ثقيلاً لم يفد الفائدة المطلوبة.

وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه». انتهى، والحمد لله رب العالمين.

إشراق وبهجة لفهم ما تقدم

لعل أكثر الأذكياء الذين يقرؤون هذا التفسير قد طالت عبارات الرئيس «ابن سينا» وعبارات السر «أوليفر لودج» عليهم، فعسر عليهم تلخيص المعاني. فهاأنا ذا ألخصها ليفهمها العموم فأقول:

آراء القدماء من الفلاسفة

كان قدماء الحكماء من يونانيين ورمانيين وإسكندريين وفلاسفة إسلاميين أكثرهم يؤمنون بالله وبالعقل وبالنفس. وملخص ذلك أنهم رأوا نفوساً حيوانية يصدر عنها الحس والحركة، وعقولاً يصدر عنها الحكمة والفهم، ذلك مشاهد في الحيوان والإنسان، فرأوا الشمس والقمر والكواكب، ولها حركات كحركات الحيوان، فقالوا: هذه حركات منظمات، والحركات نتيجة نفوس قائمة بتلك العوالم العالية، والنظام نتيجة عقول مدبرة لها، فكما رأينا للإنسان حركات نتجت من نفس تدبره تدبيراً منظماً غالباً من عقل يفكر به، هكذا نرى هذه العوالم العلوية لها نفوس ولها عقول، وكل عقل في السماوات يستمد من عقل أعلى منه، وهكذا حتى تنتهي السلسلة إلى العقل الأول، والعقل الأول مستمد من الله مباشرة. وهذه العقول كلها لا علاقة لها بالمادة إلا كعلاقة الملك بالمدينة فقد يدبرها وهو خارج عنها. إذن العقل الإنساني له صلة بالعقول السماوية المتصلة بالعقل الأول المستمد من الله، فهذه العقول الإنسانية نسبتها لما يسمى بالعقل انفعال، كنسبة العين والأذن وحاسة اللمس والذوق والشم للنفس الإنسانية. فهذه العقول الإنسانية مستمدة من العقل الفعال ومتصلة به، وهذا العقل الفعال متصل بما قبله وهكذا، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم:٤٢].

وما هذه النفوس الإنسانية والفلكية إلا كالغضروف الذي يكون بين العظم واللحم فيكون صلة بينهما، فالعظم لا يمكن إيصاله باللحم، لذلك جاء الغضروف مناسباً للحم من جهة وللعظم من جهة. هكذا نفس الإنسان الشهوية والغضبية وقوة الحس والحركة، فهي تناسب العقل من جهة أعلاها وتناسب البدن من جهة أدناها، فتكون صلة بين عقولنا وأجسامنا. ونحن في كل آن نحس في أنفسنا بشيء يردعنا ويؤنبنا ويعطينا علماً وحكمة، فذلك هو العقل المتصل بالعقول العالية. هذا كلامهم وهذا صورته:

(١) عقل. (٢) نفس لها حس وحركة يظهران في جسم.

(٣) جسم مركب من لحم وعظم وأوردة وشرايين الخ.

أما السر «أوليفر لودج» فإنه يقول: هنا شيئان لا نراهما: الأثير والروح، والأثير يقوم به النور والكهرباء والحرارة والمغناطيس. الروح يكون معه الحياة والعقل والحب والبغض والرحمة والحسد الخ والنور وما عطف عليه يكون منها وضوح المبصرات والتلغراف والتلفون وأن تدور الآلات النافعة للسقي والطحن والخبز الخ، والروح وتوابعها يكون منها الحس والحركة وصون العلوم والاقتراب والابتعاد وإفاضة الخير وإيصال الأذى الخ. وهاتان هما الصورتان لهما:

أثير

نور لظهور المبصرات	كهرباء	مغناطيس	حرارة

لإدارة الآلات النافعة
وإيصال الأخبار
وتسهيل الأسفار

روح

بغض لافتراق الأجسام	حب لتقارب الأجسام	عقل لنظام الحياة	حياة للحس والحركة	حسد لإيصال الأذى للناس	رحمة لإيصال الخير

فها أنت ذا رأيت أن هنا درجات ثلاث: الروح والأثير وهما لا نراهما، وقد صدر عنهما الدرجة الثانية وهي قريبة منهما، فلا نرى الكهرباء ولا المغناطيس ولا نرى العقل ولا الحب، وهذه الدرجة الثانية في المقامين ظهر أثرها في الدرجة الثالثة في الأجسام المحسوسة، فترى الآلات الدائرة بالكهرباء والأجسام المتحركات بالحياة وتكون النتيجة أن ما لا نراه يؤثر فيما نراه. ثم إن العقل والأثير والحياة كلها أصبحت من واد واحد، وقد علمنا أن المادة التي نراها لا تنعدم بل تتغير صفاتها لا غير فمن باب أولى عالم الأثير وعالم الحياة والعقل، فإنها أولى بالبقاء، وإذن تكون عقولنا وحياتنا وعواطفنا باقية. هذا ما أردت إيضاحه لتقف على آراء المتقدمين والمتأخرين واتفاقهم على بقاء الروح إما بالبرهان القديم من اشتقاق أرواحنا من عقول فوق عقولنا لا تفنى، وإما بالبرهان الحديث من أن الأثير والروح من واد واحد لا يفنيان. انتهى.

بهذا نفهم قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥]. ويقول علماؤنا إن العالم عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق، وعالم الخلق يدخله التقدير والمساحة، وعالم الأمر لا يدخله تقدير ولا مساحة ولا شكل له. أليس من عجب أن يكون كلام السر «أوليفر لودج» العالم الطبيعي في زماننا هو عين ما يقول علماؤنا في تفسير الآية كالعلامة الرازي؟ الله أكبر. اجتمع علماء الدنيا، أي: أكابرهم، على بقاء الروح وأحوالها.

ومن المدهشات أنك ترى علماء الإسلام قديماً لما كفر المسلمون فلاسفتهم رجعوا إلى المواربة والتقية، فيقول العلامة محيي الدين بن عربي كما نقلته في آخر سورة «هود» عنه: إن عذاب الأنفس بعد الموت ما هو إلا كالمرض يعتري الجسم في الدنيا.

ويقول العلامة الغزالي في بعض كتبه: «إن أكثر الناس أقرب إلى الخير، وأقلهم من نال أعلى مقام أو انحطّ إلى درجات الهوان كما نشاهد ذلك في الجمال، فكمال الجمال وكمال القبح كلاهما قليل والمتوسطون هم أكثرهم».

أقول: يقولان ذلك لأن هذين القولين مذكوران في كتاب «الإشارات» لابن سينا. إذن أكابر الصوفية من المسلمين تستروا بالتصوف وأدخلوا الحكمة وجعلوها من ضمن الكشف، وذلك بسبب المرض العقلي الذي حلّ بأمم الإسلام فاختلت حياتهم وضاعت دولهم ولله عاقبة الأمور. وسيرجع لهذه الأمم مجدها ورفعتها وعزّها بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله، والله هو الوليّ الحميد. انتهى.

اعلم أيها الذكي أني لما كتبت هذا الموضوع كان ذلك في ليلة الثلاثاء ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٧ فاضطجعت للاستراحة فأخذتني سنة من النوم فرأيت جماعة يسألونني، فقال قائل منهم: هل كل ما كتبته في هذا الموضوع قام عليه البرهان؟ قلت: كلا، بل فيه بعض البراهين الإقناعية والخطابية وما هو أقل من ذلك، وإنما فعلت ذلك لأبين للناس كيف كان الناس يفكرون قديماً وكيف يفكرون حديثاً فرأيت أنهم سروا بهذا الجواب، ثم استيقظت حالاً فكتبت هذا، وخطر لي أن هذا مناسب لما قاله «سقراط» الفيلسوف لتلاميذه قال: «لعل ما سمعتموه يكفي لإثبات بقاء النفس بعد الموت، وفي الأقل ترجيح هذا الرأي على غيره، وهي الغاية القصوى التي يمكن إدراكها في هذه الحياة في هذا الموضوع». اهـ.

فهذا القول من « سقراط » يفيدنا أن العلم بأمور الحياة عقلاً إنَّما يعطي فكرة الترجيح لا التحقيق التام ، لأننا في هذه الأجسام الأرضية وذاك عالم أعلى . فهذا العالم الأعلى يعرف بحال أخرى غير البرهان ، مثل ما يوقن به بعض علماء الأرواح أو بعض أهل الرياضة والصلاح أو نحو ذلك ، وقد رأيت أن أنقل لك ما قاله الفيلسوف « سقراط » لتلاميذه نقلاً عن كتابي « الأرواح » فربما كانت هذه الرؤيا يقصد منها إثبات ذلك هنا ، فهناك ما كتبته هناك بنصه :

المجلس الحادي عشر في بيان براهين « سقراط » على بقاء النفس وكيف كان مبدأ التفكير عند المؤلف وكيف استدل ابن مسكويه عليها وهيئة المفكرين في هذا العصر الحاضر .

قابلني الشيخ شير محمد وقال : لقد فهمت في المجلس السابق كيف كان انتشار الروحانية في الدنيا وطرق الإحضار ، واليوم أرجو أن تذكر لي كيف أنكر الناس في هذا العصر وكيف ينسبون هذا الإنكار إلى رجال مجلة مشهورة في هذه البلاد . فقلت : يا شير محمد إن الناس على أقسام : فمنهم المفكرون الناظرون ، ومنهم المقلدون ، فأما المفكرون فما أحراهم أن ينظروا بعقولهم وكثير ما هم في بلادنا ، وقد يطلعون على آراء أفلاطون وسقراط وقدماء الفلاسفة ومحدثيهم . فأما براهين المتقدمين العقلية فمنها ما قاله « سقراط » ترجمة الفيلسوف « ستلانه » الطلياني والقفطي المصري وهذا نصها :

أولاً : إنا نشاهد الضد يتولد عن ضده ؛ فالجميل ينشأ عن القبيح والعدل من الجور واليقظة من النوم والنوم من اليقظة والقوة من الضعف وبالعكس ، فالأشياء يستحيل بعضها إلى بعض ثم ترجع بصفة دائرة إلى ما كانت عليه . والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان ، فالوجود ينشأ من العدم والموت ينشأ من الحياة ، وعلى ذلك يلزم أن تنشأ الحياة من الموت ، إذ لابدّ أن يكون للموت ما يناقضه وإلا فقد خالفت الطبيعة قاعدتها المطردة في جميع الأشياء .

ثانياً : ما يستدلّ به من طبيعة العلم وذلك أن العلم إنَّما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة ، ومصداقه أن أجهل الناس إذا سئل سؤالاً منظماً عن مبادئ الهندسة مثلاً وانتقل به السؤال من أصل إلى أصل شيئاً فشيئاً على الترتيب فقد يجد من نفسه مبادئ الهندسة ومبادئ كل علم ، وهذا لا يمكن إلا إذا كانت الأصول منطبقة في فطرته موجودة عنده قبل ولادته .

وهناك دليل آخر من هذا النوع ، وهو أنا لولا فرضنا علماً سابقاً موجوداً في ذهننا ما تمكنا من فهم شيء من الموجدات ، فإننا إذا قابلنا شيئاً بآخر مثلاً ، ما أمكن أن تقول إنه مساو أو غير مساو لو لم يكن في ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التي لم نستفدها من الأشياء المحسوسة ، إذ لا شيء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع التقريب ومسامحة توجب أن يكون معنى المساواة مرتسماً في ذهننا حتى نحكم على الأشياء أنها متساوية أو غير متساوية . ومثل هذا ما يحكم به فكرنا كالجمال والعدل والوجود وغيره فإن ذلك يستدعي معرفة تلك المعاني قبل الحكم عليها ، فيلزم منه أن العقل البشري إنَّما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعاني صافية غير مشوبة بالمادّة قبل ورودها إلى هذا العالم ، وهذا من كلام « سقراط » في الدلالة على أن النفس كانت موجودة قبل هذه الحياة .

أما الدليل على أنها موجودة بعد الموت فقد قال أيضاً ما يأتي : « إن النفس جوهر غير مرئي ، فيلزم أنه على غير طبيعة الأجسام ، لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركاً بإحدى الحواس . وإذا كانت

على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مركبة، لأن التركيب من طبيعة الأجسام، وإذا كانت بسيطة فإنها غير قابلة للانحلال، لأن الانحلال يعتري المركب إلى المواد التي منها تركب. فإذا كانت النفس بسيطة لم يتصوّر انحلالها. إن النفس هي الآمر والبدن هو المأمور، فمن طبيعة الأمور الإلهية أن تكون آمرة ومتصرفة، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة، فالنفس إذن من الأمور الإلهية وهي غير قابلة للزوال، فهي إذا بقيت على صفائها وفطرتها من غير أن تشارك البدن في أدناسه، فإنها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها، فتبقى معه سعيدة مبتهجة محرّرة من أوهامها وأخوافها، وكل ما كان يسخرها ويهوش عليها إذ كانت في قيد الحياة. وإذا تركت البدن ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا ما يؤكل ويشرب ويدرك بالحسّ، فلا يسعها إلا أن ترجع إلى حياة مشاكلة لطبيعتها»، إلى أن قال:

«وأما الالتحاق بالعالم الأعلى الإلهي فلا يجوز إلا لمن ترك الحياة وهو في غاية من النقاوة والصفاء، وهذا مختصّ بالفيلسوف الحقيقي دون غيره». ثم سكت «سقراط» برهة: وقال: «لعلّ ما سمعتموه يكفي لإثبات بقاء النفس بعد الموت، وفي الأقل ترجيح هذا الرأي على غيره، إذ هي الغاية القصوى التي يمكن إدراكها في هذه الحياة في هذا الموضوع». فاعترض عليه بعض تلاميذه باعتراضين:

الأول: أنه لقائل أن يقول إن النفس للبدن كالألحان لآلات الموسيقى، فإذا انكسرت الآلة وفسدت لم يبق للألحان وجود، وهكذا يمكن أن يقال إن النفس ما هي إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج الإنساني، فإذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج تفسد النفس لا محالة.

والاعتراض الثاني: أن يقال قد سلمنا وجود النفس قبل هذه الحياة، وأنها أفضل من البدن وأقوى منه، وأنها تبقى بعد موته، غير أنه لا يترتب على ذلك بقاؤها على الدوام، إذ قد يمكن أنها تبقى بعد موت بدنها، ثم تفنى، كما يموت الإنسان وهو قد أخلق الثوب بعد القشوب، ثم يموت عن آخر ثوب قد أخلقه.

فأجاب «سقراط» عن الاعتراض الأول بقوله: «إنا إذا سلمنا أن التعلم إنَّما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته في حياة سابقة، فلا يسوغ أن يقال: إن النفس نتيجة اعتدال المزاج، إذ لو كان كذلك ما سبق وجودها وجود المزاج، فكيف تتذكر معلوماتها في حياة سابقة؟ فإذا وجب الاعتراف بأن العلم لا يتصور إلا بوجود هذه المعلومات السابقة في النفس، لزم منه أن لا تكون النفس نتيجة المزاج. وأيضاً لو كانت النفس نتيجة المزاج لكانت تابعة للمزاج ولا تخالفه في شيء، بل تكون مسخرة له، ونجد خلاف ذلك في الواقع، إذ قد نرى النفس تنهى البدن عن أشياء وتأمره بأشياء وتتصرف فيه بوجوه مختلفة، وهذا يدل على أنها مغايرة للبدن مستقلة عنه، وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن، إذ لو كانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه في شيء ما، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لا فرق بين الألحان والألحان إلا في القوة والضعف لا من حيث إنها ألحان. ونحن نشاهد أن بين النفوس تفاوتاً عظيماً.

وأما الاعتراض الثاني، فجوابه: أن الأشياء المحسوسة الفانية لا يتصور قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية كاملة الوجود، وأن هذه المعاني ما دامت فهي لا تقبل شيئاً مما يناقضها. ومثال ذلك أن العدل لا يقبل شيئاً من الجور والمساواة، لا يدخلها شيء من التفاوت، والفرد ما دام على جوهر الفردية لا يقبل شيئاً من الزوجية والعكس بالعكس. والقول في النفس مثل القول في المعاني

سواء بسواء، إذ تقرر أن النفس جوهر مسيطر قائم بنفسه مجانس للمعاني، فيكون حكمه مثل حكم المعاني من عدم قبول الضد والنقيض. ولا شك أن النفس أصل الحياة، فهي إذن حية من ذاتها وهي إذن لا تقبل نقيضها، أي: الموت، ما دامت على جوهرها وهو الحياة. فكما أن الفرد لا يكون زوجاً والعدل لا يكون جوراً ما بقيا على حالهما، كذلك النفس لا تقبل الموت ولا يداخلها الفناء فهي إذن أزلية.

ثم إذا كان الموت نهاية كل شيء كان فيه فائدة عظيمة للشرير والظالم، فإنهما يستريحان بالموت من أنفسهما ومن البدن ومن شرّه ومن عواقب الشر دفعة واحدة. وهذا مما لا يرتضيه العقل ولا الإنصاف، فتعيّن أن نعتقد في النفس أنها إذا فارقت البدن فقد تحمل معها ما كانت عليه من الأوصاف إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فمن ترك وهو في قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنبها كما يجتنب ما لا يعني أو يضر ولم يطلب إلا ما يعين على العلم وزين ضميره بالعفة والعدل والمروءة والحرية والصدق، فله أن يترقب وقت السفر من غير اضطراب كمن تهيأ للرحيل.

وكل ما تقدم من المحاورة الموسومة فاذون أو فيذون كتبه القفطي في تاريخه، وفيها زيادات ترجمها الفيلسوف « سنتلانه » الطلياني أدخلتها هنا. وقد اطلعت على كتاب بالإنجليزية مطولاً بهذا العنوان وما لدينا من كلام القفطي والأستاذ « سنتلانه » الطلياني مختصرة.

كيف كان مبدأ تفكر المؤلف في أمر الروح

ولما انتهى بنا القول إلى هذا المقام قال شير محمد: قد فهمت ما قلت من آراء « سقراط » وأن الروح عنده قديمة، وعرفت براهينه الإقناعية، ولكني أريد قبل أن تخرج من قسم المفكرين إلى قسم المقلدين أن تخبرني كيف كان أول ما فكرت في هذا المقام؟ لقد رأيتك في كتاب « التاج المرصع » تبدأ بالشك في نظام هذا العالم، وتبين كيف كان تشككك وكيف كنت تطلب الحقيقة بنفسك، فأرجو أن تبين لي السبيل التي سلكتها حتى تعرف حقيقة الروح وهل كان الشكّ مبدأ أمرك فيها؟.

فقلت: اعلم يا شير محمد أن مبدأ أمري في مسألة الروح كان الشك المطلق بل الإنكار. ذلك أني كنت يوماً واقفاً في حقلنا بأرض « كفر عوض الله حجازي » بجانب نهره المسمى ترعة كفر عوض الله، وكنت أزاول بعض العمل فاعتراني دوار لضعف صحتي، فجلست مدّة، فلما أفقت مما أغشي عليّ، نظرت في أمر الروح، وقلت: يا ليت شعري، إذا كنت الآن لا أزال حياً لم أفارق الجسم وما هو إلا أن أغشي عليّ حتى فقدت الشعور والإحساس، فكيف تكون حالي إذا فارقت الجسم وتفرّقت الأوصال وتناثرت الأعضاء؟ فهل يبقى لي عقل أو علم؟ وكنت إذ ذاك في زمان العطلة الأزهرية، وكانت سني حوالي العشرين، ثم بعد ذلك رجعت إلى الأزهر وأنا منكب على طلب العلوم اللسانية والشرعية، فذات ليلة رأيت وأنا نائم في مقابر قريتنا « كفر عوض الله حجازي » وكأن قائلاً يقول: انظر، فنظرت في الجو فرأيت كأن هناك نوراً أبيض مغموراً في وسط الزرقة، فقال: هذه هي الروح، وكانت ليلة الخميس، فلما استيقظت قمت مع رفاقي المجاورين للرياضة خارج القاهرة قاصدين بيت أحد أقاربنا فلما جلست وجدت في الطاق كتاباً فأخذته، فإذا هو كتاب « تهذيب الأخلاق » للشيخ أبي علي أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ، ولم يكن لي عهد بهذا الكتاب

ولا بغيره من الكتب الفلسفية، فتصفحته فوجدته ابتداه بالبرهان على وجود النفس وأتى ببراهين أشبه بما تقدّم ذكره عن « أفلاطون » و« سقراط »، فمنها أننا لما وجدنا فينا شيئاً يضاد الجسم وأعراض الجسم ويباينهما كل المباينة حكمنا أنه ليس بجسم ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً، ألا ترى أن الجسم المثلث لا يقبل التربيع إلا بعد زوال الصورة الأولى وهي التثليث، وهكذا سائر الأشكال والأعراض ليس يقبل الجسم واحداً منها إلا إذا خلع الآخر، والعقل نراه يقبل سائر الأشكال والألوان والمقادير، فليس يتغير بل يقبلها كلها دفعة واحدة، وهذه العلوم تزيد العقل قوة بخلاف الجسم فلا يقبل إلا لوناً أو شكلاً، ولا يجمع شكلين معاً.

وهذا هو التباين العظيم بين المادة والعقل، ومنها أن القوى الجسمية لا تعرف العلوم إلا من الحواس فتتشوّقها بالملامسة والمشابكة كالشهوات البدنية ومحبة الانتقام، والجسم يزداد بها قوة فهو يفرح بها. فأما النفس فإنها كلما اقتربت من المادة ضعف إدراكها، وكلما رجعت إلى ذاتها ازدادت قوة. ومنها أن النفس تحرص على العلوم والأمور الإلهية ولا يتشوق شيء إلى ما ليس من طبعه ولا ينصرف عما يكمل ذاته ويقوم جوهره، فالنفس بانصرافها عن الحواس عند التفكير لتكمل معارفها مخالفة أفعال البدن، فهي إذن جوهر مفارق للبدن.

ومنها أنها أخذت مبادئ للعلوم غير التي أخذتها عن الحواس، فإنها حكمت مثلاً بأنه ليس بين طرفي النقيض واسطة وهذا لا تدركه الحواس. ومنها أن الحواس تدرك المحسوسات وحدها، وأما النفس فإنها تدرك أسباب الاتفاقات وأسباب الاختلافات وهي معقولاتها التي لا تستعين عليها بشيء من الجسم، وهي تحكم على الحس أنه صادق أو كاذب.

ألا ترى أن البصر يرى الكبير صغيراً والصغير كبيراً كالشمس والإصبع الغائص في الماء، فإن الأول أكبر بالبراهين، والإصبع ليس حجمه الحقيقي ما يرى في الماء بل أكبر عما هو عليه في النظر، وأسباب ذلك مذكورة في علم المناظر.

هذا ملخص ما ذكره ابن مسكويه، ولم أشأ أن أخرج مع المجاورين للرياضة، بل بقيت أقرأ الكتاب بقية النهار. فهذا كان مبدأ نظري في النفس وبقائها.

قال شير محمد: لقد أوضحت المقام، وتبين لي ما قاله القدماء والمحدثون، وعرفت كيف يتفكر العقلاء في بلادكم وإلى أي الكتب يرجعون، وعرفت النحو الذي ينحونه في معرفة الروح. ولقد رأيت ما قاله « سقراط » يشابه ما ذكر آنفاً في المحاضرات السابقة في كلام « غاليلي » الفلكي الشهير حين استحضرت روحه وقال إنها من المادة الأولى بسيطة لا تقبل العدم، وأخذ يفهم ما معنى الأبدية. فإذا صح ما قيل عن روح « غاليلي » سابقاً وأنها هي الروح حقيقة، رأينا تطابقاً غريباً بين كلام الأرواح ومقال « سقراط » وابن مسكويه، فإن إجماعهم أنها بسيطة لا تقبل العدم.

إلا إن العلم الحديث والقديم متفقان فما أجمل العلم وما أعجب الحكمة! ولقد فهمت هذا المقام حق الفهم، فلننتقل لبيان القسم الثاني من الناس بالنسبة للعلم، وهم المقلدون كما وعدت في أول هذا المجلس.

فقلت: موعدنا الصبح، أليس الصبح بقريب. انتهى ما نقلته من كتابي المسمى « الأرواح ».

زيادة إيضاح عن علماء الأرواح في قوله تعالى:
﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

لقد تقدم في سورة « التوبة » عند قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾ [الآية: ٣١] الخ أني نقلت هناك ترجمة حياة « عمانوئيل سودنبرج »، وأنه كلم الأرواح، وذكرنا هناك مستأنسين للآية بما حدثته به الأرواح مما وافق شريعتنا الغرّاء، ولقد جاء فيه ما يوافق هذه الآية تحت عنوان « إن الذاكرة والفكر والعاطفة وكل حاسة كانت للإنسان في العالم تبقى معه بعد الموت وأنه لا يترك شيئاً من ورائه إلا الجسد الأرضي ».

قال ما ملخصه في صفحة ٢٧١ في النسخة المترجمة وما بعدها: إن الإنسان لا يحس أنه مات بعد الموت، لأنه يرى له جسداً كالجسد الأرضي مع أنه أصبح روحاً، فهو يسمع ويبصر ويذوق ويلمس ويحب ويكره. فالروح على صورة الجسم وله سائر خواصه، وهو يقرأ ويكتب كما كان قبلاً. والفرق بين الحالين أن جميع الحواس بعد الموت أقوى وأشد وأعظم، ومثلها بنور الظهيرة بالنسبة لظل المساء، ثم ذكر أولاً: أن هناك قوماً أنكروا جرائم فكشفت لهم جميع أعمالهم وأعيد إظهارها من نفس ذاكرتهم بترتيب الأشهر والسنين من أول سنة إلى آخر سنة، وكان أكثرها زنا وعهارة وخديعة للناس بحيل رديئة وسرقات مريعة، فلما حصل ذلك اعترفوا. ثانياً: ومنهم من أحصيت الرشوة التي أخذوها بسبب القضاء، وذلك ليس له واسطة ولا كتاب إلا ذاكرتهم، ومن نفس هذه الذاكرة أحصيت جميع الأشياء التي أخذوها من أول عهد الوظيفة إلى النهاية، وأضيف إلى ذلك أدق ما في هذه الأمور وقيم تلك الهدايا وما قصدوه في نفوسهم. ذلك كله أعيد بنفس الذاكرة ثم ظهر لهم عياناً وقد بلغ عدة مئات.

قال: ومن غريب الأمور أن مفكراتهم التي كتبوا فيها أشياء هكذا فتحت بعض الأحيان وقرئت أمامهم صفحة فصفحة، وبعضهم قادوا العذارى إلى العار واغتصبوا العفة فقد دعوا إلى القضاء، والنساء عرضت كأنها حاضرة، وحضر نفس الزمن ونفس الكلمات والمقاصد كأنه خيال ظهر فجأة. وهذه المناظر التي تشبه السينما « الصور المتحركة » التي تسمى الخيالة قد تدوم ساعات متوالية.

ثالثاً: قد كان رجل يرى أن النميمة ليست شيئاً مذكوراً، فأحصيت نمائمه أمامه بترتيب، ونفس الكلمات التي قالها ذماً، وهكذا الأشخاص الذين وجهها إليهم، والذين قيل القول أمامهم. جميع ذلك أخرج وظهر مع أنه قد أخفي بكل دقة عند ما كان حياً. رابعاً: أن رجلاً معروفاً كان قد حرم أقاربه من الإرث بواسطة دعوى مزوّرة فظهر ذنبه وحكم عليه. والعجب أن الكتب والأوراق التي جرت مبادلتها بينهما تليت على مسمع مني ولم تفقد كلمة واحدة، وهذا الرجل قبل موته كاد يقتل قريبه بالسم فظهر بكيفية واضحة، وصورتها أنه حفر نقرة تحت قدميه، ومنها خرج رجل كأنه خارج من قبره، وناداه: ماذا فعلت بي؟ فكشف كل شيء، وذلك أن القاتل تكلم معه بهيئة صداقة ومحبة وقدم له الكأس وحضر الفكر الذي تفكره قبل ذلك، ثم ماذا جرى بعد ذلك. ولما ظهرت هذه الأشياء حكم عليه بالسقوط في جهنم.

ثم قال: وبالجملة فإن جميع شرورهم وجرائمهم وسرقاتهم وتمويهاتهم وخداعهم تعلن لأرواحهم الشريرة وتخرج بنفس ذاكرتهم ويحكم عليهم ولا سبيل إلى الإنكار.

ثم قال: متى كشفت أعمال الإنسان له جاءت ملائكة مفتشون فنظروا وجهها وفتشوا جميع جسمه مبتدئين من أصابع اليدين إلى آخر الجسم.

قال: وقد عجبت من أن الأشياء التي فعلها الإنسان لم تكن مرسومة في الدماغ وحده، كلا، بل هي مرسومة على جميع الجسد. ومعنى هذا أن أوائلها في أول الجسم وباقيها مرسوم على الجسم كله مرتبطاً منظماً. فكل ما فكر فيه الإنسان أو عمله مرسوم على الإنسان كله، ويظهر كأنه كتاب يقرأ، وذلك عند ظهوره من الذاكرة.

قال: وقد رأيت كتاباً وفيه كتابات كما ترى في الدنيا، وأخبرت أنها كانت ذاكرة أولئك الذين كتبوا، وأنه لم تبق ناقصة مما كتبه ذلك المرء في الحياة الدنيا. ومن ذاكرة المرء تؤخذ كل صغيرة وكبيرة.

وذلك كله من ذاكرته الروحانية الداخلية، لا ذاكرته الخارجية الطبيعية، والمرسوم في الذاكرة الروحانية الداخلية لا يمحى ولا يزول، وهي يرسم فيها كل فعل وفكر وقول وكل ما رآه المرء أو سمعه أو أحسّ به. هذا ما نقلته من ذلك الكتاب ملخصاً من صفحة ٢٧١ إلى صفحة ٢٨٦.

أليس هذا هو نفس قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] وقوله: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله: ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤]، وقوله: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤] وقوله: ﴿ وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقوله: ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٣٩]، وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١] الخ، وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ [النبأ: ٢٩]، وقوله: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن: ١٤]، وقوله: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقوله: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٢]. فهذه الآيات كلها موضحة أشد وضوح في هذه المحادثات التي ظهرت في علم الأرواح الحديث.

نعم إن علم الأرواح حديث في القرن التاسع عشر، وهذا المؤلف ظهر قبل ذلك ولكنه موافق لعلم الأرواح، وهذا كل ما فيه أنه موافق للقرآن، فإن صح كان معجزة صريحة لأنه جاء بما نطق به القرآن.

والحق أن هذا زمان ظهور الحقائق ومصداق قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٨٩]، وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٤٧] الخ، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

جوهرة في قوله تعالى أيضاً: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الآية:١٤]

مع قوله تعالى فيما يأتي في هذه السورة: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الآية:٧٦]الخ

وقوله تعالى فيها أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية:٥٣]الخ

وقوله تعالى في سورة «مريم»: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[الآية:٨٣]

وقوله تعالى في هذه السورة: ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾[الآية:٥٤]الخ

اعلم أيها الذكي أن النفس الإنسانية لا يسعها أن تصدق بعوالم تحيط بنا من كل جانب وتلهمنا خيراً أو تحدث في قلوبنا شراً. ولقد قدمت في مواضع من هذا التفسير نصوصاً عن كبار العلماء شرقاً وغرباً، والذي ذكرته من ذلك كاف موجب للطمأنينة، ولكني الآن أريد أن أضم إلى ما تقدم ما عثرت عليه بعد ذلك.

فأولاً أذكر لك كلام الإمام الغزالي في الإحياء، ثم أتبعه بكلام بعض علماء الأرواح لتعجب من هذه الدنيا ومن علومها، وأن الإنسان قديمه وحديثه يبحث عن الحقائق. فهاأنا ذا قد ذكرت فيما مضى في غير ما موضع وأقربها ما في آخر سورة «النحل» أن عالمنا الذي نعيش فيه قد جعل الله فيه الخير والشر مقرونين في قرن. فنرى السباع في مقابلة الأنعام، والحيات والعقارب فيها سمها يقابل ترياق أجسامها كما تراه هناك مبرهناً عليه بتجارب الأطباء، وهكذا الحيوانات الذرية التي لا ترى إلا بالمنظار المعظم، ظهر كما تقدم هناك أن جرمها ترياق لسمها كالحيات سواء بسواء. هذا كله تقدم ثم تخطى الناس ذلك إلى عالم الأرواح، لأنه ما الذي بعد هذه الحيوانات التي لا ترى بالعين إلا العوالم التي لا ترى أصلاً.

فانظر إلى كلام الإمام الغزالي رحمه الله فهو يقول في المجلد الثالث من الإحياء تحت عنوان «بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها»، لقد أفاض في هذا المقام في بيان أسباب قبول العبد الوسوسة تارة والإلهام أخرى، إلى أن أوضح أن هذه الخواطر المنقسمة إلى قسمين: خواطر الخير وخواطر الشر، حادثة والحادث لابد له من محدث ومحدث الخير غير محدث الشر، فالداعي إلى الخير نسميه ملكاً، والداعي إلى الشر نسميه شيطاناً، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول الأول يسمى «توفيقاً»، والذي يتهيأ به لقبول الثاني يسمى «إغواء»، والملك عبارة عن خلق خلقه الله شأنه إفاضة الخير وسخره لذلك، والشيطان خلق ضد ذلك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[الذاريات:٤٩]. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «في القلب لمتان: لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وتعالى وليحمد الله، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[البقرة:٢٦٨] الآية.

ثم انظر إلى ما يقوله علماء الأرواح في الأعصر الحديثة. جاء في كتاب «السماء وجهنم» الذي نقلت عنه في سورة «التوبة» قال في عدد ٥٧٨ ما ملخصه:

إن شر أهل جهنم جميعاً أولئك الذين كانوا في حياتهم يحبون الشر، ولا يحبون إلا ذواتهم وحدها، ولا يسلكون إلا مسالك الخداع وطرق الغش، وهذا الخداع الذي تشبعت به أفكارهم يفيض منهم على غيرهم، فيوسوسون إليهم ويكون ذلك عدوى. أقول كالعدوى الحاصلة بالحيوانات الذرية. قال: وهؤلاء يسمعون جناً وهؤلاء يكون نعيمهم وسعادتهم وسرورهم بأن يدسوا السم في الدسم ويخدعوا غيرهم بالوسوسة، فينفثون السم في نفوس غيرهم كما تنفث الأفاعي سمومها في الأجسام، فالحيات بتفريق سمها تفرح وهؤلاء بتفريق وسوستهم وغشهم يفرحون ويمرحون. قال: والذين ليس عندهم هذا المكر وهذا الخداع المستمد من حب الذات يكونون في عذاب أقلّ.

ثم قال: إنهم يشمون العواطف كما تشم الكلاب البهائم البرية في حرش. ثم إن العواطف الصالحة متى أدركوها تتحول حالاً إلى عواطف شريرة، وتقودهم بكيفية عجيبة وعذر خفي، ويتحيلون بحيل أن يدخلوا المقاصد الرديئة بأوهام تؤثر في الإنسان وهو لا يشعر، فهؤلاء يفعلون بعد الموت نفس ما كانوا يفعلون في الحياة الدنيا، ويرون في هذا نعيمهم وسعادتهم وعزهم. قال: والله يبعد هؤلاء عمن هو صالح. قال: وهذه الأرواح الشريرة تهيج في الإنسان الشرور والرذائل الموروثة التي تبقى مخبأة، فهؤلاء يستخرجونها ويظهرونها فتكون ضراً ووبيلاً على الإنسان.

وقال في عدد ٥٩٤ ما ملخصه: إن سكان الجنة طوائف وهكذا سكان جهنم، وكل عقاب لطائفة من طوائف أهل النار يقابله نعيم لطائفة توازيها في جهنم. ويقول: إن هذين القسمين لا بدّ منهما في الوجود كله. ففي عالم الطبيعة نرى الحرّ والبرد والظلمة والنور والرطوبة واليبوسة. ويقول: إن الإنسان لا حرية له إلا بأن يكون له وسوسة وإلهام، فيكون عنده الداعيان: داعي الخير وداعي الشر، وهذان الداعيان يتجاذبانه، فهو بينهما يختار ما يوافقه ويجاهد في دفع الآخر حتى يختص بأحد الأمرين. انتهى.

أفلا تعجب أن ترى العقول البشرية في الشرق والغرب التقت في نقطة واحدة، فترى الإمام الغزالي يأتي بالحديث ويذكر الوسوسة والإلهام، ويقول: هما مسخران من الله، ونرى هذا العالم الإفرنجي الروحي يقول مثل ما يقول بعبارة أخرى، ويرجع إلى أن كل شيء زوجان. انظر كيف اتفق القولان مع ما بينهما من بعد الشقة والدين والزمان، وهذا من العجب العجاب.

اللهم إن العلم هو السعادة في هذه الحياة. انظر كيف يقول في كتاب «السماء وجهنم»: إن هذه الأرواح الشريرة تحسّ بلذة. فيا عجباً! إذن هي مستلذة بالوسوسة كما يستلذ الناس في الدنيا بالتغلب على أعدائهم وبذل من يحسدونهم وهلاكهم.

موازنة بين ما جاء في كتاب «السماء وجهنم» المذكور

وبين ما جاء في كتاب «الإبريز» الذي ألفه الحافظ أحمد بن المبارك عن أستاذه عبد العزيز الدباغ الذي عاش في القرن الثاني عشر الهجري أي قبل أيامنا هذه بنحو قرنين اثنين والكتابان في زمان واحد وهذا شرقي وهذا غربي وكلاهما يرجعان لعلم الأرواح

إن الأستاذ الحافظ أحمد بن المبارك المذكور قد ظهر من كلامه الذي قرأته أنه كان بحراً في العلوم الإسلامية والحكمية والصوفية، وهو ذكي قدير، ولكنه لما قابل الشيخ عبد العزيز الدباغ رآه

رجلاً أمياً، وهذا الأمي أدهشه، فإنه لا يحفظ القرآن ولا الحديث ولا يعرف من هذا شيئاً، ولكنه رآه يعلم فوق ما يعلمه جميع الفلاسفة وعلماء الدين في أمة الإسلام. وسأذكر في مواضع أخرى من هذا الكتاب بعض المحاورات التي جرت بينهما بمناسبات آيات من القرآن، وأذكر هنا ما يناسب ما نحن فيه. ذلك أنه قال في صفحة ١٦٥ ما يأتي:

« إن الرجل الذي إذا أمكنته المعصية أقبل عليها واستحلاها غاية الاستحلاء، وتشوّق إليها بالكلية، يستحليها يوم القيامة، فينقطع إلى العذاب بجميع شراشره، ويتشوق إليه بالكلية، ويقع فيه المرة بعد المرة، ويستحليه استحلاء المجروب للحك، وعلى قدر ما حك يكون وباله ». انتهى.

أقول: وهذا هو نفس ما نشاهده في الدنيا، فإن الإنسان على مقدار حبه لزيادة المال أو المناصب يزداد نصباً وتعباً فهو كالأجرب، أفلست ترى أن هذا المعنى هو الذي جاء في كتاب « السماء وجهنم » فيما قدمته لك هنا إن الأرواح الشريرة تفرح وتتنعم بخداع غيرها. إذن نحن الآن في حياتنا الدنيا على هذين الرأيين تتجاذبنا أرواح وتحيط بنا نفوس، منها من يريد بنا الخير، ومنها من يريد بنا الشر، وكل يفرح بظهور آثاره فينا، والأرواح الشريرة تزيد عذاباً بتنعمها بإضلالنا، والعكس بالعكس، إذن صار عذاب هذه الأرواح الجهنمية في البرزخ بما به تستلذ كما تستلذ الحيات والعقارب والناموس بإدخال السم والأمراض في أجسامنا فتهرب منا ونطاردها في أماكنها.

نظرة أخرى في هذين الكتابين وذكرهما عذاب جهنم

جاء في كتاب « السماء وجهنم » في هذا المقام ما يأتي:

إن الكوى والأبواب تكون تحت السهول والأودية بهيئات متنوعة وتحت الجبال والتلال والصخور، وتكون أشبه بالمغائر والكهوف أو كالغياض وبحيرات الماء، وهي مغطاة لا تفتح إلا عندما تطرح فيها أرواح شريرة من عالم الأرواح بعد امتحانها، وإذ ذاك يخرج بخار من نار ودخان كالسخام الذي يخرج من المشاعل ومعها لهب، وبعضها سراديب مملوءة ظلمة. وفي بعض طبقات جهنم أكواخ سيئة البناء كأنها مدينة طافحة بالأزقة والشوارع وفيها تسكن الأرواح الجهنمية، وهم في قتال مستمر وقد تقدّم بعض هذا. انتهى.

وانظر ما يقوله الشيخ عبد العزيز الدباغ فيما نقله الحافظ أحمد بن المبارك في صفحة ١٤٢ في كتاب الإبريز: قال الحافظ أحمد بن المبارك: أذكر هنا بعض ما يشاهده المفتوح عليه. قال: إنه يكاشف بأمور: منها أفعال العباد في خلواتهم. ومنها مشاهدة الأرضين والسماوات. ومنها مشاهدة نار البرزخ وهذا البرزخ ممتدّ بين السماوات السبع والأرضين السبع، وتكون فيه الأرواح بعد خروجها من الأشباح على درجاتها، وأرواح أهل الشقاوة في أهل النار، وهي على هيئة منازل ضيقة كالآبار والكهوف والأعطاش، وأهلها في نزول وصعود دائماً، لا يكلمك الواحد منهم كلمة حتى تهوي به هاويته. قال: وليست هذه النار هي جهنم، لأن جهنم خارجة عن كرة السماوات السبع والأرضين السبع وكذلك الجنة الخ. انتهى.

فتعجب من اتفاق الكتابين على رأي واحد، وأن جهنم تكون بعد الموت فعلاً، ولكنها جهنم البرزخ، والذي عرّفنا أنها جهنم البرزخ هو الشيخ عبد العزيز الدباغ.

أما صاحب كتاب « السماء وجهنم » الذي تقدم فإنه يظن أنها جهنم الأصلية . إذن الشيخ عبد العزيز الدباغ أعلم من صاحب كتاب « السماء وجهنم ».

يظهر من هذا كله أن هؤلاء يرون أن المجموعة الشمسية التي نسكنها هي التي فيها البرزخ، وأن هذا البرزخ هو هذا الجوّ الواسع الذي بين الكواكب السيارة الدائرة حول الشمس، وأن أرواح الأحياء إذا خرجوا من الأجساد سارعوا إلى الأماكن المعدة لهم في ذلك الجوّ. ولا جرم أن هذا أمر روحي لأننا في عالم الأجسام لا نعرف شيئاً له وجود في هذا الخلاء. ومتى قامت الساعة وطاحت هذه المجموعة الشمسية هي وغيرها، جعل أصحاب النار وأصحاب الجنة في أماكنهم التي سيصلون إليها في الجنة والنار اللذين هما في عوالم أخرى لا ندريها. وسترى إن شاء الله في سورة « النور » عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥] مبحثاً في نقطة الماء، وأن هذه النقطة وجميع المادة التي نعيش فيها ليس فيها من المادة إلا جزء قليل جداً، وما هي إلا خلاء نسبة المملوء منه بالمادة إلى الخالي منها كنسبة واحد إلى مائة ألف ألف ألف ألف جزء، فإذا كانت نقطة الماء تسع « خمسمائة ألف ألف ألف ألف ألف » جوهر فرد وهذه كلها لا تشغل من القطرة المذكورة إلا جزءاً يكاد يكون معدوماً، فإذن المادة من هذه الوجهة تكاد تكون عدماً. فلو فرضنا هذه النقطة مدينة تسع « مائة ألف ألف ألف ألف » حجرة، فلا تشغل تلك الجواهر الفردة المتقدمة إلى حجرة واحدة منها. وعلى ذلك يكون هذا العالم الذي نعيش فيه من أرض وسماوات ومعدن ونبات وحيوان أشبه بالمعدوم، وإنّما الوجود كله هو الأثير المالئ لهذه العوالم كلها، وهذا الأثير هو الذي توجد فيه الأرض والكواكب، وفيه تكون الأرواح ولها حياة قبل اليوم الآخر روحية تقدم وصفها. إذا علمت هذا فإنك ستفهم ما سيعرض لك من المراسلات بين الأرواح وبين الناس.

إن علم الأرواح انتشر وملأ الأقطار كلها، والمسلم لا يمكنه أن يعيش في خلوة، فهو يقرأ هذه العلوم التي ملأت أوروبا والشرق، ويقرأ رسائل كثيرة ترد من الأرواح بالطرق التي ذكرتها في كتاب « الأرواح »، فيحصل للمسلم من هذه المراسلات شكوك وأوهام، فيقول في نفسه: إذا كانت هذه الأرواح فرحة مسرورة فأين عذاب الكافر منها والفاسق؟ . فإذا علم المسلم ما كتبناه هنا أدرك أن شقاء الفاسق والكافر منها أشبه بحك الأجرب لجربه، وأن العذاب يصحب اللذات؛ كما أن الحية والعقرب فرحتان بحياتهما بل لا تعرفان حياة سواها، فافهم ذلك. وهناك أمثلة على ذلك من كتاب « بهجة الأفراح في مناجاة الأرواح » المؤلف حديثاً المطبوع سنة ١٩٢٨م جاء فيه ما يأتي:

محلنا هذا الروحي الذي نسكنه الآن محل شغل وحركة لا محل كسل وبطالة، غير أن قليلاً من الموسيقى والترتيل يكون مستطاباً ومقبولاً لكن بشرط أن لا يدوم النهار كله. اهـ.

وأوضح من هذا ما جاء في رسالة من روح والد يسمى يوسف، وردت في نيسان « إبريل » سنة ١٩١٩ في « واشنطون » بأمريكا جاء فيها نصائح لابنه، ومنها ما يأتي:

سيحصد الإنسان ما زرعه وسينال مكافأة أعماله في هذه الحياة الأرضية. وأما الغفران فليس مجرد التخلص من القصاص بواسطة أمر الله بل هو مغفرة أو محو الأعمال المغايرة التي ليست مرضية وتؤثر ببطء تدريجاً في نفس الإنسان، وهكذا عندما يصير روحاً من الأرواح السماوية يجب أن يجد

ويتكل على نفسه؛ فالروح يجب أن توفي كل ما عليها من الذين قبل أن تنال النفس المغفرة، وتوافق النفس إرادة الله ونواميسه.

ثم قال: وهنا أقول لك دعني أقل إنه لا يوجد إيمان أو سر أو معتقد كنيسة من الكنائس يقدر أن يمنح هذا الغفران، إنّما هو عمل من أعمال النفس، وينبغي للإنسان أن يسعى له ويجد ويجتهد. كتبت كل هذا حتى أريك يا بنيّ أن النظام قاس لا يلين. وقد تكلم قليلون وهم الذين يفهمون نظام الأعمال وتأثيرها في الإنسان، فيهملونها وييسئون استعمالها، خصوصاً خدمة الكنائس ووعاظها المتحلين دائماً السلطة الروحية. وقد عرفت مما تقدّم أنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن هذه الأشياء التي تدنس نفسه وتفسد أخلاقه، ولكن يا للأسف أكثر الناس بدل أن يتحاشوا هذه الأشياء يزيدون الطين بلّة، يأتون إلى العالم الروحي مثقلين أنفسهم بأحمال ثقيلة. وهكذا تبقى أعمالهم وأفكارهم غارقة في لجج الأهواء التي لا ترضى، فهؤلاء يجب أن يقضوا في عالم الأرواح أدواراً عديدة لكي تطهر نفوسهم من هذه الأشياء، فالإيمان والرجاء الكاذب لا يفيدانهم شيئاً لتطهير نفوسهم بل يكونان حجر عثرة. انتهى المقصود منه.

أفلا ترى أن هذا القول وما قبله صريحان في أن كثيراً من هذه الأرواح معذّبة وإن كانت تخاطب أحبابها في عالمنا. هاهي ذه الرسالة الأولى يقول فيها: إن الحياة كلها عمل، والله يقول: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾[الغاشية: ٢-٣] الخ، فهذا نوع من النصب، وانظر كيف يقول إن الإيمان والرجاء الكاذب عقبة في سبيل المغفرة. إذن ليفهم المسلمون أن هذه الأرواح التي تراسل أقاربها في أمريكا وفي أوروبا تكون في عذاب، ومن العذاب الشغل القاسي.

وانظر كيف يقول: إن النظام قاس لا يلين. ثم انظر كيف يئس من العقيدة الدينية الزائغة عن محجة الصواب بسبب القسيسين والقائمين بأمر الدين. وليعلم المسلمون قاطبة أن هذه العاقبة هي عاقبة الكسالى المسلمين الذين تركوا مواهبهم وعقولهم في الدنيا واتكلوا على شيوخهم ونظراتهم، أولئك هم المغرورون. انتهى، والحمد لله رب العالمين.

وجاء في الكتاب المذكور «بهجة الأفراح» أيضاً صفحة ٩٣ و٩٤ ما يأتي:

سئلت روح «بؤب أنجرسول الجاحد»: ما هو الشيء الذي أدهشك بالأكثر حينما انتقلت إلى عالم الأرواح؟. فأجاب: معرفتي الحق، وأنى ذو نفس أزلية خالدة لم أمت ولن أموت. ثم سئل: ما الدين الحقّ؟ أجاب: هي أن تبلغ نفوسنا أسمى درجة في القرب من خالقها وتكتسب من محبته الفائقة ومن ألوهيته العظيمة التي لا تتناهى. وقد سئلت أيضاً الأسئلة الآتية:

س ـ هل تقدر أن تعرفنا ما هو الإله؟.

ج ـ إن الله هو الخالق المبدع، والكل في الكل، والذي بدونه لم يكن شيء مما كان وسيكون، هو علة كل العلل، ومصور كل الحوادث الطبيعية، هو البداية والنهاية والأول والآخر الذي لم يكن قبله ولا بعده شيء من الكائنات.

س ـ هل الإله موجود منذ الأزل؟

ج ـ نعم. نعم. نعم. هو أزلي وكل مادة الكون صادرة منه.

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً أن طبيباً يسمى « الدكتور هانسمان » جرى شوطاً عظيماً وجدّ في بحث علم الأرواح ، وكتب عشرات من الأرواح أسماءها على الأوراق تارة وعلى الأحجار أخرى بدون أن تمسها يد إنسان بحضوره مع جم غفير من العلماء والفلاسفة . وهذه الإمضاآت شهد الحاضرون إنها هي نفسها إمضاآت أولئك العلماء في حال حياتهم بالدقة . ومن جملة الذين كانوا يظهرون بأشخاصهم بسبب وجود الوسيطة روح رجل يسمى « جورج خريستي » ، فلم يسع الدكتور « هانسمان » في مقابلة مساعدة روح « خريستي » المذكور إلا أن يشكره شكراً جزيلاً على مساعدته في إظهار الحقائق . ثم قال الدكتور « هانسمان » لروح « خريستي » المذكور : إني مستعد لمساعدتك . فأجابت الروح بما يأتي :

أيها الدكتور ، أظهرت كل لطف ورقة بقولك لي إنك مستعد لأن تجري نحوي كل مساعدة فأقدّر لك هذا القول اللطيف حق قدره ، ولكنك لا تقدر أن تصنع لي شيئاً . إن الغلطة التي ارتكبتها المسيحية هي ترك ملابسنا الكتانية المملوءة دعارة ونجاسة ليسوع المسيح لكي يغسلها وينظفها ويقصرها بينما نحن نقضي معظم حياتنا الأرضية في ارتكاب المعاصي والآثام . الحياة الشريرة التي تضعف رجاء الآخرين وتقطع آمالهم من الخلاص والمحبة الإلهية . هؤلاء الخطأة والأثمة انهمكوا بالخلاعة ، فتعلمهم الديانة المسيحية أنهم إذا تابوا في آخر ساعة وآمنوا بالمسيح وندموا ندامة تامة تغفر لهم كل خطاياهم ويغسلون بدم المسيح فيصبحون أبراراً أطهاراً يستحقون أن يدخلوا السماء . فهذا الاعتقاد فاسد لا نبشر به هنا ولا نعلمه ، لأن النفس لا يلزمها كفارة بل يجب عليها أن تقلع لشراعها كما تسير السفينة إلى ميناء الأمان حالما تنطلق من الجسم المادي المسجونة فيه ، قاصدة أن تملك لنور الطهارة حيث تستعد لترفل في حلل الراحة والسلام والسعادة الأبدية مع الله عز وجل الذي هو أصل المحبة والجمال ، وعلى كل إنسان أن يقرع باب السماء بنفسه ، وبحسب استحقاقه ، ويرى صك المرور فلا يستطيع أن يختلس الدخول إلى السماء خلسة ، بل يجب عليه أن يشتغل بجدّ واجتهاد ، وكل منا يسكن المنطقة التي تليق به ، وعلى مقتضى تقدمه ودرجة اختباره وارتقائه وما يحصله من المعارف والعلوم وأسباب الرقي . وهكذا يظل يجاهد بنفسه ليرتقي من كون إلى كون ومن كرة إلى كرة ومن مسكن إلى مسكن ، وتختلف هذه المساكن الكثيرة بالمجد والسناء والكرامة والراحة والنور ، ولا نقدر أن نصفها بلسان ليفهمه العالم الأرض ، وفي هذه الأحوال قد بذلت مقدرتي لأوضح ما نحن فيه من السعادة والعدل . انتهى . ويلي ذلك الإمضاء . « جورج خريستي »

ويقول الدكتور « هانسمان » : إنه حصل على كل ما ذكر هنا في ١٥ دقيقة .

تذكرة

سيرد على خاطرك أيها الذكي أن هذا مسيحي وكيف ينطق بهذا القول ؟ أقول لك إنه قد أظهر في قوله : إن المسيحية مغشوشة ضارة بالنوع الإنساني . أليس هذا هو النسخ الذي ورد في ديننا ؟ فترجع وتقول لي : كيف يصف الأنوار في الحياة الأخرى وأنهم في ارتقاء ؟ أقول لك : هل نسيت ما تقدم عن الشيخ عبد العزيز الدباغ وعن الأستاذ « عمانوئيل » العالم الروحاني ؟ فهذا إفرنجي وهذا مسلم كما قدمت ، وكلاهما يقول : إن العذاب في البرزخ ـ أي : بعد الموت ـ يكون أشبه بحك الأجرب جربه فهو

يحك ليستلذ فيزيده الحك مرضاً ، كما ترى في الدنيا أن الإنسان يعطى المال فيطمع في الزيادة ، فكلما ازداد مالاً ازداد غماً . وهكذا الصيت والذكر وهكذا الملك . فهاهو ذا « نابليون » توغل في الملك وكان آخر أمره أنه حبس في جزيرة « سنت هيلانة » ، فهل نحن نعرف تلك الأنوار التي ذكرها؟ فلعلها كالأنوار التي يراها الفراش فيطير إليها فيحترق . وقولي لك : حك الأجرب ، هي عبارة الشيخ عبد العزيز الدباغ . وقد تقدم أيضاً عنه أن العصاة يشتاقون إلى العذاب ، فاشتياق هؤلاء إلى درجاتهم ربما كان اشتياقاً إلى العذاب . وأما « عمانوئيل » فعبارته المتقدمة تقرب من هذه . فانظر كيف يقولون إنهم يعملون ويجدّون ، أليس هذا العمل عذاباً مع أن المعلوم عندنا في ديننا أن أهل الجنة في نعيم الخ؟ فقال وماذا تقول في قولهم : إن الرقي بالعلوم والمعارف؟! أقول لك : قد رأيت في كلام « عمانوئيل » المتقدم وفي كتاب الشيخ « عبد العزيز الدباغ » أن الأرواح الشريرة تكون علومها هي علوم السحر والطلسمات فهذه العلوم تكون عذاباً لها ويكلها الله إلى نفسها ، ويكون ذلك كله عذاباً لها .

فلعلك تقول بعد هذا كله : أنا غير مقتنع ، فأقول : أحيلك على ما تقدم من أن هذه هي حال البرزخ ، وليست هذه هي الجنة ولا ضدها ، والرجل لم يقل ذلك إلا لأنهم ملوثون بالمعاصي ، وهم الآن يجدّون في العمل ليخلصوا منها ، فتقول لي : وكيف يخلصون منها وهم كفار؟ .

أقول لك : أذكرك بما نقلته في هذا الكتاب في موضع آخر عن الإمام الغزالي : إن عذاب الناس بعد الموت لا يكون على الكفر ، كلا ، وإنما يكون العذاب أولاً بترك المشتهيات ، ثم بعد أمد يعذب على الذنوب وهكذا . فأما العذاب على الكفر فإنما يكون يوم القيامة ، فراجعه إما فيما سبق في هذا الكتاب ، وإما في شرح العلامة المناوي على قصيدة ابن سينا في النفس التي أولها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ولعلك تقول : كلامك لا يروي من غلة ولا يشفي من علة ، فأنا إلى الآن لم أفهم .

فأقول لك : اقرأ كتاب « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » للغزالي ، فتقول أنت : قرأته فلم أعرف ما تقصد .

أقول : إن الخواتيم مجهولة فربما يكون بعض من نتوهم أنهم في راحة من الأرواح قد أسلموا ونحن لا نعلم ، أو تكون بعض تلك الأرواح لا علم لها بالإسلام مطلقاً ولم تسمع به ، أو سمعت به مشوهاً على غير حقيقته . فتقول لي : أنا إلى الآن لم يسترح ضميري .

أقول : إذن يكون الكلام بعد هذا كله من باب الوسوسة ، ونحن نريد رقيّ الأمم الإسلامية بالعلم والحكمة .

وإياك أن تظن أن اعتناقك الإسلام وحده بلا علم ولا عمل يكفيك ، فلابد من الجهاد في الحياة الدنيا . وإياك أن تضيع وقتك فيما لا يجدي نفعاً .

ودع الوساوس واقرأ قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[العنكبوت : ٢-٣] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[الجاثية : ٢١] .

فلما أتممت هذا المقال حضر العلامة الذي اعتاد أن يسألني في هذا التفسير، فقال: قد ذكرت هنا وفي مواضع أخرى من هذا التفسير أن أرواح الأموات يهتمون بأقاربهم ويعلمون أحوالهم كما ذكرت هنا، فهذا يدل على اتصال بين الحي والميت وإن لم يعلم الحي. وهذه النصوص التي نقلتها عن أهل أمريكا وأوروبا لا يثق الناس بها وأنا أولهم، إلا إذا جاء في ديننا ما يماثلها. فقلت: فاسمع ما جاء عن علمائنا الأجلاء.

جاء في كتاب «مشارق الأنوار» نقلاً عن العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه ما نصه: «كان سعيد بن جبير رضي الله عنه يقول: إن الأموات لتأتيهم أخبار الأحياء فما من أحد الرحيم ـ أي قريب ـ إلا ويأتيه خبر أقاربه، فإن كان خيراً سرّ به وإن كان شراً عبس له وحزن».

وقال أيضاً: وكان أبو الدرداء يقول: «اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً تخزى به أمواتي».

قال: وكان وهب بن منبه يقول: «إن الله تعالى بنى داراً في السماء السابعة يقال لها البيضاء يجتمع فيها أرواح المؤمنين، فإذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح فيسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم من سفر». وروي أن الأموات يسألون القادم عليهم عن أهل البيت كلهم: ما فعل فلان؟ هل تزوج فلان؟ أو تزوجت فلانة؟ ونحو ذلك.

ثم قال في صفحة ٣٩ من كتاب المشارق المذكور: إن بعض العارفين قال: إنه يؤخذ للروح صورة من بدنها تتميز بها عن غيرها، ولذلك تتصف بالاتصال والانفصال والصعود والنزول وغير ذلك من الأعراض، وأشخاص كل نوع تميل إلى بعضها وتنفر عن مخالفيها.

ونقل في صفحة ٣٨ عن الإمام النووي ما نصه: «وأصحّ ما قيل في ذلك قول إمام الحرمين: إن الروح جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر».

والى هذا الخلاف قال اللقاني:

ولا تخض في الروح إذ ما وردا نص عن الشارع لكن وجدا

لمالك هي صورة كالجسد فحسبك النص بهذا السند

ثم قلت له: إذن ظهر لك أن علماءنا كانوا يتناقلون فيما بينهم هذه الآراء، فهم يقولون: إن الأرواح تهتم بأقاربها الأحياء.

ويقولون: إن صورة الروح كصورة الجسم الجسدي ولكنها لطيفة. وهذان الأمران هما اللذان ظهرا في علم الأرواح. فهذه الصورة يقول علماء الأرواح: إنهم رأوها كصورة الجسم في الحياة، وإن الأموات يهتمون بالأحياء.

وتقدم عن اللورد «أوليفر لودج» الإنجليزي مثل ذلك في مواضع كثيرة من هذا التفسير، إذن صار علم الأرواح الحديث موافقاً لما كان يقوله علماؤنا. فقال: وهل هذه الأحاديث المتقدمة صحيحة؟

فقلت: عجباً! نحن الآن لسنا في مقام صحة الأحاديث وضعفها، بل نحن في مقام أن هذه كانت آراء يقولها المسلمون، فلتكن هذه أقوال الصحابة أو غيرهم من الصالحين، إنما المراد أن نوع هذه الآراء لا ينكرها الإسلام.

فقال: قد اكتفيت. فقلت: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. انتهى

اللطيفة الثامنة: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الآية: ١٥]
إلى قوله: ﴿ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الآية: ١٧]

بعد أن بين قبل هذا كيف تتضح الذنوب وتظهر العيوب، عقد سبحانه هذا الباب ليبين لنا ما لنا وما علينا، ومحصله أن الذنوب على قسمين: قسم يختص بالمرء. وقسم يعم كثيراً من الناس.

ولأوضحه بمثال فأقول: قتل رجل رجلاً، فهذا القاتل قد أذنب ولا يعاقب سواه على جريمته لا في القانون ولا في الشرع، وهكذا جميع الذنوب. ورجل آخر أعلن فسقه وزينه للناس، وأخذ يذيع شعره الفسقي ونظمه الضار، فاتبعه أناس، فذلك ذنبه على نفسه أيضاً. ولكن هناك أمر آخر وراء ذلك وهو أن الأمم تتأثر بمؤثرات ترسخ فيها فتنتقل العدوى من زيد إلى عمرو، ألم تر إلى الأمراض المعدية والطاعون وبعض أنواع الحميات المعديات.

ومن المشهور أن زيداً يتثاءب فيتثاءب خالد، والعادات تؤثر تأثير الطاعون والأمراض المعدية. إن الناس يعيشون بالقدوة لا بالتعليم، فالتعليم في الكتب، والأخلاق والعادات جاريات بين الناس معلقة بأذهانهم لاصقة بهم محكمة فيهم لا يجدون عنها حولاً، فيكون للأمة ذنوب عامة وعيوب جارحة تشملهم جميعاً. وما مثل الأمة إلا كمثل رجل ابتلي بمرض الزهري فولد أولاداً مرضوا بهذا الداء، فتصبح أجسامهم وأخلاقهم وآدابهم معتلة، فهنا عذب صاحب الذنب في الدنيا والآخرة، ولحقه في هذه المذلة أبناؤه ومن اقتبس المرض منه بالملامسة، ولكن هذا العذاب ليس على الجناية، بل هو نقص طبيعي يحرمهم من بعض منافع الدنيا، وتسوء أخلاقهم وتنحط فتكون سعادتهم في الآخرة أقلّ. ولذلك يقولون: «إن البلاء يعم»، فالذنوب إذن قسمان: خاصة ووبالها على صاحبها. وذنوب عامة يعذب بها الشعب كافة. والعذاب في الدنيا بانحطاط الأخلاق والأعمال، وفي الآخرة بعدم ارتقائهم لنقص أعمالهم. إن الشعب أشبه بشجرة لها أغصان وللأغصان فروع وللفروع أوراق، فإذا ساء سقيها أو ساءت عناصرها المغذية لها شملها الضعف، وإن أوذي غصن أو ورقة أو فرع اختص به ما نتج عن ذلك. إن بين النفوس رابطة متينة، فالأسرة مرتبطة والأمة مرتبطة، ومستحيل أن تكمل الأفراد إلا بجوّ جميل يجمعهم ورأي شريف يعمهم، ثم هم يتفاوتون على مقتضى اجتهادهم.

اللهم إنا جئنا إلى هذه الأرض فرادى ولكنك جمعتنا وطلبت من الجمع أن يتحد أخلاقاً وعادات، ولذلك لما رأى الأنبياء ذلك اهتموا بأمر الشعوب فعلموهم. فأما إذا اقتصر النبي على تعليم نفسه لم يكن لهذا من أثر فعال. ومن اقتصر على تعليم أولاده ورقاهم في أي شعب كان فليعلم أن الوسط له أثره السيئ، فإن الخادم والطابخ والجار والشريك كل هؤلاء سيأخذون مجراهم على حسب عاداتهم، ويكون أبناؤه غرباء بينهم فلا بد من روابط عامة في المجموع. فالذنوب على ذلك قسمان: أحدهما للشخص خاصة، والثاني للمجموع.

وهذا معنى هذه الآية. فقوله: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]، إشارة إلى الأول، وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦] الخ إشارة إلى الثاني.

إن الأمة الضالة كلها كشجرة سيء سقيها وعناصرها الأرضية فتذبل كلها. هذا هو قوله تعالى: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] لأنا وجدناهم لا

يعلمون الحياة ، فإن الأفراد الذين فسقوا فيهم لم يجدوا من يردعهم ، فالقوم إذن في عداد الذين ليسوا بأحياء فليموتوا أو فليذلوا .

إن الأمة التي انغمست في الترف والنعيم يتقاطع رجالها وتفسد أخلاقهم ، وهو الذي حصل في أمتنا الإسلامية . انظر إلى الدول الإسلامية كيف اضمحلت بالشهوات وحب الذات وجهل المنافع العامة فتفرقوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض في بلاد الشرق وفي بلاد الأندلس ، فلقد استكثر الأمويون في الأندلس من البربر وهم شيعتهم ، وهم الذين قاموا بنصر عبد الرحمن الداخل أول مرة على مناوئيه من شيعة العباسيين الذين كان لهم الحكم قبله ، بل هم نصروه أيضاً على جيوش « شرلمان » التي أرسلها لحربه ، تزلفاً لصديقه الخليفة العباسي في الظاهر ، وخوفاً من اتساع ملكه إلى أرض فرنسا في الواقع . ولقد كان العباسيون يستعينون بالفرس فكسروا شوكة الأمويين وأكثروا من المماليك . هكذا الأمويون بالأندلس فإنهم لما ثبتت قدمهم في الملك أخذوا يقلدون العباسيين في استكثارهم من المماليك الصقالبة وغيرهم خصوصاً في أيام الحكم بن هشام وعبد الرحمن الناصر ، حتى أصبحت لهم الكلمة النافذة في البلاد وصار حكمها من بعده في أيديهم ، وأصبح حالهم هنا حالهم في الشرق شبراً بشبر وقدماً بقدم ، وكانت أنفس كثير منهم تتحدث في قراراتها بتخطي الرقاب وطرق كل باب إلى الوصول إلى منصة الحكم ، ولا يقعد بهم عنها إلا ما كان يحيطها من رمح مشروع وسيف مسلول وعظمة قائمة وسلطان قدمه في الأرض ورأسه في السماء . وعلى كل حال فإنهم كان لهم التصرف المطلق في داخلية الدولة .

وخالف الأمويون في الأندلس آباءهم في دمشق في محافظتهم على عصبيتهم العربية ، وضعفت بذلك شوكة العرب ونقموا على حكومتهم ، وما زالوا يترقبون الفرصة للخروج عليها حتى أيام ابن أبي عامر وزير الحكم بن الناصر ، وكان من العرب المنتصرين إلى عصبيتهم ، فأخذ بدهائه في التفرقة بين العناصر المتغلبة من صقالبة وأتراك وبربر ، ثم بالإيقاع بهم شيئاً فشيئاً ، وكان في أثناء ذلك يستقدم رجالات من بربر المغرب من « زناتة ومصمودة » وغيرهم ، وكان يوليهم مناصب الدولة ، حتى إذا شعروا بضعف الخلفاء ومن والاهم ، أخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلون بأطرافها . وأول من بدأ منهم باستقلالهم بنو « حمود » في قرطبة ثم بنو « عباد » في إشبيلية ثم بنو « زيري » في غرناطة ثم بنو « جهور » في قرطبة ثم بنو « ذي النون » في طليطلة ثم بنو « عامر » في بلنسيه ثم بنو « هود » في سرقوسة ، حتى غلبهم على أمرهم الفرنجة من الشمال والمرابطون من الجنوب .

وكثيراً ما كانت ملوك الطوائف يحاربون بعضهم بعضاً طمعاً في استيلاء هذا على ما كان في يد الآخر ، حتى انتهى أمرهم إلى الضعف ، وصاروا يدفعون الجزية إلى « الأذيفونش » ، غير ما كانوا يلاقونه من الهوان من الفرنجة ، وما زالوا حتى ضاقت صدورهم من غدر ملوك الفرنجة بهم وسوء معاملتهم لهم ، فأجمعوا فيما بينهم على استدعاء عرب المغرب لنصرتهم ، وكان هذا رأي ابن عباد صاحب إشبيلية ، وكان المغرب وقتئذ في حكم المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين سلطان المغرب من أقصاه إلى أقصاه ، فلما وصلت إليه دعوة ابن عباد قبلها ، وأجاز إلى الجزيرة سنة ٤٤٩هـ بجيوش جرارة على رأسها قائده العظيم داود بن عائشة ، وسار هو وفي مقدمته وزيره الكبير سير بن أبي بكر

اللمتوني، فقابلته جيوش الإسبان متجمعة بقرب بطليوس، وعلى رأسها الأذيفونش ملك «القوط» ووقعت بينهم موقعة تشيب لها الولدان، انتصر فيها ابن تاشفين انتصاراً باهراً. وهذه الواقعة يسمونها «واقعة الزلاقة»، وهرب الأذيفونش بعد أن جرح في يده جرحاً بليغاً، ثم طلب الصلح من بني تاشفين فمنحه ذلك لمدة خمس سنين، فأخذ فيها الأذيفونش على نفسه أن لا يتعرض للمسلمين بشيء مطلقاً وخلصت بلاد الأندلس من مظالمه ومما كانت تدفعه إليه سنوياً من الجزية، وتسمى ابن تاشفين بعد هذه الواقعة بأمير المسلمين. وقد غنم المسلمون من هذه الواقعة شيئاً كثيراً جداً من الأموال والأنفس، فعف ابن تاشفين عنه وتركه جميعه لأهل البلاد وانصرف عن الأندلس إلى المغرب تاركاً وراءه جمال العمل وجميل السيرة.

وفي سنة ٤٨٦هـ أجاز ابن تاشفين إلى الأندلس جوازه الثاني لأن أهله شكوا إليه من كثرة المكوس «الضرائب» التي تأخذها منهم ملوكهم. فلما وصل إلى الجزيرة الخضراء خافه ملوك العرب وقطعوا الميرة عن جيوشه بعد أن اتفقوا مع ملوك الفرنجة عليه، فقصد بلادهم واستولى عليها واحدة بعد واحدة، وبعث ببني بلكين أصحاب غرناطة إلى المغرب فقضوا فيه بقية حياتهم، ثم قصد «إشبيلية» لما علم بفساد دخيلة ابن عباد، وأنه استجار بالأذيفونش عليه وأخذه أسيراً، وأرسل به إلى أغمات من أعمال مراكش حتى مات في اعتقاله بها سنة ٤٩١هـ. ثم قصد بطليوس وقبض على ملكها ابن الأفطس وقتله، وبذلك أصبحت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها في حوزته إلا «سرقسطة» وهي في شمال إسبانيا، فإنها بقيت في يد بني هود لاعتصامه بالأذيفونش ولبعدها عن مركز القوة الإسلامية.

ولما خلص ابن تاشفين من استيلائه على الأندلس، فوض أمره إلى وزيره سير اللمتوني ورجع إلى بلاده، ومن ثم أصبحت الأندلس في يد المرابطين وما زالت في أيديهم إلى أن دبّ الشقاق بين أحفاد ابن تاشفين طلباً للملك في أواخر القرن الخامس الهجري بما كان سبباً لضعفهم وقيام بلاد المغرب عليهم، حتى سقطت دولتهم بقيام دولة الموحدين على يد المهدي بن تومرت.

ولما مات المهدي سنة ٥٣٤هـ اتفقت رجالات الغرب على مبايعة عبد المؤمن بن علي، وكان في مقدمة رجال المهدي علماً وفضلاً ودهاء، وهو أول من تسمى في المغرب بأمير المؤمنين.

وفي سنة ٥٤٦هـ أجاز عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً من الموحدين للفتح فتغلب على عزيبه ثم حاصر المرية فاستغاث من كان فيها بالأذيفونش الذي أرسل إليهم محمد بن مردنيش وزيره على جيش من النصارى والمسلمين فكسره عبد المؤمن. وتمّ استيلاء الموحدين على الأندلس في مدة ولده أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن، وله إصلاحات كثيرة في إشبيلية، وهو الذي بنى جامعها وأقام جسرها. وأتى من بعده ولده المنصور يعقوب فأكمل الجامع بحيث أصبح لا يضاهيه شيء في الدنيا.

وقد حارب المنصور يعقوب «الأذيفونش» ومعه ملوك النصرانية فانتصر عليهم انتصاراً باهراً في واقعة الكرك الشهيرة، وفتح كثيراً من الحصون والبلاد التي كانت في أيديهم وما زال يتقدم في الفتح حتى طلبوا إليه الصلح فصالحهم على خمس سنين وذلك في سنة ٥٩٢هـ.

وقد ذكر المؤرخون أن من قتل في هذه الموقعة من الإفرنج أكثر من مائة ألف. أما ما غنمه المسلمون فيها فهو شيء لا يحصيه ولا يحيط به العدد، حتى أصبحت العرب تبيع الأسير بدرهم

والسيف بنصف درهم والحمار بدرهم والفرس بخمسة دراهم، وبعد هذه الواقعة استولى المنصور على طلمنقة، ثم قصد طليطلة وهي عاصمة «الأذيفونش» وحاصرها. ولما لم يبق غير نزول من فيها على إرادته، نزلت والدة «الأذيفونش» وبناته وحرمه واستغاثوا به وبمروءته، فأكرم مثواهن وأعادهن إلى مقرهن معززات مكرمات، وعاد هو إلى بلاده بالغنائم التي لا حصر لها.

ولما مات يعقوب المنصور سنة ٥٩٥هـ استولى بعده ولده أبو عبد الله محمد الناصر، فأجاز إلى الأندلس عام ٦٠٩هـ بجيوش من العرب يقدرونها بستمائة ألف، هنالك أعلن البابا الحرب المقدسة فهرعت جيوش النصرانية من إيطاليا وفرسا وألمانيا، واتحدت جيوشها في إسبانيا واستعدوا لملاقاة الناصر بسهول «نافاد» و«تولوزا»، وهي قرية تبعد عن قرطبة شمالاً بمائة وأربعين كيلومتراً، وكان الناصر قد أعجبته كثرة جيوشه فأخذ يفتك في طريقه برجالات الأندلس بإيعاز وزيره ابن جامع الذي أراد أن تكون له وحده الكلمة في البلاد، وقد أهمل الناصر رؤساء الأندلس ولم يستشرهم في أمر عدوه وهم أدرى الناس بالجهة التي يأخذونه منها، وما زال حتى التحمت جيوشه بجيوش النصرانية في موقعه يسمونها موقعة العقاب، لكثرة ما كان فيها من العقبات التي كانت سبباً في خذلانهم وانتصار الفرنجة عليهم انتصاراً باهراً تمزقت معه جيوش المسلمين على كثرتها بحيث لم ينج منهم غير القليل. وفي هذه الواقعة ظهر كوكب نحس المسلمين في الأندلس وغربت شمس سعودهم، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١].

وعلى أثر هذه الموقعة مات الناصر فبايع أهل المغرب ولده يحيى، فلجأ أخوه المأمون بن الناصر إلى ملك «قشتيلة» يستنصره على أخيه وعلى الموحدين، فاشترط عليه شروطاً جمة، منها: أن يعطيه عشرة حصون يختارها هو مما في يد المسلمين مما يلي بلاده، وأن تبنى له كنيسة في مراكش، وجهز له جيشاً من الفرنجة دخل به أرض المغرب، وهنالك جمع المأمون شيوخ الموحدين وقتلهم صبراً، وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف نفس، ومن هذا الوقت أخذت الأطراف تثور عليه في المغرب وأخذ حكم الموحدين في الضعف.

وفي هذه الأثناء استولى الفرنجة على قرطبة ثم على جزر البليار وبلنسية، واستولى أسطولهم على «سبتة» وغيرها من سواحل المغرب، ثم استولوا على إشبيلية، وما زالوا يستولون على بلاد الأندلس وحصونه حتى لم يبق مع المسلمين غير «غرناطة» التي بقيت في يد بني الأحمر لمنعتها وكثرة أهلها، لأن سواد البلاد التي كان يفتحها الإفرنج كانت تلجأ إليها، ومع هذا فقد كانت تدفع الجزية لملوك قشتالة.

ولما استولى بنو مرين على المغرب كان بنو الأحمر يساعدون الفرنجة عليهم، كما كان بنو مرين يقفون أحياناً مع ملك قشتالة على بني الأحمر، وما زال ملك بني الأحمر قائماً بغرناطة حتى حصل الخلاف بين أبي عبد الله بن أبي الحسن وأمه أسبانية، وبين عمه، على الملك، انتهى بتغلب الفرنجة على غرناطة في سنة ٨٩٢هـ الموافقة لسنة ١٤٩٢م، وبه انقضى ملك المسلمين بالأندلس وانطوت صحيفتهم. وسبحان من له الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء. ذلك كله لأنهم مترفون وقد فسقوا وعصوا ربهم. انتهى من رحلة الأندلس.

اللطيفة التاسعة في قوله تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾

هذه الآيات جاءت كالختام لهذا المقام كله، لأنه مبتدأ بما يفيد أن الإنسان عجول يدعو بالشر دعاءه بالخير، ثم ذكر الطرق التي تجعله غير عجول: كالعلوم الرياضية، والتفكر في أمر النفس، وأمور الدولة. ولما أتم الكلام في ذلك أخذ يشرح العجلة التي كان الكلام مسوقاً لها، وأعطى قاعدة عامة وهي: أن النتائج على مقتضى المقدمات، فالأعمال الجسمية نتيجتها الأمور الجسمية، والأعمال العقلية نتائجها الأمور العقلية. والأولى مصيرها للفناء، والثانية مصيرها للبقاء، وليس يقوم أحدهما مقام الآخر. فلو أن امرأ درس العلوم والأخلاق وعمل بهما وواظب على ذلك، ثم هو في الوقت نفسه قد أهمل الرياضة البدنية فلم يمش في خلاء نقي، أو أهمل مضغ الطعام جيداً، أو لم يحافظ على قوته العقلية، فبذّر فيها بكثرة الكلام والضحك، أو تعرض للبرد، أو كان جسمه معرّضاً للأمراض الباردة، فأخذ يمشي على شطوط الأنهار والحدائق مثل من لم يكونوا مستعدين لذلك. فمثل هذا تصيبه الأمراض كخمول النفس وضعف الأعضاء في الحركات في الأول، وسوء الهضم في الثاني، وضعف القوة المفكرة في الثالث، ومرض الروماتزم في الرابع.

فهل أنتج الصلاح والعلم نتيجة في غير ما خلقا له؟ وهل صح البدن بهما؟ كلا، فنتيجة العلم والصلاح آثار خاصة بهما لا تتعداهما إلى صحة الأجسام. وهكذا لو أن امرأ حافظ على جسمه فمضغ الطعام جيداً، ولم يزد، ولم يخلط أصنافاً كثيرة، وكان في غاية البساطة مأكلاً ومشرباً، وحافظ على الرياضة، واحترس من كثرة الكلام والضحك فحفظ عقله وجسمه، واقتصر على ذلك؛ فهل ذلك ينفعه في العلم وهو لم يدرسه؟ كلا، فالثمرات توابع الشجرات، فلا شجرة تثمر ما ليس من ثمراتها. هكذا أعمالنا فما كان متعلقاً بالعاجلة فثمرته في العاجلة، وما كان في الآجلة فهو لها، ولا جرم أن الناس درجات في الأعمال والآراء والعلوم والثروة، وأوضح شيء في هذا العالم الثروة، فلو أنك جمعت الناس في صعيد واحد، لم تجد اثنين يتساويان ثروة، فلابد من التفاضل ولو قليلاً، وإذن يمكن أن يكونوا سلسلة لها أدنى وهو أفقر الناس، وأعلى وهو أغناهم، وهم جميعاً بين هذين. هكذا حكمهم في الجمال وفي العلم وفي الصلاح وفي الأخلاق وهكذا.

فهذه درجات بعضها فوق بعض. هكذا سيكونون في الآخرة درجات باعتبار ما انطبع في نفوسهم من العلوم والأخلاق وهم درجات، إنّما التفاوت هناك أشد والدرجات أكبر. هذا ملخص هذه الآيات. انتهت اللطيفة التاسعة.

اللطيفة العاشرة: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الخ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك» رواه البخاري ومسلم.

وروى مسلم حديثاً آخر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة».

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد، فقال: أحيّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد».

انتهت اللطيفة العاشرة.

اللطيفة الحادية عشرة:

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

إن تفسير هذه الآية جميع الشرائع والعلوم، فكيف نقول فيها إلا ملخص ما مضى.

اللطيفة الثانية عشرة: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾

اعلم أن بعض الحكماء مثل الشيرازي في كتابه «الأسفار» في علم الحكمة قرر أن هذا الوجود كله حيّ، ولا معنى للوجود بغير حياة، وأن الحياة على مقدار إشراق أنوار الوجود الأعلى على المخلوق فللإنسان وللحيوان وللنبات حياة، أي أن هناك نوعاً من الشعور، وهكذا الجماد له نوع من الشعور أقل، لأنه أفيض عليه من الحي. هذا ملخص ما أطال به.

وأنت تعلم أن الأدلة لا تكفي ونحن يصعب علينا تصديق ذلك إلا ببراهين أجلى وأدلة أوضح، فلذلك ترى العلماء يعولون على أن التسبيح للعوالم إنّما هو دلالتها، وهو تسبيح بلسان الحال لا بلسان المقال، ويظهر أثر التسبيح فعلاً لأهل الرياضة وللنفوس التي شغلت بذكر الله، فهؤلاء حقاً إذا سمعوا هبوب النسيم أو صرير الباب أو موج البحار أسرع إلى قلوبهم معان يقصر دونها التسبيح اللفظي، ويرون لذة ليس يدركها الذين لم يذوقوها، فتسبيح العالم الذي بلسان الحال قد انطبع في نفوس هذه الطائفة وأعطاهم معاني تدل على التسبيح وتؤدّي مؤادّه. هذا لا يحتاج إلى برهان بل يرجع إلى الوجدان وليس يصدق به إلا أرباب الوجدان، ولكن ليس في ذلك أن الجماد نفسه يسبح، غاية الأمر أنه يكون سبباً في حدوث التسبيح في نفوس المسبحين. أما كون المخلوقات نفسها تسبح وتعقل ما تقول فهذا ليس في مقدور الناس تصديقه، والناس يرون في ذرات الماء وصريره وهبوب النسيم وزئير الأسد وعجائب الأرض والسماء من المعاني ما يجلّ عن الوصف، ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٤١]. فأما ما ورد عن ابن عباس أن النبات والحيوان يسبحان، فذلك يؤمن به لأنه مسموع مسلم به إن صح.

كيف يتجلى لك تسبيح السماوات والأرض ومن فيهن ؟

اجلس في الخلوات ودع الأعمال ولتسكن الحركات وتنظر فيما أمامك من حقل أخضر ونبات أزهر يأتلق، وجمال بهيج وشجر نضير ونخل ظليل وأثل طويل وسرو سحيق وكلأ يزين. وقد هبت النسمات وفاءت الأفياء وتقلب الزرع ذات اليمين وذات الشمال وغنت الأعواد بنغمات مشجية وأنماط عدة وتمايلت عجباً وتيهاً وتناوحت تناوح الحمام واعتنقت اعتناق العشاق وطنت الحشرات بمختلف الأصوات والطير فوق الأفنان تصدح بالألحان والكون يرقص طرباً والأرض تزداد عجباً والسماء ترسل الضياء في فسيح الأرجاء والوحش في الفلوات يقتنص السخلات. فإذا جنّ الليل وأرخى سدوله تبدلت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء وطويت صحائف النهار وأسدل عليها الستار وأقبلت عرائس الليل سافرات الوجوه مشرقات المصابيح ناعسات الطرف مرسلات نور

ابتسامتهن على الأحياء في الأرض أن هلموا إليّ وانظروا جمالي فتعالوا أتل ما أنعم ربكم عليّ من جمال وبهاء وحسن ونضارة وقد حشركم في الأرض وزوى نور الشمس عنكم ليالي وليالي لتوفروا على النظر إليّ وتعلموا أن هذا الجمال هو الذي سترونه بعد الموت حين تغرب شموس أرواحكم فتصلون في العالم الثاني إلى جمال وسكون وبهجة نحن نمثلها الآن تمثيلاً. فحياتكم كضياء النهار وموتكم كظلمة الليل، وتشرق عليها المشرقات المنعشات الآنسات، وتتجلى لكم أوانس العالم الجميل عالم الأرواح، فإنكم اليوم تشهدون مشهداً جميلاً يعرب لكم عن المشهد الذي ستلاقونه بعد الموت، وشتان ما بين المشهدين، فهذا نور وإشراق جسمي، وذلك نور وإشراق روحي مع الملأ الأعلى. إنهم أرسلوني إليكم تبشيراً بمستقبلكم وطليعة لسعادتكم وفرطاً لأنفسكم، فنحن الأوانس وأنتم المستبشرون، فاقبلوا نعمة الجمال واستشعروا الجلال واذكروا ذلك في الأجيال. هذا نظامنا المتقن بحساب المرقي للألباب. هنالك أيها الذكي تفهم لغة العواصف والريح وقصائد الورد والشيح. وهنالك تفهم شيئاً من التسبيح.

جوهرة لتذكرة معنى هذه الآية

فيما تقدم في سورة «هود الآية: ٥٦» عند قوله تعالى على لسان هود:

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

تقدم هناك معنى الصراط المستقيم، صراط الله، وصراط الذين أنعم الله عليهم، وتقدم هناك معنى تسبيح كل شيء، ونحن محجوبون عن فهمه، فارجع إليه إن شئت، ولكني أزيد هنا بعض إيضاح للمعنى، فاقرأ ذلك هناك ثم انظر إلى ما أقوله لك الآن.

وسترى أيضاً فيما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون: ١]، بعض صور الحيوان المرسومة بالتصوير الشمسي الدالة على أن لون الحيوان إنما خلق لحمايته، بحيث يكون بعضه مماثلاً للون الرمل والحجارة التي يعيش عليها، أو للون الليل الذي يخرج ويأكل فيه، أو للون الورق الجافّ الذي يقع عليه، أو جذوع الأشجار التي يلجأ إليها، أو تكون رأسه ورجلاه وصندوقه أشبه بأفرع الأشجار، وجناحاها يشبهان الورق وهما ملونان بلون ما يحيط بهم من الزهر بحيث لا يشك من يرى ذلك الحيوان أنه عبارة عن غصن ذي أوراق، وهكذا مما لا حصر له سبق ذكره هناك، وسيأتي ذكره وصورته. وقد قلنا هناك: إن هذا هو تسبيح هذه المخلوقات وحمدها لأن هذا دل على عدل الله وتنزهه عن الميل عن الصراط المستقيم، فلم يكن إعطاؤه للفأر لون السواد لظلمه، ولا للطائر الأمريكي الليلي المذكور هناك لون البياض والذيل الطويل تفضيلاً له على الفأر، كلا بل سواد الفأر ينفعه في اختفائه عن العيون ليلاً، وبياض هذا الطائر ليكون هو مع طول ذيله علماً لأعدائه، فلا تقربه لعلمها بما له من رائحة منتنة يطلقها عليها، فيكون ذلك العلم راحة لهذا الطائر ولما يريد اقتناصه من الحيوان.

فهذا غيض من فيض من ذلك المقام؛ ثم نقول: هذا هو التسبيح وهذا هو التحميد الذي لم نفهمه في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤]، وكيف نفقه تسبيحهم إلا بالعلم المذكور في آية «الأنعام» إذ يقول: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٤٨] الخ، فهذا العلم الذي فتح بابه في هذا التفسير لاسيما هذا المقال هناك عرفنا به تسبيح كل شيء، إذ يقول الله: ﴿سَبَّحَ

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[الحشر: ١] . فها أنت ذا رأيت الله قد سبحناه، أي: نزهناه عن الجور والظلم، فلم يظلم الفأر بسواده، ولا الحية بلونها الضعيف الذي ليس كلون الطاووس، فإذا اسودّ الفأر ولبس الحلة الزنبور فكلاهما قد دفع عنه الشرّ بما اتصفَ به .

(١) فالشرّ كالسواد به بقاء الحيوان ودفع الشرّ عنه .

(٢) فهذا تنزيه الله عن قصد الإذلال .

فإذا سبح لله ما في السماوات وما في الأرض، وإذا كانت الملائكة يسبحون بحمد ربهم، وإذا كان أهل الجنة آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين، فإن ذلك يرجع إلى هذا النظام الجميل . إن الفأر وإن الزنبور وإن الدب القطبي وإن الطائر الليلي الأمريكي وغير هذه مما يعدّ بمئات الآلاف؛ لو أعطيت ألواناً أو أشكالاً غير ما لها لكان وبالاً عليها، فبهذا تنزه الله عن المحاباة، بل عمله متجه إلى حفظ هذه الحيوانات، فهو منزه عن العبث بإعطاء ما لا فائدة منه لهذه الحيوانات، وعن المحاباة، وفي الوقت نفسه أعطى نعمة . فإعطاء النعمة مقرون بدفع المضرة، فهو منزه عما لا فائدة منه، معط لنعمة البقاء والهناء .

إذن التسبيح والتحميد مقرونان في قرن، فهذا هو تسبيح ما في السماوات وما في الأرض، وهذا هو السرّ في أن التسبيح قد ذكر ملتبساً بالحمد . يقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهاأنت ذا رأيت التسبيح مقروناً بالحمد لا يفترقان، فمستحيل أن يدفع ضرر بلا جلب نفع للمدفوع عنه كما رأيت .

موازنة بين تسبيح اللسان وحمده وبين تسبيح المخلوقات

يسبح الناس بألسنتهم وتسبح المخلوقات بأوصافها وألوانها . فيا ليت شعري أيهما أصدق؟ لا جرم أن التسبيح العملي أفصح من التسبيح اللفظي . واللافظ بالتسبيح قد يغفل عن معناه وهكذا التحميد . أما صور هذه المخلوقات فإنها ناطقة نطقاً يفقهه الحكماء بالحمد والتسبيح .

واعلم أن التسبيح الحقيقي من العقلاء كالإنسان والملك لن يكون إلا بمعرفة أمثال ما ذكرنا؛ فتسبيح كل شيء هو التسبيح الحقيقي، فإذا عرفناه فقد سبحنا وحمدنا . فهذه الصور الحيوانية الدالة على التسبيح والحمد، إذا قرنت بالتلفظ بهما كان الحمد والتسبيح حقيقيين، وهذا هو الذي جاء في معنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[الحجر: ٩٨] مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم، قرن التسبيح بالتحميد كما قرنهما في تسبيح كل شيء في آيتنا التي نحن بصدد الكلام عليها .

يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: ليكن تسبيحك وحمدك مقترنين كما اقترنا في تسبيح كل شيء، ولا يكون ذلك إلا إذا كان الوجود ممثلاً أمامك على هيئته التي تقدّم ذكرها ـ ذكر بعضها في هذا المقام ـ وهكذا في تسبيح الملائكة، قال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[الشورى: ٥]، أي: أنهم عالمون بإبداع هذه المخلوقات التي كلها تسبيح وتحميد عملي . ولا جرم أن العلم بالشيء حضور صورته في الذهن .

إذن تسبيح الملائكة وتسبيح الأنبياء بحضور أمثال ما ذكرناه من المعاني في الحيوان أو النبات أو غيرهما .

الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

قد يقول قائل: إن الله يقول: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء: ٤٤]، والمخاطب بذلك جميع الناس، فكيف يعقل أن ما لا نفقه تسبيحه، هو الذي يكون بتصوره وتعقله التسبيح. إذن بمقتضى نص الآية يستحيل على الناس أن يعقلوا هذه المعاني.

الجواب على ذلك

اعلم أن هذا الخطاب وإن كان عاماً فقد خصص في آية « آل عمران »، يقول الله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[الآية: ١٨]، فالله يشهد أنه واحد لا شريك له وأنه قائم بالقسط والعدل، وهكذا الملائكة يشهدون بالأمرين، وهكذا أولو العلم، أي: الدارسون لهذا الوجود على نحو ما قررناه. إذن الدارسون لهذا الوجود مستثنون من المخاطبين الذين لا يفقهون تسبيح هذه المخلوقات. فثبت إذن نقلاً كما ثبت عقلاً أن النوع الإنساني إذا عرف نظام الحيوان ودقته كما ذكرناه هنا وفيما مضى وفيما سيأتي يكون مسبحاً حامداً، ويكون العارفون بهذا مسبحين حامدين، ويكون التسبيح والتحميد اللفظيان مذكرين بهذه المعاني.

فإذا قال المسلم: « سبحان الله والحمد لله » عقب كل صلاة ثلاثاً وثلاثين؛ وإذا قالهما المسلم عند نومه كذلك بهذا العدد؛ وإذا قال المسلم في الركوع: « سبحان ربي العظيم » ١١ مرة، أو في السجود: « سبحان ربي الأعلى » ١١ مرة أيضاً؛ وإذا كرر ذلك في كل صلاة واجبة أو مسنونة وكان العدد مئات ومئات كل يوم؛ فمعنى هذا كله أنه يدرك الأسرار التي ضربنا لها الأمثال هنا وفيما مضى وفيما سيأتي من العلوم المنتشرة في الدنيا، كما كان صلى الله عليه وسلم يقوم في آخر الليل وينظر في السماء ويقرأ آيات آخر « آل عمران » كل ذلك قبل صلاة الليل، لماذا هذا؟ ليتذكر ذلك في تسبيحه وتحميده، ويكون الوجود حاضراً مجملاً في عقله، فيسبح ربه ويحمده مراعياً نحو ما قررناه.

وبعبارة أخرى: ليدلنا على أن تسبيحنا الحقيقي وتحميدنا الحقيقي لا يكونان إلا بعد النظر في الوجود، ونظره هو صلى الله عليه وسلم مجرّد لمحة لأنه مملوء علماً. أما نظرنا نحن فلتكن جميع العلوم التي ملأت الدنيا اليوم، لأن الله علمه بالوحي ونحن لم يعلمنا الله بالوحي ولكن أمرنا أن نتعلم تعليماً عملياً بعقولنا. وقوله تعالى: ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]، أي: العدل في النظام، هو عين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦]، الذي ذكره هود عليه السلام في معرض التوكل على الله، وفي معرض أنه آخذ بناصية كل دابة. وأنت تعلم من هذا التفسير أن ذلك راجع لإعطاء كل ذي حق حقه من الحيوان، فلا يعطي الحية لون الطاووس لئلا يكون هلاكها، ولا الضب لون الزنبور لئلا يكون هلاكه. فتبين إذن أن المسلمين عليهم أن يدرسوا هذه الدنيا ليكونوا في الدنيا سادة وفي الآخر مع الله ومع الملائكة والنبيين، وذلك بالعلم بحقائق هذا الوجود.

وهاهنا اعترض بعض الإخوان فقال: إذن جميع التسبيح والتحميد من أزمان النبوّة إلى الآن لا ثواب فيه، وقد مضى ١٣٠٠ سنة فأكثر والناس لم يلاحظوا هذه المعاني. إذن كل تسبيح كان باطلاً وهذا لا يقرك عليه عالم في الإسلام. فقلت له: إن الذكر اللفظي يكفيه المعنى الإجمالي فيكفي الذاكر أن يتصور معنى إجمالياً، وهذا موجود عند جميع المسلمين، بل إن الذي غفل قلبه عن المعنى الإجمالي

يكون تكرار التسبيح والتحميد وقتاً فوقتاً، مما يلفت الذهن إلى الله وجلاله. فكل تسبيح من جهال المسلمين وكل تحميد وكل ذكر لها آثار في القلوب مشهودة، هكذا قراءة القرآن وتكرار الصلوات والعبادات.

كل هذه سبب في استحضار الله في النفوس، وهذا الاستحضار له فعل عجيب في النفوس وآثار مشهودة معلومة. على ذلك درجت الأمم في الديانات قديماً وحديثاً، وهذه فضلاً عن لفت القلوب لحب الله بكثرة التكرار؛ تجعل القلوب مستعدة لهذه العلوم عند قراءتها. وإذا كنا نرى المرأة التي استحضرت في ذهنها الضفدعة لشدة خوفها من الضفادع قد تحول ولدها في رحمها نوعاً ما إلى هيئة الضفدعة كما تقدم في هذا التفسير؛ وإذا رأينا قدماء المصريين كانوا يأتون بصورة العجل المعبود الذي له لون خاص وعلامة أشبه بالمثلث على جبهته فيضعونها أمام بقرة في حال حملها ثم يكون نتيجة ذلك أن يولد العجل على الهيئة التي رأتها أمه فيجعلونها إلهاً؛ أقول: إذا كانت هذه هي هيئة النفوس الحيوانية فلا جرم أن يكون استحضار الله في القلوب بالتسبيح والتحميد داعياً إلى حبه وكمون ذكره في القلوب ورسوخ الربوبية في الأفئدة، ولذلك نتائج صادقة مشاهدة معروفة في الدنيا ثم هذه تكون ملازمة للروح في العوالم الأخرى.

ومن عجب أن هذه هي التي ورد في القرآن ما يفيدها، إذا رأى زكريا مريم وهي لم يمسها الرجال وكانت سيدة النساء وعابدة، فدعا الله فجاء له يحيى على صفات كصفاتها، فهو سيد وهي سيدة النساء، وهو حصور لا يأتي النساء وهي مثله مع الرجال، وهو مصدق بعيسى وهي كذلك، كما تقدم ذكر هذا في «آل عمران».

إنما جاء ذلك في القرآن ليرينا الله أن للنفوس آثاراً، ومن ذلك التسبيح والتحميد مع جهل هذا الوجود فلهما آثار في العقول، ولكن هناك طائفة أرقى وهم أولو العلم الذين هم مع الملائكة ومع ربهم ويشهدون هذا النظام، والحمد لله الذي ألهم وعلم.

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه من اعتاد من الإخوان أن يقرأ مسودات التفسير، فقال: هذا القول مشبع وجميل وقد ظهرت حقائق ما كنا لنذكرها، ولكن أريد أبين من هذا. قلت: ماذا تريد؟ فقال: أريد أن أرى من القرآن ما يشبه النص على ما تقول، أي: أن التسبيح والتحميد الحقيقيين إنَّما يكونان بإدراك حقائق الوجود مع علمي أنك أقررت بأن تسبيح العامة وتقديسهم وإن لم يكن مقروناً بالعلم له فضل عظيم. ولكن أريد التحقق من مقام الحكماء وأولي الألباب الذين ذكرت أن تسبيحهم لابد أن يكون مع العلم حتى يكونوا أقرب إلى ربهم وإلى ملائكته وإلى أنبيائه.

فقلت: ألم تقرأ قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[الروم: ١٧-١٨]. ألست ترى أنهم سبحوا الله مساء وصباحاً وعشياً وظهراً، وأتى بجملة بين الصباح والمساء وبين العشي والظهر، وهي أنه محمود في السماوات والأرض. ولا جرم أن كونه محموداً في السماوات والأرض التي أتى بها بين صلواتنا في الذكر لحكمة أن تسبيحكم يستحسن أن يكون مع إدراك الحمد المرسوم في صور السماوات والأرضين الذي تدركه عقولكم، وإلا فلماذا أتى بهذه الجملة بين صلواتنا الخمس؟ كأنه يقول لنا: إن تسبيحكم وصلواتكم

بينها وبين العوالم المحيطة بكم مناسبة وهي أنكم تدرسون هذا الوجود قبيل الرحيل إلى السماوات التي استعددتم للعروج إليها طبقاً عن طبق حتى تصلوا إلى لقاء ربكم وتكونوا مع الملائكة في أعلى عليين، وذلك لا يكون إلا بالعلوم. فقال: حسن جداً. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

التسبيح والتحميد وظواهر الصلوات وقصص الأولين في الكتب السماوية أشبه بأشجار ثمارها الحكمة والعلم

التسبيح والتحميد باللسان مثلها كمثل أشجار البساتين المزهرة. فانظر رعاك الله لهذا العالم الذي نعيش فيه. خلقنا بأجسام ذات أعضاء وحواس وأحشاء وأطراف. ومست الحاجة إلى طعام وشراب فكان هناك نفس داخل وخارج، داخل بما يصلح الدم، خارج بما هو ضار. فهو إذن داخل مدخل صدق وخارج مخرج صدق. جالب خيراً في الأول ودافع ضرراً بالثاني. انظر هنا قليلاً، انظر إلى هذا الداخل والخارج لإصلاح الجسم ودفع الضرر عنه وإقامة بنيانه. لم يرد الله أن يذر ذلك الداخل والخارج بلا عمل آخر في دخوله وخروجه؛ فخلق له هذه الأسنان واللسان والشفتين والحلق الخ. ففي أثناء دخول الهواء وخروجه يتميز على حسب هذه الأعضاء فيكون حروفاً، والحروف كلمات، والكلمات تعبر عن هذه الدنيا كلها وعن الآخرة.

الله أكبر، هذا العالم الذي نعيش فيه أشبه بصورة جميلة، جاء المصورون من كل فجّ عميق لينسخوا صورتها وهم آلاف آلاف أفواجاً أفواجاً لا ينقطع عددهم ولا مددهم من يوم أن خلق السماوات والأرض إلى قيام الساعة. أتدري ما معنى هذا؟ معناه أن الألفاظ المعبرة عن هذه المخلوقات ترصد في الكتب، وتقال في القصائد، وتذكر في المجالس، فيتصور كل واحد من الناس هذه الدنيا على مقدار ما سمع من القول وما علم بالحواس وما فكر بالعقل. إذن كل امرئ في الدنيا قد صورت له هذه الدنيا بصورة ما، أي: أن كل دماغ أشبه بالخزانة المظلمة وفيه لوحة قد رسمت فيها كل ما يسمعه أو يراه، والكلام الذي سببه الهواء يضع في النفس صور المعلومات علويها وسفليها، فجلّ الله وجلّ العلم. نفس داخل وخارج لإصلاح الجسم؛ حمل معه صور العالم الذي نعيش فيه فرسمت في دماغ كل امرئ. إذن هذه الدنيا لها صور لا عدد لها تقال باللسان في عالم الهواء وترسم في الدماغ. فإذا كان هذا العالم واحداً فهو آلاف وآلاف في آلاف بالصور المتخذة منه بالكلام وبالصور العقلية.

آثار الكلام

الكلام آثار في القلوب، فيه بلغ الأنبياء، وأثر الخطباء، وبه ارتقاء الأمم وعظمة الدول وحفظ آثارهم في هياكلهم وكتبهم، وحفظ الشرائع في الطوامير وبطون الدفاتر. فللكلام آثار وأي آثار، تلك كلها قد جاءت تبعاً لإصلاح الجسم بالهواء داخلاً وخارجاً.

لا عجب إذا كان للتسبيح وللتحميد وللصلوات آثار في نفوس المسبحين الحامدين المصلين. ولا عجب إذا قلنا إن هذه التسبيحات والتحميدات بساتين. وهل بعد مقال الوحي مقال؟. ألم يقل صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء محدثاً عن الخليل عليه السلام قال: «يا محمد، بشر أمتك بأن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغرسها سبحان الله والحمد لله الخ». إذن التسبيح والتحميد أشجار، والأشجار لها أثمار. وما أثمار التسبيح والتحميد يا ترى؟ أثمارها المعرفة والعلم، أي: أن يعرف المرء

أن الله منزه عن وضع الأشياء في غير مواضعها وهو مع ذلك محسن كريم. إذن الهواء في الزفير والشهيق يمثل التسبيح والتحميد، فالشهيق يمثل التحميد لأنه يدخل النافع، والزفير يمثل التسبيح لأنه لإخراج الضارّ. فإذا رأيته سبحانه قد جعل لون الحية أشبه بما حولها فهو بذلك دفع عنها غوائل ما يهلكها وحفظ حياتها؛ فدفع الغوائل يشير له التسبيح، وبقاء الحياة يشير له التحميد، والأول كالزفير والثاني كالشهيق.

الله أكبر، جلّ العلم وجلت الحكمة وجلّ الله. أليست هذه المعاني هي التي ورد بها الحديث في وصف أهل الجنة: «يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون أنتم النفس»، فانظر لدقة المعنى وتعجب لإلهام النفس المشتمل على الدفع والنفع وللتسبيح والتحميد المشتملين عليهما. اللهم إنك أنت المعلم والملهم. تبين من هذا أن التسبيح والتحميد إن تبعهما العلم العام كما في هذا التفسير فبها ونعمت، وإن لم يتبعهما ذلك كانا أشبه بأشجار وأزهار من غير ثمر، والأشجار والأزهار لها منافع الظلّ وجمال الزهر ومنافع أخرى.

والمسبح الجاهل له في التسبيح منافع كثيرة، فهو في أثناء ذلك نزه نفسه عن الغيبة والنميمة وقول الزور. وأيضاً بدخول النفس وخروجه تتأثر الأعصاب بالمعاني التي حملها الكلام فتسري إلى الروح سريان الضوء في الأثير، فتصل إلى الروح آثار نورية، فتكون أشبه بنور الشمس والقمر في العالم المادي، ومن رأى نور الشمس والقمر اهتدى بهما وإن كان لا يدرك نظامهما وحسن إتقان جريهما، فمثل المسبحين الحامدين كمثل الناظرين للأنوار.

فالعامة والجهلاء ينتفعون بنفس الضوء، والعلماء والحكماء يدركون سر سير الشمس والقمر هكذا هنا فظواهر التسبيح تفيد نوراً في القلب إجمالياً، ومعرفة العلوم تفيد معرفة الحقائق التي تدخل تحت التسبيح والتحميد.

وتسبيح الناس في الجنة وتسبيح الملائكة وتحميدهم إنما يرجع كل ذلك إلى العلم والحكمة المستفادين من قوله: «يلهمون التسبيح والتحميد» الخ، والإلهام للمعاني وتتبعها الألفاظ. ومثل ما ذكرت في التسبيح والتحميد يكون الكلام في قصص الأنبياء في القرآن؛ فالعامة يفرحون بظواهر القصص، والحكماء والعلماء لا يقفون على الظواهر، العامة بنفس القصص يفرحون، والعلماء والحكماء يستخرجون الدرر من البحار ويعلمون أن المقصود ما هو مكنون في ذلك القصص، كما رأيت في سورة «هود» إذ بدأها بذكر عالم الحيوان وأن الله عليه رزقها، وأعاد الكرة بذلك في قصة هود، إذ قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، وقد تقدم هناك ذلك، فكان المقصد من قصته أخذ الله بنواصي كل حي كما جاء في مبدأ السورة.

وهكذا هنا في سورة «الإسراء» ذكر أنه أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ولما كان ذلك أمراً يرجع إلى خلوص الروح وشرفها، أومأ إلى ذلك بذكر أن الروح من أمر ربي، ليتبين للناس أن النفوس ترجع إلى ربها والنبوة نبراس ذلك الرجوع، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]. وهذه الآية التي نحن بصدد الكلام عليها تحوم حول هذا المعنى، فإن من يفقه التسبيح هو الذي يصل إلى الله، ومن لم يفقه فهو محجوب.

تذييل: آثار كلام الناس وآثار كلام الله

هذه آثار كلامنا. آثار كلامنا صور في الأذهان، أي: صور ما تتكلم به. فإذا نطقنا بلفظ شمس أو قمر أو شجرة رسمت صورة الشمس وصورة القمر وصورة الشجرة في ذهن من نخاطبه. فكلامنا أشبه بالزراع، والأذهان أشبه بالمزرعة، والصور تحدث في النفوس بمجرد نطقنا بها. ولا جرم أننا من آثار فعل الله وقد خلق آدم على صورته كما في بعض الآثار.

فإذا قال الله للشيء: كن، فإن ذلك الشيء يكون، ولكن كونه هناك كوناً في العيان. وإذا قلنا للشيء: كن، فبمجرد نطقنا يكون ذلك الشيء ولكن وجوده في الأذهان، وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[النحل: ٣٥]، أي: على منوال ما تقولون أنتم، فأنتم تنطقون باسم الشيء فتوجد صورته الذهنية في نفس السامع، وأنا أقول: كن، فتكون صورته الحقيقية فآثاري عملية وجودية وآثاركم ذهنية خيالية. وأقرب شيء لتفهيمنا سرعة خلق الأشياء وطاعتها للصانع هو كلامنا، فكما أن كلامنا لا كلفة فيه وبمجرّد حصوله ترسم صور الأشياء؛ هكذا كلام الله ووجود مخلوقاته.

جوهرة في قوله تعالى:
﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾
بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبحمدك، تقدست أسماؤك وصفاتك وأفعالك. هاهنا في هذه الآية ورد: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٤٣]، والذي قالوه: إنه معه آلهة، فهو منزه عن الشريك، وقال في آية أخرى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الصافات: ١٨٠] الخ، والذي وصفوه به أن خلق السماوات والأرض باطل، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[ص: ٢٧].

إن الله تعالى لم نره ولم نر إلا مصنوعاته. وهذه المصنوعات غامضة على أكثر هذا النوع الإنساني. لقد أكثر علماء التوحيد غالباً من التنزيه في الذات والصفات والأفعال، ولكن الجمهور لم يزايلوا ذلك العموم ولم يهتد أكثر الناس إلى بعض التفصيل والحكم في العالم المشاهد: كثر التسبيح في الصلاة وكثر التحميد في القرآن، ويقول الله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[الإسراء: ٤٤]، هذا والله تهييج لمعرفة هذا التسبيح.

يسبح المسلم ويحمد. ليس الحمد وليس التسبيح قاصراً على ما تصنعون. إن هذا الدين نزل لرقيكم ولم ينزل لمجرد كلمات تقال ولا آيات تحفظ ولا صلوات تقام بلا عقل ولا تفكر. كثر في الصلاة التسبيح والتحميد وكثر في القرآن ذانك الأمران.

ألا إنما مثل الديانات في الأرض كمثل «كليلة ودمنة» الذي ألفه «بيدبا الفيلسوف» لملك الهند في زمانه قبل الميلاد بنحو ثلاثمائة سنة، وجعله على ألسنة الأسد والثعلب والحمام والغراب والسلحفاة والغزالة والقرد والفيلة وما أشبه ذلك. فهذا الكتاب ظاهره ينتفع به الجهال يتسلون بالصور التي فيه ويفرحون بأسد يتكلم وثعلب ينمّ على الثور وثور يسمع النميمة فيظن السوء بالأسد، وهكذا

الأسد يسمع ذلك فيفتك بالثور، ثم تدور الدائرة على النمام وهو «دمنة» فيحكم عليه بالقتل فيقتل. هذه حكايات يفرح بها الجهال ولكن الحكماء لا يقفون عند الظاهر بل يدخلون في علوم السياسة ونظام الأمم والعمران. هذا كتاب «كليلة ودمنة» وهذا قصده، ولكن إياك أن تقول إن الديانات على هذا النمط. كلا. وإنما أقول لك: إن المقصد من هذا التشبيه أن كلام بعض مخلوقات الله في الأرض إذا كان له ظواهر يكتفي بها العامة وبواطن يفقهها الخاصة فبالأولى كلام الله الذي لا يقاس بكلام الناس.

إن كلام الله أشبه بفعله إن الله يخلق الأشجار المثمرة يستظل بها قوم، وقوم يأكلون الثمار. هكذا هذا القرآن وهذه الصلوات والتسبيحات، يسبح المسلم ويصلي ويحمد فإن كان جاهلاً فقد نال مناه لأنه أثناء التسبيح والتحميد والقراءة وهو غافل عن المعنى قد كفّ نفسه عن المعاصي، وأيضاً يكون حين القراءة أو الصلاة في صورة الطاعة وفي استحضار الخالق، وإن كان الكلام غير مفهوم، وهناك تكون البركات والآثار على قدر اجتهاد العابد ونيته، فهو إذن كالمستظل بالشجرة وإن لم ينل الثمرة. الله أكبر، هاهنا وصلت إلى المقصود من هذا المقال. سبحانك الله وبحمدك سبحانك وسبحك ما في السماوات وما في الأرض، وذلك لا يعرف إلا بالعلوم التي ملأت الكرة الأرضية اليوم.

اللهم إنك أنت القائل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[النمل: ٩٣]، والقائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[المدثر: ٤٨].

اللهم إن هذا هو زمان البيان وزمان العرفان. أنزلت القرآن وحفظه المسلمون وسبحوا وحمدوا وأكثرهم نائمون. حاربوا علماءهم كالغزالي وابن رشد، فأنت قد ألهمت الأمم التي أخذت علوم المسلمين أن تدرس هذا الوجود فدرسوه على قدر طاقتهم.

وهانحن الآن في هذا التفسير وغيره نسترد الأمانة ونقول: ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥]. فماذا قرأنا في تلك العلوم؟ قرأنا أن كل مخلوق له خاصة بعضها كشف قديماً وبعضها كشف حديثاً وبعضها سيكشف. وهذا كله هو معنى التسبيح والحمد. انظره في سورة «هود» عند قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٦]، وهكذا عند قوله تعالى في سورة «الرعد»: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ﴾[الرعد: ٤] في بعض اللطائف التي ذكر فيها «النغمات في الأحجار»، هناك ترى في هذا المقام أن لون الحيوان إنَّما خلق لمنفعته هو. وترى في سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون: ١] نيفاً وثلاثين حالاً مذكورة للحيوانات، بحيث يكون اللون حافظاً لنفس الحيوان، وكأن الزنبور مثلاً وهو حامل سلاحه وملون بلونه قد نطق بتسبيح ربه، أي: تنزيهه عن العبث في اختصاص الزنبور باللون الزاهر لما له من السلاح الذي يحميه، هذا هو التسبيح حقاً. سبح ما في السماوات وما في الأرض وكل ما فيهما يسبح كما يسبح الزنبور، أي: أن لونه الظاهر إنَّما وضع فيه لأنه له سلاح يحميه.

ففي هذا اللون نجاته من الهاجم عليه، لأن اللون أعلمه به، ونجاة الهاجم عليه من الطيور الآكلات الحشرات لأن لون الزنبور أنذرها. فالله تعالى منزه أن يعطي هذا الزنبور لونه بلا منفعة، إذ نفس الزنبور تسبيح عملي، وقس على مسألة الزنبور كل المسائل هناك فترقبها واقرأها وقل في كل منها ما قلته لك الآن.

هذا بعض سر التسبيح في هذا المكان وغيره، وهكذا في سورة «الرعد» إذ ترى هناك في القطع المتجاورات أن الماء والأرض والهواء والبخار والأحجار قد اختص كل واحد بعمل، وصارت جميعها أشبه بأوتار الموسيقى كما شرحته لك هناك. يرتفع البخار فوق الهواء ويتكون السحاب وينزل في أجزاء الهواء قطرات رحمة بالناس لئلا يهلكوا أو يستضروا بنزوله مرة واحدة. وهكذا نرى أن لكل حجر وظيفة لا ينفع فيها سواه؛ فلا الملح يغني عن حجر الرحى، ولا حجر الرحى يغني عن الجرانيت، ولا الماء يغني عن الهواء، ولا الهواء يغني عن البخار. فما من هذه المخلوقات إلا له مقام معلوم لا يفيد فيه سواه، ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، إذن الماء والهواء والبخار والملح والأحجار الأخرى كل واحد يقول: أنا ما خلقت باطلاً بل خلقت لمنفعة وغيري لا يسد مسدي من كل الوجوه، ثم يقول كل واحد منها: إن الله منزه عن العبث في خلقي إذ خلقني لعمل. إن هذه العوالم ليست مصادفة عمياء، بل معقولة موزونة. فهذه لا عبث في خلقها وإيجادها. هاهنا اتحد الحمد بالتسبيح، فشجرة النخل مثلاً تقول: إني لا يسد غيري مسدي في زمن المحل، فاختصاصي بهذه الصفات ليست عبثاً وفيها منافع. فقول النخلة: لست عبثاً، معناه أن الله منزه عن عمل بلا تدبير، وكونها فيها منافع معناه أنه محمود على نعمه، تبيّن بهذا معنى قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الإسراء: ٤٤]، على قدر طاقتنا، وتبيّن أن هذه المعاني لا تتم لنا إلا بدراسة علوم الأمم المحيطة بنا التي تعلموها من آبائنا. وتبين بهذا أيضاً أن المسلمين لن ينالوا هذه المعاني التي توقفهم على حقائق الكائنات وتسبيحها إلا بعد بذل الجهد في توسيع نطاق المعارف العامة ابتدائية وتجهيزية وعالية.

وهناك ينبغ من يدركون خواص الموجودات. إذن لا يتم ذلك إلا بعد ازدهار أنوار المدنية في بلاد الإسلام وقراءة علوم الأمم المحيطة بنا، وبغير ذلك لا بقاء للمسلمين ولا علم عندهم ولا تسبيح ولا حمد ويكون أتباع هذا الدين الحكيم حفاظين كلمات لا تدخل عقولهم ولا تؤثر في نفوسهم وينطبق عليهم إذ ذاك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[البقرة: ٧٨].

الآن أيها المسلمون كشف الغطاء وظهر السر وأشرق النور، ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩]. اليوم ظهرت أسرار هذا الدين. ومن أجلّ الأسرار أنه لا تسبيح ولا تقديس على الحقيقة إلا بدراسة العلوم التي عرفتها الأمم حولنا، فإن لم ندرسها فحق علينا قول ربنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[الماعون: ٤-٥].

إن الساهي عن صلاته لا يعقل المعنى في مثل: «سبحان الله والحمد لله»، ومن لا يعقل المعنى لا يطلبه، ومن لا يطلب العلم جاهل، وإن جميع العلوم داخلة في الحمد والتسبيح، والويل الذي جاء في الآية حلّ بالأمم الإسلامية اليوم لأنهم قوم ساهون في غمراتهم وأعمالهم ودنياهم ودينهم. فهذه الصلاة معراج. فهل عرج المسلمون عليها للعلوم التي فصلها الله في الأرض وفي السماء. ولكن الله يقول: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، فهو سبحانه لعنايته بالمسلمين أودع في العبادة والتسبيح والتحميد فكررها وملأ الأرض بالعلم، ثم أظهر هذا التفسير وأمثاله فظهرت الحقيقة وسيقرأ الناس هذا وأمثاله فترتقي أولاً مدنهم ومع ارتقاء المدن بالعلوم يكون ارتقاء النفوس بها من

حيث إدراك أمثال ما قلنا الآن من أن التسبيح والتحميد ساريان في سائر العوالم، وهما معروفان للمفكرين، والحمد لله رب العالمين.

التسبيح والتحميد في القرآن لغز الوجود

هل يعلم المسلمون أن هذه الآية هي اللغز الذي انتصب لحله أمم الأرض قاطبة. التسبيح والتحميد هما مسألة الخير والشرّ. فالتسبيح تنزيه عن فعل الشرّ أو الاتصاف به، والتحميد إيذان بالاتصاف بفعل الخير، والشرّ والخير المذكوران هما موضوع دراسة الأمم كلها، إننا على هذه الأرض نحس بآلام ولذات ومحبوب ومكروه. هكذا أبناء آدم من عهده وإن تقادم بحثوا في الخير والشر ونظروا. فانظر في دين المجوس، وكيف كان المجوس يقولون إن الذي صنع هذا العالم إلهان: إله للخير وإله للشر. فإذا قيل لهم: من الذي صنع العقارب والحيات؟ ومن الذي أتى بالأمراض والموت؟ فلا جواب لهم إلا أن يقولوا هو إله الشر. ولقد فروا بذلك من أن إلهاً رحيماً يصبح فاعلاً للشر وانتهى الأمر عندهم على ذلك. إن الناس قديماً وحديثاً لا يعقلون إلهاً رحيماً ثم هو يخلق الشر. فهذه العقدة حلها دين المجوس بهذا الحل الذي فصل الخير عن الشر وجعلوا أن إله الخير تغلب على إله الشر وصنع هذه الخيرات. هذا هو دين المجوس، وهذا الحل يتناول الشرور التي في العالم والتي في نفس الإنسان. فإذا قيل: لمَ كانت الزلازل؟ يقولون: من فعل إله الشر، وإذا قيل: لمَ كانت الحياة؟ فيقولون: من إله الخير، وهكذا المرض من الأول، والصحة من الثاني.

آراء علماء اليونان في الخير والشر

ثم إنك ترى أن علماء اليونان بحثوا في الخير والشر ولكن من الجهة الإنسانية وحدها. ولقد كان فيهم «الرواقيون» أصحاب «سقراط» والمشاءون أصحاب «أرسطاطاليس»، والذي نقل إلينا إنّما هو رأي أصحاب الرواق، وكلامهم في هذا المقام خاص بالأخلاق. ولقد كان «سقراط» قبل الميلاد بنحو أربعة قرون وكلام هذه الطائفة الرواقية في الأخلاق كان مشهوراً في مصر والشام منذ القرن الأول للمسيح، ولأقوالهم ما يشبهها في كلام الحكماء والصوفية في الأمم الإسلامية، ويرى في الإحياء للإمام الغزالي ما يقرب من آرائهم من حيث المباحث الأخلاقية، كالعفة والصبر والقناعة والحلم والبشاشة وما أشبه ذلك. ولسنا الآن في مقام مباحث الأخلاق وتفصيلها بل نريد الفكرة العامة لهذه الطائفة من حيث الخير والشر. ولقد كنت وعدت أن أكتب «لغز قابس» جميعه هنا ولكن وجدت فيه بعض تكرار مع ما تقدم في التفسير، فلم أذكره واكتفيت بما تقدم في سورة «البقرة».

سانحة ليلة الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٧ في صلاة العشاء
لِمَ كان التسبيح عقب الصلوات وكذا التحميد والتكبير؟

اعلم أن هذا الإنسان خلق على هذه الأرض منذ مئات الآلاف من السنين كما يظن العلماء اليوم، ولم يزل يجاهد ويكادح هذه الطبيعة ويكشف مخبآتها لإسعاده وارتقائه، وهذا الدين الإسلامي قد جاء في أواخر القرون، وأمر المسلم أن يدعو بدعوات يحفظها للتعبد، وهذه الأذكار والدعوات تنفع العابد من حيث ثوابها، وثوابها في العبادة واضح، فهي تذكره بربه إذا كان جاهلاً. ولكن هذا الجاهل يكون في هذا الوجود أشبه بالذباب المذكور في سورة «الحجر» الذي يقع على

بعض الأزهار فيدخلها مستدفئاً بها، حتى إذا حركها ولقحت خرج منها فاستدفأ بغيرها، فقد نال دفئاً، ولكن الزهرة نالت منه حياة. فهكذا العابد الجاهل في أمة الإسلام يسبح ويحمد ويكبر، وستأتي أمم تسمع هذا القول فيقولون: لِمَ كان التسبيح، ولِمَ كان الحمد، ولِمَ كان التكبير؟ ولِمَ يقول الله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤] ثم وصف نفسه بالحلم والغفران، فعلامَ هذا الحلم وعلامَ هذا الغفران؟ وهل كون الله تسبحه السماوات والأرض وكل شيء يتضمن ذنباً حتى يغفره الله ويحلم علينا. هذه الآراء ستقولها أمم بعد ظهور هذا التفسير.

الإجابة

وهؤلاء القائلون سيجيبون فيقولون: نعم الله متكلم، نراه كلم النمل والنحل والعنكبوت والذرات وكل دابة، وهكذا الإنسان أصبحنا نراه يكلمها بلا حرف ولا صوت. ألا ترى أننا نحس بجوع وبشبع وبشبق وبرحمة وبحزن وبهمّ وبغمّ وبحسد وبغير ذلك من أنواع الإحساس والعواطف ثم يقولون بعد ذلك: إن هذه اللغات قد علمت آباءنا وأمهاتنا القدماء أن لبسوا الثياب وزرعوا القطن والكتان وأنواع القمح والذرة وغيرها وسائر الفاكهة. كل ذلك حاصل بسبب تلك اللغة وهي كلام الله الذي يكلم به كل دابة تدب بلا حرف ولا صوت.

ومن الكلام الذي عرفه الناس أنواع الأمراض فبسببها ظهر علماء الطب وعلماء البيطرة للدواب في سائر البلاد. ثم إن من بعدنا حين يقولون ذلك يرجعون فيقولون: إذن هذه اللغة صادقة وآثارها واضحة، بها ربت الأم ولدها وزرع الزراع وربى المربي. إذن فلندرس هذه اللغة أي: لغة العواطف لنستبين ما صدق منها وما كذب، والكذب إنما جاء من قبيل جهلنا نحن، إذ جعلنا صفة المنافسة مثلاً حسداً، فبدل أن نجاهد لنساوي غيرنا؛ نسعى في إماتته. وسيقولون إذ ذاك: إن الإنسان اليوم أشبه بالمجنون الذي يخبط ويضرب نفسه ويكاد يكسر رأسه، ذلك لأنه يعيش على الأرض ومن جهالته وحماقته أنه إلى الآن لم يستخرج كل قوة كمنت فيه أو في أرضه أو هوائه، فبدل أن يجدّ الناس جميعاً في استخراج قواهم وقوى الطبيعة التي تكفل لهم السعادة؛ يقاتل بعضهم بعضاً نذالة وجهالة وحمقاً وقلة عقل.

نعم الأمم الجاهلية قد عطلت قواها وعطلت أرضها وحقاً هذه لا حق لها في أن تستولي على الأرض. هذا حق ولكن الأمم التي تهجم عليها أيضاً غافلة جاهلة. فجميع أهل الأرض اليوم غافلون. ذلك لأن هذه الهاجمة كان عليها أن تعلم سكان الأرض التي تدخلها وتجعلهم مساوين لهم في كل شيء، ويكون الاستيلاء على الأرض على مقدار المنافع والمقدرة، أما الآن فالأمم كلها لا تزال غير قادرة على حفظ النظام العام. هذه هي اللغة العامة التي لم يتم الناس دراستها إلى الآن.

فهذا الكلام الإلهي الذي ظهر أثره في نوع الإنسان قد دخلت فيه آلام كثيرة: آلام لموت الولد ومرضه، وآلام الحرب، وآلام النصب في كسب المعاش، وآلام المرض. بل إن أكثر هذا الكلام الإلهي آلام. إذن اللغة التي يخاطبنا الله بها كلها إحساس والإحساس متنوع، إذن هذا الإحساس لم يكن لإيذائنا بل هو لمنفعتنا. فإذن قول المسلم: «سبحان الله» معناه أن هذه الآلام لم ترسل لأهل الأرض ظلماً. كلا بل هي اللسان الذي يفهمونه، وليس هناك طريق توصل للحيوان وللإنسان منافعه إلا من

طريق هذه اللغة، فعلى قادة الأمم بعدنا أن يكوّنوا جماعات للتفكير في أسباب الآلام العامة، حتى يتداركوا ما فرط من نوع الإنسان، وعلى مقدار الجهل بهذه اللغة يكون العذاب لهذا الإنسان، فإذن يجب دراسة هذه الآلام الشاملة لنوع الإنسان، ومتى أدركها الناس سعدوا. فما هذه الآلام العامة في نوع الإنسان من سياسية وجسمية وعقلية إلا مطالبات بالكمال، وعلى الناس الدراسة.

هذا معنى « سبحان الله »، يعني يا أيها الناس إني لم أنزل عليكم جوعاً ولا عرياً ولا غيرهما إلا لتكميلكم فالآلام مقدمات الكمال لا أني أريد تعذيبكم بل تهذيبكم. إذن تسبيح المسلمين يراد به دراسة الوجود. أما التحميد فإنه تكميل التسبيح، فإننا إذا درسنا الآلام الإنسانية وعرفنا أن القصد منها معرفة مقاصدها؛ هكذا من باب أولى فلندرس النعم المحيطة بنا فلا نذر هواء ولا ماء ولا عنصراً أرضياً إلا درسناه لنتمتع بنعم الله، لأن هذه النعم هي المطالب العامة التي لها خلق الله فينا أنواع الآلام. فآلام تدفعنا للعمل والعمل ينيلنا نعم الله التي تحيط بنا وهذه النعم هي المحمود عليها.

فإذن يدرس الناس طبائعهم فيكونون مسبحين، لأنهم إذا عرفوا الحقائق نزهوا ربهم عن قصد إيذائهم وعذابهم بلا حكمة، ثم يخرجون من ذلك إلى تناول النعم فيكون الحمد. ثم بعد ذلك يقال لهم: أيها الناس، إنكم لم تؤتوا من العلم إلا قليلاً، وهذا معنى « الله أكبر » هذه هو التسبيح والتحميد والتكبير عقب الصلوات وهذا بعض سر قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. فالجوع يؤلمك وفي الوقت نفسه يتنزه الله أن يريد إيذاءك، وإنما يرسل الجوع ليدعوك للطعام وبالطعام تحيا، فآلامك لإسعادك بالحياة، فلو أن الناس درسوا ما في نفوسهم لأدركوا أن كل ألم فإنما هو لمصلحة، والمسلم يقول في سجوده وركوعه: « سبحان ربي العظيم » و« سبحان ربي الأعلى »، ثم يتبع ذلك بأنه خشع له سمعه وبصره وبأنه سجد وجهه للذي خلقه وصوّره الخ.

كل ذلك من هذا الوادي. فهو يقول: إن الله لم يرسل الآلام في الأرض إلا لرحمتنا، فلندرس ما لم نفهمه لأن الله يقول: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقد جاء في الحديث: « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »، ومثل هذا الفهم من أجلّ الفقه في الدين لأنه نهاية حكمة الحكماء وعلم العلماء وبعض ما فضل به أبو بكر رضي الله عنه الذي فضل الناس بشيء وقر في نفسه.

إذا عرف المسلم هذا ينتقل إلى طبائع هذه الدنيا ويدرسها وينظر منافعها ويحترس من المضار ويجلب المنافع وهو هو معنى الحمد. وإذا وصل الناس إلى منافع في الأرض فليس معنى هذا أنهم قد وصلوا إلى النهاية، كلا. وهذا معنى « الله أكبر ». فكلما وصل الناس إلى نعمة فليعلموا أن وراءها نعما. واعلم أن أهل الأرض اليوم كلهم جاهلون لأنهم يجهلون ما خلق فيهم من الآلام مع أنهم لو درسوها لأعطتهم علماً جماً، فإذا رأينا الجوع والعرى وحب التزوج مغروسات فينا فلتعلم يقيناً أن هذا قصد وحكمة، وهذا القصد وهذه الحكمة يجب علينا دراستهما لتهدينا إلى حياتنا بل لنقلد الله في ذلك، وليكن تعليمنا صامتاً إذا قدرنا.

وكلما كان التعليم بالصمت كان أقرب إلى التفقه، وإلا فنحن ممثلون فنأكل الطعام ونتزوّج ونحن مقهورون على ذلك ولا ندري أننا مقهورون. فلماذا لا يفكر أهل الأرض في أنهم يكون بعضهم

لبعض نافعاً بطريق الحب والدافع النفسي؟ كما رأوا أنفسهم يلدون ويأكلون ويشربون وهم يظنون أنهم مختارون، مع أنهم جميعاً يجهلون أنهم مقهورون على ذلك.

اللهم إننا خلقنا في هذه الأرض ونحن لم نتم مقصود هذه الحياة، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١١-٢٣]، وترى القرآن يذكر أن ثمود طغوا بعقر الناقة، ويقول: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١١-١٢] الخ، وهذا كله راجع إلى جهل نعمة أرسلت إليهم وهي الناقة، ولما جهلوها عقروها وهي نعمة في الحياة الدنيا فعوقبوا. ومعنى هذا أن الناس على الأرض اليوم إذا جهلوا النعم التي أحاطت بهم فإنهم لا محالة معاقبون، وأكثر أهل الأرض اليوم في عقاب في الدنيا، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٧].

فليقرأ الناس جميعاً عواطفهم ومنافع أرضهم، والله لن يتم ذلك إلا إذا تضافر أهل الأرض على هذه الدراسة ووحدوا الوجهة العلمية والعملية، وإلا فهم لا يزالون في عذاب مستمر. وأظن أن النوع الإنساني سيقترب منه هذا اليوم، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] انتهى.

بهجة العلوم في قوله تعالى أيضاً: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ ﴾ الخ من كلام الصوفية

اعلم أيها الذكي أن الله عز وجل أنذر هذه الأمم الإسلامية بجميع طرق الإنذار، فلم يذر سبيلاً لتعليمهم إلا سلكه ولا طريقاً لهدايتهم إلا سنها، ذلك لأنه رحمن رحيم فهو رؤوف بخلقه، ولا جرم أن هذا العالم الذي نعيش فيه من العوالم المتأخرة التي تأتي الهداية لأهله بطرق خاصة تناسب عقولهم. فانظر ماذا جرى؟.

قد عرفت فيما سبق في هذا التفسير أن المسلمين المتأخرين حرموا من العلم بجمال هذه الدنيا وزاد الطين بلة أنه شاع بين المتصوفة أن العلم حجاب، وشاعت هذه القضية بين الناس فأصبحت هذه عقيدة معمولاً بها فماذا صنع الله مع المسلمين؟. جعل بعضهم في أخريات الأمم وسلط عليهم الفرنجة فأحاطوا بهم من كل جانب، وقبل ذلك سلط عليهم الصليبيين فحاربوهم. كل ذلك ليوقظهم للعلم والمعرفة لأن العلم هو السلاح العام في كل زمان، لا سيما في هذا الزمان، فهو السلاح المتين فإن السلاح في الحرب نتيجة من نتائج العلم، وهكذا سائر أدوات الحرب من سفن وقلاع الخ.

تعجب من صنعه مع المسلمين. علم سبحانه أنه عز وجل سيلهم أناساً في عصرنا هذا نشر العلم وتحريض المسلمين عليه مثل ما في هذا الكتاب، وعلم أن أكثر الأمم الإسلامية أتباع شيوخ الطرق، وأكثر شيوخ الطرق ينهون الناس عن العلم وعن قراءة الكتب لتبقى السلطة في أيديهم، لأن المسلم إذا كان أعلم من أستاذه تركه لا محالة. فانظر ماذا دبر الله لقراء هذا التفسير. ألهم الرجل الصالح المسمى بـ «الشيخ الخواص» بمصر في القرن العاشر الهجري أن يلقي بعض مسائل للشيخ عبد

الوهاب الشعراني رحمهما الله تعالى، وتلك المسائل تناسب الآية التي نحن بصددها وتناسب العلوم التي كشفت حديثاً ولم تكن معلومة في ذلك العصر، وإنما فعل ذلك لتكون حجة لأمثال قراء هذا التفسير، وتلك الحجة بها يصولون ويهاجمون أولئك الجهلة من المسلمين، الذين يقولون: إن هذه العلوم لا لزوم لها، فتكون هذه المسائل أشبه بمن يضرب طيرين بحجر واحد، فهي أولاً: حجة على جميع من يدعي من الصوفية جهلاً أن الإسلام براء من هذه العلوم، فيقال لهم: إذن لماذا أظهر الله معرفة ما ستسمعه من العجائب العلمية على يد صوفي مثلك في وقت لم يعلم بهذه العلوم أحد في الأرض. إذن هذه العلوم إسلامية صوفية وأنت جاهل بها. ثانياً: هذه متى سمعها المسلم وأيقن أن بعض الخواص من المسلمين عرفوا هذه المسائل قبل ظهورها أيقن لا محالة بأن هذا علامة على صدق هذا الدين وتكون هذه من معجزات صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم.

إذا علمت ذلك فهاك ما قاله الشيخ الخواص للشيخ الشعراني في كتابه المسمى «الجواهر والدرر»، ذلك أن الشيخ الشعراني سأل الخواص شيخه الأمي الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يتعلم فقال: إذا كان كل شيء في الوجود حياً دراكاً عند أهل الكشف؛ فبأي شيء زاد الحيوان على الجماد في شهود العامة؟ فقال: زاد على الجماد بالشهوة فقط زيادة عن الإدراك، ثم ذكر له ما جاء في السنة الصحيحة مما يشهد بمعرفتها لأوامر ربها وبمعرفتها بكل شيء وبفهمها كل كلام، ولكنها عاجزة عن إسماعنا النطق بالله. وذكر هنا أحاديث في هذا المعنى اكتفى منها بقوله: إنه صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وتعرّض كل من الأنصار لزمام ناقته، قال صلى الله عليه وسلم: «دعوها فإنها مأمورة»، قال: ولا يؤمر إلا من يعقل، ثم قال: وفي القرآن العظيم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام: ٣٨]، قال: والأمثال هم المشتركون في صفات النفس كلهم حيوان ناطق، إلا أن كل جنس يقلّ في غيره معرفة اصطلاحه. ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام: ٣٨] يعني: كما تحشرون أنتم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] يعني: للشهادة يوم الفصل والقضاء ليفصل الله بينهم كما يفصل بيننا فيأخذ للشاة الجماء من الشاة القرناء، كما ورد في ذلك دليل على أنهم مخاطبون مكلفون من عند الله من حيث لا يشعر المحجوبون، وذكر آية: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر: ٢٤]، قال: والنذير خاص وعام.

قال: وورد أن الكلاب أمة من الأمم وهكذا النمل والحشرات أنها أمم أمثالنا. ثم ذكر كلاماً لا تتصوره عقولنا مثل أن البهائم قد حارت أشدّ الحيرة في معرفة الله تعالى، وأن أعلى ما يصل إليه العلماء في العلم بالله تعالى مبتدأ البهائم التي لم تنتقل عنه وإن كانت متنقلة في شؤونه. ويقول: إن الناس احتاروا في أمر الحيوان لأنهم يرون أعمالاً صادرة بعقل وروية وفكر دقيق، ولم يكشف الله لهم عن عقولها ومعرفتها، وهم لا يقدرون على إنكار ما يرونه ويصدر عنها من الصنائع المحكمة فحاروا، وأخذ هؤلاء المحجوبون يتأولون ما جاء في الكتاب والسنة من نطقهم ونسبة القول إليهم. ثم قال: فيا ليت شعري ماذا يفعلون فيما يرونه مشاهدة كالنحل في أقراص الشمع وما في صنعتها من الحكم والآداب مع الله تعالى. وكالعناكب في ترتيب الحبالات لصيد الذباب حيث جعل الله أرزاقها فيه. وما يدخره النمل وبعض الحيوانات من أقوات، وبناء أعشاشهم وإقامتها من القش والطين ونحو ذلك

على ميزان معلوم وقدر مخصوص، واحتياطهم على أنفسهم في أقواتهم فيأكلون نصف ما يدخرون خوف الجدب فلا يجدون ما يتقوّتون به، فان كان ذلك عن نظر فهم يشبهون أهل النظر. فأين عدم العقل الذي ينسب إليهم، وإن كان ذلك علماً ضرورياً فقد أشبهونا فيما لا ندركه إلا بالضرورة، فلا فرق إذن بيننا وبينهم، ولو رفع الله عن أعين الخلق حجاب العمى كما رفعه عن أهل الشهود لرأوا عجباً في عشق الأشجار بعضها بعضاً وطلبها اللقاح، وأظهر آية لأهل النظر إذا أنصفوا. ثم قال الشعراني بعد ذلك: وقد شهدت شيخنا علياً الخواص يعامل كل جماد في الوجود معاملة الحيّ فضلاً عن الحيوانات، ويقول: إن كل جماد يفهم الخطاب ويتألم كما يتألم الحيوان الخ. انتهى.

ثم إن الشيخ أحمد بن المبارك بعد ذلك بقرنين اثنين حدّث عن شيخه أيضاً المسمى الشيخ عبد العزيز الدباغ بمثل هذا، فقد سأله عن تسبيح الحصى ونحوه، فقال: إن ذلك كلامها وتسبيحها دائماً، وإنما سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه أن يزيل الحجاب عن الحاضرين حتى يسمعوا ذلك منها. ثم أخذ يشرح هذا المقام بحسب طريقه فأفاد أن الجمادات تعرف ربها كسائر الحيوان وأنها عابدة خاشعة خاضعة. هذه وجهتها لربها، ووجهتها إلينا أنها لا تعلم ولا تسمع الخ، وأتى بهذه الآية: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال أيضاً: إن للأرض علماً هي حاملته وعارفة به كما يحمل أحدنا كتاب الله عز وجل ويعرفه، وكذا كل مخلوق من الجمادات هو حامل له. قال الشيخ ابن المبارك: فقلت له: فتكون عاقلة عالمة كيف وهي جماد؟ فقال: إنّما كانت جماداً في أعيننا؛ وأما بالنسبة إلى ربها فهي عالمة به. وأكد في قوله إن كل جماد خاضع خائف خاشع وجل من ربه، والناس لجهلهم يظنون أنهم يمشون على جماد. وأتى بعد ذلك بأشياء لا يتخيلها العقل مثل أنه سمع الأحجار بطريق الكشف تذكر الله وتسبحه، انتهى.

وهاهنا جاء صديقي العالم الذي اعتاد أن يسألني في الأمور الهامة، فقال بعد أن اطلع على ما كتبته هنا: عجباً لقد أتيت هنا بما لا تتصوره العقول. وهل هذا يليق بتفسير القرآن في هذا الزمان؟ فما لنا ولهذا القول الذي لا تتصوره العقول؟ وأي مناسبة بينه وبين الكشف في العصر الحاضر الذي ذكرته وأين الكشف الذي كشف هذا؟ فقلت له: إن ما تقدم كله يرجع لعالم الحيوان والنبات والجماد، فأما الحيوان فهذا العصر قد كشف فيه علماً جماً. ناهيك ما تقدم في هذا التفسير من علوم عصرنا ومن دقة صناعات الحيوانات وبدائعها وتصرفها، فارجع إليه في سورة «هود» و«النحل» وغيرهما، فذكر ذلك قبل أربعة قرون على لسان رجل مسلم أمي أمر عجب. وأما النبات فأمره أعجب لأنك ترى الشيخ الخواص يقول: إن الأشجار تعشق بعضها لأجل الإلقاح، وهذا عينه هو الذي كشفه العلم الحديث، وأنا أحمد الله عز وجل حمداً كثيراً إذ جعل هذا التفسير مستوفياً لهذه المسائل كما تقدم في سورة «الحجر» وفي غيرها، فإن إلقاح النبات أمر عام لا يختص بعالم واحد نباتي، وقد مر شرحه في سور كثيرة غير «الحجر» كـ«الأنعام» و«البقرة» وهكذا. وأما الجماد فهو أمر خفي جداً ولكن علماء العصر الحاضر لم يذكروا إلا ما يأتي:

يقول بعض علماء أوربا إن كل الجمادات متحركات، وهذا أمر أصبح مبرهناً عليه وتقدم في التفسير، ومعنى هذا أن كل قطرة ماء أو قطعة حجر مركبة من ذرات صغيرة، والذرات الصغيرة ترجع

إلى جواهر فردة، والجواهر الفردة ترجع إلى عناصر أولية كالأكسوجين والأدروجين، وقد بلغت العناصر الآن فوق الثمانين عداً، وجعلوا منها النحاس والحديد والذهب والفضة وهكذا، وهذه العناصر متى تخللت لا ترجع إلا إلى كهرباء، وما هي إلا تموجات، وبينها مسافات متباعدات يدور بعضها على بعض كما تدور السيارات حول الشمس، فالعوالم كلها متحركات دائماً لا سكون لها وحركات تلك الذرات دائمة لا فتور لها فهي لا تهدأ من يوم أن خلق الله العالم إلى يوم أن يفنى العالم كله فناء تاماً.

ويقول العالم «هنشو» الذي نشر في مجلة «هارير» الأمريكية مقالاً في نقطة الماء؛ وإنه فرض تكبيرها حتى صارت بحسب الغرض أكبر من فلك الأرض حول الشمس ما يأتي:

إننا نرى جوهر الأكسوجين مثلاً وجوهر الأدروجين ليس كل منهما إلا ذرتين من النور إحداهما تدور حول الأخرى، قال: وإذا استبطنا وسيلة تبطئ حركتها رأينا في كل دائرة منها نقطة صغيرة من النور، ولسرعة دورانها يظهر مدارها دائرة من نور لأنها تدور فيه ستة آلاف ألف ألف ألف ألف دورة في الثانية الواحدة من الزمان. وما هذه النقطة اللامعة النورية الدائرة إلا نقطة كهربائية. إذن الأجسام التي نراها كلها ترجع لعناصر، والعناصر ترجع إلى كهرباء، والكهرباء ما هي إلا نقط نورية يدور بعضها على بعض بسرعة ملايين الملايين، أي: آلاف آلاف أضعافاً مضاعفة، وهذه السرعة باختلافها اختلفت العناصر، وباختلاف العناصر اختلف العالم الذي نعيش فيه من سماوات وأرضين.

هذا كلام علماء العصر الحاضر جميعاً. ثم إن طائفة منهم خاصة في سائر أنحاء أوروبا يستنتجون من ذلك أن كل مخلوق له حياة لأن الحركة تصحب الحياة. وإذا كان الحيوان بسبب الحياة متحركاً حركات مختلفات، فهانحن أولاء تحققنا حرمات الجماد كله وحركاته أسرع آلاف الآلاف من حركات الحيوان، فلم نثبت الحياة لضعيف الحركة وننفيها ممن الحركة فيه أقوى وأدوم. فهذه الطائفة تقول: إن كل موجود حي. هذا آخر ما وصل إليه العلماء في العصر الحاضر. ثم قلت له: أفلا ترى أيها الأخ أن كشف العصر الحاضر قد أتى بثلاثة أرباع ما قاله شيوخ المسلمين من باب الإلهام، وقد نبهوا المسلمين، والمسلمون بقوا غافلين لم يتفطنوا لما يقولون. فقال صاحبي: حقاً إنه من العجب أن يذكر ذلك بعض الشيوخ، والعالم الإنساني كله منذ أربعة قرون كان في غفلة، فإن تعاشق الأشجار التي ذكرها الشيخ الخواص لم تعرف إلا في زماننا ومعرفتها جاءت من أوربا، ولم يعلم أحد من المسلمين ولا غيرهم أن للجماد حركات بطيئة أو سريعة إلا في هذا الزمان، ولكن كون الجماد له فهم أمره غير معقول. فقلت: إنه غير معقول لنا، ولكن نحن الآن في مقام الموازنة بين كلام بعض شيوخ المسلمين وبين الكشف الحديث، وإننا نتعجب من أن بعض ما قالوه ظهر صدقه. فقال: نعم هذا حسن وقد قرب لنا معنى أن كل شيء يسبح بحمد الله فعلاً. ثم سأل سؤالين: أولهما: ما الفائدة في ظهور مثل هذه الأقوال في زمان تأخر المسلمين مع أنه كله في ذلك الزمان كان خارجاً عن العقول وبعضه إلى الآن لا يزال بعيداً عن تصور العقل. ثانيهما: هل كل ما يقوله الصوفية حق بالنسبة لما نراه من تحقيق كثير من المسائل العلمية بدون تعليم. فقلت: أما فائدة ظهور هذه الأقوال في زمان تأخر المسلمين فقد قدمت لك جملتها في هذا المقال، وأزيدها وضوحاً الآن فأقول:

إن فائدتها ترجع لأمرين :

الأول : أن الناس في زمان جهالتهم حين يسمعون هذا ـ وهو فوق طاقة العقل ـ يسلمون به تسليماً بلا بحث وتكون فائدته لهم ثبات عقيدة الإيمان فهي أشبه بمعجزات الأنبياء ، فهي من العلوم التي فوق طاقتهم كما أن المعجزة فوق طاقتهم ، فيكون نتيجة ذلك العلم إيماناً ثابتاً . الأمر الثاني : أن يعرف المسلمون في عصرنا حين يطلعون على هذه العلوم والمباحث الطبيعية التي تكاد تنطق بما قاله هؤلاء الشيوخ أن شيوخ الصوفية وتلامذتهم الذين هم أكثر المسلمين الآن إذا تركوا هذه العلوم وهم قادرون عليها وعكفوا على العبادات وحدها والدعوات والذكر ، وعقولهم خاوية من معرفة هذه العوالم ، يكونون آثمين مغرورين مذنبين . وذلك لأمرين ، الأول : ما عرفته من أنها فروض كفايات .

الثاني : أن نفس رجال الصوفية هم الذين أخبروا بهذه المسائل قبل ظهورها في أوروبا وبقيت هذه نحو أربعة قرون في بطون الكتب لتظهر الآن مشروحة في أمثال هذه التفسير الذي سيكون من الأسباب الفعالة في انطلاق العقول إلى حوز هذه العلوم إن شاء الله تعالى . فإذا كان شيوخ الصوفية هم الذين أشاروا إليها قبل ظهور علماء أوروبا وقد وصل هؤلاء إلى أهم ما ذكره شيوخ الصوفية ؛ فإذن يكون الصوفية في زماننا إذا جهلوا هذه العلوم مذنبين مغرورين معاقبين . إن الله عز وجل أنطق هؤلاء الشيوخ بذلك تقريعاً للصوفية في هذا الزمان على جهلهم .

فقال صاحبي : هذا حق من وجه ولكنه باطل من وجه آخر . إن الصوفية بسبب الانقطاع إلى الله يفتح عليهم فيعرفون ما لا يعرفه الناس . فقلت : هذا أمر نادر والنادر لا حكم له ، وهذه العقيدة عامة بين تلاميذ الصوفية وأكثرهم يموتون وهم لا يعلمون ، ولو كان هذا الفتوح عاماً لأصبحت بلاد الإسلام كلها غنية عامرة أغنى من أوروبا في هذه العلوم . فقال : المفتوح عليه لا يكلم الناس بعلمه لأنهم لا يعقلون . فقلت : وما فائدتنا منه فرضاً وهذا كله جهل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » ، والله عز وجل لا يعطي العلم إلا للمجد فيه . وانظر إلى هؤلاء الشيوخ مثل الدباغ الذي ذكر تسبيح الجماد ، والشيخ الخواص الذي قال : إن الأشجار تتعاشق ، فإن علمها علم إجمالي ولم يفد المسلمين فائدة عامة . ولكن العلوم إذا درست دراسة حقيقية انتشر العلم وانتفع به الناس ، ولكننا رأينا المسلمين مع كثرة رجال الصوفية فيهم أفقر خلق الله في هذه العلوم . إذن من الجهل أن نتكل على الفتوح بالعلوم مجاناً وأن نترك عقولنا ومواهبنا كمن يترك حرث الأرض وزرعها اتكالاً على أنه ربما يعثر على كنز فهذا جهل وغرور . انتهى الأمر الأول .

وأما الثاني وهو هل كل ما يقوله الصوفية حق؟ فأقول جواباً عليه : كلا . وأذكرك بما تقدم في سورة « البقرة » عند قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾[البقرة : ١٠٢] الخ ، إذ ترى أن في كل إنسان قوة مخفية عنه ، وقد استعمل الناس طرقاً صناعية بها فقد الإنسان إحساسه وانخطف انخطافاً روحياً ، فيسمع من بعد وينبئ بحوادث مستقبلة ويخاطب الأرواح حوله ويكون بالنسبة لجسمه كأنه غريب عنه ، ثم هو مع ذلك قد يخطئ . ذلك لأن الله عز وجل لا يريد أن يجعلنا في الأرض نعيش خامدين . فقال : إذا صح هذا في التنويم المغناطيسي فلا يصح في حق الشيوخ . فقلت له : كلا إن الله عظيم متعال متكبر وقد فعل مع الشيوخ ما فعله مع غيرهم . قال :

وكيف ذلك؛ قلت: ألم تر إلى ما ذكره الشيخ الشعراني نقلاً عن الخواص في آخر الكتاب المتقدم. يقول: «إن يوم الأمة المحمدية ألف سنة أولها من ولاية معاوية، قال ولا تزال الشريعة ظاهرة يحكم بها إلى ثلاثين سنة من القرن الحادي عشر ثم يختل نظامها الأكبر وتصير كعقد انقطع سلكه». وقال في آخر كتاب «درر الغواص» ما يفيدنا هذا وقال ما نصه:

وقد يبين الكشف والذوق اقتراب الأمر الدنيوي وانشقاق الفجر الأخروي، وزاد في البيان عكس الظلمة والظلال وقبض العلوم، إلى أن قال: وقد اجتمع بعض مشايخنا بالمهدي عليه السلام وأخبره أنه قد قرب ظهوره الخ. فهذه الأقوال كلها لم تتم، وهانحن أولاء في القرن الرابع عشر الهجري ولم تقم القيامة مع أنها كان موعدها في القرن الحادي عشر الهجري. فيتتج من ذلك أن التنويم المغناطيسي وشيوخ الصوفية يخطئون ويصيبون، وما أصاب فيه الصوفية إيقاظ للمسلمين، وما أخطؤوا فيه تعليم لنا أن لا نتكل إلا على الله ونتعلم بأنفسنا، فهذا زمان رقي المسلمين، وإني أحمد الله عز وجل إذ علمنا ما لم نكن نعلم.

وقبل الانتقال إلى القسم الثاني أوضح ما جاء في حديث الإسراء، أنه صلى الله عليه وسلم رأى ليلة أسري به نهرين ظاهرين، وهما: الفرات والنيل، وهناك نهران آخران في الجنة. وأيضاً قوله: إنه رفع إلى البيت المعمور، وإن هناك ملائكة يدخلونه كل يوم ثم لا يرجعون، وإن سدرة المنتهى لما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها.

١ـ النيل والفرات. اعلم أن الجنة ليس نيلنا فيها ولا فراتنا، وإنما هذا الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عالم البرزخ الذي هو المسمى عالم المثال الذي ذكره «أفلاطون» وكثير من الصوفية عندنا. هذا العالم أرى الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم الحقيقة مجسمة، والحقيقة كذلك، أي: أن النيل والفرات من السماء. وبيانه أن الحركات الشمسية المنتظمة سبب في الصيف والربيع والخريف والشتاء، ومن هذه يكون المطر المستخرج بالحرارة من المياه، فمتى أرسلت الشمس أشعتها على الأرض وسخن ظاهر الماء اتجه البخار إلى الجو فتلاقى مع الطبقة الباردة عند خط الاستواء فهطل المطر. إن الأرض يحيط بها خيمة من الهواء البارد مرفوعة عند خط الاستواء، راسية على الأرض عند القطبين، فهناك الثلج المتراكم والجو بارداً، فإذا ارتفع البخار في هواء حار عند خط الاستواء وتلاقى بهذا الهواء البارد نزل المطر، وإذا اتجه الريح من المنطقة المعتدلة إلى المنطقة الباردة كالرياح التجارية الضدية المتجهة إلى الدائرتين القطبيتين فإن السحاب هناك تهطل، لماذا؟ لأن الهواء الحار قابله البارد، ومثل هذا يحصل في الرياح الموسمية التي تتجه من الشمال إلى الجنوب شتاء ومن الجنوب إلى الشمال صيفاً وتهب على المحيط الهندي، فهذه الرياح متى لاقت الرياح الباردة هطلت مطراً، فهذه الأمطار ناجمة من البخار الذي حملته الرياح التي أثارتها، وأثارت البخار حرارة الشمس المسيرة في السماء. فإذن كل ذلك بفعل سماوي لا أرضي، فما النيل والفرات وغيرهما من الأنهار التي بيناها في سورة «الرعد» إلا قطرة من بحر النظام السماوي، فحركات الشمس وحرارتها هما اللذان بسببهما أجرى الله الأنهار من فرات ونيل وغيرهما. ولا جرم أن الشمس ونظامها متصلة بشموس أخرى وأخرى وهكذا إلى أن ينقطع فكر العباد، فظهر أن كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقصد به

البحث والتنقيب عن العجائب والنظام، فإن الإنسان إذا سمع أن النيل في الجنة لا يصدّق فيبحث فيصل إلى ما قلته. إن علوم الطبيعة أوصدت أبوابها دوننا معاشر بني آدم إلا ما تجود به حواسنا وعقولنا، وغيره محجوب. هكذا جعل الله للأنبياء رموزاً لنبحث حتى نصل إلى مقصودها ونقف على الحقائق بقدر الإمكان.

٢ـ وأما كون سدرة المنتهى قد غشيها من أمر الله فذلك يعرف مبادئه بعض المنقطعين للعبادة فإنهم هناك لهم أحوال خاصة بهم، حقيقة أنا لا أشك فيها وليس لها مفتاح إلى العبادة والذكر واستحضار الله في الصلاة بحيث تشعر بأنك مخاطبه، فهذه مفتاح التجلي الذي يريك مبادي لهذا الذي ذكر في الحديث وإن كان الذي يتجلى السالكين ليس شيئاً بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله. وإذا كان حديث الفرات والنيل للبحث في العوالم؛ فحديث سدرة المنتهى وأنوارها للبحث في أسرار النفس. وأنا أقول لك فيها أسراراً لا تقف عليها إلا بمفتاح العبادة والذكر مع حضور قلبك، ولتعلم أن هذه الأنوار النفسية شيء وعلم النفس الذي في الفلسفة شيء آخر. فعلم النفس الذي ذكرنا بعضه في سورة «البقرة» يتناوله البحث ويدخل فيه المنطق والقياس والبرهان، فأما هذا فلا برهان له إلا العبادة والذكر، والنتائج لا يعرفها إلا صاحبها فقد يرى مسرات وانشراحاً لا يحسّ بها الذي لم يزاولها، فعلم النفس الفلسفي يشترك فيه الناس عموماً، وعلم النفس الوجداني خاص بأصحابه ولهم ثمراته.

٣ـ وأما مسألة الملائكة وأنهم سبعون ألفاً يؤمون البيت المعمور ثم لا يرجعون أبداً؛ فهذا مقام فوق هذا المقام، فإن الجمال الذي يتجلى لأصحاب الذكر والمرتاضين مرتبته أقلّ من مرتبة الذين ارتقوا فشاهدوا عالم الملائكة. وإذا كنا نرى في أرضنا الضعيفة عوالم لا تعد ولا تحصى حتى إنك لو حسبت ما في دارك وحدها من المكروبات التي لا ترى ربما بلغت مئات آلاف آلاف الآلاف، بل هذه الأعداد وما فوقها ربما كانت في قطرة ماء في فنجان فما بالك بما في المنزل. وإذا كان هذا في عالمنا فما بالك بعالم الملائكة؟ فالأنبياء يطلعون على عوالم شريفة لا تحصى لقرب نفوسهم من نفوسهم وللتجانس بينهما. انتهى ما أردناه تابعاً للقسم الأول.

القسم الثاني

﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ

عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ
مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا
مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ
وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ
أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا
﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا
﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾
وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ
كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ
مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا
غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾
إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟
لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ
ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ
عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ

صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ
زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾
وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ
عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ
أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا
تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل
لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ
بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ
ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ
لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ
عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي
ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا
رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾
قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا
﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ
عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ
كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ
ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى
ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ
وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ
جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم
مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا
جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا
وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ

بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾

التفسير اللفظي

لما قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً﴾ في شدتها ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾ في قوته وبأسه ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ ويستعصي على قبول الحياة لكونه أبعد شيء عنها، فقدرة الله لا تقصر عن إحيائكم، فسيان عندها أصلب الأشياء وألطفها، فالعظام النخرة أقرب إذن إلى قبول الحياة لا تستعصي عليها كما أطاع ما هو أكثر منها شدّة وأصلب، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم تراباً، فمن قدر على الإنشاء فهو على الإعادة أقدر، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ فسيحركونها نحوك تعجباً واستهزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ استبعاداً له ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ عسى هنا للوجوب، أي: هو قريب ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: يوم يدعوكم من قبوركم إلى المحاسبة يوم القيامة فتجيبونه حامدين له إذ تنفضون التراب عن رؤوسكم وتقولون سبحانك اللهم وبحمدك، أو منقادين له انقياد الحامدين، وإذا حمدوا الله على الأول فهم فريقان: فريق ينفعه الحمد وهم المؤمنون، والثاني لا ينفعه لأنه بعد فوات الفرصة في الحياة وهم الكافرون، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وتستقصرون مدة لبثكم في الدنيا عند الموت أو مدة لبثكم في القبر يوم القيامة ﴿كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ المؤمنين ﴿يَقُولُوا۟﴾ الكلمة ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولا تخاشنوا المشركين ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يهيج ويفسد ويلقي العداوة بينهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهر العداوة. ثم قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ أي: يوفقكم للإيمان فتؤمنوا ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي: يمتكم على الشرك فتعذبوا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً لك أمرهم فتقهرهم على الإيمان.

يروى أن المشركين أفرطوا في إيذاء المؤمنين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بأحوالهم فيقذف الإيمان في قلب من يشاء والكفر في قلب من يشاء ويصطفي منهم أفضلهم استعداداً للنبوة، والنبيون أيضاً درجات، فلا بدع إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً وهو يتيم أبي طالب فإن استعداده هكذا، ولا بدع أيضاً في أن العراة الضعاف أصحابه، فالتفضيل راجع للقوة الروحية، لا للمادة الجسمية ولا لكثرة الأموال والذرية. إن تفضيل داود عليه الصلاة والسلام لم يكن لملكه وإنما هو لما أوتيه من نعمة الزبور.

فهكذا محمد صلى الله عليه وسلم تفضيله واصطفاء الفقراء أن يكونوا أتباعه لم يكن إلا لمآثرهم النفسية، وهذا ردّ لاستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً وأصحابه العراة أتباعه، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ أي: الذين زعمتم أنهم آلهة؛ كالملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام، ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ ﴾ فلا يستطيعون ﴿ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ فالضر كالمرض والفقر والقحط لا يقدرون على كشفه عنكم، ولا تحويله إلى غيركم، وليس الأمر قاصراً على عجزهم عن ذلك، بل إن أقربهم إلى الله يدعوه يبتغي إليه الوسيلة، فكيف يكون غير الأقرب؟ وإذا كان هذا منهم عجزاً عن كشف الضر عنكم وافتقاراً والتجاء إلى الله أعلاهم وأدناهم، فكيف تعبدونهم؟ وهذا قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ ثم أبدل من «الواو» في «يبتغون»، فقال: ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ هو ﴿ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ فهم كغيرهم في الرجاء والخوف ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أي: حقيقاً بأن يحذره كل أحد ملك مقرّب ونبي مرسل فضلاً عن سواهما ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ بالموت والخراب ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بالقتل وأنواع العذاب ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ أي: مثبتاً في علم الله القديم أو اللوح المحفوظ.

لما سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً وفضة وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا؛ أوحى الله لرسوله صلى الله عليه وسلم مخيراً له بين الاستئصال إذا أنزل عليهم الآيات كثمود فيكذبون، وتأخير العذاب مع عدم إنزال تلك الآيات، فاختار التأخير ليكون منهم مؤمنون وذريتهم سيكونون من المؤمنين، فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ أي: وما صرفنا عن اقتراح الآيات التي اقترحتها قريش ﴿ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي: تكذيب الأولين الذين هم مثلهم كعاد وثمود فلو أنزلت لكذبوها فيستأصلون، وكيف نستأصلهم وفيهم من يؤمن بنفسه أو يؤمن أبناؤه، ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ ﴾ بسؤالهم ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ آية بينة ﴿ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ فكفروا بها وعقروها ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ المقترحة ﴿ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ من نزول العذاب المستأصل، فإذا لم يخافوا أنزلناها ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لَكَ ﴾ أي: أوحينا إليك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ﴾ فهم في قبضة قدرته ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ ﴾ ليلة المعراج من العجائب والغرائب إذ أسري به إلى بيت المقدس ثم عُرج به إلى السماء، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤيا ورؤية، ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ فأنكر قوم ذلك وزاد المؤمنون إخلاصاً، فهذه الفتنة كنار تميز الخبيث من الطيب، والمؤمنون منهم من قال: إنها رؤيا منام، ومنهم من قال: يقظة، ومنهم من قال: إن المعراج معراجان: معراج في اليقظة، ومعراج في المنام.

ثم إن ما قدمناه بجميع الأقوال المعتدّ بها، يقول الله: فتنا بها الناس كما فتناهم بغيرها فكفر المكذبون، فأما المؤمنون فلهم مذاهب شتى ويدخلون في أبواب من المعارف مختلفة، وكل يقف عندما تذعن له نفسه، وفريق يتناهى في البحث إلى كشف الحقائق العلمية والأقوال الروحية ليخرج الناس من ظلمة الجهالة.

إن أمثال هذه أشبه بالنار توقد فيصهر المعدن في البودقة فوقها فيكون الزبد أعلاه والجوهر الصافي أدناه، فقد امتازا بالنار امتيازاً، كذلك هذه الرؤيا فعلت التي أريناك، ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي: وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس، فإنهم حين سمعوا أن شجرة الزقوم طعام الأثيم اختلفوا، فقوم ازدادوا إيماناً وقوم ازدادوا كفراً كأبي جهل، إذ قال: إن ابن أبي كبشة، أي: النبي صلى الله عليه وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر. وقال عبد الله بن الزبعرى: إن محمداً يخوّفنا بالزقوم وما الزقوم إلا الزبد والتمر، وإنما كانت ملعونة لأنها في جهنم وهي أبعد مكان من رحمة الله، وآكلوها مبعدون من رحمة الله، فجعلت ملعونة مجازاً، ويقال لكل طعام ضارّ إنه ملعون. فهؤلاء كما فتنوا بالرؤيا فتنوا بالشجرة، فالكافرون ينكرون والمؤمنون فريقان: فريق يكل الأمر لله، وفريق يرى أن يبحث في الحكمة وعلوم الطبيعة هل يجد شجراً لا تحرقه النار، فيرون أن هناك حريراً يقال له الحرير الصخري. ولقد رأيته وأنا في دار العلوم وألقيت درساً على الطلبة بدل مدرس العلم فيها المرحوم أستاذي أحمد أفندي عبد العزيز فإني وضعت الحرير على النار مقدار ثلث ساعة تقريباً، والحرير لم يزدد إلا نظافة، وهذا الحرير يلبسه الذين يطفئون النار في المدن بأمر الحكومات كحكومتنا المصرية، فالحرير الصخري كالحرير المعتاد وكالقطن فإذا جاز ذلك في هذه الحياة فكم في الأرض نفسها من عجب، وكم في العوالم الأخرى من عجب؟ بل ما من شجر أو حجر إلا وفيه نار بل الأرض مملوءة ناراً، وما خلص من النار إلا قشرتها التي نحن عليها، بل الماء نفسه مادة نارية فنحو ٨ أتساعه أكسوجين وهو مادة تشتعل سريعاً، والتسع أودروجين فأرضنا نار وماؤنا نار وأشجارنا وأحجارنا مملوءة ناراً، وهذا العالم الذي نسكنه تتخلله النار، ولو لم يكن في هذه الآية سوى هذا الذي ذكرناه لكفى، فهذه الفتنة أثارت حاجة البحث والتنقيب، وأوقفت أهل الجهل والتقصير فوقفوا جامدين.

ثم قال تعالى: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف ﴿ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإجابة ما يقترحون من الآيات، فإذن لا نرسل الآيات المقترحات لهم إذ لا فائدة في ذلك. إن هؤلاء سارعوا في طريقهم على مذهب إبليس إذ طغى وتكبر بعد ظهور الحق وأتى بشبهات ضئيلات فهم اتبعوه في تكذيبهم. ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ فالملائكة مع آدم يشبههم المؤمنون مع محمد، وإبليس هناك يقابله الكفار هنا ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ ﴾ حال كونه ﴿ طِينًا ﴾ وهؤلاء قالوا: أنتبع يتيم أبي طالب ولا نصدق المعراج ولا نعقل شجرة في نار؟ فهذا كله تكذيب بأدلة سفسطائية كأدلة إبليس، ثم إن إبليس تمادى في ذلك ووعد بإغواء بني آدم، وهذا قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ ﴾ «الكاف» للخطاب تأكيداً ﴿ هَـٰذَا ﴾ مفعول به؛ والمعنى أخبرني عن هذا ﴿ ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي: فضلته لم كرّمته عليّ وأنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، كما يقول كفار مكة: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الزخرف: ٣١]، ﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ ﴾ لأستأصلنهم بالإضلال ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعني المعصومين وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ

لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر: ٤٢]، ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ امض لما قصدته فطرده وخلى بينه وبين ما سوّلت له نفسه، ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ أي: فإن جزاءك وجزاءهم جزاء مكمل ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ استخف وأزعج ﴿ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم ﴾ أي: من ذريّة آدم ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ بدعائك إلى الفساد ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ من الجلبة وهي الصياح، أي: صح عليهم بأعوانك من راجل وراكب، والخيل الخيالة والرجل: اسم جمع لراجل، كركب لراكب وصحب لصاحب، وهذا تمثيل لسلطته على من يغويهم برجل مغير صاح على قوم فاستفزّهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم، ثم قال: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ فيكسبون الأموال من السحت ويصرفونها فيما لا ينبغي، ويلدون الأولاد من حرام بإغرائك ويكفر أولادهم ويضلون بتزيينك لهم الباطل مع جهل آبائهم ولو اهتدوا للقنوهم الهدى ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ المواعيد التي لا تفيد كتأخير التوبة، وأنه لا بعث ولا حساب، وكشفاعة الآلهة أو شفاعة الشيوخ الذين ماتوا مع تقصير التلاميذ وما أشبه ذلك ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ فإنه يزين الخطأ بما يوهم أنه صواب، ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ أي: المخلصين ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ غلبه ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ لهم يتوكلون عليه في الاستعاذة منك أو حافظاً لهم منك.

ثم بين سببه فقال: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ أي: يجريها فيه ﴿ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ الربح وأنواع الأمتعة ويأكل الشرقي ما زرع في الغرب، ويغزل الغربي ما زرع الشرقي من القطن، وتتبادل أمريكا والشرق وأوربا والصين واليابان المنافع، ولولا هذا لكانت الحياة شقاء والإنسانية ذلاّ وهواناً ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فأتاح لكم النعم وأوصلها لكم على بعد الشقة وتنائي الديار، إذ فصل بينها بالبحار ليسهل لكم الأسفار بالكهرباء تارة وبالبخار أخرى وبالشراع آونة. وهذه النعم لا تعرفونها إلا عند وقوعكم في الخطر. ثم مثل ذلك فقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ خوف الغرق ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ ﴾ ذهب عن أذهانكم تلك الأصنام المعبودة وشيوخكم الذين اتكلتم عليهم في إنقاذكم من الهلاك، ﴿ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ وحده، ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ ﴾ من الغرق ﴿ أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن التوحيد ونسيتم ما ذكرناكم به من نعمتنا العظيمة بتخويفكم الغرق ثم إنجائكم منه وهذا كفر عظيم ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ فهل ظننتم أنه لا هلاك إلا في البحر، وما علمتم أن البر لي والبحر لي وأن في البر ما في البحر من الهلاك والخسف، ففي البر آفات عارضة، وفي الجو الرياح التي ترميكم بالحصباء والمقذوفات الجوية الطبيعية والصناعية كالطيارات والمطاود جمع منطاد.

فهذه كلها مما اعدّ لإهلاك من في البر كما يهلك من في البحر، وهذا قوله تعالى على سبيل الاستفهام الإنكاري: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ ﴾ أي: أنجوتم فأمنتم ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ ﴾ بالخسف كما حصل في اليابان سابقاً وقررناه وذكرنا معه غيره في سورة «آل عمران»، ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ ريحاً تحصب أي: ترمى بالحصباء ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ مانعاً وناصراً ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ في البحر ﴿ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ مرة أخرى ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ وهي التي لا تمر

بشيء إلا قصفته، أي: كسرته ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب إشراككم ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ التبيع: الطالب، أي: لا تجدون أحداً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً لكم ودركاً لثأركم.

إن الإغراق في البحر والخسف في الأرض جاءا كلاماً معترضاً بين نعمة إزجاء السفن في البحر لابتغاء الرزق وبين تمام النعمة بتكريم بني آدم وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من المخلوقات، والكلام المعترض للإنذار والتخويف وليعرفوا النعمة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بحسن الصورة واعتدال القامة والعقل والصناعة واللغات والخط والهدى لأسباب المعاش الشريفة، والتسلط على ما في الأرض والاطلاع على العجائب العلوية والسفلية، ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدواب والقطرات والطيارات والمطاود «جمع منطاد» والسفن، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وهي الأغذية النباتية والحيوانية المصفاة المنقاة، فلهم خلاصتها لأن أمزجتهم أرقّ الأمزجة، وخلاصة الغذاء ينشأ منه خلاصة المغتذين ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بالغلبة والاستعلاء والشرف والكرامة، والقليل الذي لا يفضل الإنسان عليه خواص الملائكة، والمسألة محل نظر لا فائدة في التوغل فيها. ذكر ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ بكتاب أعمالهم التي قدموها، فلا ذكر للأنساب لأنها مقطوعة، ولا ذكر إلا للأعمال والأخلاق والآراء والعقائد والقوى النفسية التي هي مغروسة في النفوس، فلا يقال: يا ابن فلان، وإنما يقال: يا صاحب كتاب كذا، فالأنساب جسمية والآراء علمية عقلية، والباقي هذا الأخير والفاني خلفه الناس في الأرض ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ من المدعوين ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ كتاب عمله ﴿بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ مبتهجين فرحين ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء. والفتيل: الشيء الذي يكون في شق النواة، وذلك ظاهر في علم الكيمياء، فإن وزن الذرات لا خلل فيه، فلو أن ذرة واحدة زادت في نبات أو حيوان أو ماء من عنصر من العناصر الداخلة في تركيب ذلك لم يتكوّن ذلك المخلوق كما شرحناه في هذا الكتاب. والذي خلق الدنيا هو الذي خلق الآخرة، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا الظلم في نظم الطبيعة. فتأمل واعجب وارجع إلى ما تقدم في مواضع كثيرة في هذا التفسير.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ أعمى القلب لا يبصر رشده ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ لا يرى طريق النجاة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ منه في الدنيا. ذلك لأنك رأيت في تفسير هذه السورة وفي غيرها أن الحياة الأخرى بعد الموت مباشرة، ويوم القيامة ليست شيئاً سوى هذه الروح التي بين جنبينا قد خرجت وولدها هذا الجسم كما تلد المرأة الصبي، وكما يثمر النخل التمر والأشجار الأخرى الفواكه، وما التمر ولا الفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة. هكذا ما الروح الباقية شيء سوى هذه الروح نفسها، وقد خرجت بجميع صفاتها وأخلاقها وأحوالها وأعمالها وآدابها، فهي التي تنظر إلى نفسها وتنفر أو تنشرح بذاتها، فالثمر على حسب الشجر والروح هناك هي الروح هنا، فإذا كانت هنا ساهية لاهية فهي هناك أكثر سهواً و أكثر لهواً، بل هي هناك أبعد مدى في الضلال والعمى، لأن آلات العلم والعمل عطلت وبقيت فيها مناقبها ومثالبها ولا قدرة لها على الزيادة من الأولى ولا النقص من الثانية، فهذا تقرير قوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

ثم أتى بمثالين للقسمين : قسم المهتدين ، وقسم العمي الضالين ، فهؤلاء الآخرون كبعض قريش إذ قالوا : لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا وتمسها بيدك . وكذلك أيضاً قال : إن أهل مكة كادوا يزعجونك منها وإذن لا يبقون بعدك فيها إلا زمانا قليلاً ، فهذه حال القسم الأعمى . أما القسم الذي أخذ كتابه بيمينه فهو الذي يعمل بما بعد ذلك من الآيات فيصلون الصلوات الخمس ويتهجدون ، وهذا هو قوله : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ أي وإنه ، أي : الحال والشأن قاربوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستنزال والصرف ﴿ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ من الأحكام ﴿ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ﴾ غير ما أوحينا إليك ﴿ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أي : ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك ولياً وخرجت من ولايتي ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ ﴾ ولولا تثبيتنا إياك ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم ؛ والمعنى أنك كنت على أهبة الركون إليهم لا لضعف منك ، كلا . ولكن لشدة مبالغتهم في الخداع لك والتحيل ، ولكن عنايتنا بك منعتك أن تقترب من الركون فضلاً عن أن تركن إليهم ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ﴾ أي : لو فعلت ذلك لأذقناك ﴿ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، أي : ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة ، وأصل الكلام لأذقناك عذاباً ضعفاً ، أي : مضاعفاً ، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهي « الضعف » ، ثم أضيفت الصفة كإضافة الموصوف ، فقيل : ضعف الحياة وضعف الممات ، فهو صلى الله عليه وسلم لو ركن إليهم يكون عذابه ضعف عذاب غيره ، لأن الذنب من العظيم عقابه أعظم ، وهكذا زلة العلماء يعاقبون عليها أشد من عقاب العامة لأنهم يتبعونهم ، ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ يدفع عنك العذاب . لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين » ، ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ أي : وإن كاد أهل مكة ﴿ لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ ليزعجونك بالعداوة ﴿ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مكة ﴿ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ ﴾ أي : ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي : إلا زمانا قليلاً ، وقد كان كذلك فإنهم قد غلبوا يوم بدر بعد الهجرة بسنة ، وقال بعض المفسرين : لو أخرجوك لاستؤصلوا بالعذاب ، ولكنه هو الذي هاجر . وهذه سنة الله في خلقه أنه يهلك كل أمة تخرج رسولها من ديارها ، ولذلك سن الله ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ إضافة السنة للرسل لأنها لأجلهم سنت ﴿ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا ﴾ فيهم ﴿ تَحْوِيلًا ﴾ تغييراً . وهذا آخر الكلام في مثال الذين هم عميٌ في الدنيا والآخرة وهم أهل مكة .

ثم شرع في قسم المهتدين كما قدمنا فذكر أشرفهم فقال : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾ أي لزوالها ، أي : بعد زوال الشمس ، لأن الدلوك من الدلك وهو الانتقال والدالك لا تستقر يده في مكان ، ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ إلى ظلمته ، وذلك وقت صلاة العشاء الأخيرة إذا زال الشفق ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ صلاة الصبح ، وسميت قرآناً من تسمية الكل باسم البعض لأن القراءة من أركانها ، كما تسمى ركوعاً وتسمى سجوداً ﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ تشهده شواهد القدرة وبدائع الحكمة ونظام الخليقة وبهجة العالم العلوي والسفلي من ظلام حالك أزاله نور ساطع وبهجة باهرة فبينما الناس في نومهم خامدون إذ أيقظهم النور فهم منتشرون ، فهناك ظهور النور وجمال الإصباح ويقظة النوّام بعد

الظلام وغيبوبة الحواس. ذلك كله محيط بالمصلي صلاة الصبح كأن ذلك كله طوائف من العقلاء مطلعون عليه يشهدونه ويراقبون حركاته. وهكذا الملائكة الموكلون بحراسة هذا العالم وحراسة المؤمنين يشهدون المصلي وقد أخذت ملائكة الليل ينصرفون وأقبل ملائكة النهار يرقبون، كما أدبر الظلام وأقبل الضياء، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[الصافات: ١٦٤]، وإذا كانت هذه الصلاة مشهودة من العوالم العاقلة كالمصلين والملائكة وغير العاقلين كما ذكرناه فإن المصلي نفسه يشهد معناها كأنه يطالعه في صحيفة نفسه، وقد أصبح وقلبه فارغ لم يصب بهموم النهار فتتدفق المعاني على قلبه وتتجلى له الأنوار المعنوية كما تجلت الأنوار الحسية في آفاق المشرق وتشرق نفسه كما ينبلج الصبح إشراقاً، وإذا كان حاضر القلب وقد حضرت الملائكة ألهموه المعاني وإلهام الصلاح والتقوى لأنهم لا يلهمون بالخير إلا المستعد وهذا وقت الاستعداد. وهذه هي الصلوات الخمس فمن دلوك الشمس إلى غسق الليل، أي: غروب الشفق الذي يتبعه الظلام أربع صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقرآن الفجر هو الصبح.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي: وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة. ويقال في النوم أيضاً تهجد ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: فريضة زائدة لك على الصلوات الخمس المفروضة عليك، فأما أمتك فهو مندوب في حقها ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: عسى أن يقيمك ربك مقاماً يحمدك القائم فيه وكل من عرفه، فالبعث هنا ضمن معنى الإقامة. وذلك أن إشراق النفس بالصلوات الخمس وبالنوافل يكسبها قوة وتأثيراً، وهذا مما يبعث على انتشار أنوار الهداية كضياء الشمس والقمر إذ الهداة في الأرض إما شموس كالأنبياء وإما كواكب كالعلماء، ولا تشرق قلوب هؤلاء ولا هؤلاء إلا بتوجيهها إلى الله في أوقات خاصة عينت هنا، وزيد فيها للنبي صلى الله عليه وسلم صلاة الليل إذ يترك النوم ويقوم للصلاة، فتشرق نفوس هؤلاء فيقومون في الخلق داعين ولا أثر لهم في العقول إلا على مقدار ما أتوا من قوة النور النفسي وإشراق القلوب وبهجة النفوس، ومستحيل أن يكون للإرشاد تأثير ولا للعلم نور إلا بهذه الطريقة، فيقوم الأنبياء في الناس داعين ويكون مقامهم محموداً لثناء الناس عليهم، وهم أنفسهم حامدون لمقامهم وموقفهم الشريف لما يحسون في أنفسهم من السرور واللذة والبهجة والرضا، فهم يحمدون مقامهم والناس من حولهم يحمدونهم والله والملائكة من فوقهم كذلك. ولا جرم أن هذا المقام المحمود بالرشد والإرشاد يتبعه مقام الشفاعة كما قررناه في سورة «البقرة»، إذ لا شفاعة في الآخرة إلا على مقدار ما أوتي المشفوع له في الدنيا من علم ومن أخلاق. فهذا تقرير المقام، ولله في الشفاعة ما يشاء من غفران وإعلاء درجات. فإذا قال بعض المفسرين: إنه مطلق المقام، أو قال آخر: هو مقام الشفاعة كما دلت عليه الأخبار. وإذا قال غيرهم: هو مقام يعطى فيه لواء الحمد؛ فقد دخل ذلك كله فيما قررناه لك فهذه الصلوات نتائجها ما بيناه: هداية الناس أولاً، والشفاعة التابعة لها ثانياً، وأيّ لواء مرفوع للحمد أكثر من هذا اللواء والشرف العظيم؟! هداية في الدنيا ونجاة في الآخرة ومشهد شريف. هاأنت ذا رأيت كفار مكة بالغوا في رده عن طريقه الشريف في الدين، وكيف أرادوا إخراجه من مكة ثم خرج، وكيف أمره الله بالعبادة والتهجد.

ولا جرم أن التهجد والصلوات الخمس ترقي النفس وتشرح الصدر وتقرب العبد إلى ربه ويعطى مقاماً محموداً، ولذلك أعقبه بمقام من تلك المقامات المحمودة، وهو الدعاء الذي هو مستجاب فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ المراد هنا كل إدخال وكل إخراج كالإدخال في القبر وكالإخراج منه بالبعث، وكالإدخال في المدينة للهجرة والإخراج من مكة، وكإدخاله مكة فاتحاً وإخراجه منها مهاجراً. كل ذلك داخل في الآية، وكل مفسر اختار واحداً منها، والحقيقة تعم الجميع، أي: أدخلني إدخالاً مرضياً، وأخرجني إخراجاً محفوظاً بالكرامة والرضا في كل موطن من مواطنهما، ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي تسلطاً ينصرني بالحجة وبالملك فأقنع المستمعين للدعوة بالحجة وينصر الإسلام على الكفر بالاستيلاء والغلبة. ولقد أجاب الله هذا الدعاء بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[المائدة: ٥٦] وبقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[التوبة: ٣٣] وبقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[النور: ٥٥]. فهذا الدعاء من المقامات المحمودة؛ هو ومقام الشفاعة، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ جاء الإسلام، وذهب وهلك الشرك. يقال: زهق روحه، إذا خرج، ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ مضمحلاً غير ثابت.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء: ٨١]، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[سبأ: ٤٩].

ولما أتم الكلام على قسمي العمي والبصراء أخذ يبين أولئك العمي الذين أرادوا أن يصرفوا النبي صلى الله عليه وسلم عن سبيله إلى سبلهم، وقالوا: ألمّ بآلهتنا قبل أن تلمس الحجر، فقال تعالى مبيناً أن القرآن شفاء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ من أمراض القلوب ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ ضلالاً لأنهم كلما كذبوا بآية نزل بها الوحي ازدادوا بها كفراً، فأما المؤمنون فإنه يشفيهم من العقائد الزائفة ومن الأخلاق المذمومة. ولما كان دعوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم أن يركن إليهم كفراً بنعمة القرآن الذي هو شفاء قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ بالصحة والسعة، وهكذا إنزال القرآن على أهل مكة ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ لوى عطفه وبعد بنفسه عنه كأنه مستغن مستبدّ بأمره، أي: تكبر فلا يذكر الله ولا يبالي بالناس ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالفقر والمرض والنوازل التي تنزل عادة بنوع الإنسان ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله.

ولما أتم الكلام على تقرير هذه الحقائق الثابتة للعمي وللمهتدين ختم القول بأن كلاً يسير على مذهبه، فقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كل أحد ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ أي: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال وحال جوهر روحه وما يلابسها من البدن ومزاجه، فعلى مقتضى هذين يكون العقل والعلم والصلاح والجهل والطلاح، فمن قال: الشاكلة الطبيعية أو الدين أو العادة، فلم يخرج عما ذكرناه لأن جوهر الروح ومزاج الجسم يتبعهما كل ما تعلق بهما من ذلك، ونتيجة ذلك كله يعلمها الله ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أسدّ طريقاً وأبين منهجاً.

ولما كان هذا القول يستدعي السؤال عن تلك الشاكلة والجوهر الروحي الذي نشأ عنه كل هذا الاختلاف حتى رأينا أنبياء يهدون وعامة يقلدون وكفاراً يعاندون، فما تلك الروح التي أسند إليها هذا كله؟ وعلى مقتضاها ومقتضى مزاج الجسم صدرت هذه الأمور، بل إن هذا السؤال نفسه ورد فعلاً عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من اليهود فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون، فقاموا إليه وقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن الروح، فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه، ثم قال: « ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ مما أبدعه الله من غير مادة، وقد استأثر بعلمه لا يعلمه سواه لأنكم لا تعلمون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم، وحواسكم لا ترى من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر والأصوات للسمع والطعوم للذوق والمشمومات للشم والحرارة والبرودة للمس، وقد وصلت هذه إلى ست وثلاثين نوعاً من أحوال المادة، وغاب عنكم في المادة ما عداها فكيف تدركون ما هو غير مادي وهو الروح ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ » أخرجه الشيخان والترمذي. وفي رواية أخرى للترمذي، قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي علماً كثيراً. فنزلت: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى ﴾ [الكهف: ١٠٩] الآية، وأما ما عدا هذا الحديث من حديث أن قريشاً بإغراء اليهود سألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح مما ذكره المفسرون فذلك لم يرد في الأحاديث الصحاح، فلذلك ضربنا الذكر عنه صفحنا ورجعنا إلى التفسير.

ولما فرغ من مسألة الروح وأن الإنسان عاجز عن إدراكها وذلك له اتصال بمسألتي الهداية والعمى المتقدمتين، وأن قريشاً حاولوا صرفه عن بعض ما أوحي إليه، فلما أتم ذلك كله وأبان طريق المهديين بالصلاة والتهجد، وطريقة الغافلين بالضلال، رجع يخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم بمناسبة إغرائهم له ليبين لنا أن لا نفتر عن وجهتنا بإغراء المغرين ولا بإفساد المفسدين، فقال مهدداً: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي: والله لئن شئنا لنمحونّ القرآن من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أي: ثم لا تجد لك بعد الذهاب به مانعاً وكفيلاً يرجعه لك ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به. امتنّ الله ببقاء الكتاب بعد المنة بالإنزال، وهذا تحذير لنا أن نتنزل عن نعمة الهداية بإضلال المضلين وإرجاف المرجفين. فإذا كان الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: إياك أن يفتنوك، وهو عاصمه من الفتنة، ويقول: إني إن شئت أذهبت ما بقلبك من القرآن، فكيف بأتباعه وهو لم يعصمهم؟ وهذا هو السبب في ضلال كثير من أهل العلم، فإنهم متى ظاهروا العامة باعد الله بينهم وبين العلم.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ إذ أرسلك وأنزل الكتاب عليك وأبقاه في حفظك وفي مصاحفك وحفظ أتباعك ومصاحفهم. ثم وصف القرآن بأعظم وصف ليثبت قلبه صلى الله عليه وسلم وقلوب تابعيه وكذلك ليردّ على أولئك العمي الذين بالغوا في طلب صرفه عن الحق

فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ بلاغة وحسن معنى وتصرفاً وأحكاماً، وغير ذلك ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ وفيهم العرب الفصحاء وأرباب البيان والمحققون، وهذه الجملة جواب القسم المدلول عليه بـ «اللام»، وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ معيناً.

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي: بينا فيه من كل وجه من وجوه العبر والأحكام والوعد والوعيد والقصص ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ جحوداً وثبتوا على الكفر، أي: لم يرضوا إلا كفوراً.

ولما أتم الكلام وقام الإقناع بالحجة وقطعت ألسنتهم ولم يبق لهم حجة أرادوا المراوغة باقتراح الآيات ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾ عيناً غزيرة من شأنها أن ينبع الماء منها لا تقطع، وهو على وزن «يفعول» من: نبع ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ أي: بستان فيه ذلك، ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ كقطع لفظاً ومعنى ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أي: نراهم مقابلة عياناً كالعشير بمعنى المعاشر، وفي آية أخرى: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١]. ثم قال الله تعالى: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ من ذهب ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ في معارجها ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ وفيه تصديقك ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى ﴾ تعجباً من اقتراحاتهم وتنزيهاً له من أن يتحكم عليه ويشاركه أحد في القدرة ﴿ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ فأنا كسائر الرسل وليس للرسل أن يأتوا إلا بما يظهره الله على يديهم فليس لكم الخيرة.

روي أن أشراف قريش سألوه صلى الله عليه وسلم أنه إن أراد المال أعطوه حتى يكون أغناهم، وإذا أراد السيادة سوّدوه عليهم، وإن كان الذي أصابه من تابع من الجن غلبه حتى قال فإن أموالهم يحبسونها عليه ويدفعونها للأطباء حتى يزول ما به من الداء، فأبى وقال لهم: إنه رسول الله وما عليه إلا البلاغ. فقالوا له: إذا كانت هذه منزلتك من الله فأزل عنا جبال مكة، ولتكن لك جنة من نخيل وعنب وفيها العيون نابعة الخ. فلما قام من مجلسهم ومعه عبد الله بن أبي أمية ابن عمته عاتكة شدد عليه في القول، وقال له: عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل، فوالله لا أومن بك أبداً حتى ترقى السماء الخ، فرجع إلى أهله صلى الله عليه وسلم حزيناً فنزلت هذه الآية، وهذا هو الجواب الإجمالي.

وهناك في آيات أخرى تفصيل لبعض ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الحجر: ١٤] الخ. ثم أعقب الله ذلك بأن الناس دأبهم أن يقولوا: كيف يرسل الله بشراً هلا أنزل الملائكة ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ أي: إلا قولهم ذلك، أي: فلم يبق لهم شبهة إلا هذه ﴿ قُل ﴾ جواباً لهم ﴿ لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ ساكنين فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ من جنسهم يفهمون عنه، وملائكة السماء لا عمل لها مع أهل الأرض في الهداية إلا الإلهام، وأكثر الناس ليسوا أهلاً لإلهامهم، ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أني رسوله إليكم بإظهار المعجزات

والبيان على يدي، وهو الذي ينصرني لعلمه أنكم معاندون، و« شهيداً » تمييز، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ فهو يعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة فيجازيهم عليها، وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يهدونهم ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ يسحبون عليها أو يمشون. وفي البخاري ومسلم عن أنس: « أن رجلاً قال: يا رسول الله، قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾ [الفرقان: ٣٤] أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ».

وفي رواية الترمذي: « إن الناس يكونون ثلاثة أصناف في الحشر مشاة وركباناً وعلى وجوههم ». هذا ونحن نرى الحيوان منه طائراً ومنه ماش ومنه زاحف كالحيات وهوامّ الأرض. فهذا القسم أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يبقى الوجه جهة الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية وهو هائم على وجهه، وقوله: ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ أي: لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون وذلك في مبدأ الأمر ثم تعاد لهم هذه الحواس فيحاسبون ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا ﴾ أي: سكن لهيبها ﴿ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ توقداً ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب ﴿ جَزَآؤُهُم بِـ ﴾ سبب ﴿ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾. ثم استدل على البعث فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ أو لم يعلموا ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ من الإنس ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهو القيامة ﴿ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ جحوداً مع وضوح الدليل، وإذا طلبتم من محمد صلى الله عليه وسلم ما طلبتم من بساتين وعيون تنبع وأن تروا الملائكة والله عياناً الخ؛ فإن الله تعالى لا يرضى بذلك لا بخلاً منه ولكن الحكمة قضت أن يكون هذا نظام الدنيا، ولا رقي لهذا الإنسان إلا على هذا المنوال، بل هو يوسع الرزق ويضيقه بالحكمة وعلى مقتضى المصلحة، ولو أنكم كنتم ملكتم خزائن السماوات والأرض وأنتم على فطركم هذه لأمسكتم خشية الإنفاق، فإمساك الله للحكمة والمصلحة، ولذلك لم ينزل ما اقترحتموه، وإمساككم للشح والبخل وهذا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ أي: لو تملكون أنتم فـ« أنتم » فاعل الفعل المضمر، خزائن الرحمة الرزق وسائر النعم ﴿ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ أي: لبخلتم خشية أن يفنيه الإنفاق ﴿ قَتُورًا ﴾ بخيلاً، يعني أن الله لم يمنع محمداً نبيه صلى الله عليه وسلم الآيات التي اقترحتموها هواناً له، فكأنهم قالوا إن محمداً إما أن يكون نبياً أو لا، فإن لم يكن نبياً فالأمر واضح لأن الآيات التي اقترحناها لم يجب عنها ولم تنزل فإذن هو ليس بنبي وهذا ظاهر، وإن كان نبياً وهو مقرب من ربه فلم لا ينزل الله ما اقترحناه والله يؤيد عبده عند خلقه. فكان الجواب أن الله لو أنزل ما اقترحتموه لكان ذلك خللاً في النظام وسوء عمل، وهذه العطايا الوافرة ربما كانت مصائب إذا أنزلت على غير وجهها، وليس ذلك المنع لأن محمداً ليس نبياً، بل المنع من جهة الحكمة ولا هو من جهة بخل الله فلا بخل من الله ولا كذب من نبيه ولم يبق إلا أنه حكمة. فأما أنتم فمنعكم يجري على طريقة البخل فلو سلم لكم السماوات والأرض وأدرتموها لم تفهموا

إلا الإمساك على قدر عقولكم، ولن يطلعكم على ملكوته في الحال ولا في المآل إلا إذا ارتقت النفوس فصارت إلهية تزن الأشياء بمقدار فيسلم لكم الاطلاع على عجائبه وارتياد مواطن الكمال، ولذلك متى كان في الأرض مستنيرون وقلوبهم صافية ونفوسهم عالية وتعالوا عن المادة وزهدوا في الأرض فهم من أهلها صورة وهم بينكم، فهؤلاء أوصلهم إلى عالم قدسي يطلعون على عجائب لمناسبة عقولهم لذلك العالم الشريف. فهاهنا الخزائن فتحت لأنهم عرفوا مقدارها، وهكذا نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم سأملكه زمام الأمور لأني علمت أنه سيعطي كلاً ما يستحقه في الدنيا، فأسلمه بعض خزائن الأمم المحيطة بكم، وسيقسمها بين الناس فعلاً بالقسط لأني أفهمته نظام هذه العوالم وقد حقر الدنيا. فأما أنتم فإني لا أسلمكم مفاتيح أرضي لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولا تنفعوا خلقي.

فهأنا ذا أفتح خزائن العلم لمحمد فيوحى إليه ويلهم تابعوه من الله والملائكة، وأعطيهم خزائني فيصرفونها في وجوهها، ومتى زاغت أمة من الأمم عن تلك الجادة صرفت عنها رزقي، فلم ألهم العلماء لغباوتهم ولم أملكهم زمام الناس لبخلهم وجشعهم سواء أكانوا من أتباع الأنبياء كأمة محمد صلى الله عليه وسلم أم كانوا من غيرهم، فأنا لا أعطي خزائني في الأرض ولا في غيرها إلا للمصلحين. أقول: وهاهي ذا أمتنا لما طغت وبغت وجهلت أحاطت بها أمم الفرنجة من كل حدب ينسلون، واقترب الوعد الحق وشخصت الأبصار وذلت النفوس، وستكون صرختنا في هذا الكتاب وأمثاله من كتب المسلمين فرطاً للإصلاح، ومقدمات للرقي، وظهور أمة جديدة غير التي مضت في الأجيال المتأخرة.

ولما تقرر ما تقدم شرع يهددهم أنهم إن لم يؤمنوا بعد ظهور الأمر والحجج الواضحة هلكوا كما هلك فرعون بالغرق، كأنه يقول أما الآيات التي اقترحتموها فلا فائدة في إنزالها وكفاكم الآيات العلمية التي أنزلناها على محمد صلى الله عليه وسلم، كما أنزلنا على موسى عليه الصلاة والسلام تسع آيات واضحات الدلالة، فلما لم يؤمن فرعون أهلكناه، فالإهلاك لعدم اتباع الصلاح والعلم وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ دلالات واضحات ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ موسى ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ مغلوب العقل مخدوعاً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما حال كون هؤلاء الآيات ﴿بَصَآئِرَ﴾ بينات ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ يستأصل موسى وقومه ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كلها ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ بأن استفزه الله فغرق في البحر مع جنده ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرض الشام التي وعدتم بها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جماعات من قبائل شتى ثم نحكم بينكم ونميز الخبيث من الطيب. هذا هو القصص الذي يبين ما حصل لموسى مع فرعون، فإنه آتاه تسع آيات قد رواها النسائي والترمذي، فعن صفوان بن عسال رضي الله عنه «أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تشركوا

بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف، وعليكم معشر اليهود خاصة أن لا تعدوا في السبت، فقبلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكما أن تسلما؟ قالا: إن داود عليه السلام دعا الله أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود».
والمراد بالزحف القتال وهو الجهاد في سبيل الله. هذه هي الآيات التسع التي سمعها فرعون ما عدا الآيات المشهورة، فجحدها كما جحد أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم، وأراد فرعون استفزازهم من الأرض فغرق، هكذا أراد أهل مكة إخراج النبي صلى الله عليه وسلم فقتل صناديدهم يوم بدر. فهذه القصة منطبقة ولم يبق إلا انطباق الآيات على الآيات، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ ﴾ الخ.

لقد تبين في أول السورة أن النبي صلى الله عليه وسلم أسري به وعرج به إلى السماء وقابل موسى وبينه وبينه محاورات وأخذ وردّ، وانتهى الأمر بالصلوات الخمس، وارتقى صلى الله عليه وسلم إلى ما فوق السماوات العلى، ولم يرد أن موسى ارتقى هذا الارتقاء. ولقد رأيت أن موسى عليه السلام أنزل عليه التوراة وأن قومه أفسدوا في الأرض مرتين، وأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم. فهانحن الآن وصلنا إلى آخر السورة. ومن عادة القرآن أن يجعل آخر السورة منطبقاً على أولها، فهاهو ذا يقول: أنزلنا الآيات التسع على موسى عليه السلام، وجاء في الحديث زيادة واحدة فكأنها هي الوصايا العشر. وقد رأيت هناك عن ابن عباس أن الوصايا الخمسة والعشرين المتقدمة فيها الوصايا العشر أو نحو ذلك. فه هنا وصلنا إلى المقصود من هذه الآيات، فهاهو ذا يعيد الكرة على أول السورة فيقول: أنزلنا الآيات التسع على موسى، وأنزلنا إليك (٢٥)، وهناك غيرها في هذه السورة فكأن عماد ما في التوراة هي التسع وعماد ما في هذه السورة (٢٥). ويقول هناك: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الآية: ٩]، ويقول هنا مؤكداً ذلك: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ أي: وما أنزلنا القرآن إلاّ بالحكمة وما نزل إلا ملتبساً بالحكمة والحق، فهو مشتمل على الهداية إلى كل. فإذا قلنا هناك: إنها (٢٥) حكمة، فيقال هنا: إن القرآن كله حكمة وهنا بيت القصيد. فإذا كانت تسع آيات لموسى كفر بها فرعون فغرق، فما بالكم يا أهل مكة إذا كفرتم بما هو ملتبس بالحق والحكمة؟ فلا جرم ستعاقبون على كفركم، فعوقبوا بموت الكافرين يوم بدر وغيره وانتهى الكفر من بلاد العرب، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ للمطيع في الأول والعاصي في الثاني ﴿ وَ ﴾ فرقنا ﴿ قُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ فرقنا فيه الحق من الباطل، أي: فرقنا فيه ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ على مهل وتؤدة لأنه أيسر حفظاً وأعون فهماً ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ منجماً على حسب الحوادث في تضاعيف نحو عشرين سنة ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ﴾ هذا وعيد لهم وتهديد وأن القرآن لا يتوقف أمر انتشاره عليهم، وعلله بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ من قبل القرآن ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ القرآن ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ يقعون على الوجوه ﴿ سُجَّدًا ﴾ تعظيماً لأمر الله وشكراً له ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ﴾ عن خلف الوعد ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ أي: إنه كان وعده كائناً لا محالة. يقول الله أعرض عنهم فإنهم إن لم يؤمنوا به فقد آمن من هم خير منهم وهم علماء الأمم السالفة الذين قرؤوا الكتب

السماوية وعرفوا الحقائق الدينية، وأن الله سيبعث نبياً فخرّوا سجداً لله وشكراً له على إنجاز وعده بإرساله ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ لما أثر فيهم من المواعظ، فالسجود هناك للشكر على إنجاز الوعد، وتكراره هنا لتأثير الوعظ ولذا ذكر معه البكاء ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ سماع القرآن ﴿ خُشُوعًا ﴾ كما يزيدهم علماً. ولما كان أهم شيء في القرآن هو التوحيد كرر فيه تأكيداً وقد تبين في هذه السورة أن القرآن آمن به أهل الكتاب وهو أفضل من التوراة لأنه آخر كتاب سماوي.

وهنا يرد سؤال فيقال: كيف يكون ذلك؟ وأن اختلاف الأسماء يدل على اختلاف المسميات وقد سمعك المشركون كأبي جهل تقول: يا الله يا رحمن، وأي فرق بين آلهتنا وآلهتك؟.

إذن نحن نعدد الأصنام وأنت تعدد الآلهة فنزل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا ﴾ أي: سموا الله أو سموا الرحمن، أيّ هذين الاسمين ذكرتم وسميتم فهو حسن، وقد وضع موضع هذا الجواب ﴿ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ وإذا كانت أسماؤه كلها حسنى فهذان الاسمان منها. وإنما كانت كل أسمائه أحسن الأسماء لأنها فيها التحميد والتعظيم والتقديس لأعظم موجود خالق الوجود فشرف المسمى بتبعية شرف الاسم فأسماء الله أحسن الأسماء كلها. قيل قال ابن عباس: «سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول: يا الله يا رحمن، فقال أبو جهل: إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين، فنزلت». ثم إنه لم يعترض أبو جهل والمشركون معه على الدعاء بالله والرحمن إلا لما سمعوا القراءة فنزل: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أي: بالقراءة في الصلاة ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ وسطاً بين الجهر والمخافتة، فلا تجهر حتى يسمع المشركون، ولا تخافت حتى لا يسمع من وراءك، وهذه من الإشارات العامة لعلم الأخلاق.

إن الأخلاق ترجع لأربعة أمور: العفة للشهوات، والحلم في الهفوات والنزوات، والحكمة في المعقولات، والعدل في نظم هذه المذكورات. فلا عفة إلا حيث يكون التوسط بين الشره وخمود الشهوة ولا شجاعة إلا حيث يكون التوسط بين التهور والجبن، ويتبع الشجاعة كثير من الأخلاق كالحلم، انظره في «آل عمران» ولا حكمة إلا حيث يكون التوسط بين المتناقضات، فلا يكون المرء من المعاندين ولا هو من الجاهلين بل علمه يكون بميزان. فالتوسط بين الجهر والتخافت أحد هذه الأخلاق.

ثم ختم هذه السورة بالثناء على الله لأنه لا ولد له، ولو كان له ولد لحوّل نعمه إليه ودخل حب الاستئثار عنده بخلاف عباده الذين إذا أعطوا خزائن السماوات والأرض فإنهم يمسكونها تقتيراً وضناً بها على الناس ويبقونها لأبنائهم، فليحمد الناس الله لأنه عدل يعطي على قدر الاستعداد والعمل، فليس هو كما أنتم عليه من المحاباة والحرص؛ فالإنسان ناقص نقصاً مفرطاً لأن قلبه وإن كان يودّ لو يملأ الأرض نعماً على الناس ويحب أن يغيث كل مضطر، فإن حاجاته وحاجات أبنائه من بعده تضطره أن يختص به ويخص أبناءه من بعده، ولكن الأنبياء وأعاظم الرجال لا يورّثون إلا العلم ولا يعتبرون المال ويكونون قائمين بالعدل.

يقول صلى الله عليه وسلم: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة». وقال الله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾[النمل: ١٦]، فهذه الإرشادات تفيد

أن أرقى الناس من يتخلقون بأخلاق الله . فإذا كان الله لم يتخذ ولداً فهو عدل عامّ الوجود، والناس لما حشروا في هذه الأرض والعالم المادّي عالم ضيق اضطروا إلى الإمساك ، فقلوبهم وأرواحهم من عالم أعلى من هذا العالم ، بل هم قبسة من نور جميل عال يحس به الإنسان من نفسه ويودّ لو يكون منعماً على سائر الناس سيداً على هذا الوجود بعلمه وبماله ، ولكن غرسه في الطين الأرضي حكم عليه بالتقتير ولا يسلم من هذه الخصلة إلا أناس عرفوا الوجود وخالقه فتخلصوا كالأنبياء ، وجعلوا نفوسهم آباء الشعوب لا آباء واحد أو اثنين . فهذه الآية ترجع لقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ ﴾ إلى آخر ما تقدم . ويقول هناك : احمدوا الله على هذه النعمة وعظموه فإنه قد اتصف بالرحمة المذكورة ، وهنا لم يقصرها على أفراد خاصة . فإذا أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم فلم يخصه إلا لاستعداده ، فلا نبوة ولا قرابة بل هو استعداد واستحقاق . فلتجدوا أيها الناس فرحمتي وسعت كل شيء . فهذه الآية تنسحب على ذلك كله ، فليس الله مقتراً كما تقترون ولا رحمته محصورة كرحماتكم ، بل هو يريد أن تتخلقوا بأخلاقه ، لأن من أحب أحداً سار على منهجه ، وقد سار الأنبياء على ذلك المنهج فخدموا الأمم ولم يخصوا أحداً ، ولذلك أرسل محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . فليكن العقلاء قدوة الأمم وسعادة الناس اتباعاً لربهم واقتداء بكماله ونظراً لجماله .

ولما كان من النقائص في الوجود أن يكون للممالك شريك فإنه يعطل أعماله ويقف له بالمرصاد أو عدو ليناوئه فيحتاج إلى ناصر ، قال الله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أي : لم يذل فيحتاج إلى ناصر أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته ، بل أولياؤه هم الذين استحقوا تلك الولاية بفطرهم وأعمالهم ، وكما لم يكن له ولد يحبس نعمه عليه لم يكن له شريك يقف أعماله في الملك ، ولا ناصر يدفع العدو والمذل له . وهذه الثلاثة هي آفات هذه الحياة ، فالعدو يميتنا ، والشريك يقاومنا ، والولد يجعلنا جبناء جهلاء أشحاء . وإذا تنزه الله عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده وأصبحت مفتحة أبوابها لكل قاصد ، فعلى هذا فليحمد الله ، فإذا حمد المصلي ربه على أنه مربي العالمين فليحمده تعالى على أن وجوده لا يمنعه شريك ولا عدو ولا ولد ، وهذا إغراء على اكتساب الفضائل والارتواء من تلك المناهل . ولعمري كم اغتر رجال المسلمين بالاتكال على شيوخهم أو على بعض أمور أو عبادات ثم هم يعصون الله ، أو يقولون : نحن أتباع النبي الفلاني كعيسى وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم ، لقد كذبوا فالله تعالى ليس له ولد وليس له شريك وليس له عدو فيحتاج إلى نصر ، فالله فتح أبواب الخير للعباد ، فلتغترف أيها العبد من مناهله ولتعلم أنه لا يحابيك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ولو كنت ابن نبي من الأنبياء ولا شريف من الشرفاء ولا عظيم من العظماء ، بل أنت أيها العبد عبد من عبيد ربك فاحذر أن تغتر بأنك من أبناء الولي الذي يزوره الناس ، واحذر أن يقال لك كما قيل لنوح عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] .

أيها المسلمون ، ما مضى فات والمؤمل غيب ولكم الساعة التي أنتم فيها . وضح الحق واستبان السبيل وتبدى في الوجود جماله . يقول الله لكم : أنا ليس لي ولد . إن العجائز من المسلمين واليهود

وأكثر الأمم يعرفون أن الله لا يلد والمسلم موقن بهذا فكيف نحمده على أنه لا ولد له؟ إن المقام أعظم وأعظم. لماذا يكرر هذا القول ويقول: احمدوني، وهل هذا يستحق الحمد؟ نعم الحمد هنا يراد به معنى عظيم.

الخطاب المفتوح من الله للمسلمين

يقول الله: أيها المسلمون لا تغتروا بأنكم أنزل عليكم آخر الأديان وأن نبيكم خير الأنبياء فليس لي أبناء ولا شركاء. هاأنتم أولاء جهلتهم وكسلتم ونمتم فهل نفعكم انتسابكم لأعظم الأديان؟ فالنسبة شيء والعمل شيء آخر، أنا لم أخلقكم لتكونوا علة على خلقي، أنا لا ألد فماذا تريدون؟ تقاعدتم أيها المسلمون فشردت عنكم المعالي، أتعيشون في غرور؟ أيكسب الناس وأنتم تأكلون؟ كلا وعزتي وجلالي لا أجعل لأحد سلطاناً على أحد، كلا ثم كلا. احذروا اعملوا فسأرى عملكم، وكيف تتكلون على النسبة الدينية أو النسبة الأبوية وأنا لا أنسب بيني وبينكم؟ إنَّما أنتم عبيد مسخرون، فإن اتبعتم سبيل نبيي أعطيتكم، أنا أعمل فلم لا تقلدوني، أنا الذي خلقت السماوات والأرض، أنا الذي لا أنام، أنا الذي أعمم النعم على خلقي ولا أبخل، فأنا الله ولا أعطي إلا من يسير على نهجي وينفع خلقي ويجعل مواهبه وقفاً على عبادي ويواسيهم بماله أو جاهه أو علمه المنتشر بينهم. هذه أعمالي فلتقلدوني ولتتخلقوا بأخلاقي. أيها المسلمون ألم أنزل عليكم ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ [الشعراء: ٨٨] فالنبوة والأبوة وقتية لنظام الحياة ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

ولنذكر هنا جوهرة وزبرجدتين

أما الجوهرة ففي قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ [الآية: ٦٦]، **إلى قوله:** ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وأما الزبرجدتان فهما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الآية: ٨٥].

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾

إن في هذه الآيات الكلام على البحر والبر وأن الله حمل الإنسان فيهما. فاعلم أن البحر أوسع مساحة من البر. ذلك أن مساحة الكرة الأرضية كلها (١٩٧) ألف ألف ميل مربع، ونحو ثلاثة أرباع هذه المساحة بحر، أعني: (١٤٠) ألف ألف ميل مربع.

وفي هذه المسافات الشاسعة من البحار والتلال والأودية والسهول المختلفة والأراضي الخصبة مثل ما في اليابسة، البحار أيضاً تختلف في درجات حرارتها باختلاف الأمكنة وفي أنواع حيوانها ونباتها التي تتوقف حياتها فيها على شروط خاصة كما في أمر سكان اليابسة سواء بسواء.

واعلم أن العلماء في زماننا بحثوا في عمق البحار، فترى أهم الغواصين على «الإسفنج» في العالم وهم اليونان لم يصلوا في غوصهم إلا إلى عمق (٤٠) قامة لا غير، فلذلك لجأ العلماء إلى آلات استعملوها لمعرفة الأعماق، فوصلوا إلى معرفة الأعماق المختلفة باختلاف الجهات. فترى العلامة «ويفل تامسون» يقول: إن العمق وصل إلى ٢٥٠٠ قامة أو ١٥٠٠٠ قدم وهذا باعتبار بعض

البحار. وترى العمق في بحر البلطيق وبحر الشمال وهكذا لا يزيد عن ١٨٧٧ قامة، ومتوسط أعمق البحار في الدنيا إنّما يكون في شمال المحيط الهادي المسمى «الباسفيك» فإن المتوسط المذكور هناك وصل إلى (٤٥٧٥) قامة، وقد مسح بعض العلماء العمق في الجانب الشرقي من بلاد اليابان فلم يجد له آخراً بعد أن وصل إلى (٤٦٥٥) قامة. ومن أراد الزيادة فليراجع هذا المقال في كتاب «علوم للجميع» في المجلد الثالث تحت عنوان «قاع البحر» باللغة الإنجليزية، وما ذكرته الآن كاف في هذا المقام. وأما اليابسة فاقرأ الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾[الرعد: ١] في سورة «الرعد» في المجلد السابع. يقول الله: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[الإسراء: ٧٠] أليس من العجب أن يكون عمق البحر قد يصل إلى ما يقرب من (٤٦٠٠) قامة ثم نجد السفن تجري فوقه، فهذه حياة مستقرة على هاوية بعيدة الغور سحيقة مهلكة، فأيّ عاصفة قلبت السفينة لم يكن لهويها في البحر من قرار بل تسقط إلى ذلك البعد السحيق. فإذا حفظ الله حياة الناس في هذه المهالك فذلك لرحمته ودقة صنعه وحكمته ثم تكريمه لبني آدم الذين أراهم العجب، فهم تارة يسافرون على الأرض وتارة يسيرون فوق الماء وآونة يطيرون في الجو فيصلون إلى بعد معين بطياراتهم وتقف عند ذلك الحد. ذلك هو أعظم التكريم بالنسبة لعالمنا الأرضي، والحمد لله رب العالمين.

زبرجدتان في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الآية: ٨٥]

الزبرجدة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرت في السماء ليلة الجمعة ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٧ الساعة الرابعة بعد نصف الليل، فقلت يا الله ما أحسن ما صنعت وما أجمل ما أبدعت. خلقت تلك الكواكب العظيمة الشاسعة الأبعاد العظيمة المقادير، فما منها من كوكب إلا وهو أكبر من الشمس غالباً جرماً وأكثر منها ضوءاً وأبعد منها مرمى وأجلّ منها قدراً. ولقد حشرتنا في أرضنا هذه لأننا لسنا أهلاً بعد لأن نشاهد هذا الجمال الذي أبدعته وهذا الحسن الذي زينته، وتلطفت وأبدعت فأحضرت هذه الشموس العظيمة وأتيت بها من أقطارها الشاسعة وأصغرت أحجامها وقللت من نورها وكللت بها سماءنا ونظمتها في جونا القريب الأسود ليلاً الأزرق نهاراً وجعلتها أشبه ببيض الطائر حجماً وبهجة الدرة حسناً وبصيص الآمال في لقائك رجاء. زينت سماءنا بشموسك، تلك الشموس التي خلقت لها خلائق وأودعتها أمماً تسكن في سياراتها وأراضيها. تلطفت بها فأسكنتها جونا القريب ورصعته بها وجعلتها حديقة جميلة تقرّ بها أعيننا ليلاً. ذلك لأنك لطيف لما تشاء عليم حكيم تعطي الطفل لبناً من أمه على قدر طاقته حتى إذا بلغ أشده فتحت له باب الرزق من العوالم المحيطة به. فهانحن أولاء الآن في الأرض كالأطفال لا قدرة لنا على مواجهة تلك الشموس الكبيرة، فخلقت عيوننا الأرضية مناسبة لعالمنا وصغرت هذه الشموس لتراها تلك العيون وتطيق التحديق إليها.

وهاهم أولاء لما رأوها مناسبة لعيونهم ومتنزلة لعقولهم جعلوها على شاكلة ما لديهم في الأرض، فقالوا: هذه المجموعة حمل وهذه ثور وهذه جوزاء وهذه سرطان وهذه أسد وهذه سنبلة وهذه ميزان وهذا جدي وهذا دلو وهذا حوت.

الله أكبر. هاهو ذا الإنسان درس نجوم السماء، أي: تلك الشموس العظيمة، فلم يرها إلا دلواً ليستقي به الماء، وإلا سنبلة في حقول الأرض، وحملاً من الضأن، وثوراً يحرث عليه الأرض، وميزاناً يزن به الفاكهة والذهب والفضة، وعقرباً يفر منه، وقوساً يرمي به السهم عنه لمحاربته العدو، وجدياً ينتفع بلحمه، وحوتاً يجري في الماء، هاهو ذا الإنسان بفضل ربه أخذ عوالم الله التي لا حصر لها ونزلها إلى أرضه وجعلها مما يلائم حاله.

الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً. اللهم إنك كبير عظيم تعاليت وعظمت فلم تعط الأطفال علوم الحكماء، ولم تسمع الدواب وحي الأنبياء، فأنت متكبر، ومن هذه الصفة أنك تربأ بالنعم أن تعطى لمن لا يستحقها، فنحن في أرضنا لا نستحق أن نرى هذه الحقائق بأعيننا فأنزلتها إلينا في سمائنا مصغرة، وأبقيت حقائقها مخزونة عندك فلم تعطها إلا بمقدار، بحيث لا يعرف بعض هذا أحد من الناس إلا بعد البحث والتنقيب. لماذا؟ لأنك متكبر ولأنك حكيم ولأنك عظيم. فهذه الكبرياء التي جاءت في كتابك: ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الجاثية: ٣٧] قد تجلت في معاملة نوع الإنسان إذا شيعت فيما بينهم وأذيعت في مدارسهم أسماء البروج، فرسمها قدماء المصريين على صناديق موتاهم «كما تقدم في سورة «يونس» بالمجلد السادس من رسم البروج على صندوق «حتر» من قدماء المصريين، فانظر ذلك الرسم هناك مصوراً بالتصوير الشمسي» أصبحت أسماء الحمل والثور الخ شائعة بين النوع الإنساني لا ينكرها أحد ولا يغيرها مغير مع أنها صور خيالية لا حقائق لها.

ولكن هكذا نوع الإنسان في الأرض كالطفل والنابغون منه الذين درسوا حقائق الشموس والأضواء هم الذين عرفوا ما أكتبه في هذا التفسير ولكنهم لن يغيروا تلك المصطلحات العامة للتعليم العام. الله أكبر، هكذا كل دين نزل من السماء فيه من ضرب الأمثال ما في منظر السماء من تصغير الشموس فصارت حيوانات خيالية.

العلم واحد، علم المبصرات وعلم المسموعات. نبصر شموساً عظيمة فنجعلها حيوانات أو نباتات نعيش بها، ونسمع في الكتب السماوية جنة وناراً ونعيماً وجحيماً فنتخيلها بما نشاهده في الدنيا، ثم نسمع الحديث النبوي: «إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وهذا بعينه أشبه بما نراه إذ ظهر أن الكواكب التي جعلناها جدياً ودلواً وسنبلة هي شموس لم ترها عين، ولم تسمعها أذن الغافلين، ولم تخطر على قلوب الجاهلين.

أليس هذا الموضوع بعينه قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، كيف لا وأنتم لا تعقلون الشموس العظيمة ولا تعرفون حسابها ومنازلها إلا إذا جعلتها صغيرة في أعينكم ثم ألهمت علماءكم فجعلوها بصور ما لديكم من المشاهدات في أرضكم. فهذا القليل من العلم في جانب الحقائق في كواكب السماء أشبه بما لديكم من العلوم التي أنزلتها في الكتب السماوية والكتب العلمية عند نسبتها إلى الحقائق في ذاتها، قال تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[النور: ٣٢]. ونظير هذا قول الخضر لموسى إذ جعل علمه وعلم موسى عليهما السلام وعلم الناس بالنسبة لعلم الله بما أخذه الطائر بمقداره من ماء البحر. انتهت الزبرجدة الأولى.

الزبرجدة الثانية في قوله تعالى أيضاً

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الآية: ٨٥]

اعلم أن العلم القليل المذكور كما تعمقنا فيه زدنا علماً بقلته، فالإنسان وهو على فطرته لا يعلم بقلة علمه إلا إجمالاً، ولكنه إذا درس وتعمق أدرك أن هناك أبواباً من العلم مغلقة، وكلما فتح مغلقاً أدرك أن وراءه أبواباً لم تفتح، فيتسع الشعور بالجهل بنسبة اتساع المادة العلمية. وإذا أردت مثالاً لذلك فهاك علم فلسفة الطبيعة.

إن هذا العلم يبحث في المادة وصفاتها العامة والخاصة، وعند التعمق ترى أمامنا ما لا يتناهى ونحن به جاهلون. وهاأنا ذا بعون الله ذاكر لك نبذة صالحة تشرح صدرك وترى ذلك البرهان. اعلم أن المادة كل ما نشعر به بحواسنا، وهي إما أن تحفظ حجمها وشكلها فهي الجامد، وإما أن تحفظ حجمها ولا تحفظ شكلها فهو السائل، أو لا تحفظ حجمها ولا شكلها فهو الجسم الغازي، والأول كالحديد والذهب، والثاني كالماء والزيت، والثالث كالبخار والهواء. انظر إلى هذا التقسيم والى صنع القادر الحكيم. تراه أعطى المادة كل ما يمكن في عقولنا، وعقولنا لا تتصور إلا واحداً من ثلاثة: حافظ لحجم وصورة. غير حافظ لهما. حافظ للحجم دون الصورة، وهناك صورة رابعة وهي ما يحفظ الصورة ولا يحفظ الحجم، وذلك مثل كل نام من حيوان ونبات، فليس كالحجر ولا كالماء ولا البخار بل هو قسم رابع، ولكنه ليس من الأقسام العامة في المادة، بل هو داخل في قسم الجامد.

هذه هي الأقسام التي يحصرها العقل وهاهي ذه قد وجدت فعلاً في المادة، والإنسان إذا قرأ هذا يرى أنه عرف الإجمال. فانظر ماذا ترى. للمادة صفات عامة وصفات خاصة، فالصفات العامة هي التي لا يخلو منها جسم ما، وأهم ذلك ثمان صفات:

(١) الامتداد: وهو أن يشغل الجسم حيزاً ومقدار الحيز الذي يملؤه الجسم يسمى حجماً.

(٢) عدم التدخل: وهو كون الجسم لا يشغل إلا حيزاً واحداً في وقت واحد فإذا حل جسم في مكان لا يمكن أن يحل غيره في ذلك المكان.

(٣) التجزؤ: وهو كون الجسم يقبل الانقسام، مهما كان الجسم صغيراً فهو قابل للقسمة.

(٤) لكل جسم مسامّ كبيرة كما في الخبز والإسفنج، أو صغيرة كالحديد والذهب.

(٥) الاستمرار ومعناه أن الجسم إذا حرك ولم يعارضه ما يوقفه لم يقف. وإذا سكن ولم يجد له محركاً يحركه لا يتحرك.

(٦) عدم فناء المادة إلا بأمر خالقها ونحن إنّما نغيرها من حال إلى حال.

(٧) قبول الضغط: وهو أن تضيق المسام والغازات أقبل للضغط من الجوامد، وهذه أسهل ضغطاً من السوائل.

(٨) الثقل: فكل جسم نراه منجذباً إلى مركز الكرة التي هو فيها.

هذه هي الصفات العامة للمادة، بمعنى: أن كل جسم متصف بهذه كلها. فالذهب مثلاً يشغل حيزاً وهذا الحيز لا يقبل غيره وهو يتجزأ وله مسامّ سنشرحها قريباً، وإذا حرك على سطح أملس لا خشونة فيه البتة لم يقف وهذا على سبيل الفرض. وإذا تركناه في مكان لا يتحرك البتة. وإذا أذبناه في

النار ذاب ولكنه لا يفنى ويمكن ضغطه ولو قليلاً، وهو ثقيل ومثله الماء والهواء والبخار، أما الصفات الخاصة فهي ما يأتي:

(١) فهي كون الجسم يمكن سحبه شريطاً وأكثر الأجسام قبولاً لذلك الذهب والفضة والبلاتين أما مثل الزجاج والحجر فلا يمكن ذلك فيهما، فلذلك كانت هذه الصفة ليس عامة.

(٢) قبول الطرق: وأشد المعادن قبولاً للطرق الذهب، وذلك لا يمكن في نحو الزجاج والحجر لذلك كانت هذه صفة خاصة أيضاً.

(٣) الصلابة: بحيث يعسر تفريق اتصاله أو مطه، وأصلب المعادن الحديد.

(٤) المرونة: وهي رجوع الجسم إلى حاله الأصلية بعد ما يكون مضغوطاً أو ممطوطاً أو مفتولاً.

(٥) القساوة: وهي كون الجسم لا يذعن للضغط إلا بصعوبة كالذهب والحديد.

(٦) وقبول القصف بحيث يسهل كسر الجسم كالزجاج.

فهذه هي الصفات الخاصة وكلها ترجع لجاذبية الملاصقة وتكيفها بكيفيات شتى. وهناك أحوال أخرى: (١) مثل قوة الجذب والدفع بين دقائق الجسم. (٢) والجاذبية العامة. (٣) ومثل أحوال الأجسام الساقطة ومركز الثقل ورقاص الساعة. (٤) والكلام على الحركة ونواميسها والسطوح المائلة التي يرفع الحمل عليها. (٥) والكلام على السوائل. (٦) وعلى الهواء وعلى الصوت. (٧) وعلى الضوء ونواميسه. (٨) وعلى الحرارة. (٩) وعلى الظواهر الجوية. (١٠) وأشكال الماء ومنافعه. (١١) والكهربائية. (١٢) والمغناطيسية.

هذا هو مجمل أقسام الفلسفة الطبيعية التي يدرسها الناس في الشرق والغرب وهي من القليل الذي عرفناه ويدخل تحتها علوم وعلوم وآلات وأعمال ينتفع بها الناس. هذا هو المجمل الذي أردت ذكره الآن.

فهاك بعض عجائبه فهو المقصود في هذا المقام لأننا لسنا في مقام علم الطبيعة بل في تبيان بأي طريق نعرف أننا ما أوتينا من العلم إلا قليلاً. أنت تعلم رعاك الله أن هذه المسائل التي ذكرتها لك قد قام بتعلمها جميع أهل الشرق والغرب في الأمم المتمدينة، وقد شغلت سائر الأمم وفرعوا عليها آلاف المسائل والآلات الزراعية والصناعية والانتقالية والبصرية. وهاهم أولاء يجدّون ولا نهاية للاختراع. فهذه المسائل المذكورات هنا أشبه بحروف المعجم أو بالأرقام البسيطة للحساب، فهي عند تركيبها لا تقف عند حد. فالحساب لا منتهى لأعداده والكلام لا منتهى لتركيب كلماته. فحروف اللغة العربية وهي (٢٩) والإنجليزية وهي (٢٥) حرفاً يمكن الإنسان أن يركب من كل منهما ما لا حد له من الكلمات، فهكذا هنا، وهذا الذي ذكرته مجرد تنظير لتقريب المقام هذا، ولأرك عجيبة من عجائب العلم ينظره الناس عادة أو أكثرهم لا يعلمون:

(١) قد ذكرنا في الصفات العامة أن الجسم له مسامّ كبيرة وصغيرة كالإسفنج والفخار وكالذهب والحديد؛ أفلا أريك العجائب في هذا المقام، قد أسمعتك الآن رؤوس مسائل وهي مجموع علم فلسفة الطبيعة، ولكن لم تأخذ بلبك ولم تكن مما يشرح الصدر، لأنها إجمال، ولأنها أشبه بدروس التلاميذ تلقى إليهم وإن كانوا لا يغرمون بها ولا هم بها معجبين.

أتدري ما هذه العجائب؟هي : المسامّ .

كل الناس يشاهدون الأحجار والطين والزجاج والذهب والفضة والحديد والنحاس . يشاهدونها ولكن ليس يخطر لأحدهم أن تلك الجوامد المصمتة مفتحة الأبواب ليس دونها حجاب ، واسعة الطرقات كبيرة الحجرات .

هذا ، ولما وصلت إلى هذا المقام حضر ذلك العالم الذي اعتاد أن يناقشني في عويصات المسائل فقال : حياك الله ، ما هذه السجعات والخطرات؟ تقول مفتحة الأبواب ليس دونها حجاب ، ماذا تريد بهذا؟ أتريد أن تقول إن الحديد كالسفنج؟ قلت : كلا . قال : فكالغرابيل؟ قلت : كلا . قال : فهل أجزاء الحديد مثلاً بينها متسعات كشوارع المدينة؟ قلت : أوسع . قال : فكالفاصل بين البلدتين؟ قلت : كلا ، بل أوسع من ذلك . قال : وهل هذا القول يقال في تفسير القرآن؟ أتفسر القرآن وتقول : أيها المسلمون ، إن الحديد منفصل لا متصل وهكذا بقية المعادن ، وإن فيها فتحات وتلك الفتحات أوسع من الحقول التي بين القرى في البلاد المصرية ، وإذا كان هذا يقال في التفسير تضيع الثقة لأن هذا إنكار للمحسوس وهل بعد تكذيب الحس من ضلال . ؟ فقلت : كم للحس من غلط وقد غلط الحس في قوله : ليس هنا فتحات ، وصدق في فتحات الخبز والإسفنج . فقال : ربما كان ذلك ولكن هذه المبالغات التي تخالف العقول تذهب بثقة الناس بالمؤلفين . فقلت له : لقد برهنوا على هذه المسامّ بما يأتي :

(١) نملأ كأساً ماء ونزيده ملحاً ثم سكراً ، فإننا بعد هذا كله لا نرى الماء زاد البتة ، لأن دقائق السكر أصغر من دقائق الملح ودقائق الملح أصغر من دقائق الماء ؛ فدقائق الماء كالبطيخ ، والملح كالليمون والسكر كحبات القمح ، فالليمون يذهب بين البطيخ ولا يكبر حجمه ، وحب القمح يسعه الليمون بين وحداته .

(٢) أخذ بعض أهل « فلورنسا » بإيطاليا كرة مجوفة من الذهب وملأها ماء ، ثم سدها سداً محكماً وضغطها من الخارج ، فتسطحت قليلاً وصغر حجمها ، فخرج الماء من مسامها وتجمع على سطحها كالندى .

(٣) إن الذين يجربون المدافع الكبيرة يضغطون الماء فيها حتى يرتشح من مسامها ويصير زبداً على سطحها ثم يجتمع ويقطر عنها .

(٤) الأعمدة الحجرية والقناطر تضغط أحياناً فتقصر إذا كانت بناء عظيم لزيادة ثقله ، وقد تقدمت في سورة « آل عمران » ، فهل كفاك هذا في أن لها مسام؟ .

قال : هذا كافيني ، ولكن المبالغات المذكورة هي التي تخالف كل عقل . فقلت : إن القوم بحثوا ودققوا ، كما رأيت أن دقائق السكر أصغر من دقائق الملح ، ودقائق الملح أصغر من دقائق الماء . فإذن دقائق الماء أكبر ، وقد رأيت أن دقائق الماء قد اخترقت دقائق الحديد والذهب ، وهذا الاختراق معناه أن الفتحات تسع ذرات الماء ، وهذا الاتساع بحثوا فيه وفي الذرات المحيطة به فظهر لهم ما يأتي ، قالوا : لو تصورنا أن المسام حيواناً صغيراً جداً جداً بحيث يعيش على جوهر من الجواهر كما يعيش إنسان منا على الأرض ، وفرضنا أن ذلك الجوهر واقع في وسط حجر ، لكان الحيوان المشار إليه يرى أقرب الجواهر إليه بعيدة جداً عنه ، كما نرى الشمس والقمر والنجوم ، وربما كان يحتاج لمعرفة تلك الجواهر

إلى مناظير كبيرة كما نحتاج نحن إليها لمعرفة الأجسام السماوية، فيظهر بهذا المثال اتساع المسام بالنسبة للجواهر. انتهى كلامهم.

ثم قلت: إن بعد الشمس المتوسط عن الأرض يعادل تقريباً قطر الأرض (١١٦٥٠) مرة فمقتضى كلامهم أن يكون بين الجوهر والجوهر في الحديد والذهب مسافة تبلغ مقدار أحدهما (١١٦٥٠) مرة، هذا معنى كلام أولئك العلماء، وقد قالوه ولم ينكر أحد منهم هذا، بل أقروه والناس لا يقرون مثل هذا إلاَّ إذا كان واضحاً لديهم أجمعين. هذا شأن جميع العلوم، فإذن هذا أشبه باليقينيات لإجماع الأمم عليه. أفلست بهذا ترى أن الأجرام الجامدة وغير الجامدة أمرها عجب، وأن ما نراه مصمتاً هو خاو وكلها مسالك، بل يكاد يكون أشبه بالخلاء الذي قلت الأجسام فيه، وهذا مما يحير العقول ويدهش الألباب، فأمثال الحديد والذهب على هذا المنوال، فهذا أمر عجب وهو من أدل الدلائل أن العلم لا نهاية له وأن علمنا قليل. فقال: أريد بياناً أزيد من هذا. قلت: قد تقدم بعضه في أول «آل عمران». فقال: أريد ما يقرب منه هنا. فقلت: إن رأي العلماء اليوم أن المادة مؤلفة من جواهر غاية في الصغر ولكل جوهر شكل ولون وثقل، وأنها تبقى على حالها فلا يلحقها تغير طبيعي ولا كيماوي، وهذه الجواهر لم يرها أحد ولا برهان محسوس على وجودها، وإنّما هي توافق العلوم لا سيما الكيمياء ولذلك أجمع العلماء على قبولها ويستعان على تصورها بهذه الصفة:

(١) إن بعض الحيوانات لشدة صغرها لا ترى بالعين المجردة، وهناك آلاف الآلاف منها تعيش في نقطة واحدة صغيرة من الماء تعلق برأس الإبرة مثلاً وتنمو هناك وتتكاثر وتموت، كما تعيش حيوانات البر في القفار وحيوانات الماء في البحار، ويسطو بعضها على بعض ويقاتل ويفترس بعضها بعضاً كالكواسر والجوارح، وهي في المستنقعات أيام الصيف وتصعد في البخار بحرارة الشمس وتطير في الجو مع الهباء ثم تعيش وتكثر حيثما نزلت ووافقتها الرطوبة والحرارة. وهناك في سورة «آل عمران» زيادة فارجع إليها وكفاك ما هنا.

أفليس هذا معناه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، وأيّ علم عندنا إذا كانت قطرة فيها آلاف الآلاف من المخلوقات ونحن لا نراها، وكل حيوان منها له معدة أو أكثر لهضم طعامه والاغتذاء به، وأن طعامه بعد أن يدخل معدته لا يغذيه إلا بعدما يدور في قنوات كثيرة في جسمه، وطعام الحيوان مؤلف من دقائق سائلة وأخرى جامدة مثل ما نرى في الحيوان المشاهد، وكل دقيقة مؤلفة مما هو أصغر منها وهكذا، فأصبحت تلك الحيوانات التي لا نراها عالماً جديداً لا ندري ما وراءه، وربما كان في باطنه حيوانات ذريّة كما نشاهد في الحيوان الذي نراه هنا. ونحن في حيرة فلا الصغير أدركنا صغره ولا الأجرام العظيمة من الشموس والكواكب أدركنا نهايتها.

هذا تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، وقوله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[البلد: ٤]، أي: نصب وتعب، لأنه بعد هذا النصب كله أصبح جاهلاً جهلاً حقاً، وقوله: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، فهو لا يعطينا العلم إلا على مقدار طاقتنا، وقوله: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[الكهف: ٥١]. انتهى. والحمد لله رب العالمين.

حادثة عجيبة في الطيارات

أنا أكتب هذا في صباح يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤، ولما وصلت إلى هذا المقام ذكرت ما اتفق لي أمس.

ذلك أن بعض الشبان قتلوا رئيس الجيش الإنجليزي والمصري وهو حاكم السودان من الحكومة الإنجليزية والمصرية. وقد ارتجت بلادنا من أقصاها إلى أقصاها لوقوع هذا الحادث، لأن بلادنا المصرية قد أعطى لها الإنجليز استقلالاً ويراد تسوية الأمور بيننا وبينهم. فلما وقع هذا الحادث اختلطت الأمور والناس في ذهول عميق.

فبينما أنا في الغرفة إذ سمعت أصواتاً في الجو فقمت ووقفت خارجها، إذا هناك طيارات تتلوها طيارات وهي محلقة في الهواء على هيئة طيور ذوات أجنحة وذيول ورؤوس تقليداً لطيور السماء، وطال الأمد على وقوفي وهي تمر مثنى وثلاث ورباع وخماس، احتفالاً بدفن ذلك الحاكم الكبير الذي أقام إنكلترا وأقعدها كما أقلق مصر وأخافها وأنا شاخص إليها أراقب حركاتها وأسمع أصواتها وهي تحلق فوق البيوت لغرضين:

الأول: الاحتفال بالجنازة.

والثاني: ليقولوا للمصريين انظروا انظروا هذه طياراتنا قد ملكت السماء عليكم وسددناها في وجوهكم، فالبحر من ورائكم فيه أساطيلنا والجو فوقكم فيه طياراتنا فإلى أين تفرّون. هذا ما يقصدون.

لغة الطيارات التي فهمتها

أما أنا فكنت أسمع غير هذا، كنت أسمع أنني الآن أكتب في التفسير وهناك أناس مثلي يكتبون لرقيّ المسلمين، وكأن تلك الأصوات تقول بلسان فصيح: سيكون في هذه الأمة الإسلامية رجال غير ما ترون، وسينشر هذا الكتاب ويكون من ورائه ووراء أمثاله ما يرقي هذه الأمة ويكسبها حركة عظيمة وسيعود الإسلام كما بدأ، أي: ينتشر انتشاراً غريباً، وليس الانتشار هو كثرة الأتباع فلا فائدة في أتباع أذلاء، بل سيكون هذا الإسلام أمره غريب جداً، وسيظهر فيه أناس بارعون في جميع الصناعات ويعملون أعمالاً يعجز عنها الأوروبيون، ولكنهم يكونون خدام الإنسانية، خدام الحضرة العلية، خدام الحق، خدّام الحكمة يربون العالم تربية علمية، ويكونون صلة بين الأمم المختلفات.

هذا هو الذي فهمته من غوير الطيارات، وأنا لا أقول تكلفاً ولا أذكر إلا ما خامر قلبي وتلقاه فؤادي. فالأمة الإسلامية سيكون بها أناس أبرع في هذه الصناعات من جميع الأمم، يؤدبون العاصين ويرفعون المدينة الجاهلة إلى أوج الكمال، وتكون دعوتهم الدينية مبنية على الإقناع ولا يستعملون السلاح إلا للفضيلة وتربية الأمم تربية علمية، لأنهم يحبون الله حباً جماً فيعملون لصالح عباده والخلق كلهم عباد الله.

هذا هو الذي فهمته من الطيارات الطائرات الإنجليزيات. وهذا هو الذي فهمته في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾[الإسراء: ١١١]، وإنما الأمور بالاستعداد والعمل، والحمد لله ربّ العالمين.

ولنذكر هنا أربع لطائف:

اللطيفة الأولى في قوله تعالى

﴿ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[الآية:٧٨]

أي يشهد معناه المصلي ويطالعه، ويحضر فيه قلبه، ونفسه إذ ذاك فارغة عقب النوم فهي مستعدة للفهم ولتلقي المعاني، لاسيما وقد تجلى الله على الناس بالصباح منبع الأنوار المشرقة الفائضة على الآفاق، فتذكر النفس بالجمال والبهاء، وإنما ذكر هذه الجملة لأنه لا معنى للصلاة إلا بحضور القلب ومطابقة القلب للسان وموافقته له، كما قال في آية أخرى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[المزمل:٦]، أي: أشد موافقة بحيث يوافق القلب اللسان موافقة أشد وأبين قولاً. فهذا هو المعنى المقصود من قوله: ﴿ مَشْهُودًا ﴾[الإسراء:٧٨]. وأما الحديث فإنه ذكر بعض لوازم حضور القلب من الانتفاع بحضور الملائكة للإلهام فيلهمون المصلي المعاني وترسم في نفسه عند صلاته.

اللطيفة الثانية: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[الآية:٧٦]

اللطيفة الثالثة: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾[الآية:٨٧]

اللطيفة الرابعة: زيادة مبحث في القسم الأول في قوله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الآية:٨]

هذه اللطائف الثلاث يتجلى لك نبؤها وتشرق شمسها وتبهرك بحسنها وتراها عروساً حليت في حبر قد ازينت للناظرين وقالت هيت لك للعاشقين، فهاك غادة هيفاء وكاعباً غيداء وعقيلة حوراء أزفها إليك باسمة الثغر حالية المنطق عذبة المورد شارحة الصدر مرقية العقل جالية الأنس بمنطقها الرخيم وبيانها الفصيح، فلأزفها إليك ساعية إليك لم تجشمك مهراً إلا قبولها، ولا نفقة إلا وصالها وهي مبتهجة بحللها وحلاها تختال في غلائلها السندسية وأثوابها العبقرية.

فأقول نقلاً من «كتاب الأرواح» الذي ألفته منذ بضع سنين ولا أحيلك عليه، بل أذكر منه ما يناسب المقام لترى جمال الإسلام قد أوحي به إلى الأنام، ولتعجب أيها الذكي كيف أشرقت أنوار الله على عباده، وأخذ نوره يتجلى على المخلوقات الإنسانية، فأظهر الأرواح وأقامها من برازخها تصل السري بالسرى لتقابل الأحياء فتريهم أن وعد الله حق وأنهم أحياء فعلاً، وأن الأبرار والفجار بعد الموت هم هم الذين كنا نراهم في الدنيا، ولقد ذكرت لك بعضاً من هذا الكتاب في سورة «البقرة» مما يناسب المقام هناك، فلأزدك الحقيقة الناصعة، لترى أن الحياة الأخرى موجودة فعلاً، وأن الناس لم يموتوا إلا أجسامهم، وأن أرواحهم تطالع ما كسبت في حياتها، وأن العذاب والنعيم حاصلان فعلاً في الدنيا وفي الآخرة.

وهنا يظهر لك سرّ هذه السورة وكيف تكرّر فيها ذكر النفس، وأنها تطالع أعمالها ويكشف عنها غطاؤها، وأن الملائكة لا يستطيعون المشي على الأرض. وبالجملة هذا الموضوع سترى فيه معجزات القرآن في آخر الزمان، وهذه هي المعجزات الكبرى التي وعد بها الله، إذ قال سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت:٥٣] أما آيات الله في الآفاق فهذا الكتاب مملوء منها،

وأما آياته في أنفسنا ؛ فهاأنا ذا أتلوها عليك من الكتاب المذكور بعد أن ذكرت مسألة الروح في سورة « البقرة » ومباحث العلماء فيها ومباحثي أنا أيضاً عند قصة العزير وحماره ، وإبراهيم وطيره الذي فرّقه على الجبال ثم دعاه ، فأقول : جاء في هذا الكتاب ما يأتي وهو تبيان اللطيفة الثانية والثالثة .

فصل في طرق إحضار الأرواح

قال شير محمد : قد فهمت تاريخ مناجاة الأرواح بأوروبا ، وقد شاقني هذا إلى أن أعرف كيف أحضرت ، وإذا كانت العلوم الرياضية والطبيعية قد صدقها الجهال لعلمهم أنهم إن سلكوا السبل التي سار عليها المهندسون وعلماء الحساب والطبيعة وصلوا إلى النتائج التي وصل إليها أولئك الأعلام فحق لنا أن نسأل عن الطرق التي سار عليها علماء الأرواح في أوروبا ؛ حتى إذا اعتورنا الشك فيما أخبرونا به مما لم نحط به علماً سلكنا سبيلهم ليحق الحق ويبطل الباطل عند المحققين .

فقلت : اعلم يا شير محمد أن الطرق التي اطلعت عليها في كتبهم ست ، وسأوضحها جهد طاقتي ولا أخرج عن دائرة النقل مما يكتبون .

الطريقة الأولى : لا بد من قراءة الفصل الآتي أولاً في آداب المحضرين ، فمتى عملت به فلتجلس أنت وأصحابك أو أهل منزلك حول مائدة ذات ثلاثة أرجل ، وتضعوا أيديكم عليها غير متكئين بقوة وقد لامست يد كل واحد منكم يد الآخر واتصلت بها ، ثم يدوم ذلك لا يزيد عن ربع ساعة ، فإذا لم تتحرك فليعد إلى العمل في اليوم الثاني وهكذا كما سيأتي في الفصل الآتي ، ومتى تحركت فلتسألوا الروح الحاضر أن يرسل لكم من تريدون من أصدقائكم أو أساتذتكم ، ومتى حضر فهاهنا طرق تتفقون عليها معه ، لأنه إما أن يقال له : إن الجواب نعم بضربة أو بضربتين وهكذا ، وإما أن يقال : يكون الجواب كتابة فتكون الألف ضربة والباء ضربتين والتاء ثلاثة ، وإما أن تنطق حروف الهجاء (أ ب ت ، الخ) ، والحرف الذي تضرب المائدة عنده يكتب ، ثم تكتب الحروف فتكون ذات معنى وهناك يحصل كثير من التهويش والتخليط عند المبتدئين كما في الفصل الآتي .

الطريقة الثانية : تجلس أنت وأصحابك أو أهل منزلك وقد وضعتم فنجاناً فوق المائدة مثلاً وقد كتبتم حروف الهجاء واضحة جلية حسنة الخط في ورقة لطيفة ، وجعلتم هذه الورقة محيطة بهذه المائدة ، ويكون الفنجان في وسط المائدة مقلوباً وقد وضعتم أصابعكم على قاعدته ، ويدوم ذلك ربع ساعة كما تقدم ، فإن لم يتحرك فليعد العمل وهكذا أسبوعاً أو شهراً إلى ستة شهور كما سيأتي في الفصل التالي . ولتكن أنت رئيس القوم ولتفكروا جميعاً في روح صالحة حاضرة في المكان أو تريدون إحضارها ؛ ومتى حضرت فاطلبوا منها أن تعرف اسمها ، فيتحرك الفنجان والأصابع موضوعة عليه بطريق الملامسة بلا ضغط ، ويتجه إلى الحروف حرفاً حرفاً فتكتب تلك الحروف وتقرأ ، وتكون مفهومة معقولة ، وقد يحصل تهويش وخلط عند المبتدئين لتداخل أرواح سفلية ، وإذن تكف حالاً عن العمل ، ثم يعاد مرة أخرى ، ولابد من الصبر والثبات .

الطريقة الثالثة : إن الأرواح أنفسها لما رأت أن في تحريك المائدة واستخراج الحروف بطرقها صعوبة وضياعاً للزمن أشارت بما يأتي : وهي أن تأخذ قطعة صغيرة من الخشب مثلثة الزوايا تجعل لها ثلاث قوائم صغيرة منتهية بدواليب صغيرة ، وتربط بإحداها قلماً من الرصاص وتضعها على صحيفة

من الورق، فلما فعلوا ذلك ووضع الوسيط يده على هذه المنضدة الصغيرة؛ أخذ القلم يتحرك فخط أحرفاً ثم جملاً، وبعد ذلك أخذت المائدة تكتب بسرعة زائدة وتحرر رسائل مطولة.

الطريقة الرابعة: أن يضع الوسيط يده على الورقة وهو ممسك القلم، فيستولي عليها الروح ويحركها بذاته، ويسمى هذا كتابه آلية لأن الكاتب إذ ذاك لا يدري ما تخطه يده. ولقد جاءتهم كتابات ورسائل بلغات مختلفة مختومة وعجائب من التصوير وبدائع من النقش ومن العلوم المختلفة.

الطريقة الخامسة: أن توضع الورقة في علبة مختومة ويضع الوسيط يده خارج العلبة، ولما فعلوا ذلك خرجت مشحونة بالكتابة والتصاوير الجميلة.

الطريقة السادسة: أن تظهر الأشباح والأنوار وصور أيد بشرية نورية ووجوه مستنيرة لامعة ويدعي القوم أنهم لمسوا الأشباح أخيراً بأيديهم. ولا جرم أن هذا لا يكون إلا بطريقة التنويم المغناطيسي.

قال شير محمد: أأجريت بنفسك هذه الطرق الست أم هذا مجرد نقل؟ قلت: بل مجرد نقل، قال أراك في هذا أشبه بمن يصف للناس علم الكيمياء القديم التي يزعم القوم أنها تكوّن الذهب فتضر المسلمين بلا فائدة.

فقلت: إن الإنسان قد يصف المزارع والأشجار والأنهر والبحار والأرض وهو لم يصنع شيئاً من ذلك. فقال: وهل شاهدت شيئاً من هذا؟ قلت: نعم قد شاهدت، فقد قيض الله لي من عمل الطريقة الأولى والثانية وأنا جالس بالقرب منهم وهم قوم صالحون. وهذا كان عندي من العجب لأنه كان أثناء تأليف الكتاب، فإنهم طلبوا أناساً منهم روح الأستاذ الإمام الغزالي فتحرك الفنجان إلى الحروف بهذه العبارة: «مسكين شاب عرف الله ولم يهم شوقاً إلى جماله»، ثم سألته مسائل أخرى لا يعلمها الحضور، فأتت الأجوبة مطابقة فعجبت أشد العجب.

فقال شير محمد: لعل أعصابهم تأثرت بما في ذهنك أو بما عندهم من الصلاح فجاءت العبارة على مقتضاه.

فقلت: يا شير محمد هذا هو الذي أريد من الناس أن يبحثوه، وليست أقطع في العلم، بل هذا يعوزه جماعات وقوم عندهم استعداد، ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[المائدة: ٩٩]. انتهى.

أمثلة على ما تقدم

المثال الأول: وهاك حادثة مدهشة. وذلك أنه في سنة ١٨٧٣ ذكرت جرائد أوروبا وأمريكا حادثاً مدهشاً، وهو أن المؤلف الإنجليزي «ديكنس» فاجأته المنية في مدينة لندن سنة ١٨٧٠م قبل تتمة روايته الأخيرة المدعوة «أسرار ادوين برود» فأتمها بعد موته على يد الوسيط الأمريكي «جيمس» في مدينة «بوستون»، وذلك أن «جيمس» كان غلاماً صانعاً قليل العلم يقضي أيامه في العلم وإتقان حرفته، فحضر في إحدى ليالي تشرين الأول سنة ١٨٧٢ جلسة روحانية تجلى فيها روح «ديكنس» وطلب أن يكون «جيمس» وسيطاً يتم به روايته، فقبل «جيمس» وصار يجلس في كل ليلة في نحو الساعة السابعة وتتحرك يده وهي تكتب في القراطيس أقوالاً لا يعلمها، ودام على ذلك سبعة أشهر أكمل فيها الرواية بألف ومائتي قرطاس. ولقد شهد رجال الصحافة عموماً أنه يستحيل على القارئ أن يميز بين ما كتبه «ديكنس» قبل موته وبين ما كتبه الوسيط «جيمس» بعد موته أقل اختلاف لا في

الإنشاء ولا في الخط ولا في نسق الرواية ، حتى إن الأغلاط الإملائية التي كان المؤلف في حياته يعتادها بقيت كما هي . ولقد جاءت مقالات في الفلسفة والعلوم الفنون والتاريخ واللغات الأجنبية كتبتها الأرواح علي أيدي فتيان حديثي السن أو فتيات ساذجات لا يحسنّ القراءة .

المثال الثاني : قال في المذهب الروحاني : إن الأرواح قد أشارت إلى واسطة أسهل من المائدة لمخابرتهم ، وهي أن يمسك الوسيط بيده قلماً ويضعها على قرطاس فيحسّ بعد ذلك بيده قد تحركت من نفسها وأخذت ترقم نقطاً وخطوطاً ثم أحرفاً تتألف منها المقالة الروحانية ، وهاك كيفية ما ملك الدكتور « سرياكس » الألماني الوساطة الخطية بعد أن غرم على استجلاء الحوادث الروحانية في بينه وما بين آله دفعاً للاحتيال ، فبعد أن أقام تسع عشرة جلسة بدون نتيجة تذكر قال ما ترجمته :

في هذه الجلسة الأخيرة وهي العشرون شعرت فجأة وبالتوالي بإحساس غير مألوف من الحرارة والبرودة ثم بريح باردة مرّت على وجهي ويدي ، فاعترى ذراعي الأيسر نوع من الخدر لا مناسبة بينه وبين التعب الذي كان يعتريني في الجلسة ، فكانت يدي مخلعة على نوع القول لا تقوى إرادتي على تحريكها ، وبعد هنيهة شعرت بقوة أجنبية تحركها بسرعة لم أكن أقوى على تثبيطها ، ثم أحضرت لي امرأتي ورقاً وقلم رصاص ووضعتهما على المائدة فوثبت يدي اليسرى على القلم وأمسكته وبدأت تخط في الفضاء إشارات لا معنى لها ، وبسرعة عنيفة أجبرت مجاوري على التخلف للوراء ، وبعد ذلك انقضت يدي على الورق وضربت بعنف حتى انكسر القلم ثم انحطت على المائدة وهمدت ، فتأكدت أنه ليس لإرادتي دخل لا في الحركات التي أحدثتها يدي ولا في حالة السكينة التي صارت إليها فيما بعد ، وبعد أن بري القلم من جديد ووضع أمامي أمسكته يدي وأخذت تتلف أوراقاً جمة مالئة إياها شطوباً وتقاطيع إلى أن هدأت بعد هنيهة ، ورأيناها تكتب تمرينات خطية يبدأ بها صبيان المدارس ، أي : خطوطاً بسيطة في الأول ثم أحرفاً هجائية ، وكل ذلك بسرعة عجيبة ، وبعدها هدأ اضطراب ذراعي وشعرت من جديد بريح باردة مرت على يدي فعادت إلى أصلها وتبدّد منها كل ضرر وتعب فسررت جداً بهذه الجلسة لتأكيدي فيها ظهور قوة لا تعلق لها بإرادتي ولا في وسعي مقاومتها . وفي الليلة الثانية قمنا من جديد إلى العمل وما مضت خمس دقائق حتى شعرت بالريح الباردة والأعراض ذاتها التي تمت في الجلسة السابقة ، فكانت يدي اليسرى تهتز بعنف متزايد وتطرق أحياناً طرف المائدة طرقات شديدة مترادفة حتى ظننت أنها قد سلخت إلا أني لم أر فيها بعد الجلسة أدنى خدش ولا اعتراني فيها أقل وجع ، ثم تمرنت وساطتي في الجلسات التالية وتكاملت بسرعة حتى صارت يدي اليسرى تكتب مقالات شتى للأرواح . وفي إحدى الليالي صورت ثلة من الزهور في منتهى الإتقان ، ولا حاجة للقول إني لا أستطيع أن أستعمل يساري حتى في الأكل فكيف في الكتابة . وأما التصوير فليس لي إلمام بأصوله ولو بيدي اليمنى ، وقد تأكدت تأكيداً لا ريب فيه أن القوة التي كانت تستعين بيساري للكتابة والتصوير كانت خارجة عني ولا تعلق لها بإرادتي ، وكنت في حال الكتابة على أتم الانتباه لا أشعر من نفسي بغير خدر يدي وتسلط غريب عليها بمعزل عن اختياري .

والدليل على ذلك أني كنت في حال الكتابة أخاطب رفقائي وأطارحهم دون أن تتوقف يدي عن الكتابة ولا أدري ما تخط .

وقصد أحد الحضور في جلسة أن يوقف يدي فوضع عليها يديه وارتفع جسمه حتى وقع كل ثقله عليها فبقت مع هذا تتحرّك للكتابة بقوّة ونظام وكأنها ليس عليها شيء وأنا لا أحسّ بالثقل الواقع عليها.

قال في الكتاب المذكور: أحببنا الملاحظات التي نشرها الدكتور « سرياكس » لأنها تحتوي على الأعراض التي تعترض كل وسيط كاتب في أول وساطته فضلاً عما لصالحها من الشهرة في العلم والكفاءة واهتدائه إلى الروحانية باختباره حوادثها في نفسه.

المثال الثالث: قال في الكتاب المذكور: قال العلامة « وليام كروكس » في الوساطة الخطية: « كثيراً ما شاهدت الآنسة « فوكس » وهي الوسيطة تكتب مقالة روحانية لأحد الحضور، في حين أن مقالة أخرى وفي موضوع آخر كان يتلقنها آخر بواسطة طرقات المائدة الواضعة الوسيطة يدها عليها. وفي الوقت نفسه كانت الوسيطة تكلم إنساناً ثالثاً بكل سهولة وانتباه في موضوع مخالف للموضعين الآخرين ».

قال: « ولا جرم أن الوساطة الخطية أكمل وأسهل طريقة لمناجاة الأرواح ولنيلها يبذل المبتدئون جهدهم خصوصاً لأنهم يتمكنون بها من تمييز الأرواح واستجلاء بواطن أفكارهم وتقدير درجة ارتقائهم ».

الأرواح تكتب بلا أقلام

المثال الرابع: قال البارون: « جيلد نستوبه » في كتابه عن حقيقة الأرواح في أول شهر آب سنة ١٨٥٦ ما يأتي:

« خطر لي أن أجرب كتابة الأرواح من غير يد الوسيط؛ لما قرأت في كتاب موسى عن كتابة الوصايا العشر، وفي سفر « دانيال » عن الكلمات السرية التي خطتها يد غير منظورة في وليمة « بلتشاصر »، وما قرأته عن أسرار « أستراقور » الأمريكي في هذا الموضوع، فوضعت ورقاً أبيض وقلم رصاص في علبة أقفلتها ووضعت المفتاح معي ولا علم لأحد بما فعلت. وفي اليوم الثالث عشر من شهر آب سنة ١٨٥٦ رأيت حروفاً سرية مكتوبة، فدهشت وعجبت أشد العجب، وكررت العمل في ذلك اليوم عشر مرات فكلل مسعاي بالنجاح، وفي اليوم الثاني كررته عشرين مرة والعلبة مفتوحة أمامي وأرى الحروف والكلمات تسطر أمامي بلا قلم، فصرت بعد ذلك أضع الورقة أمامي على المائدة فتسطر المقالات عليه بيد غير منظورة ».

بهذا العمل نفسه حظي الكونت « أورش » برسالة من أمه المتوفاة بالخط والإمضاء نفسه الذي كان لها في حياتها على يد البارون المتقدم. وقد جرب مثل هذا العلامة « والاس » وكذا العلامة « أكسون » من جمعية العلماء في « اكسفورد » والعلامة « زولنر » الألماني والدكتور « جيبيه » الإفرنسي والمعلم « أويت كويس » الأمريكي في مؤلفاتهم، بعد الاحتياط الشديد لرفع الريبة ونفي الشبهة والإثبات واليقين.

المثال الخامس: روى المشترع الفقيه « سارجان كوكس » ما تعريبه: كثيراً ما رأيت غلاماً صيرفياً وهو وسيط عار عن كل علم وتهذيب؛ يجادل عند استيلاء الروح عليه قوماً من الفلاسفة في

مسائل المنطق ومعرفة الغيب والإرادة والقدرة، وغالباً كان يفحمهم بأجوبته السديدة، وأنا نفسي ألقيت عليه يوماً بعضاً من معضلات علم النفس فحلها لي ببراهين قاطعة وألفاظ في منتهى الرقة والفصاحة، مع أنه في حالته الطبيعية لا يدري ما الفلسفة ولا يجد ألفاظاً يعبر بها عن أفكاره الصغيرة.

المثال السادس: روى العلامة «والاس» في تكلمه عن أعمال الحاكم «أدمون» الأمريكي ما يأتي: إن ابنة الحاكم المدعوة «لاورا» أصبحت فيما بعد وسيطة متكلمة، وصارت تنطق بلغات أجنبية لا تعرف هي منها شيئاً، وكثيراً ما خاطب أصحاب الحاكم موتاهم على يدها وبلغاتهم الخصوصية، واتفق مرة أن نطقت بعشر لغات في مدة ساعة فقط، منها: الإسبانية والإفرنسية واليونانية والإيطالية والبرتغالية واللاتينية والهندية والإنجليزية وغيرها من اللغات التي كان يجهلها الحضور.

المثال السابع: هو وبعض ما تقدم خاص بالتنويم المغناطيسي وبعضها يتيسر لجميع الناس بلا تنويم على شرط المثابرة والصبر والاحترام والالتجاء إلى الله عز وجل. فلنختم بهذا المثال فنقول: قال في المذهب الروحاني: لا بد لأهل الشك أن ينسبوا إلى الأحاديث الخرافية كل الوقائع التي أتينا على ذكرها رغماً من ثبوت صحتها وصدق رواتها، زاعمين أنه لا بد أن يكون للتخيل الوهمي والمبالغة النصيب الأوفر فيها، ولكن هل يثبت شكهم إزاء حوادث من هذا النوع تمت في معمل وحيد العصر وخيرة علماء إنكلترا أعني به «وليام كروكس»، إن ضيق المقام لا يمكننا من تفصيل الامتحانات التي أقامها على يد الوسيط «هوم» والآنسة «فلورنس كوك» فنكتفي بتخليص بعض الأندية التي فيها تجسمت الروح المدعوة «كاتي كينج» وظهرت عياناً للحضور. قال العلامة المذكور في كتابه المدعو «مباحث الروحانية»: كنت أقيم الجلسات في معملي ذاته والمكتبة التي ينفذ إليها أجعلها الحجرة السوداء التي تدخلها الوسيطة لإلقائها في السبات ومنها يظهر خيال الروح بعد إضعاف النور. وقد قال في الكتاب المذكور: كانت «كاتي كينج» هذه روح حي من عالم الغيب تجلت في البدء بهيئة بخار يظهر في الظلمة ولا يقوى على تحمل النور ولكنها تدرجت شيئاً فشيئاً إلى أن تجمعت في وسط الأشعة الكهربائية وفي معمل عالم كبير تنزه عن الجهل والغش. ثم قال العلامة المذكور: لم تظهر «كاتي» قط ظهوراً واضحاً كهذا فإنها لبثت زهاء ساعتين تتمشى في الغرفة وتكلم بدالة كلاً من الحضور ثم أخذت مراراً بذراعي لنتمشى معاً، وناهيك ما تولاني من التأثر عند معرفتي أني أماشي زائراً من عالم الغيب لا امرأة حية، ثم قالت «كاتي»: إنها تستطيع في هذه المرة أن تتجلى مع الآنسة «كوك» وهي الوسيطة فأطفأت نور الغاز وأخذت مصباحاً من الزيت الفسفوري ودخلت الحجرة السوداء فوجدت الآنسة «كوك» ملقاة على المقعدة فاقدة الحراك فجثوت بجانبها وأدنيت المصباح منها فألفيتها لابسة حلة من المخمل الأسود ثم رفعت المصباح ونظرت إلى ما حولي فرأيت «كاتي» واقفة إزاء الوسيطة لابسة حلة بيضاء ضافية الذيل ثم أمسكت ثلاث مرات يد الآنسة «كوك» لأتحقق أنني ممسك يد امرأة حية ورفعت مصباحي ثلاث مرات نحو يد الآنسة «كاتي» لأفحصها بدقة وأتأكد أني أعاين حقاً أمامي من كنت أتمشى معها ويدي في يدها منذ بضع دقائق ثم تحركت قليلاً الآنسة «كوك» فأوعزت «كاتي» حالاً إليّ بالذهاب، فخرجت من الحجرة وبعد قليل استيقظت الوسيطة بعد أن توارى خيال «كاتي» وأعدنا مصباح الغاز إلى ما كان عليه.

ثم أخذ العلامة المذكور يقارن ما بين الآنسة « كوك » الوسيطة والآنسة « كاتي » المتجلية، فكان الفرق في اللون واللمس والطول وثقب الأذن والنبض والشعر والرئتين. فالآنسة « كاتي » كانت ذات شعر ذهبي ووجه أبيض ناصع وعنق ناعم الملمس وقوام أطول وأذن غير مثقوبة ونبضاتها (٧٥) في الدقيقة والرئة أكثر اعتدالاً. فأما الآنسة « كوك » فإنها ذات شعر كأنه أسود ووجه أسمر وعنق في بعضه خشونة وأذناها مثقوبتان وطولها أقصر قليلاً ونبضاتها (٩٠) في الدقيقة وفي رئتها زكام. ثم وصف العلامة المذكور آخر جلسة للآنسة « كاتي » وذكر فيها عجائب لا يستطيع الخيال فضلاً عن العقل تصورها، فعلى من عندهم قوة على هذه الأعمال أن يجربوها في بلادنا حتى نوقن بما يقولون.

يقول: إن الآنسة « كوك » وهي الوسيطة دخلت الحجرة الساعة السابعة والدقيقة ٢٣ مساء وفي الساعة السابعة والدقيقة ٢٨ سمعنا صوت « كاتي » وفي الدقيقة ٣٠ تجلت وظهرت بحلة بيضاء قصيرة الأكمام وعنقها مكشوف وشعرها منسدل حتى خصرها ووجهها مبرقع بخمار طويل لم تنزعه إلا قليلاً، ثم أخذت « كاتي » تكلمهم عن رحيلها القريب، وقدم لها أحد الحضور باقة من الزهر فقبلتها ثم قعدت على الأرض وأقعدتنا حولها وأخذت تفرق الزهور علينا وحررت رسائل لأصحابها ومنها رسالة للآنسة « كوك » مطولة وذيلتها باسمها الحقيقي على الأرض « حنا مرجان »، وقد زعمت أنها عاشت في عصر « كارلوس » الأول، ثم تمشت مع هذا العلامة آخذة بذراعه في الغرفة ملياً ثم جلست وقصت قطعاً شتى من ردائها وخمارها وقدمتها لهم هدايا. قال العلامة المذكور: فسألناها هل تستطيع أن تملأ الخروق التي في ثوبها كما فعلت ذلك مراراً؟ فأجابت: نعم، وأخذت بيدها القسم المخروق وضربت عليه بيدها فعاد حالاً إلى ما كان عليه، فسألتها حينئذ أن تأذن لي في تحقيق الأمر، فأذنت، فلم أجد في الرداء أقل أثر للفتق. ثم دخلت إلى الحجرة السوداء وأيقظت الآنسة « كوك » وقالت لها: لقد أزمعت الرحيل، فانتحبت الآنسة « كوك » وطلبت أن لا تفارقها، فقالت لها: إني راحلة إلى عالم آخر غير الذي أنا فيه الآن، ومما قالته لهم إنها لا تقدر أن تتجلى فيسمعوا صوتها أو يروا شخصها وأنها تأتي لهم بالوساطة الخطية على يد الآنسة « كوك » ولا تظهر لها إلا في السبات المغناطيسي. انتهى.

وهناك حوادث شهيرة لتجسم الأرواح كالتي ظهرت من تجسم « استيل » قرينة الصيرفي الأمريكي « ليفرمور »، فإنها تجلت بعد موتها لزوجها ٣٨٨ مرة بهيئة محسوسة في خلال خمس سنين كذلك العلامة « جيبيه » الإفرنسي شهد في معمله كثيراً من هذا النوع على يد الوسيطة « مدام سلمون » ونشرها مفصلة في تأليفه. وفي سنة ١٩٠١ و١٩٠٢ ذكرت الصحافة الإيطالية غرائب الامتحانات التي أقامها العلامة « لومبروزو » في « جينوا » مع العلماء « مورسلي » و« برو » والكاتب النحرير « فاسالو » مدير جريدة الجيل التاسع عشر الإيطالية، وكانت الوسيطة « أوزابيا بالادينو » وقد تجسم على يدها مراراً ابن « فاسالو » المتوفى، وقد أطفأ بتجليه لوعة أبيه وأيد له صحة خلود النفس. ثم قال في الكتاب المذكور: وإن لنا حوادث أخرى عديدة من تجسم الأرواح على يد الوسطاء وظهورهم لأحبائهم لتعزيتهم وتبديد حزنهم نضرب عن ذكرها لاكتفائنا بشهادات العلماء المتقدم ذكرهم.

قال شير محمد: وهل اطلعت على شيء مما يذكره جهلة المسلمين اليوم من قولهم إن العفريت ليس جثة فلانة أو فلان ويأتي شيخ يقرأ ويعزم، أحق هذا أم ضلال؟ أفلا يمكن تبيان الحقيقة حتى لا

يقع الناس في شباك الكذابين؟ فقلت: يا شير محمد إني قابلت كثيراً من هؤلاء فألفيتهم كذابين غاشين للأمة، ولطالما قابلت متعلماً فاضلاً حاز الشهادات العالية وقد أحسن الظن بأحد هؤلاء، فإذا قابلته وجدته أفرغ من فؤاد أم موسى، وإلى الآن لم أسر بواحد من هؤلاء، وجدير بالأمة أن تتيقظ وتأنف من مسايرة هؤلاء لاسيما أنها دخلت باب العلم والترقي، وقد اطلعت على نبذة يسيرة تناسب هذا من الكتاب المذكور. قال: «إن الاستيلاء الجسدي ليس لصاحبه قوة كافية للتخلص من مضايقة الروح فلهذا يشترط في الأمر تدخل شخص ثالث يفعل إما بقوة المغناطيسية وإما بسلطة إرادته. هذه السلطة أدبية محضة فلا يقوى على طرد الروح إلا من كان متغلباً عليها بالفضيلة والكمال» إلى أن قال: «وليس للتقسيم والتعزيم أقل فعل في طرد الروح المضايق»، ثم قال: «إن النقائص الأدبية أقوى جاذب للأرواح الشريرة، ومن قصد التخلص منها فعليه أن يسعى في عمل الخير فيجتذب إليه الأرواح وبمجرد إرادتها فقط تكبح جماحها وتطردها إلا أن مساعدتها لا ينالها إلا المجتهدون في إصلاح أنفسهم الساعون وراء الكمال والفضيلة».

أقول: إن هذا القول أقرب إلى الصواب فعلى من يتولى أمر من يتخبطه الشيطان من المس أن يأمر بالأعمال الصالحة والإخلاص، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الإسراء: ٥٩]، وإن استيلاء الروح الشريرة على الجسد المذنب أشبه بما جاء في مجالسنا السابقة يا شير محمد، إذ قالت الروح العالية فيما ذكرته لك في المجلس التاسع: «ثم لو لم تكونوا ناقصين ما وافاكم إلا أرواح صالحة فإذا مكر بكم أحد فلا تلوموا إلا ذواتكم إلا ذواتكم، وما أنسب هذا لقوله تعالى في سورة «إبراهيم»: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[إبراهيم: ٢٢] وفي آية أخرى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الحشر: ١٦]». والحكمة في ذلك ترويضنا على الثبات وصدق العزيمة.

وكأن الله عز وجل يريد بذلك ترويضنا على مصادمة الأهوال والثبات في سائر الأحوال، فكل شرّ جسميّ أو وسوسة عقلية تدعو حثيثاً إلى الصبر والثبات فمن صبر وصار ذلك عادة فيه سعد، ومن مال مع الهوى فرضي بالترف والنعيم ولم يحتمل المشقات أو أطاع الوسوسة سقط في الهاوية. وقد تقدم في المجلس التاسع قول الروح: «إن الله يسمح بذلك حتى تروضوا على الصبر والثبات وتتعلموا أن تميزوا الخبيث من الطيب، فإن لم تفعلوا ذلك يكون هذا دليلاً على نقصكم».

مطابقات للشريعة الإسلامية

ثم قلت: أليس هذا يا شير محمد من العجب العجاب. أو ليس حديث «ديكنس» السابق هذا يومئ إلى قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[الأنعام: ٢٧-٢٨]، وقوله: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾[الكهف: ٤٨]، وقوله: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤].

فقال شير محمد: أما حديث «ديكنس» فهو عجيب إن صح بل هو أعجب ما سمعنا، وأما هذه الآيات فلا أدري ما موقعها، وأي علاقة لعرض جهنم على الكفار يوم القيامة وعلى الله وقراءة الإنسان كتابه لما في حكاية «ديكنس» من نمط الإنشاء وخطأ الإملاء، فقلت: اعلم يا شير محمد أن هذه الآيات فيها دلالة واضحة أن كل عمل نعمله واعتدناه يصبح فينا سجية وغريزة ثابتة فلا ينزعه منا الموت، وأن «ديكنس» لم يقتلع الموت منه خطأ الإملاء وأبقى عنده حسن الإنشاء، ولا جرم أن كل ذنوبه وأعماله من الخير والشر بقيت في نفسه يحاسب عليها ويعاقب، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام: ٢٨]، لأن الغريزة لا تقاوم كما لم يمكن إصلاح الإملاء بعد الموت عند «ديكنس»، وهكذا كل ذرة من الخير والشر حاضرة عندنا باقية في نفوسنا هي هكذا لم تتغير، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وكفى بنفسنا حسيباً علينا، وإذا قلنا: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] أجابنا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٧]، ويقول: لو رددتكم لعدتم لما نهيتكم عنه وأنتم تكذبون كما كنتم تكذبون في الدنيا بنقض عهدي بعد مرض يصيبكم أو فاقة تنتابكم أو نازلة تمحقكم فلا عهد لكم عندي. يا شير محمد، إننا غافلون عن نفوسنا في هذه الدنيا، ولقد أفلح المؤمنون ولأذكرك بالحديث الصحيح الشريف: «يبعث العبد على ما مات عليه». وقال الشيخ محمد الزرقاني:

وتحشر أطفال وسقط كمثل ما   يكونون عند الموت ثم تكمل

وقال في شرحه للنظم: هل يحشر الطفل والسقط بصفته وقت الموت أم لا؟ جوابه قال الحافظ ابن حجر: كل واحد من أهل الموقف يكون على ما مات عليه.

أقول: ألست ترى يا شير محمد أن كلام النبوة صريح في أن الإنسان حافظ لأخلاقه وآدابه حتى يحشر عليها؟ أليس هذا بعينه ما في حكاية «ديكنس» وأنه قد حفظ أخلاقه في أسلوب الإنشاء وخطأ الإملاء، وهكذا يقاس عليها سائر أخلاقه التي يحشر عليها، إلا أن هذه الأخلاق الثابتة فينا بعد الموت أعدل ناقد وأكبر شاهد كمنت فينا فأظهرها الله، ألا وإن العادات المغروسات فينا بالتكرار لن تزول بل تبقى خزياً علينا وعاراً وفضيحة يقرؤها الناس في صحائف أرواحنا ويكون عذاب الخزي.

فليقلع المرء عن عاداته وليوطد النفس على منابذة الهوى ومحاربة العادات الذميمة، فإنها برسوخها فينا تشهد علينا. أوليس الخطأ في إملاء «ديكنس» شهد عليه بذلك؟. أليس ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤]، ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس: ٦٥]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[فصلت: ٢١-٢٢].

فصل: في آداب من يحضرون الأرواح

قال في كتاب «المذهب الروحاني» ملخصاً من أخص شروطه ما يأتي:

الاختلاء والسكينة والرغبة الصادقة والإرادة مع العزيمة والهدوء والتجرد من الاضطراب وقلة الصبر، وليكن في مكان معتزل بعيد عن الضوضاء وتشتيت الفكر، وليلجأ المرء إلى الله تعالى وليحترم الأرواح. ولا ينبغي أن يطيل الامتحان أكثر من (١٥) دقيقة كل يوم، وذلك مدة شهر أو شهرين أو أكثر إذا لزم ذلك، فإن من الناس من لا تتحرك أيديهم إلا بعد مرور ستة أشهر من التجربة، وبعضهم تتحرك أيديهم لأول جلسة وهو نادر جداً، ومتى شعر المجرب بضعف في قواه أو ضيق في صدره ناتج عن فقد كهربائيته العصبية فليكف حالاً عن العمل ولا يستأنفه إلا بعد أن تكمل قواه. وإذا أطال الجلسة أكثر من (١٥) دقيقة فهو غير حسن، وليكن العمل كل يوم أو يومين على قدر إمكانه، وإن خالف ما ذكرناه انتابه أمراض وبيلة، وليجلس مع أهل منزله على مائدة بهدوء ويمسك كل منهم قلماً على قرطاس، فعسى أن يكون لأحدهم استعداد سريع. وإذا جلس وحده أضرّ به. ومن جرب ولم يجد في نفسه استعداداً فليكف. وإذا ظهرت فيه هذه القوة فليصرفها في الأمور الشريفة لا في اللهو واللعب والأمور الشهوية. وليختر يوماً في الأسبوع يحضر مع آله لذلك العمل. والأرواح ليست تحت أمرنا بل يحضرون متى وكيفما شاؤوا، وإذ كانت الكتابة غير مفهومة فليطلب من الروح إعادتها، وبعض الأرواح لا يمكن حضورها فلا يكن في صدر الطالب حرج من ذلك. وكثرة الاستحضار تضر المستحضر، وقد يحدث الجنون لمن في دماغهم ضعف، وهكذا كل ما يهيج العصب وهي ضارة بالغلمان إلا إذا كان طبيعياً فيهم، وليست هذه القوة دليلاً على الكمال، ولا عدمها دليلاً على النقص إنما هي ترجع للاستعداد، وسوء التصرف بهذه القوة يضر بصاحبها لأن من يعلم يعذب أكثر ممن لا يعلم على التقصير، وكمال صاحب هذه القوة ونقصه يرجعان للأمور النفسية من التواضع وحب الناس والكبر وكراهة الناس وما أشبه ذلك. ألا وإن اجتماع الحاضرين في الفكر صالح لحضور الأرواح، وضد ذلك تفرق الأهواء، وخير للمستحضر أن يعين وقتاً لأحبابه الذين يستحضرهم، لأنهم ليسوا تحت أمره بل لهم أعمال غير ذلك هم لها عاملون، ومن الأرواح من يسر بالحضور وهم أحبابنا أو من يحبون الخير العام ويرون أننا نطلبهم لغاية حميدة بنا، والروح العلوي قد يحضر مجالس كثيرة في آن واحد.

أما الأرواح السفلية فلا تحضر إلا مجلساً واحداً لأنهم أقرب إلى الأرض.

أما الأرواح النقية وهي التي ارتفعت عن المادّة فلا تناجي إلا قلوباً مخلصة لا يشوبها كبرياء ولا حب ذات. ومن أراد الفوز بتعليم الأرواح فليصنع الخير وليتجنب الكبرياء وحب الذات.

درجات الأرواح

إن الأرواح على ثلاث درجات: أرواح سفلية، وأرواح علوية، وأرواح نقية:

(١) فالأرواح السفلية هي التي تغلبت عليها المادة فمالت إلى الشر، وهي إما نجسة وديدنها الشر وإلقاء الخصومة، وإما طائشة تحب الخلاعة والخفة والتلاعب، وإما متكبرة بمعارفها القليلة وعلومها الضئيلة فتتعامى عن الحق، وإما عقيمة لا تصلح لخير ولا لشر.

(٢) وأما الأرواح العلوية فلها سلطان المادة تحب الخير وتبعد عن الرذائل وهي: (أ) إما صالحة توصف بالجود وحب الصلاح وإلهام الناس أفكاراً صالحة، ومعارفها قليلة وترقيها العقليّ دون ترقيها الأدبي. (ب) وإما حكيمة وصفاتها الأدبية حميدة لا نقص فيها، وعلومها أوفر اتساعاً وأغزر مادة. (ج) وإما رفيعة جمعت بين الحكمة والعلم والفضيلة ولا تلقي تعاليمها إلا لمن طلب معرفة الحق بخلوص نية وجرد قلبه من المطامع الدنيوية.

(٣) وأما الأرواح النقية فهي التي بلغت ذروة الكمال وتجردت من كل نقص ولم يعد للمادة أدنى تأثير فيها فأصبحت معاينة لله مغتبطة به، وليست تناجي إلا من كان ذا فضيلة سامية وقلبه مجرد من كل ما هو ذميم، وعليه فالموت لا يغير طبع الإنسان، فالعالم يبقى عالماً، والمتوحش متوحشاً، والشاعر شاعراً، وهلم جراً. كما ورد في الحديث: «إن العبد يحشر على ما مات عليه»، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢]. وعلى ذلك تكون رسائل الأرواح غير مسلم بها، ففيها الغث والسمين، فربما حضر للمحضر روح طائشة أو نجسة أو متكبرة أو عقيمة فتذكر له حقائق ناقصة لجهلها أو لسوء خلقها. وكما أننا في الدنيا نرى طوائف الناس على أقسام؛ فهكذا نرى الأرواح، فالآخرون من الأولين. فإذا شككت فيمن حضر من الأرواح فسله عن اسمه ولقبه وعدد السنين التي عاشها على الأرض والأماكن التي حل بها والظروف التي مكنته من التعرف بك، إلى غير ذلك، وتسأله أن يقسم لك بالله إنه هو حقاً روح فلان فأكثرهم لا يجسرون على هذا الكذب، وقليل منهم يقسمون وهم الفاسقون.

ومن الأدلة أيضاً الإمضاء ومضاهاته بإمضائه المعروف في الأرض. وأهمّ الأدلة سير الإنشاء وأسلوبه ومعانيه، فغالباً لا يمكن الجاهل أن يظهر عليماً ولا صاحب الرذيلة أن يزور الفضيلة فالأرواح تتميز بالحديث. إلا وإن الرذائل تحيط بالروح بعد موته إحاطة الهواء، وإن العالم المتكبر أشد خطراً من الأرواح الشريرة، لأن العالم جمع العلم والنباهة والكبرياء والمكر فيغري الجهال ويشربهم مبادئه السخيفة الكاذبة، والروح العلوي قد يحضر لطالبه وقد ينيب عنه من يعلم أنه كفء. على أن الأرواح كلما ازداد اتفاقها ازدادت في وحدة الفكر وانضم بعضها إلى بعض فما يراه أحدها يراه الآخرون، وقد تنتحل بعض الأرواح السفلية أسماء الأرواح العلوية بغير إرادة الآخرين فتعاقب بعد تلك الجريمة ويكون ذلك امتحاناً واختباراً للناس ليميز الخبيث من الطيب.

وقد تأتي الرسائل محشوة بأكاذيب تفرق ما بين الأسرة فلا ينبغي أن يصدق ما فيها كما قدمنا وللأرواح العلوية سلطة أدبية على السفلية، فهي التي تمنعها عن إغواء من هم مخلصون صادقون، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٥]، والأرواح في حال تمكنهم من فعل ما يريدون كما يتمكن الناس على الأرض، ألا وإن الإنسان قد يناجي الأرواح بفكره وإن لم يكن وسيطاً وهذا يسمى الإحضار الفكري ولا يجوز له أن يحضر روحاً شريرة إحضاراً فكرياً إذا كان وحده. والذي يصد الروح عن إجابة محضره أمور كثيرة، منها إرادته الخاصة به فله الحرية المطلقة. ومنها أن يكون في أعماله الخاصة فلا يتفرغ إلى المحضر، ومنها أن لا يؤذن له في إجابة المحضر عقاباً له أو لمن يحضره. ومنها أن يكون في عالم أدنى من العالم الأرضي وهو لا يتسنى له

الحضور هنا لتنافي المبدأين . فأما إذا كان علوياً وقد أرسل إلى العالم السفلي تكفيراً عن ذنبه أو لرسالة يقوم بها فذلك لن يعجز حينئذ عن الحضور لمناجاة أهل الأرض ، ثم إن الفكر تحمله المادة الأثيرية إلى الروح كما يحمل الهواء الصوت ، والأول لا حد له ، والثاني محدود .

وجميع الأرواح لها الحرية المطلقة في الحضور وعدمه ، ولكن الأرواح السفلية ترغمها الأرواح العلوية على الحضور إذا كان ذلك نافعاً لها . والرجل الفاضل تهابه الأرواح السفلية فلا تقربه ولا سيما إن كانت تحميه أرواح علوية ، والطلاسم لا تأثير لها على الأرواح ، وإنما ذلك في عقول السذج والعوام . والروح قد يحضر عند موته ولكنه يكون في خال اختلاط واختباط ، وتحضر روح الحي إذا كان نائماً ولكن إجابتها لا تكون سهلة وليس يتذكر عند اليقظة ما فعله وقت الإحضار في نومه ، والجنين لا يمكن إحضاره البتة ، وإحضار المريض والصغير والشيخ الضعيف يضرّ بهم كما تقدم أنه يضر بهم أيضاً أن يكونوا وسطاء ، ومن المقالات ما يكون من روح الوسيط الكامنة وعلومه الخفية التي علمها قبل وروده إلى هذا العالم ، فلا ندري أمن النائم هذا أم من روح حاضرة .

ولا جرم أن هذا مما يدعو إلى التفكير والتبصر ليزول اللبس . والأرواح العلوية لا تحضر المجالس الروحانية الهزلية ، وإنما تحضرها الأرواح الطائشة فتنشئ طرق الموائد ورفعها ، وتلقي الأحاديث الهزلية والأكاذيب الفارغة ، إذ شبيه الشيء منجذب إليه ، وليس يؤذن للأرواح الطائشة أن تحضر المجالس الرزينة إلا إذا حضرت للاستفادة فلا تجسر أن ترفع أصواتها . والوسيط قد يفقد الوساطة مؤقتاً إما لتصرفه بأن يجعلها باباً للرزق أو اللهو واللعب ، وإما إراحة الوسيط من التعب . ولا يسمح لآخر أن يحل مكانه ، والذكي يميز بين الأمرين . ثم إن المبتدئ يرغب في مناجاة أحبائه وهم ربما لا يقدرون على مناجاته لجهلهم بطرق ذلك ، وإما لأنهم في عالم أقل من عالمنا ، فليتخذ الإنسان روحاً مرشداً من الأرواح العالية ويسأله عمن يحضره من الأرواح وهو يجيبه : « أذلك ممكن » ، وليستعن المبتدأ إذا داخلته الأرواح الشريرة بالأرواح العالية مع التوقف حالاً عن الكتابة . وقد أطنبت في هذا المقام لأهمية الموضوع وليكون القارئ على بصيرة ونور وهدى وكتاب منير . هذه الأحكام كلها من محادثات الأرواح أنفسها مع العلماء فيما تقدم نقلاً عن آلان كردك .

تذكرة في مقارنة ما في هذا بالقرآن وكلام الإمام الغزالي وإخوان الصفا

قال شير محمد : إذن كل هذا الفصل نقلته من كلام نفس الأرواح . فقلت نعم . قال : سبحان الله إن في هذا لعجباً عجاباً . قد قسمت الأرواح إلى درجات من صالحة ونقية وعلوية والصالحة جعلت أقل الجميع والنقية أرقاها . فهل له نظير عند علماء الإسلام . وإذا كانت الأرواح لها حياة بعد الموت وحرية فلم يكره الناس الموت وجهلوا حياتهم بعده وهو في الحقيقة الحرية التامة ، وأرجو أن تزيدني يقيناً في أن أرواح الأموات لها اتصال بالأحياء تعلمها وتربيها . فقلت : أما درجات الأرواح فقد وردت في قوله عز وجل : ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٦٩-٧٠] ، فالأنبياء هم الأرواح النقية والصديقون والشهداء هم الأرواح العلوية ، ومنهم الصالحون وهم أقل الجميع درجات .

وقال الإمام الغزالي في كتابه « بداية الهداية » ما ملخصه : إن العلم أفضل ما يتغيه الطالبون ويليه كل عمل عام للناس من المنافع المادية كإغاثة الملهوف ودفع الضر والأذى ، وآخر الدرجات أن ينقطع للعبادة ، وشر الدرجات له أن يكون شريراً مؤذياً طماعاً جماعاً . وأما كون الناس يكرهون الموت لجهلهم بالحياة بعده ولا يحبونه مع أنهم بعده أحراراً . فهاك أسمعك ما قاله « إخوان الصفا » :

إن علة كراهة الحيوانات الموت هو ما يلحقها من الآلام والأوجاع والفزع عند مفارقة الأحياء ، فإن قيل : فلم لا تدري النفوس بأن لها وجوداً خلواً من الأجسام ؟ قلنا : لأنه لا يصلح لها أن تعلم هذه المعاني ، لأنها لو علمت لفارقت أجسادها قبل أن تتم وتكمل . وإذا فارقت أجسادها قبل ذلك بقيت فارغة عطلاً بلا فعل ولا عمل ، وليس من الحكمة أن يكون كذلك إذا كان خالقها لم يخل من تدبير ليكون فارغاً بلا فعل ، بل كل يوم هو في شأن . وأما قولك : كيف كانت الأرواح مهذبة ومربية للأحياء في الدنيا ؛ فقد ذكرنا في هذا الكتاب ما ورد في النبوة أن إلهام الناس من الملائكة والوسوسة لهم من الشياطين كما جاء عن الأرواح في المجامع النفسية . ونزيده بياناً الآن فنقول : قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى وملائكته عليهم السلام وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة في حجرها والحيتان في البحر يصلون على معلم الناس الخير » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم » .

فانظر وتعجب ! أليس ذكر الملائكة في هذا الحديث وأنها تضع أجنحتها لطالب العلم دلالة على المناسبة والملازمة بين المتعلم وبين الملائكة والأرواح العالية ؟ أليس هذا نظير ما جاء في هذا المقال عن الأرواح ترجمة « آلان كردك » إذ يقول : إن الأرواح العلوية لا تحضر المجالس الهزلية وإنما تحضرها الأرواح الطائشة ، ولا يؤذن للأرواح الطائشة أن تحضر المجالس الرزينة . ونقول أيضاً : إن الأرواح العلوية قد تأمر الأرواح بالحضور في المجالس النافعة الروحية . فهناك إذن علاقة علمية . وترى مناسبة الملائكة لأهل العلم جاءت في السنة وفي كلام الأرواح ووردت في القرآن الشريف : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران : ١٨] ، فجعل أولي العلم بعد الملائكة ، فإن الأولين يعلمون الآخرين . وقال في « إخوان الصفاء » في رسالة « العلل والمعلولات » صفحة ١٣٢ ما يأتي :

ثم اعلم أن النفوس التامة الكاملة إذا فارقت أحباءها تكون مشغولة بتأييد النفوس الناقصة المجسدة لكيما تتم هذه وتكمل تلك وتتخلص من حال النقص وتبلغ تلك إلى حال الكمال وترتقي هذه المؤيدة أيضاً إلى حال هي أكمل وأشرف وأعلى ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم : ٢٧] . والمثال في ذلك الأب الشفيق والأستاذ الرفيق وتعليمهما التلامذة والأولاد وإخراجهما إياهم من ظلمات الجهالات إلى فسحة العلوم وروح المعارف ليتم التلاميذ وليكمل الآباء والأستاذون بإخراج ما في قوة نفوسهم من العلوم والمعارف والصنائع والحكم إلى الفعل والظهور إقتداء بالله تعالى وتشبهاً به في حكمته ، إذ هو السبب الأول والمبدأ في إخراج الموجودات من القوة إلى الفعل والظهور . وكل نفس هي أكثر علوماً وأحكم صنائع وأجود عملاً فهي أقرب تشبهاً بربها ، وهذه هي مرتبة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب .

ولذا قالت الحكماء: «الحكمة هي التشبه بالله بحسب طاقة البشر»؛ معناه أن تكون علومه حقيقية وصناعته محكمة وأعماله صالحة وأخلاقه جميلة وإرادته صحيحة ومعاملته نظيفة وجوده على غيره متصلاً، والله سبحانه وتعالى كذلك. انتهى ما أردته من «إخوان الصفاء».

فتعجب أيها الذكي! أليس ما قالته الأرواح في الجمعيات النفسية في أوروبا هو كما في القرآن وفي الحديث وفي كلام «إخوان الصفاء». ذلك إجماع من الغرب والشرق والعلم والدين أن أرواح الناس بعد الموت تكون متصلة بالأحياء، تشبه الشياطين تارة والملائكة أخرى، وأن الكاملة منها تعلم الأحياء وتهديهم الصراط المستقيم. أوَليس هذا معجزة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟.

ما كان ليجول في خاطري أن العلم يكشف عن وجه الحقيقة النقاب ويجليها عذراء بهية لأولي الألباب. إن في هذا لعبرة لقوم مفكرين. أوَليس ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[فصلت: ٥٣-٥٤]. ولقد تبين فيما مضى أن الإنس لهم تأثير على الأرواح السفلية، وهنا تجلى أن للأرواح السفلية والملائكة سلطاناً على نفوس الأحياء، وأن الفضلاء منا يتلقون عن الأرواح العالية والسفهاء من الأرواح يتعلمون من الإنس لاقتراب طبيعتهم السفلية من طبيعة الأحياء لانغماسهم في المادة. وكل هذا يستفاد من كلام الأرواح كما تقدم.

فانظر كيف صح هذا في ديننا وتعجب! أليس النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة «الرحمن» وكرر آية: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الآية: ٣٢] أي: بأي نعم ربكما يا معشر الجن والإنس تكذبان. ذكر للصحابة رضوان الله عليهم أن الجن لما سمعوها قالوا: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد». وكثيراً ما كنا نسمع أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل للإنس والجن، ونسمعه في سورة «الرحمن» يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[الآية: ٣٣]، وقال في سورة أخرى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾[الأنعام: ١٣٠].

فإذا سمع العاقل أمثال هذا قال في نفسه: كيف يرسل للجن وهم مجرّدون عن المادة، وبهذا الكتاب وضح الحق واستبان السبيل، وأن الأرواح التي ماتت ناقصة طبيعتها أقرب إلى البشر فيفهمون عنهم أكثر مما يفهمون عن الأرواح العالية التي تفيض العلم على أفئدة العلماء في الدنيا. وقد تأذن الأرواح العلوية للسفلية أن تحضر مجالسنا لتستفيد منها علوماً، وبهذا تجلى لنا كيف كان صلى الله عليه وسلم مرسلاً للجن والإنس. ما أجمل العلم والحكمة!.

فائدة

ربما أشارت النبوة من طرف خفي إلى بعض حوادث العصر الحاضر، إذ جاء في السيرة الحلبية الجزء الأول صفحة ٢٠٦ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم الرجل شراك نعله وعذبه سوطه بما فعله أهله» وشراك النعل: أحد سيورها الذي يكون على وجهه. وعذبة سوطه: طرفه، وقيل: سيوره، وهذا أشبه بشريط «المسرة» التليفون ولعل في المستقبل ما يبين معناه من هذا العلم أو غيره، والله أعلم.

جوهرة في النفس وقواها

بينما كنت في يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٦ قائماً إذ وقعت ساعتي فكسرت زجاجتها ووقفت وكان معي صديق هو ملازمي في الحضر والسفر، فقال عقب ذلك: لماذا يألم الإنسان لمثل هذا؟ ولم كانت نفوسنا تتأثر تأثراً يطابق ما يحدث في المادة؟ فإن وقفت ساعة أو اختلّ حائط أو سقط منزل أو حصل قحط أو هجم عدو نرانا نتأثر على مقدار الحادث.

هكذا نألم للحر والبرد ولقلة المال والملابس والأغذية كما نموت من الغرق والحرق والعطش والجوع وبالسيف وبالمدفع. يا عجباً لماذا هذا التلازم بين المادة والنفس إذا جزعنا على ما يصيب أجسامنا من جوع أو عطش أو مرض.

فلماذا نجزع على ما يحصل في المادة حولنا من قبح أو تخريب الخ؟ هل المادة أم والناس بنتها؟ أم النفس أم والمادة بنتها؟ أم هنا ابنتان لأم واحدة؟. فقلت: إنك بهذا السؤال قد تعرضت لأصول علم المادة وعلم النفس وارتباطهما. إنك قد أبنت الملازمة بينهما إبانة تامة، وأوقعتني في حيرة لأني لا قوة لي على الإجابة التامة لأن العلماء إلى الآن لم يهتدوا إلى سبيل هذه الحقيقة هداية تامة بل هم في حيرة. وغاية الأمر أن كلاًّ يرجح ما يراه. إني سأبحث هذا الموضع بحثاً عاماً سيتضمن آراء العلماء وسأكون فيه حراً لا أتقيد برأي، بل أوجه النفس إلى مبدعها ليعطيها من العلم ما به يستنير وجه الحقيقة. فقال: مع مشاركتي. فقلت: نعم. فقال:

س ـ لم هذا الألم وهذا السرور صفهما لي.

ج ـ إن المادة حولنا مرتبطة بمصالحنا فنفرح ونغتم لكمالها ونقصها. إن الله لم يخلق في الأرض خلقاً إلا لحكمة، ويظهر أن هذه النفس لا تسعد إلا بظهور جميع ما كمن فيها، وقد كمن فيها الألم واللذة وكأن هذا الألم مهماز يدفعها إلى الرقي كالجوع والعطش وكسر الساعة. نحن نحتاج إلى الغذاء والشراب والدواء والملابس ومراقبة حركات الشمس وسير الكواكب، ونظام أممنا والآلام والمسرات تتبع ذلك قلة وكثرة وذلك لارتقائنا، ولو كان الألم لا فائدة فيه ما خلقه الله فينا. إن ألم الأم لأجل ولدها والأنبياء؛ والحكماء للأمم؛ والإنسان لجرحه ومرضه؛ كل ذلك مرق للإنسانية.

س ـ صف الإنسان ومصاحبته للمادة.

ج ـ الإنسان والحيوان والنبات، كل هؤلاء ينمون في المادة أي في الماء والهواء والتراب بحيث يكون النمو بأجزاء مادية مكونة من هذه العوالم المحيطة بنا.

س ـ ثم ماذا؟.

ج ـ فيكون الحر والبرد المفرطان والجوع والعطش وعدم اللباس لمن يحتاج إليه كبعض بني آدم كل ذلك مضعف للحي وكل من هذه الأحياء ينمو ثم يقف ثم يموت.

س ـ إذن هذا دليل على أن المادة أصل والنفس فرع، وما مثل النفس إلا كمثل اللون والشكل والصورة في المادة. إن كلاًّ من هذه تضمحل على طول الزمان. فإذن هذه النفس تابعة للمادة. ألا ترى أن عقل الإنسان يضعف بمعاقرة بنت الحان وكثرة التدخين وتعاطي الأفيون والحشيش. إن للمادة سلطاناً على العقل، فالعقل نتيجة المادة لا أكثر ولا أقل. فأين الحساب والعقاب إذن.

ج ـ اعلم أن هذه العوامل التي نعيش فيها لغز، وهذا اللغز لا يحله إلا جميع العلوم. فإذا وقفت عند هذا فمعناه مجاراة العامة لأن ما أوضحته الآن يعمله الجهلاء، والحكمة والعلم يترفعان عن مرتبة الجهلاء.

س ـ فأبرز الحكمة إذن ولمن تبرزها إذا لم تسمعها لي؟.

ج ـ ليست نفس الإنسان كالمادة التي نعيش فيها.

س ـ بيِّن ووضِّح.

ج ـ إن للنفس قوى ظاهرة وقوى باطنة، والقوى الظاهرة هي الحواس الخمس: البصر والسمع والشم والذوق واللمس. وهذه الخمس أربعة منها في الرأس والخامسة في الجسد كله وهي حاسة اللمس، والأربعة الأولى هي السمع والبصر والشم والذوق في الأذن والعين والأنف واللسان مع سقف الحلق. هذه الحواس الخمس جواسيس لهن رئيس وهو المسمى «الحس المشترك»، وما الحس المشترك إلا أمير خضعت له هذه الجنود، إن هذه الحواس خاضعة لإرادته. جارية على ناموسه. يأمرها فتأتمر. فترى حاسة البصر تحضر لهذا الأمير الألوان والأشكال والسطوح والأحجام والأنوار والظلمات والحركات والسكنات والقرب والبعد. وترى حاسة السمع تحضر له نغمات الموسيقى وأصوات الإنسان والحيوان وأصوات الرياح من كل فج. وترى حاسة الشم تفرق بين الرائحة الزكية العطرة والرائحة المنتنة المكروهة. وترى حاسة الذوق تبين له الحلو والحامض والملح والعفص والحريف والمز والمر والعذب وهكذا. وحاسة اللمس تبين الثقيل والخفيف والحار والبارد والأملس والخشن واللين والصلب واللزج وضده، وقد عدها العلماء ٣٦ لهذه الحواس الخمس.

س ـ ثم ماذا؟.

ج ـ هذه الصور كلها تقتنصها الحواس الخمس وتعطيها للحس المشترك، والحس المشترك يسلمها لقوة سموها الخيال، فهذا الخيال تحفظ فيه الصور. والدليل على ذلك أننا نرى الصورة أو نشم الرائحة أو نأكل التفاح أو نحس بالحرير ونغفل عن ذلك سنين، ثم إذا تذكرناه وجدنا هذه الصورة مخزونة عندنا فنتذكرها، فيا ليت شعري من أين تذكرناها؟ فإذا كان عقلنا مادة أي تابعاً لها كما يتبع اللون المتلون؛ فلماذا عكس الأمر؟ لأننا نرى أن الأجسام لا تتحمل إلا صورة فصورة وشكلاً فشكلاً وما رأينا قط أن الإنسان يكون شيخاً وطفلاً في آن واحد ولا المزارع مثمرة وغير مثمرة في آن واحد ولا الحجر مربعاً ومثمناً في آن واحد.

إن المادة نطاقها ضيق إنها لا تقبل إلا صورة فصورة. أما العقل فإنا نراه قد جمع هذه الصور كلها وخزنها عنده، وله جواسيس وله أمير وله مخزن، وهذا المخزن قد حفظ تلك الصور لا فرق عنده بين السماء والأرض ولا بين الشباب والشيب والقبح والجمال والحلو والحامض. إن الذي فرق على الحواس اجتمع في الخيال. جمع الخيال كل صورة رأيناها أو سمعناها أو شممناها أو ذقناها أو لمسناها، بل هناك ما هو أعجب.

س ـ وما هو ذلك؟.

ج ـ إن هذه الصور تحصل فيها أعمال عجيبة.

س ـ ما هي؟.

ج ـ هناك قوة أخرى فرضها القدماء كما فرضوا خطوط الهندسة في المادة، فقالوا: إن عداوة الذئب للشاة ومحبة الأمهات للأبناء تلك معان جزئية ليست من الصور المحسة فلها قوة تسمى الواهمة، وهذه المعاني تخزن في خزانة لها سموها الحافظة. فإذن هنا أربع قوى: الحس المشترك والخيال والواهمة والحافظة، وهناك قوة تتصرف في أكثر من هذه وهي القوى المتصرفة وهذه تتصرف في الصور المرسومة في الخيال والمعاني المخزونة في الحافظة. ألا ترى أننا نرسم في نفوسنا أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد. إذا أردنا أن نشبه الورد وقد لعبت به الرياح، فهذه الصور مبتكرة ابتكرتها القوى المتصرفة، وهي حينئذ تسمى متخيلة. وقد تبتكر هذه القوى المتخيلة صورة ومعنى أو معنى ومعنى فالصورة والمعنى كبياض صديقك وسخائه، والمعنى مع المعنى كتصور الشاة أن الذئب منفور منه والولد معطوف عليه.

س ـ هذه مباحث طويلة لا تناسب هذا التفسير فأوجز وائت بالنتيجة. ألا ترى أننا في مقام الكلام على المادة والنفس الإنسانية؟ فماذا يفيدنا من هذا كله. هل تَريد أن تأتي بكل ما قرأته؟ إن التطويل ممل فالاختصار هو المفيد فائتنا بما يفيد. إن النفس فيها مزايا ليست في المادة.

ج ـ إنك بهذا القول أشبهت من يسمع قصة أبي زيد طول الليل فلما انصرم الليل قال للشاعر أسمعنا قصة أبي زيد. إن هذا هو الجواب. إن النفس لما جمعت الصور فيها وعجزت المادة عن هذا الجمع دل ذلك على أن النفس غير المادة، ومعنى هذا أن الحائط في منزلك لم يحتمل إلا لوناً واحداً.

س ـ بل فيه ألوان.

ج ـ إن البقعة الواحدة لا تحتمل إلا لوناً واحداً وصورة واحدة والجسم أياً كان لا يقبل شكلين معاً. قال: ثم ماذا؟ قلت: ونحن اخترعنا في نفوسنا معاني وكليات، فإن القوة العاقلة فينا تأتي بقضايا كلية وتحل مشكلات وتحكم على المادة. أليس الإنسان بعقله قلب وجه البسيطة، وتصرّف في المادة، وهندس وزوّق، وبنى وهدم وزرع وحصد، وغلب وجه الأرض بالأسلاك الكهربائية، وحكم على المادة وأدرك أنها كانت أثيراً فصارت أجساماً ثم ترجع أثيراً كرة أخرى، والإنسان بعقله فعل الأعاجيب وحكم ودبر، فهل خزنت المادة الصور كما خزنها العقل؟ فهل تصورت الماضي وأدركت القضايا العقلية كما أدركها العقل؟ كلا، إن الإنسان في الدنيا أشبه بمسجون في سجن تكون أطواره تابعة لحال السجن وخدامه، ولكن المسجون ربما كان حكيماً عليماً والسجان جاهل غرّ. إن الإنسان حبس في المادة وتغذى بها والتوى تبع التوائها ومات على مقتضى نظامها، ولكنه ليس معنى موته أنه فني. كما أنه ليس معنى خروج المسجون من السجن أنه مات. كلا بل لا تظهر فائدة المسجون العالم إلا إذا خرج من السجن، وليس احتياجه في أثناء السجن للقوامين عليه فيطعمونه ويسقونه ويلبسونه بمانع من نفعه ورقيه وسعادته بعد خروجه من السجن. هكذا ليس تطور الإنسان في المادة صغراً وكبراً وضعفاً وصحة وحياة وموتاً بحجة على أنه لا حياة له بعد ذلك. تتشابه المادة والنفس في ظواهر الأحوال. كلاهما دائم الحركة ليلاً ونهاراً أمد الدهر. المادة لا تفتأ تتحرك شمسها وقمرها وليلها ونهارها وجميع ما فيها. هكذا نفوسنا في حركة مستمرة، حتى أثناء النوم النفس متحركة والأرض

متحركة، فهما في ظواهر أمرهما كأنهما شيء واحد تشابها حركات ونمواً وذبولاً. وهذا يشير له قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾[الشمس: ١-٦].

علم الله قبل أن يخلق السماوات أن الناس سيرون الشمس والقمر والنهار والليل والأرض كلها جاريات بلا انقطاع، وعلم أنهم سيعلمون أن النفس لا تفتأ تتحرك، فعطفها على الأرض، ولكن النفس فيها مزية أرقى، فقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[الشمس: ٧-٨].

ذكر الله هذه ليبين لك كل ما ذكرناه الآن. فإلهام الفجور والتقوى يجمع كل ما تقدم من القوى وهي الحواس الخمس الظاهرة، والحواس الخمس الباطنة، والعقل المخزون فيه. فبهذا فاقت النفس هذه العوالم.

الله أكبر. إن النفس هي الواسطة بين المادة وبين العوالم العالية بل إنه قيل إن المادة صنع النفس:

(١) وهل أتاك نبأ الغذاء إذ يتحول فينا قوى كثيرة ومنها قوة الفكر، فالفكر اشتق من المادة والمادة كانت أولاً فكراً، فلعل المادة فكر متجمد، وإلا فكيف رجعت فينا نحن فكراً؟

(٢) وأيضاً الأعمال المادية لا تكون إلا بعد فكر، ويتبع الفكر نية، والنية يتبعها العمل، فلا عمل إلا بعد فكر. فالمادة بعد فكر، والفكر في النفس، فالعالم المادي من نفس كلية.

(٣) وأيضاً أن الإنسان يمشي على الأرض فلا يقع، وإذا مشى على الحائط وقع، لأن فكره أفهمه أنه يقع، مع أنه على الأرض لا يمشي على أوسع من الحائط. فهذه ثلاثة براهين: رجوع الغذاء فينا إلى فكر، وأن أعمالنا بعد الفكر، وأن الإنسان يسقط عن الحائط بفكره وخوفه، وهو على الأرض لا يمشي في أوسع من الحائط.

إن نفوسنا محل الإلهام والوسوسة، فبالإلهام نصلح الأرض، وبالوسوسة نفسدها، ولا لإلهام ولا وسوسة تقترحان أشياء غير ما ذكرناه مما أتى من الحواس الظاهرة والباطنة.

ولما كانت النفس بهذه المثابة وأنها واسطة لأنها لطيفة والمادة غليظة؛ قال الله فيها في هذه السورة: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[الإسراء: ٨٥]. هاهنا أبان معنى الآية، يقول الله: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[الإسراء: ٨٥] أي: الروح ليست من المادة بل من أمر الرب، والرب فيه معنى التربية. إذن الروح مربية للمادة لأن الرب لطيف والروح أقرب إليه من المادة، وكلما كان المخلوق ألطف كان أقدر، ألا ترى إلى الكهرباء كيف حركت الآلات، بل ألم ترى إلى البخار كيف أدار الآلات وحرك القطرات، ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾[يوسف: ١٠٠]، والروح أقل لطفاً من الله والمادة أغلط شكلاً والكهرباء والمغناطيس والبخار أقل لطفاً من أرواحنا، فلذلك تجد أن البخار والكهرباء سلطت على المعادن وعلى المادة فخضعت لها بالحركات والأعمال.

ثم إن البخار والكهرباء والمغناطيس لم تسلط على المادة إلا بتسخير نفوسنا لها بدليل أنها بقيت ساكنة لا حراك لها حتى حركها الإنسان فاستيقظت، فأما عقولنا فما أجملها وما ألطفها وما أعلاها. ألم تر أنها سخرت هذه اللطائف فحكمت المادة وسخرتها. ألم تر أنها حكمت على الأفلاك حتى عرفت بالمنظار من كواكب السماء نحو «بليونين»، أي: ألفي ألف ألف، وهذا آخر كشف عند

كتابة هذه السطور وعرفت أن هذا القدر قطرة من بحر، وأدركت حركات كثير منها وأحجامها وأبعادها وأضواءها وعناصرها المركبة هي منها بواسطة ألوان الطيف هل تقدر المادة على هذا، أو يقدر الضوء والكهرباء والمغناطيس على هذا؟ كلا بل العقل الإنساني فوق هذا كله ولذلك ميزه الله عن الأرض، فقال: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[الشمس: ٨]، وأبان المقام أعظم إبانة في هذه السورة، فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[الإسراء: ٨٥]. أظن أن المقام وضح؛ وأن قوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ظهر بعضه في هذا الزمان.

عجب عجاب

عجب لهذه النفس. إنها قد خبئت فيها نفائس وعجائب.

س ـ بيّن ذلك.

ج ـ إن عجائب النفس لم تقتصر على قلب وجه البسيطة بل فوق ذلك أدركت مستقبلها وأنها خالدة لا تفنى.

س ـ أما هذا فعقلي لا يقبله.

ج ـ انظر إلى العنكبوت. ألم تجد في جسمه مصنعاً يصنع فيه الخيوط؟ قال: بلى. قلت: ألم تره يفهم كيف يجعله خيوطاً وبيوتاً وشبكات صيد كما ستراه موضحاً في صورة العنكبوت. قال: بلى. قلت: فعجب كل العجب، إن كل نفس تعطى من العلم على مقدار استعدادها. استعدت حشرة العنكبوت إلى النسج وبناء البيوت؛ فوضع مصنع في جسمها وقوة فاهمة في مخها تدبر أمر هذا الغزل وتنتفع به. هكذا ترى الطيور والحيوانات الأرضية جميعاً خلق فيها بيض وأجنة في البطون، وعلى مقدار ذلك تلهم نفوسها إلهامات مطابقة تمام المطابقة لما فيها، فلا طير ولا حيواناً أرضياً إلا ولها غرام بحضن بيضها وتربية ولدها وإرضاعه وحفظه. يا عجباً كل العجب! أجسام تظهر فيها مخلوقات صغيرة ونفوس ترسم فيها ما يوافق هذه المخلوقات. انظر إلى الإنسان نراه يعيش ويتمنى أن لا يموت. هذه فكرة عامة. فشيوخه وشبانه كل يحب أن لا يموت. وهاأنا ذا في هذا التفسير أقول: أنا لا أحب أن أموت إلا بعد تمام طبع هذا التفسير، فأكون قد أديت ما عليّ وأنا شيخ، ولكنني لا أدري إذا تم ماذا يحدث في نفسي بعد ذلك، فنفوس الناس جميعاً تحب الخلود والبقاء الأبدي.

إن هذا الحب وحده قياس إقناعي دالّ على بقاء النفس. وأي فرق بين بقاء الإنسان وغرائز الحيوانات كلها. إن غرائز الحيوان كلها صادقة كما عرفت فلم توضع في نفوسها معادن إلا لأغراض صالحة. فإذا كانت غرائز الحيوان صادقة هكذا الإنسان. فلماذا نستثني منها مسألة واحدة وهي حب البقاء؟ أحب الإنسان الولد فرباه، وأحب الطعام والشراب واللباس والفاكهة والماء والهواء والزينة والشجر والنجم والدواء فوجد ذلك كله، وأحب النغمات فملأت السهل والجبل والماء، وأعطاه فوق ذلك علماً به يأتي بنغمات أجمل، فلماذا نقول: إن غريزة البقاء كاذبة؟ الإنصاف يقتضي أن تكون حقيقة كبقية الغرائز. إن هذا العالم موضوع على نسق جميل وحكمة.

س ـ قد أبنت تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾[الإسراء: ٨٥]، وأبنت لماذا ذكر الله النفس بعد الأرض، ولم تأتي النتيجة التي تناسب الآية هنا.

ج ـ إن ما تقدم كله جاء مقدمة لتفسيرها، بل تفسيرها يؤخذ ضمناً. ألم تر أن النفس تخزن فيها الصور؟ قال بلى. قلت: فهذا الحزن يدوم فيها ثم يظهر بعد الموت بصفة أجلى. قال: فبيِّن هذا المقام. قلت: قد تقدم في هذا التفسير أن للنفس أحوالاً حال اليقظة وحال التنويم في الدرجة الأولى ثم في الثانية ثم في الثالثة، وفي كل حال يظهر للإنسان عوالم لم تظهر فيما قبله. اقرأه في سورة «البقرة» عند إيضاح الكلام على السحر، فإنك إذا قرأت هذا المقام هناك تبينت لك أحوال الآخرة من نفس علم التنويم، وبذلك تعرف قوله تعالى هنا: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[الإسراء: ١٤].

س ـ قد مضى ما في سورة «البقرة»، وحقيقة هو يفيد ذلك، ولكن زدنا شيئاً بعده فلعلك اطلعت على زيادة فائدة.

ج ـ جرت حوادث:

(١) عالم سويسري يسمى «هايم» سقط من أعلى جبل فأخذ يدرس ما حصل للناس من الأمور المختلفة وجعلها محاضرة ألقاها في نادي «زوريخ» سنة ١٨٩٥. يقول: إني عندما زلت قدمي وأخذت أسقط فقدت حاسة اللمس، وظهرت أمامي جميع الحوادث الماضية أسرع من البرق، بحيث طالعتها كلها مرتبة، مع أنها تحتاج إلى زمان طويل. فهذه اللحظة برز فيها هذا كله فجميع الصور التي مرت عليّ والحوادث ظهرت مرتبة. فهي في ثانية واحدة ظهرت مرتبة كأنها في ساعات كثيرة ترتيباً ونظاماً ووضوحاً، وهكذا وجد كل الحوادث التي جمعها من غيره تشابه هذه سرعة ووضوحاً، وفقد حاسة اللمس سواء أكان ذلك سقوطاً أم حرقاً أم غرقاً.

(٢) المسيو «جون لامونت» كان رئيساً للجمعية النفسية في «ليفربول»، فإنه غرق في البحر وأحس بأنه رأى جميع الصور والحوادث الماضية، وأنه بعد ذلك انعزل عن الجسم وعاشت روحه وحدها. ولكن لما انتشلوه طاح ذلك كله مرة واحدة فكتب ذلك للناس. وهانحن أولاء نضعه في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[الإسراء: ١٤].

(٣) ومثل ذلك ما حدث لطبيبة أنها عملت لها عملية جراحية لصحتها بعد قطع الأطباء الأمل من نجاتها. قالت: إن جميع حوادثي وذنوبي مرت عليّ، وقد استحضر أقاربي القسيس وهو يلقنني كلمات، وسمعت كأن قائلاً يقول: ارجعي إلى حسك، فلما تنبهت قلت للقسيس: قم فإني لا أموت اليوم، فقام.

هذه بعض الأحوال التي مرت على الناس. وهاهي تلك الأحوال المذكورة في سورة «البقرة».

انظر إلى حوادث الدنيا واعجب من هذا الإنسان وقواه! واعجب من نظام هذه الأرض! رأيت الحيوان تساعده غرائزه على ما خلق له كالعسل للنحل والغزل للعنكبوت وحضن الطير لبيضه وإرضاع الأم ولدها. ورأينا هذا الإنسان مغرماً بالبقاء يربي ولده كأنه يظن أنه بقاء له ولو بقاء صورياً ويؤلف العلم ويشيد المباني كالأهرام ويكتب اسمه عليها تخليداً له ويبذل المال للشعراء ليحيوا اسمه.

أليس ذلك كغريزة الغزل المخلوق في جسم العنكبوت لابد من فائدته؟ انظر انظر كيف خزنت الصور في عقله. بل انظر كيف جاء التنويم المغناطيسي فأبان أن الحوادث كلها كامنة، وأن الإنسان يكاشف عوالم أخرى حينما تضعف رابطته بالجسد. ولسنا الآن نذكر الصالحين وأهل الذكر وأهل

الرياضة لأننا في مقام خطاب الجمهور. انظر إلى الأمم جميعها كلها لها ديانات، وما من دين إلا وهو يذكر الخلود. لماذا؟ أليس قبول الأمم للديانات معناه أنهم يحيون حياة خالدة ويحبون أن يكون لهم إله؛ وإلا فلماذا يصدقون ويؤمنون. لم يخلق الله أمة إلا ولها دين. إذن هذا ليس أنقص من غريزة النحلة والنملة والغرائز صادقات. إن الغرائز الإنسانية والأميال قد ظهر صدقها بالديانات، والديانات ظهر صدقها في حوادث التنويم المغناطيسي، وحوادث الغرق والسقوط من شاهق جبل. إن معنى قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[الإسراء: ١٤] قد وضح في الغرائز وفي التنويم المغناطيسي وفي حوادث الغرق والسقوط. إن المسلمين هم المقصرون في العلوم، والأمم كلها عرفت من العلم ما هو سر كتابنا، وكتابنا لم نعرف منه إلا حفظ الكلمات وعلم الأحكام الشرعية ونحن عن علومه معرضون. اللهم ألهم الأمة الإسلامية علماً وحكمة، والحمد لله رب العالمين.

ياقوتة في الحياة بعد الموت

كنت كتبتها في مجلة «نور الإسلام» منذ سنين وهي التي كانت تصدر بالزقازيق

من العجب أن جميع الجرائد والمجلات العلمية العربية لم تبحث بحثاً يعتد به في الحياة بعد الموت إلا ما ينقله بعض من نصبوا أنفسهم لترجمة المقالات العلمية عن فلاسفة الإفرنج، أولئك هم الباحثون. فيا سبحان الله كأن أهل الشرق لما رأوا أنفسهم خسروا الماديات أتبعوها بالأدبيات والعقليات فتركوا للغربيين العلمين وقرؤوا ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾[الملك: ١]، وتراهم كل يوم يندبون الاتحاد وهم إلى الآن ما اتحدوا في الاعتقاد فعم الفساد في كل ناد. كيف وهذا البحث طالما كان الشغل الشاغل لفلاسفة الشرق بل هو موضوع أبحاث كل ملة في مشارق الأرض ومغاربها وهاك ما اختلج في صدري. فما أحوج الأمة إلى الخوض في هذا الموضوع في هذه النشأة المدنية التي التبس فيها الحق بالباطل، حتى إنّ الناس يخوضون في كل موضوع فإذا وصلوا إلى هذا فلا تسمع منهم إلا همساً كأنهم ظنوا أنه من القضايا التي لم تحم حولها الفلاسفة والكتاب مع أنها خاطر يخطر للمتفكر المتبصر، ولنجعل مدار بحثنا على ستة أوجه:

الوجه الأول

من نظر إلى الفطرة الإنسانية وجدها تأبى أن تعمل عملاً بلا فائدة، وتحب أن يكون ما تفعله تاماً. وانظر لو رأيت أيها الإنسان رجلاً أوقد شمعة في ضوء الشمس لحكمت عليه أول وهلة أن موهبة الإنسانية وغريزته الفطرية انتزعت منه؛ وقلت: هذا فعل الأطفال الذين لا يعقلون. والفطر فينا كلها صادقة قد اندمجت فيها الحجج والبينات على أميالها الغريزية، والحجة هاهنا أن يقال: هذا الفعل لا بد له من فائدة إما للفاعل أو للمفعول أو لغيرهما وغير ذلك لا يكون. فأما فائدة المفعول وهو الشمعة هاهنا فالعدم المحض وبئست الفائدة، ولا فائدة للفاعل ولا لغيره لشروق الشمس التي لا أثر للمصابيح في ضوئها. فلننظر إلى أرقى من هذا ألا وهو هذه العوالم بأجمعها التي أشرقت بأنوار الحياة السارية في كلياتها وجزئياتها، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[النور: ٣٥]، نرى نجوماً طالعة وأقماراً لامعة وشموساً ساطعة فشروقها بنظام وغروبها بإحكام. فليفكر الإنسان، ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾[الرحمن: ٥-٦] أي، يخضعان لما يراد منهما، ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ

وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾[الحج: ٦١]، فعوامل السماوات وقوابل الأرض كالذكر والأنثى؛ وأنت أيها الإنسان نتيجتهما، ففصل التفصيل السابق في مثال الشمعة وقل ما الفائدة في خلقك إذن. فإما أن تكون للخالق ومعلوم أنه غني، وإما أن تكون لك أنت ونحن نعلم أنك في هذه الدار تسعد يوماً وتشقى أياماً. وهب أنك ملكت مقاليد السعادة، أفلا يكون مصيرها إلى الفناء والقصور قصور والحور بور.

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وإما أن تكون لغيرك من المخلوقات؛ وقد علمت أن فائدته من نفسه لا قيمة لها؛ فكيف بفائدته منك؟ فنتج أنه إذا كان مصير هذا العالم إلى الفناء المطلق كان عبثاً وباطلاً.

وإذا كنت أنت أيها العاقل تأبى نفسك أن تفعل العبث وتتكبر عن اللغو والباطل؛ فهل يتصف بذلك الذي أودع تلك الفطرة السامية فيك؟ كيف وقد ورد في القرآن ما يطابق الوجدان، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال أيضاً: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[الدخان: ٣٨].

فانظروا أيها العقلاء كيف أعقب خلق السماوات والأرض بالحق بذكر قيام الساعة وانقلاب هذا العالم إلى نشأة أخرى، كأنه يقول إن لم يكن لهذا العالم نشأة غير هذه بأن هدمناه وأعدمناه كان خلقه بغير حق ولا حكمة، فلا بد أن يأخذ دوراً جديداً بل نشأة أخرى أرقى من هذه كما هو شأن نظامنا العالي الذي تشاهدونه في الإنسان والحيوان والنبات وجميع العوالم، فقيسوا ما غاب على ما شوهد. ولما كان الدليل واضحاً ظاهراً ظهور الشمس في رابع النهار من طريق الاعتبار، أنكر الله على من لم يتفطن لذلك، فقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾[المؤمنون: ١١٥-١١٦]، كأنه يقول: ألم تنظروا فيما ترونه من حكم هذه العوالم وأنها تأخذ في الترقي فحسبتم أن خلقكم عبث وأنكم لا ترجعون أفلا تعقلون، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥] فثبت بالدلائل العقلية والنقلية أن إعدام العالم بلا نشأة أخرى أرقى من هذه عبث، والعبث مستحيل على الله تعالى، فلا بد إذن من نشأة أخرى لهذه العوالم، ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ ﴾[إبراهيم: ٤٨]، ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴾[الإنسان: ٢٠] فوق ما تشاهده في هذه النشأة الصغيرة، ولولا خوف الملال لأطلت المقال.

الوجه الثاني

إننا نرى فطرنا الصادقة فيها داعية عجيبة وهي حب الأخذ بناصر الضعيف على القوي، فهؤلاء الحكام والقضاة وأرباب المنازل يجدون في أنفسهم قاهراً وشوقاً باعثاً على مكافأة المحسنين على الإحسان والمسيئين على الإساءة وهو أمر يقع بالاضطرار من دواعي النفوس، فبالله ما هذا الوجدان العجيب؟ أليس هو من العدل المنبعثة أشعته من الحكمة الإلهية العالية في نفس هذا الإنسان الذي أشرقت عليه أنوار الكمال من الحضرة الإلهية. فكل إنسان من الملوك إلى الصعلوك ومن أعلم عالم إلى أجهل جاهل إذا رأوا ذا روح اعتدى على غيره من إنسان أو حيوان دعتهم أنفسهم إلى المدافعة

عنه، بل ربما خاطروا بها مخاطرة وتمدحوا بذلك، حتى عد هذا نوع من فروع الشجاعة التي هي أحد أركان كمال الفطرة الإنسانية كما أوضحه علماء الأخلاق. فهذه فطرنا الصادقة التي تشف من وراء ستر رقيق عن حكمة عالية وعدل تام في مصدرها، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾[الأنعام: ٩].

أفتكون أنت أيها الإنسان مفطوراً على العدل والجزاء والقيام بالقسط حتى إن فطرتك السامية كتبت على صفحات ضميرها المستتر: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[الرحمن: ٤١]، ومع هذا كله لا ترقى في الفكر قليلاً إلى فاطر هذه الفطرة وموجد هذه الفكرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٣٩].

فساء ما يحكم الجاهلون. كيف ونحن لم نر جزاء في هذا الدار التي استوى فيها المحسن والمسيء ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء: ٢٠]. فالأرزاق في هذه الدار جعل الخالق موردها الحياة، ولم يفرق فيها بين الخبيث والطيب والبر والفاجر حتى قال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[هود: ٦].

فبالله رعاك الله؛ أين ما يوجد من الفرق بين ذوي النفوس الفاضلة والنفوس الناقصة. وإذا ثبت أنه لا جزاء هنا فالجزاء إذن في دار أخرى وهي به أحرى، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[هود: ١٢٣] وهل يستوي عنده الأخيار والأشرار؟ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾[ص: ٢٨]، وهل كل عنده متساوون؟ ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[القلم: ٣٥-٣٦]. فانظروا أيها العقلاء في هذا التوبيخ وتأملوا هذه الآية مع ما قدمنا سابقاً تجدوا انطباقاً تاماً بين المعقول والمنقول.

الوجه الثالث

إن فطرة الإنسان لا تكاد تقنع بالحاجيات من المال، ولا بالكماليات من الجمال والحور الحسان ولا بالعقليات من العلوم والمعارف، ولا بالحياة الفانية، فهي أبداً تحب الغنى والجمال والجاه وسعة العلم ودوام البقاء، فلو أوتيت ما أوتي قارون وهو ذو الحظ العظيم في المال، وحكمة لقمان، وملك سليمان، وحظيت بأجمل أهل دهرها من بنات الإنسان، بل لو ملكت البسيطة وما حوت والسماء وما وعت لقالت: ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[ق: ٣٠]، فكأنها تنادي معربة عما خط فيها بالقلم الإلهي؛ أن هذا الملك لا يكون إلا في عالم من هذا ونشأة تناسب شوقي وتكون منتهى لذتي، ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[الإنسان: ٦]، وإلا فبالله أين العلم الذي لا جهل معه، وأين الغنى الذي لا فقر بعده، وأين الحياة التي لا موت بعدها، وأين مقتضى الفطرة من حبنا دوام البقاء؟ ونفوسنا مستشعرة بذلك فهل يحب أحدنا إلا الحياة الدائمة؟ ولما أيس منها في هذه الدار وخيل له الوهم بادئ بدء أن لا حياة في غيرها؛ وانحصرت أمانيه فيها إذ لا رسم في الخيال لدار غيرها؛ أخذ يخترع صوراً شتى تصور البقاء بأنواع من الخيالات وضروب من الأوهام التي لا حقيقة لها، فملوكنا وعظماؤنا بل وعامتنا يحبون تخليد أسمائهم في بطون التواريخ وعلى المباني الباقية وأن يلدوا من يبقى لهم شبه الحياة، كل هذا شهادة من الفطرة بالبقاء، ولا تظن أن الفطرة ليست من الأدلة فإن جميع الفطر المنغرسة فينا لها حكم باهرة وكلها صادقة، وإن كنت في شك مما رمزنا إليك فسل قوة الشهوة والغضب وما فينا من

كبر وتواضع ورحمة وشجاعة وجبن وحياء وعفة وهكذا فكل منها له نبأ و﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام: ٦٠] فلم تكون هذه الفطرة وحدها بتراء وبقية الفطر صادقة. انتهى الوجه الثالث.

الوجه الرابع

من المشاهد أنه لا لذة في الدنيا إلا وهي ناقصة، ولا ألم إلا وهو زائل، فهما كالليل والنهار يمحو أحدهما الآخر. ومن المسلم أن لكل شيء غاية يصل إليها، فأين غاية اللذات؟ وأين نهاية الآلام في هذه الحياة التي امتزج فيها الخير بالشر والخبيث بالطيب؟ بل كل من اللذة والألم ينتج الآخر فهما فرسا رهان، فلا بد من دار أخرى تكمل فيها اللذات لقوم والآلام لقوم آخرين ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ﴾[الأنفال: ٣٤] ويجعل أهل الكمال على سرر في جنات النعيم حتى تتحقق نهاية كل من اللذة والألم، وإلا كانت ناقصتين لم يصلا لغايتهما، وذلك يخالف القياس، فمنتهى الألم في دار يقال فيها: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[سبأ: ٤٩]، ومنتهى اللذات في دار يقال فيها: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[فصلت: ٣١].

الوجه الخامس

قد ثبت في الاستكشافات الحديثة في الجغرافيا الدينية أن جميع سكان الكرة الأرضية في مشارق الأرض ومغاربها متوحشين ومتمدينين يذعنون بجزاء على الخير والشر بعد الموت. فيا ليت شعري كيف انغرست الفكرة في جميع الأذهان. ويا للعجب أن سكان المحيط الأعظم مع تباعد جزائرهم وتفرقها في أقاصي المحيط وأدانيه عندهم هذا الاعتقاد، ولا تواصل بينهم في محيطهم ولا بينهم وبين الأمم التي في القارات، فيا ليت شعري ما الذي أثبت تلك الفكرة في الأذهان من قديم الزمان.

ولعمري ما هي إلا فطرة سارية في جميع النوع الإنساني، اللهم إلا من شذ من قليل من المتمدينين الذين خرجوا عن الفطرة الأصلية ولم يصلوا إلى الكمال في العلم، فهؤلاء بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. قال الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس عيباً كعيب القادرين على التمام

وإذا كانت هذه الفطرة عامة فلا عجب إذا اتخذناها دليلاً وحدها.

ولعمري لا يسلم بهذا الدليل إلا من كانت له قدم راسخة في العلوم وعرف صدق جميع الفطر المنغرسة فينا وأن شهادتها لا تقبل الرشا، وهذا يحتاج إلى بصيرة ونظر تام في جميع العلوم لا سيما علم النفس والتشريح، ونظير هذه شهادة جميع الفطر أيضاً بأن لها رباً صانعاً، ونوعته بحسب ما يناسب فكرها في كافة أنحاء الأرض.

ولقد أشار الله سبحانه وتعالى لذلك بقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: ٣٠].

الوجه السادس

أردت بهذا الوجه تقريب حال الآخرة بأمثلة الظواهر الطبيعية، فرب قائل يقول: نحن لا نعقل للميت نشأة وكيف يعذب أو يثاب قبل أن يأتي اليوم الموعود.

قلت: أنت في كل يوم وليلة تموت وتحيا، فالنوم أخو الموت، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ﴾ يتوفى ﴿ ٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾[الزمر: ٤٢]، وكثيراً ما نرى اثنين في لحاف واحد قد أحكمت عليهما الحجرة وغلقت الأبواب، فقام هذا يقول: واحسرتاه على لذة، قد كنت في بستان مع الغزلان والندمان أقتطف الريحان وأجني الثمار، ويقول الآخر: الحمد لله الذي أيقظني من النوم ولم يكن الحلم واقعاً قد أخذوا بمخنقي إلى رجال الشرطة وحكم عليّ بما يسيء واشتد الأمر. فهذا في النعيم وهذا في العذاب الأليم مع أن ظاهرهما ساكن قد ضرب على آذانهما وأطبقت أجفانهما وخشعت أصواتهما، وهاك مثالاً أقرب وهو التنويم المغناطيسي: فإن المنوم يسمع من المنوم كل غريبة.

حكي أنه نوّم بعضهم فتاة فقالت أثناء المحادثة: أتظن أنك أنت يقظان وأنا النائمة؛ لا فالأمر بالعكس فإني أرى وأسمع من بعد ما لا ترى ولا تسمع؛ وسوف يأتي وقت نصل فيه لهذه الحال جميعاً، وكأن هذه الفتاة تشير لمعنى الحديث: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»، وتشير إلى الآية وهي قوله تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: ٢٢]، أي: قوي ثابت. فيا للعجب لهذا الزمان الذي ظهرت فيه العلوم العقلية والنقلية بعد أن عرفها الأقدمون بالبرهان العقلي، حيث أثبتوا أن الجسم متى ضعف واضمحل قويت حالة النفس ورأت المستغربات.

ولا أفتح عليّ هذا الباب لئلا يطول المقال ويخرج عن حد الاعتدال، ولكن أقول كلمة: قد ورد في بعض الأخبار ما يشير إلى أن هذه الأزمنة المتأخرة مصدر العجائب وظهور الغرائب، ومن أراد أن يطلع على كل جمال وكمال ويرى ما في العالم الأوروبي من المستكشفات التي بهرت العقول مما يدل على بقائنا بعد الموت فعليه بعلوم الأرواح، فإنها أتت من سبأ بنبأ يقين وأظهرت للعالم الإسلامي غرائب يجب على كل متنور أن يطلع عليها لا سيما متخرجي المدارس، هذا، ومثل النشأة الأخرى بالنسبة إلى الدنيا كمثل الحياة الدنيا بالنسبة لحياة الإنسان في الرحم، فلا يزال الإنسان في ترق من ظهر أبيه إلى بطن أمه إلى عالم الدنيا إلى البرزخ. وكلما كان في حالة لا يكاد يصدق بغيرها ولا يحب الانتقال منها، فلو قيل للطفل في بطن أمه بفرض أنه يعقل: إنك ستنزل إلى فضاء واسع سماؤه قدر المشيمة التي أنت فيها ملايين كثيرة؛ وفيها قوم مثلك؛ وأشياء تأكلها وتركبها ولا تقتصر على طعام واحد؛ والأطعمة هناك أحسن من دم أمك الذي يغذيك؛ وستأكل بفمك لا بسرتك بل هذا الدم الذي يغذيك الآن ستستقذره هناك ويمجه طبعك، ولا تود الرجوع إلى هذا الرحم، فلو ذكر بهذا كله لأحاله واستبعده كما نستبعد نحن حال الآخرة لولا البصائر والأخبار.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده أولاً فنقول: رب قائل يقول: كيف مثلت بالنوم وهو أمر بسيط عادي، قلنا: على رسلك أيها الأخ فما أضاعنا إلا الجهل بما بين أيدينا، فالأمم الغربية من حولنا ما ترقت إلا بنظرها حق النظر في الأمور البسيطة، من كان بالله قبل اليوم يظن أن الكهرمان الذي كنا نضحك من جذبه للأشياء الصغيرة عند فركه يضيء الأمكنة ويجر الأثقال ويولد الحرارة؟.

ومن بالله قبل اليوم كان يظن أن البخار الذي يشاهد كل يوم في كل منزل بحيث يراه العامة يحدث انقلاباً عظيماً في عالم المدنية؟ ومن ذا الذي كان يظن أن للمغناطيس بجذبه لقطع الحديد يساعد في إيصال الأخبار إلى ما بعد من الأقطار مع الكهرباء؟.

إذا كان هذا كله في الآفاق ونشأت منه هذه العجائب فكيف تركنا النظر في نفوسنا وعجائبها أظهر وأبهر من عجائب البخار والكهرباء والمغناطيس، فنحن كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحاً، أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وقال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١].

النوم الحقيقي والصناعي هي حالة أخرى للإنسان ضربت لك مثلاً وتكررت كل يوم تمثل حالتك بعد الموت، وإن كانت نسبتها إلى الموت كنسبة ضوء المصباح إلى الشمس، ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[النور: ٣٥]، وقال: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣] ـ بكسر اللام، وقال الحكماء: إن لذة النوم لا فرق بينها وبين لذة اليقظة، إلا أن لذة اليقظة يمكن استبقاؤها بخلاف لذة النوم، فمن رأى وجهاً جميلاً وتمتع بمشاهدته في نومه كانت لذته به كلذته في يقظته لا فرق بينهما، ولو دام النوم إذ ذاك لدامت اللذات.

ومن فهم هذه المقدمات عرف معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾[آل عمران: ١٦٩-١٧٠]، وقوله صلى الله عليه وسلم للذين قتلوا يوم بدر: «يا فلان يا فلان، قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فقيل: يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده إنهم لأسمع بهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب»، وما ورد أيضاً: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، وإنه إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار». وغير ذلك مما لا يحصى.

وبالجملة فأمر الإنسان في حياته وبعد موته يدهش العقول، ولولا خوف الملال لأطلت المقال وفي هذا بلاغ والله أعلم. وسيأتي في سورة «الكهف» زيادة على هذا في مسألة الروح بمناسبة البعث وقصة أهل الكهف.

بهجة اللطيفة الثانية والثالثة في قوله تعالى:

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾[الآية: ٨٥]

اعلم أن الروح كانت قديماً ولم تزل حديثاً مناط مباحث العلماء والحكماء أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن نحا نحوهم من علماء الإسكندرية الذين لخصوا فلسفة اليونان واستخلصوا زبدتها وأخرجوها للناس صافية في القرون الأولى للتاريخ المسيحي، ومن هؤلاء في نحو القرن الثاني لميلاد حكيم يقال له «أفلوطين»، فكل هؤلاء بحثوا في النفس ودققوا فيها، وجمهور هؤلاء أنها نور إلهي تنزل من الله إلى هذه الأشخاص الإنسانية، ومعلوم أن هذا اللفظ مجاز لأن النور لا يحس وهذه تحس، ثم رتبوا على نسبة أرواحنا إلى ربنا علم الأخلاق جميعه، فترى «الرواقيين» منهم يحرصون الحرص كله كما يحرص متبوعهم «سقراط» على التخلق بالأخلاق الجميلة من الصبر والحلم والشجاعة والعفة والحكمة، لأن هذه هي التي تنقي هذه النفس وترفعها إلى خالقها فترجع له نقية، لا تكاد تقرأ كتاباً من كتب هؤلاء الحكماء ولا من حكماء الإسلام ولا كبار الصوفية إلا وجدت نسبة الروح إلى الله ويسمونها تارة «الجزء الإلهي» وتارة نوراً والنور مجاز.

فانظر للقرآن كيف يقول: ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[الإسراء: ٨٥] وهذا هو التعبير الصحيح الخالي من المجاز بخلاف النور، وتجد «سقراط» في الاستدلال على أن طبيعة النفس غير طبيعة الجسد، يقول: «إن النفس آمرة والجسم مأمور ومن شأن الأمور الإلهية أن تكون آمرة الخ».

فاستبان لك من ذلك أن نفوسنا لها شأن من الشؤون الإلهية. وبعبارة أخرى: هذه النفس في صفاتها وتعقلها وتفكرها تكون أقرب للعوالم المجردة التي هي أقرب إلى الله من عالم الأجساد، فانظر إلى أفعال هذه النفس في عالمنا الذي نعيش فيه لا سيما في هذا الزمان. اعلم أني اطلعت على كتاب يسمى «راجا يوقا» باللغة الإنجليزية كما ذكرته مراراً في هذا التفسير، وهذا الكتاب مترجم من اللغة الهندية، فعرفت منه عجائب النفس وأن القوم لهم طرق يستعملونها لتقدر أرواحهم أن تحكم أجسامهم، فيجدّون في التسلط على أنفسهم بحيث يكون الشهيق والزفير أطول من المعتاد شيئاً فشيئاً إلى دقيقة فخمس دقائق وهكذا، وبهذه الطريقة أمكنهم حبس النفس مدة طويلة، ومعنى هذا أن حركة الدم تكون ضعيفة وقد تقف، وليس هذا الوقوف الاختياري موتاً، كلا، ويقولون إنهم متى حكموا هذا التنفس الذي بواسطته حكموا الدورة الدموية فقد تسلطوا على القوى العقلية بحيث لا يدخل في عقله إلا ما ينفع نفسه، فلا يلحقه همّ ولا غمّ، لأنه متى أراد شيئاً حصل له وهو لا يريد الغم فلا يغتمّ وهكذا، وهناك فروع كثيرة وكتب مؤلفة ظهرت حديثاً بلغات مختلفة في هذا الباب، وعلى ذلك قدر بعضهم أن ينام في الصندوق ستة أشهر بإرادته.

هذا ما كنت قرأته في هذا الكتاب. ثم مضى زمن بعد ذلك فقرأت من حوادث حصلت في أوربا وفي مصر تشابه ما قرأته في ذلك الكتاب، وهي ثلاث حوادث:

الحادثة الأولى: حادثة الفقير الألماني «ديبلر» الآتي تفصيل حوادثه هنا. فهذا لما وقع أسيراً قطع «عرق الوريد» من رقبته، ثم أحب الحياة فاجتهد أن يقوي إرادته حتى انقطع الدم، وكان هذا مبدأ لحصول القوة عند الرجل، فصار يفعل بجسمه ما يشاء ويريد من غير ألم.

الحادثة الثانية: الفتاة «تريزنيومان» هذه التي كانت في ليلة الجمعة من كل أسبوع تظهر عليها أعراض تشبه الأعراض التي تسمعها في الكتب الدينية وهي علامات آلام السيد المسيح، ولعمري إن ذلك لم يحصل لها إلا بكثرة تأملها في أمر السيد المسيح عليه السلام فأصبحت تظهر عليها الأعراض التي سمعت أنه اتصف بها.

الحادثة الثالثة: هي حادثة الدكتور «طهرا بك» الذي جاء إلى مصر أثناء طبع هذه السورة وفعل مثل ما قرأته عن علماء الهند تماماً في أوربا وفي مصر. وقد آن أن أسمعك هذه الأخبار الثلاثة ثم أحدثك بعد ذلك عن هذه المناظر ما يليق بالمقام من الجمال والجلال والحكمة والنور الإلهي والسعادة الأبدية والسر العظيم.

الحادثة الأولى والثانية

أرسل مكاتب جريدة «البتي باريزيان» في «برسلو» البرقية الآتية إلى جريدته:

تكلمت الجرائد الألمانية والأجنبية في المدة الأخيرة عن المظاهر الغريبة التي بدت مؤخراً على الفتاة «تريزنيومان» البافارية التي كان يرى على جسدها في يوم الجمعة من كل أسبوع علامات آلام

السيد المسيح، وقد تألفت لجنة من الأطباء هي الآن مجدّة في البحث لمعرفة كنه هذه الوقائع، ويظهر أن الاستغراق الديني لم يكن وحده السبب لهذه المظاهر وحدوث هذه العلامات، فقد قام مؤخراً رجل من العمال في « برسلو » اسمه « ديلر » وجهر أمام الأطباء ورجال العلم والصحافة في تلك المدينة بأنه قادر بمجرد إرادته فقط أن يحدث على جسده وبدون أي ألم كل الظواهر الفسيولوجية التي بدت على جسم الفتاة « تريزنيومان »، وفعلاً كان ظهور « ديلر » هذا حادثاً خارقاً للطبيعة اهتم بشأنه رجال العلم لأنه يضاهي في غرابته الأعمال التي يقوم بها فقراء الهنود.

عرف « ديلر » لغاية الآن بأنه رجل لا يشعر بأي ألم من الآلام الطبيعية، ولذلك لقبه مواطنوه بـ « الفاقد الألم »، وقد ظهر على جملة مسارح عمومية وسمر مراراً على صليب بواسطة دق مسامير كبيرة في يديه ورجليه وطعن أيضاً في جنبه بحربة اخترقته، ومن المدهش أن كل جراحاته هذه لم تكن قط لتنزف دماً وكان يصرح وهو في هذه الحالات بأنه لا يشعر قط بأي ألم، ولما بلغت أسماع « ديلر » أخبار « تريزنيومان » طلب أن تعقد لجنة مؤلفة من الأطباء ورجال العلم والصحافة في مدينة « برسلو » ليعرض أمامها مشاهد غريبة من نوع جديد، وفعلاً أمام هذه اللجنة أظهر « ديلر » على يديه ورجليه لطخاً حمراء بشكل صليب كما كانت تظهر على « تريزنيومان »، وجعل هذه اللطخ تنزف دماً، ويرهن « ديلر » على أنه بمجرد إرادته فقط يستطيع إحداث هذه المظاهر في أي قسم من جسده وذلك بدون ألم، وقد يكون من المفيد أن نروي للقراء كيف توصل « ديلر » المذكور إلى هذه المقدرة الفائقة لإحداث هذه المظاهر الخارقة للعادة.

في بدء الحرب العالمية كان « ديلر » هذا جندياً في آلاي « الهوسار » بمدينة « أوهلو »، ثم أخذ أسيراً واعتقل في « بولونيا » حيث تعلم سريعاً اللغة الروسية، وساعده ذلك على الفرار مختفياً بملابس ضابط، لكن ألقي القبض عليه وحوكم وحكم عليه بالإعدام بتهمة التجسس. وفي الليلة السابقة لليوم المعين موعدا لتنفيذ الحكم حاول الانتحار بأن قطع من عنقه الشريان المعروف بحبل الوريد، ولكنه قبل أن يسلم الروح عاوده فجأة شوق شديد إلى الحياة، وتمكن بقوة إرادة خارقة للعادة من توقيف النزيف الدموي، ثم أغمي عليه، ولما أفاق من إغمائه وجد نفسه منطرحاً على حافة حفرة كانت بدون شك معدة لأن تكون قبراً، ولا يعلم للآن لأي سبب لم يطرح في داخلها. ولماذا لم يهل عليه التراب، وقد كان ذلك سبباً لنجاته وتمكنه من الفرار ثانية. وبعد رجوعه لألمانيا أخذ يقص على مواطنيه الحوادث الغريبة التي طرأت عليه. ولما لاحظ أنهم كانوا يدهشون لها ولا يكادون يصدقونها آلى على نفسه أن يجتهد لكي يقوى لدرجة عجيبة، تلك الإرادة التي أحسها في داخله أثناء ظروف غير عادية، وهكذا كان، فإن النتائج المدهشة التي حصل عليها لا تجعل مجالاً لأي شك، ونحن نتساءل ألا تكون هذه النتائج رداً علمياً يفسر ما غمض من مظاهر « تريزنيومان ».

الحادثة الثالثة حوادث روحية في مصر

ظهر رجل يقال له « طهرا بك » في أوربا وفي الشرق، وحضر إلى مصر واجتمع به عدد من راغبي مشاهدة التجارب الغريبة ليلة ٢ نوفمبر سنة ١٩٢٧، وكان بين الحاضرين كثيرون من الأطباء ورجال الصحافة العربية والإفرنجية، ومع أن صاحب الحفلة كان قد نبه على استحسان عدم حضور

السيدات لأن معظم تجاربه قد تؤثر في مزاجهن قد حضر هذه الحفلة كثيرات منهن، وقبل الساعة العاشرة بدقائق رفع الستار عن الدكتور «طهرا بك» في لباسه العربي الأبيض وعلى رأسه العقال وعن منضدة غرزت فيها خناجر ودبابيس طويلة وعن سائر أدوات تجاربه مما سنذكره في خلال وصف هذه التجارب، وقد تصاعدت رائحة البخور في المسرح. ووقف أحد أصدقاء الدكتور «طهرا بك» فأخذ يتلو باللغة الفرنسوية شرحاً لنظريات الدكتور، ثم أكمل هو هذا الشرح وبسط جانباً من برنامج الحفلة.

وقبل أن يشرع في تجاربه طلب من الأطباء ورجال الصحافة أن يصعدوا إلى المسرح، فصعد عدد كبير منهم، فأعلن لهم أنه سيبتدئ بتجربة وقوعه في غيبوبة أو تيبس، وطلب من الأطباء أن يفحصوا نبضه ففحصوه ووجدوا أنه ١١٠ في الدقيقة ثم زاد النبض حتى بلغ ١٤٠، فأعلنوا ذلك للجمهور. وعندئذ وضع يديه على صدغيه وضغط بأصابعه على الوريدين الموصلين للدم إلى رأسه ضغطاً شديداً فغاب عن صوابه وصار في حالة تخشب، فحمله اثنان ووضعوه على نصال من الفولاذ محمولة على حاملين ولكنها غير محددة، ثم رفعوا عن الأرض حجراً ثقيلاً كالحجارة التي تستعمل في أفاريز الشوارع؛ ووضعوه على بطنه وهوى شخص بمطرقة على هذا الحجر فكسره نصفين، وعلى أثر ذلك أفاق الدكتور «طهرا بك» من غيبوبته دون أن يصاب بسوء. ثم طلب من الحاضرين من الأطباء ورجال الصحافة أن يفحصوا الخناجر والدبابيس، ففحصوها وأعلن أنه أصبح فاقد الإحساس بالألم، وتناول خنجراً كبيراً وأدخله بمقدار ٥ سنتيمترات في الجزء الأسفل من عنقه، وطلب من أحد الأطباء الواقفين أن يولج دبوسين في سطح جلد ساعديه، ففعل وأولج هو كذلك دبوسين في شدقيه ودبوسين في ثندوتيه، فسال دم من هذه الجروح لوث ثوبه الأبيض، ولكنه لم يتألم، ونزل إلى البهو وطاف بين الحاضرين يريهم هذه الدبابيس المولجة في جسمه، وعاد فصعد إلى المسرح وأخرجها منه، وكان قد أعدّ له لوح من الخشب ثبتت فيه مسامير حادة طول كل منها أكثر من ١٠ سنتيمترات، فاستلقى على ظهره فوق هذا اللوح، وجاء بعض الأطباء وفحصوا الأمر، فقال طبيب منهم: إن المسامير لم تمسه وإنه فيما بين أعلى فخذيه قد وضع قطعاً من الكاوتشوك. وقال أطباء آخرون: بل إن جانباً من المسامير اخترق لحمه ولا سيما في الجانب العلوي من الظهر، وحدث خلاف في هذا الشأن وأصر كل من الفريقين على رأيه، وكان الطبيب المخالف يودّ أن يرى المسامير تخترق السلسلة الفقرية أو المقاتل الأخرى. وأخيراً ثبت أنه وإن كانت المسامير لم تخترق موضعاً قاتلاً فقد اخترقت مواضع أخرى، وأنه قام من فوق هذا اللوح دون أن يتألم. وإلى هنا انتهى الفصل الأول.

ولما رفع الستار في الفصل الثاني أعلن الدكتور «طهرا بك» أنه مستعد لقراءة الأفكار عن الماضي والحاضر فقط، وطلب من أحدهم أن يفكر في أي شخص كان في القاعة، ففكر في صديق له في أحد اللوحات العليا، فقرأ فكره وقاده إلى صديقه، ثم طلب منه أن يفكر في بعض أشياء صديقه، ففكر في منديله فأخرجه من جيبه. على أنه لم ينجح تماماً في قراءة أفكار آخرين، وعلل ذلك بترددهم في الفكر. وانتقل إلى تجربة مقدرته على تنويم الحيوانات تنويماً مغناطيسياً فجيء به له بديكين وأرنب كبير فنومهما بمجرد لمسه إياهما.

وختم تجاربه بتجربة دفنه في صندوق، وكان قد أعد هذا الصندوق فوق المسرح وإلى جانبه كومة كبيرة من الرمل، وجاء كثيرون ففحصوا قاع الصندوق وجوانبه، وبعد ما شرح نظريته هذه وتعليلها العلمي، قال: إن هذه النظرية منقولة عن المصريين القدماء، ثم سأل الحاضرين: كم من الوقت يريدون أن يظل مدفوناً؟ فاقترحوا أن تكون المدة ١٠ دقائق، ثم جيء له بقطن سدّ به أنفه وأوقع نفسه في غيبوبة كما في المرة الأولى، وحمل إلى الصندوق وأهيل عليه التراب، وسد الصندوق بغطائه وأحكم سده من الخارج بالرمل، وعندما انقضت الدقائق العشر كشف التراب عن الصندوق في الحال، وأخرج منه فإذا هو حي، ووقف على حافة المسرح وفي يده أوراق صغيرة، وازدحم الجمهور حوله وتخاطفوها من يده، وهي كما قال «طلاسم» مفيدة، وكان الحضور يصفقون له.

وقد سئل طبيب كبير مشهور من أطباء الأمراض الباطنية في العاصمة وكان من جملة الحاضرين: بماذا يعلل عدم إحساس الدكتور «طهرا بك» بالألم في تجربة الخناجر والدبابيس؟ فأجاب بأن ذلك نتيجة تشنج في الأوعية. وعلل تجربة الوقوع في الغيبوبة بأنها نتيجة تمرين المخ تمريناً مستمراً على ذلك، وقال: إنه يوجد أناس يستطيعون أن يوقفوا حركة القلب مدة معينة دون أن يموتوا. أما هو فيقول: إن هذه الأعمال ترجع إلى أصل علمي، أي: أنها ليست سحراً ولا شعوذة. ثم إنه قد افتتنت به أوربا في العامين الماضيين عندما طاف عواصمها وهو يدهش الناس بأعماله الخارقة للطبيعة ويجعل الصحف الغربية تعجب بتجاربه العلمية الساحرة، وقد اهتم الأطباء بأمره وعقدوا الجلسات لفحصه ودراسة عجائبه، فقرروا أنه ذو مقدرة عجيبة تسلط بها روحه على جسده فيأتي بالعجائب، وطيرت التلغرافات في العام الماضي عجائبه فروتها الجرائد في مصر.

ولما سئل قال: إن هذا العلم اسمه «الفقير زم»، وقال: إن الإنسان مركب من ثلاثة عناصر: الجسم والنفس والروح، وللنفس قوتان: إحداهما متصلة بالجسم تدير حركاته، والأخرى متصلة بقوة خفية عظيمة هي التي يعرفها أهل الأديان باسم الله، والغرض من «الفقير زم» البحث عن هذه القوة النفسية وإنمائها، والتوصل إلى الانتفاع بها في جعل الحياة سعيدة هانئة.

وقد ولد الدكتور «طهرا بك» في الأستانة وتخرج من كلياتها الطبية وشغف بـ«الفقير زم» فدرسه على شيخ مصري يدعى الشيخ الفلكي، واستطاع أن يتبحر في هذا العلم ويقوم بتجاربه العجيبة، ومنها: أن يطعن نفسه بالمدي والخناجر؛ ويتسلط على الدورة الدموية فلا تسيل الدماء من جروحه ثم تلتحم في الحال، وأن يسيطر على تنفسه وعلى دورته الدموية فيدفن نفسه في صناديق مفرغة من الهواء، ويظل مدفوناً ساعات وأياماً ثم ينهض حياً، وقد قضى ١٨ يوماً مدفوناً في بطن الأرض في بلاد اليونان. ويستطيع أن يصلب جسمه فلا يتأثر من الوخز، ويغرز في جسمه المسامير والدبابيس فلا تترك أثراً، وقال: إن في استطاعه كل إنسان أن يقوم بهذه التجارب إذا مرن إرادته على التحكم في جسده بقوة روحه. انتهى الكلام على «طهرا بك».

انظر أيها الذكي إلى العلم قديماً وحديثاً، وانظر إلى تعاريف القدماء، إذ يقولون: إنها نور من الله أو شعاع منه. ثم انظر إلى قول «سقراط» كيف استدل على أنها مخالفة للأجسام بعلامة وهي أنها آمرة والجسم مأمور والأمر إنما يكون من الله. فهي إذن منسوبة إليه مستمدة منه.

ثم انظر كيف جاء القرآن، وقال: ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[الإسراء: ٨٥]، فعبر بما هو أدق، ثم تعجب ألف مرة من هذا النوع الإنساني ذلك النوع النشط المفكر، فانظر أولاً إلى « ديلر » الألماني ألم تر أن تسلطه على قوى جسمه إنّما جاء بطريق المصادفة بحيث إنه لما قطع العرق ونزف الدم واقترب الموت وجد في نفسه نزوعاً إلى المغالبة فغلبت إرادته الدم وقوي عليه. أفلست ترى أن هذه الحادثة التي جرت في أوروبا تلك الأمم المادية التي أصبحت تعبد المادة عبادة قد جرت قبلها قديماً عند الهنود في مدنياتهم القديمة فأخذوا يفكرون فيما به يحكمون أجسامهم؛ فوجدوا أن النفس الخارج الداخل موصل لذلك بحيث يحبسونه داخلاً أو خارجاً بنظام خاص. وأيضاً ربما أن بعضهم في الأعصر القديمة حصل له ما حصل إلى « تريزنيومان » البافارية من ألمانيا أيضاً، فعلموا أن الأفكار الدينية لها تأثير على الجسم فأخذوا يفكرون حتى جعلوا ذلك علماً. ولعل مسألة التنفس عندهم أقرب إلى مسألة « ديلر » المتقدمة، إن الله لذو فضل عليّ وعلى الناس بالعلم، ونسأل الله أن يلهمنا شكر هذه النعمة العظيمة.

عجائب العلم

فانظر كيف يحصل هذا أيام طبع هذا التفسير ونشره بين الناس، وابتهج بالعلم الذي ستسمعه فسترى من آيات الله عجباً.

فانظر إلى هذا الإنسان إذ عرف روحه الفلاسفة وأصلح القرآن تعريفهم، ثم جاء العصر الحاضر فأطلعنا على أسرار للروح جاءت على أيدي أقوام قبل الهجرة بآلاف السنين، ثم اقترب العلم منا وظهر لنا ووضح وأصبح ما كان اجتهاداً وفلسفة عملاً ظاهراً مكشوفاً للناس، ورأينا أن هذه النفس نافذة العمل في الجسم بالتصرف فيه تصرفاً تاماً؛ كأنها تقول: أنا نور الله وإن لم تصدقوا فانظروا آثاري القاهرة العجيبة فيه الأهم من ذلك.

ثمرة هذا المقال وبهجته

اللهم إنك أنت المحمود على العلم والحكمة، اللهم أنت المعلم، أنت الحكيم بعلم الحكمة المرشد لنفوسنا المسعد لها. أنت الذي أنزلت العبادات على الأمم جميعها، وأنت الذي أمرتهم أن يصلوا ويقولوا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦]، فهانحن الآن فهمنا فائدة الصلاة.

إن المصلي والذاكر لله كلاهما يحضر في قلبه عظمة مولاه، فيفاض عليه حلل من أنوار ذي الجلال والإكرام من جنس ما فكر فيه. فإذا كانت الفتاة البافارية فكرت في أن المسيح مصلوب فقد ظهرت أعراض الصلب على جسمها، وهكذا الفتى الألماني، وهكذا « طهرا بك ».

الله أكبر. جل العلم وجل الله. إذن عقلنا حقاً من أمر الله أو نور من الله، ولو لم يكن من الله لم يؤثر هذه الآثار الهائلة عند الاستعداد لها بالممارسة بالتنفس أو بقوة الإرادة أو بالفكر الديني. أليس هذا بعينه هو قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: « أنا عند ظن عبدي بي »، ولسنا نهتم بكون الحديث بسند ضعيف أو صحيح، لأن المعنى صحيح. وأظهر من هذا قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ١١].

لقد استبان بهذا المقام كيف وصل قوم إلى معاني تظهر على ألسنتهم وتؤثر في عقول الناس بواسطة طريقة واحدة وهي استدامة الذكر فيذكرون اسماً من أسماء الله تعالى أو يلزمون الصمت

والجوع والسهر وما أشبه ذلك فيحصل لهم أمور عجيبة . فهذا حقاً من هذا الباب لأن النفس الإنسانية تتجه إلى الأغراض السامية إذا وجهت إليها وإلى الدنيئة كذلك . ولما كان الذكر حبساً للنفس الإنسانية عن أمور الدنيا اتجهت النفس إلى ما طلب منها ، وهذا أمر أجمعت عليه أمم الأرض . وقد قرأته في كتاب « راجا يوقا » مترجماً إلى الإنجليزية عن الهندية . فهؤلاء الوثنيون بعد أن ذكروا نظام الجسم وفقرات الظهر وأنها في وسطها فراغ يوصل إلى المخ ؛ وفي نهايتها من أسفل مثلث محكم السد يشتمل على عجب الذنب ؛ قالوا : وهذا له سر لا يعلمه الناس ، وبكثرة المجاهدة يحصل اتصال مجهول بين هذا المثلث وبين المخ وبه تفاض العلوم على الإنسان جميعها وإن لم يتعلمها ، هذا كلامهم .

وهذه النغمة هي التي يرددها الصوفية ، وليس لهذا أهمية في هذا المقام ، إلا أنهم يقولون : إن عجب الذنب موضع العلوم والأسرار ، وبالتهذيب والعبادة يفتح سد مجهول بينه وبين المخ فيعرف الإنسان العلوم كلها . هذا القول يذكرنا بقول العلماء : إن عجب الذنب باق كالروح ، كما جاء في كتب التوحيد إذ قال صاحب الجوهرة :

عجب الذنب كالروح

نعم إن المسألة فيها خلاف ، ولكن كيف يرد في ديننا مسالة عجب الذنب وبقائه ، وكيف يكون هذا القول حاصلاً عند البراهمة قبل آلاف السنين وأن العلم في ذلك المخزن ، وإذن يكون الباقي هو العلم لا نفس العجب . إذن عجب الذنب رمز إلى العلوم والعلوم في النفس تبقى معها . فالروح باقية وعلومها باقية وإذن يكون علم الهنود في هذا سر هذه المسألة ويزول الخلاف . وعندي أن هذه وحدها أعجب المعجزات فهذا القول لم يسمع به المسلمون في العصور الأولى ولا المتأخرة . وقد عثرت عليه مصادفة وأنا أقرؤه في الكتاب .

وجاء في هذا الكتاب أيضاً أن ذكر اسم الله وتكراره في النفس يؤثر في الأعصاب فتمتلئ بالأنوار بحكم المجاورة فترتقي النفس وتعرف ربها . ولكن هم يقولون : إن كبح جماح الشهوات لا بد منه لأن كثيراً من الناس بالذكر يصلون إلى الله ، ولكن الوصول ناقص لأنهم يحبون الدنيا ، فلا بد من احتقار الدنيا وحصر الحب في الله وحده . هاهنا ظهرت صفوة العلم في هذه الدنيا .

صفوة العلم في هذا المقام

إن النفس الإنسانية بالتهذيب والذكر وحصر الفكر والتنفس وقوة الإرادة المكتسبة قد تصل إلى الله أو تتحكم في الجسم كما تشاء أو تنفع الناس بعلمها ومواهبها .

يظهر أن الله قد أعطانا هذه القوة ؛ وقال لنا : سأنظر ماذا تصنعون . ونحن منا من جعل ذلك سبباً لرفع نفسه ورفع الإنسانية ، ومنا من جهلها للذاته وشهواته .

هذا هو حل المشاكل التي كانت أمامي ، فلقد سألني شاب مهذب ذكي من مدينة « تيطوان » من بلاد مراكش قائلاً : لقد شهدت جماعة ببلادنا لهم رئيس كبير وهو وأتباعه وأشياعه يجتمعون في مكان خاص ويوجهون همتهم إلى أمر واحد ، فلا يلبثون حتى يروا واحداً منهم ارتفع إلى أعلى المنزل وهؤلاء لا صلاة لهم ولا زكاة ولا حج ولا طهارة . وإذا أهداهم أحد كبشاً من الضأن أو تيساً من المعز لم يذبحوه بل يخرقون بطنه بسكين ثم يتلقفونه ويأكلونه .

ثم قال : فهذه القوة الخارقة للعادة ليست عندنا نحن المصلين ، فلا أدري أنحن على الحق أم هم .
لهذا أطلت الكلام في هذا المقام وأتيت بزبدة علوم الأمم قديماً وحديثاً هنا ؛ قائلاً للمسلمين وجميع المتعلمين : إن روح الإنسان فيها قوة إلهية كما رأيتم بالبرهان في هذا المقام ، وهذه القوة بحصرها تفعل الأعاجيب ولا تتوقف على دين بل هذه القوة كامنة في النفس تظهر في الوثني والمتدين ، بل ربما ظهرت في الوثنيين أكثر ، ذلك لأن الدين جاء لمنع إخراج هذه القوة وبعثرتها فيما لا يفيد ، وماذا يفيد الإنسانية من أمور مثل هذه؟ وما هذا إلا ضرب مثل من السحر لأن السحر يرجع أهمه إلى تأثير النفس تأثيراً سافلاً ، فهاهنا انصرفت النفس إلى تعطيل قواها وملكاتها في هذه الحياة فانبعثت قوتها إلى الشعوذة والشعبذة ، وهذه نفس معذبة في هذه الحياة وبعد الموت لأنها عالة على الأمم ضالة .

فهذه القوة التي ارتفع بها أحد المجتمعين هي نفسها التي صرفها المؤلفون والمدرسون والصانعون والمهندسون في منفعة الأمم ولهذا جاء الدين . الله أرسل الأنبياء للناس بوحي وقوة قدسية ، وقال للناس : فكروا واعقلوا وإياكم أن تتبعوا الكهانة ، لأن الكهان يوجهون هممهم إلى الإخبار بالغيب وإعلام الناس بحوادث تافهة منها الصادقة والكاذبة ، ومن هذه الكهانة ما يرد على ألسنة بعض الذاكرين الذين اتبعوا طريقاً من طرق الصوفية ، فهؤلاء ربما يرد بخواطرهم ويظهر على ألسنتهم بعض حوادث الناس فيظنون هذا وصولاً لله وما هو بوصول ، ولكن هذه قوى كانت كامنة فظهرت لتقويهم على العبادة لا لتكون آلة للشهوات ، فإذا اتخذوها صناعة وصاروا على الناس عالة أصبحوا شياطين ضالين ، كما نص عليه أكابر الصوفية ، وتراه ظاهراً في كتبهم ، وبهذا ظهر الأمر واتضح وتحقق ، ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[النور: ٤٦] . فالأنبياء جاؤوا لإنقاذ الناس من أمثال هذا ووجهوا الناس إلى كشف قواهم التي بها يساعد بعضهم بعضاً وهي العلوم والصناعات . فأما أمثال هذا فهو المسمى سحراً أو شعوذة أو شعبذة .

إن في نفوسنا قوة كامنة يظهرها مؤثرات عليها كما نرى في التنويم المغناطيسي ، وكيف يصبح الإنسان عند تنويمه في الدرجة الأولى عالماً بأمور يجهلها في اليقظة ، وفي الدرجة الثانية عالماً بأمور يجهلها في الدرجة الثالثة ، يخاطب الأرواح ويكلمهم ويتصرف في جسمه كأنه غريب عنه ويساعد الأطباء في قطع عضو من أعضائه وهو ضاحك مستبشر ، كل ذلك تقدم في سورة « البقرة » عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ ﴾[البقرة: ١٠٢] .

فهذه القوة النفسية ظهرت بالتنويم المغناطيسي وهو نوع من السحر ، ولم يخلقنا الله في الأرض لنفعل ذلك ، بل خلقنا لنقوي إرادتنا وندرس العالم الذي نحن فيه لتزيد قوتنا المدخرة العظيمة .

ومن هذه القوة ما ذكره العلامة الرئيس ابن سينا أن القوة الروحية في الإنسان قد تظهر فيخبر بأمور غائبة أو يقوى على أعمال جسمية . أقول وهذا حق كما تبين لك في مسألة « طهرا بلك » المذكورة فيما تقدم . وقد ذكر هو أيضاً أن الترك إذا أرادوا أن يستخبروا عن الحوادث المستقبلة يضعون رجلاً معروفاً عندهم باستعداده لذلك ويشدونه بحبل ويذهب ويجيء وهو كالمختنق به وزفيره وشهيقه مرتفعان حتى يغشى عليه فيخبرهم ببعض الحوادث . وقد يضعون قطرة حبر أسود في كعوب ماء

ويأمرون صبياً مثلاً أن يحدق فيه ببصره مدة طويلة فيخبرهم ببعض الحوادث. أقول: وهذا هو «المندل» المعروف. وكل هذا نوع من التنويم المغناطيسي.

ومن هذه القوة ما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته قال: «وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون بـ«البعاجين» وهم الذين ذكرت أولاً أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فينخرق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج، ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج، لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأغنام، يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم متسترون بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام. لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه وأخبروني أن لهم وجهة رياضية بدعوات كفرية وإشراك لروحانية الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى «الخنزيرية» يتدارسونها، ثم قال: «وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعايناها من غير ريبة. هذا شأن السحر والطلسمات في العالم». انتهى ما قاله ابن خلدون.

أقول: وهذه الطائفة بعينها التي تقدم ذكرها في مقال الشاب المراكشي المتقدم، فإن هؤلاء يجلسون ويبعجون الغنم ويتكلون على الأمة في معاشهم بطريق أنهم أولياء وعندهم سر. فالمرجع في هذا كله للنفس الإنسانية فيها قوة كامنة إلهية؛ إن حركناها بعد استخراجها الخير نفعت بالعلوم والصناعات، وإن حركناها بعد استخراجها للشر فعلت كما يفعل الناس اليوم في التنويم المغناطيسي إذ يأمرون المنوَّم ـ بالفتح ـ أن يقتل زيداً في وقت معين؛ فإذا استيقظ وجد في نفسه الميل للقتل في نفس الوقت، وهذا أمر معلوم مشاهد، ولا فرق بين هؤلاء البعاجة وبين المخبرين ببعض الغيب، كلٌّ عنده قوة حركها إلى ما لا خير فيه. ولكن العلم في عصرنا الحاضر استخرج قوات الطبيعة، فبدل أن يبعج بقوته الروحية بطن الغنم أهلكوا بقوة السلاح الأمم، فالقوة الخفيفة يجب توجيهها إلى العلوم المعروفة الآن لأنها ترقى الأشخاص والأمم. فأما فعل السحرة وصغار الصوفية فهو فسق وجهل بيِّن وقد وقعت الأمم فيه. ومعلوم أن الخوارق للعادات إما معجزة لنبيٍّ أو كرامة لوليٍّ أو استدراج لفاسق أو معونة لعاميٍّ، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء: ٥٩].

وما مثل القوى المتقدمة إلا كمثل الحرارة والحركة والمغناطيس والكهرباء اللاتي اتضح شرحها في سورة «الرعد»، فهذه ينقلب بعضها إلى بعض؛ فالحرارة تنقلب حركة، والحركة كهرباء، وهكذا، وهي شيء واحد، هكذا قوة النفس إن وجهت إلى المنفعة أعطاها الله معجزة لنبي أو كرامة لولي، وبالعكس المعونة لعاميٍّ والاستدراج لفاسق كما تقدم. وقد وقعت الأمم الإسلامية المتأخرة في هذه الورطة وصار الناس فرقاً متشاكسين، لأنهم جهلوا أصول العلوم ولم يفرقوا بين التصوف الصحيح والتصوف المزيف الكاذب.

وهاهنا سألني بعض الأصدقاء هذا السؤال قائلاً: أيها الحبيب أريد أن تدخل شيئاً مما دخل من البدع في علوم المسلمين من الباطنية ونحوهم حتى نتنور ونميز الغث من السمين، فقلت: أنا سأذكر لك ثلاث مسائل من أفعال المضلين:

المسألة الأولى: مذهب الباطنية الذي تغلغل في بلاد الإسلام واتصل من العصور الأولى إلى الآن.

المسألة الثانية: الكلام على نظام الملك الوزير وعمر الخيام الفيلسوف وحسن بن الصباح الباطني توضيحاً للمسألة الأولى.

المسألة الثالثة: زهد أكثر الأمم الإسلامية اليوم في فهم القرآن والاهتداء به مكتفين بشيوخهم وأن هذا مسبب عن المسألتين السابقتين. وسترى الكلام على هذه المسائل في سورة الكهف عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف: ٥١].

انتهى الكلام على اللطيفتين الثانية والثالثة.

اللطيفة الرابعة

الجمال والبهاء والحسن والسحر الحلال في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[الآية: ٤٥]

اعلم أن الحجاب خمسة أنواع: حجاب جسميّ، وحجاب خلقيّ، وحجاب عقليّ، وحجاب علميّ، وحجاب دينيّ.

أما الحجاب الجسمي: فإن الإنسان إذا كان ضعيف الجسم خائر القوة مريضاً لم يفقه العلم بل تتجه قواه لإتمام ما نقص من قوة الجسم فلا تتفرغ لعمل ولا تنصت لعلم ولا تستلذ بالحكمة ولا تهش ولا تبش للحكماء، وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[البقرة: ٢٤٧]، فكأن فيه إشارة إلى أن بسطة الجسم قد توافق بسطة العلم.

وأما الحجاب الخلقي: فهو ما يعتري الناس من الشهوات وأنواع العدوات فتشغل النفس عن العلوم وتصد عن سبيل المعارف بما ملئت به من الحسرات على ما فات، ومن الندم والألم وهكذا الآمال الكثيرة التي تستغرق أمر النفس وتوقعها في اللبس، وتهمكها وتخرجها عن دائرة الحكمة وسواء السبيل، وهذا قوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين: ١٤-١٥].

وأما الحجاب العقلي: فهو ذلك النقص الذي يخلق مع الإنسان في مبدأ حياته وأول نشأته، بحيث يكون قليل التمييز ضعيف الفكر، فمثل هذا لا ينفعه تعليم المعلمين ولا يرفعه تهذيب المهذبين، ولكن هذا النوع نادر أو قليل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

وأما الحجاب العلمي: فهو ما يغتر به الإنسان من الشهادات الدراسية والمناصب العلمية والإجازات الفنية ومدح الناس وثنائهم عليه والتصدر للفتوى ونحو ذلك، فيظن أنه قد كملت نفسه وفاق الأقران علمه، فهنالك لا تكاد تقبل نفسه علم العلماء ولا حكمة الحكماء، وهؤلاء يقول الله فيهم: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[غافر: ٧٨].

فيا حسرة على من طبع الجهل على قلبه وختم الغرور على سمعه وبصره فعمي عن حقيقة نفسه فصار من الجاهلين الهالكين، والله تعالى يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾[الأعراف: ١٤٦]. فإذن أكبر مصيبة وأجلّ رزية تغتال النفوس وتحصد الرجال؛ الشهادات الدراسية من المعاهد العلمية والمدارس النظامية، فهي

حجاب بين العقول وارتقاء العلوم، وقد يغتر المرء بعلم من العلوم كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع، وكالإنشاء والتاريخ، وكالفقه وكالطب وكالهندسة، فيشمخ أحدهم بما حواه من العلم في ذلك مصرع نفسه وذهاب أنسه.

فأما الحجاب الديني: فهو ما يعتور القلوب من العمى بالاغترار بمذهب من المذاهب الدينية فيظن الجهول أن دين الله إنّما هو في هذا المذهب، فيحصر عقله فيه تقليداً الأستاذ ضيق العطن قليل الفطن، فيقول: ما دمت أقرأ مذهب الشافعية أو الحنفية أو الزيدية أو الشيعية أو غيرهم فإني قد قضيت واجبي وأطعت خالقي. وما عرف المسكين أن ما قرأه إنّما هو بعض الدين لا كله، وأن أصل الدين الوقوف على جمال هذا العالم ونظامه، إذ ذلك به زيادة التوحيد وبه اليقين وبه شكر الله تعالى، فلا شكر إلا بعلم، وأجلّ العلوم معرفة هذه الدنيا، وما دروس اللغات جميعها من عربية وفروعها الاثني عشر ونحوها ومن فارسية وتركية وأوردية وإنكليزية وألمانية ويونانية إلا مقدمات للعلوم.

فعلوم اللسان مقدمات لعلوم الجنان، وعلوم الجنان هي علوم نظام هذه الدنيا من السماوات والأرضين. وما دروس الفقه إلا لنظام القضاء بين العباد لنظام هذه الدنيا، فمن جعل حياته وقفاً عليه فقد باء بإثم عظيم إذا كان عنده استعداد للعلوم. فهذه كلها حجب أسدلت على عقول طوائف من المسلمين منذ تسعة قرون فكان ما كان، وهذا أوان إشراق شمس المعارف في بلاد الشرق.

انتهى تفسير سورة «بني إسرائيل».

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم إسلامي

سورة الكهف مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية
المناسبة بين سورة الإسراء والكهف

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[الكهف: ١] متصل بالحمد في آخر سورة «الإسراء»، يقول هناك: وقل الحمد الله الذي لم يشغله ولد عن إسداء النعم ولم يعارضه شريك ولم يعوذه ناصر، فهناك يحمد على أنه لا صارف له يصرفه عن القيام بشؤون خلقه، وهنا أخذ يتم صفاته تعالى، فهناك صفات الجلال التي يكون بها التنزيه، وهنا صفات الجمال وهي إنزال الكتاب الموصوف بوصفين: وصف سلبي ووصف إيجابي على الترتيب السابق. ومن العجب أن الحمد في آخر الإسراء مناسب للتنزيه في أولها، والحمد في أول الكهف جاء متمماً، فالله كامل في نفسه مكمل لغيره.

وهكذا الإنسان يجب أن يتشبه بالله فيكون كاملاً مكملاً لغيره وهذه صفات الأنبياء والحكماء والعلماء. وانظر إلى «الإسراء» فأولها تسبيح، وإلى «الكهف» أولها تحميد، والتسبيح مقدم على التحميد كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الإسراء: ٤٤]. انتهى.

والسورة قسمان:

القسم الأول: في قصة أهل الكهف وما يناسبها من أمر البعث وبقاء الأرواح.

القسم الثاني: في قصة الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام وذي القرنين.

القسم الأول

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم

بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ
رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم
مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ
ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ
ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ
وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ
مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ
كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم
بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا
يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ
إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ
إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ
عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ
سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا
يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾
وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ
عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ
تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن
دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ
وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا
قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن
وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ
كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ
ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا
لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ
أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ
يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ
هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾
قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا
بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا
حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي
لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾
هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ
أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ
ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا
﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ
لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا
ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا
﴿٤٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ
أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾
وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم
مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدۡ
صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ

ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

تفسير بعض الألفاظ

قال تعالى: ﴿ عِوَجَا ﴾ شيئاً من العوج، والعوج بوزن عنب في المعاني كالعوج بوزن سبب في الأعيان فتقول: في رأيه عوج، وفي عصاه عوج، ﴿ قَيِّمًا ﴾ أي: وجعله قيماً مستقيماً معتدلاً أو قيماً بمصالح العباد ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ الذين كفروا ﴿ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ عذاباً شديداً ﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ من عنده ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ الجنة ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ ﴾ مقيمين فيه ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ ﴾ بالولد وباتخاذه، أي: إن قولهم لم يصدر عن علم بل هم جهلاء لا يعرفون الأدلة التي توصلهم إلى العلم بنفيه ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ نصب «كلمة» على التمييز وفيه معنى التعجب، أي: عظمت مقالتهم هذه في الكفر وهي قولهم: ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [البقرة:١١٦] اتخذ الله ولداً، وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها، والمخصوص بالذم محذوف وصف بقوله ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ استعظاماً للفعل، وفعل «كبرت» كـ «بئس» فاعله مضمر ميز بالنكرة ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي: ما يقولون ذلك إلا كذباً ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ قاتل نفسك ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ أي آثار الكفار فكأنك رجل فارقه أحبته فهو هالع القلب يتحسر ويتساقط حسرات على آثارهم وهو يبخع نفسه وجداً عليهم وتلهفاً فكأنه ينتحر أسفاً عليهم ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ أَسَفًا ﴾ أي: لفرط الحزن والأسف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ من نبات وشجر وأنهار وعلماء وصلحاء، وكل ما على الأرض فهو زينة لها بعضها معروف عند العام والخاص، والجميع معروف عند الخواص كالحيات والعقارب والحشرات ﴿ زِينَةً لَّهَا ﴾ ولأهلها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ في فهم مقاصد تلك الزينة وخالقها والآثار المترتبة عليها، وهل هناك لها نتيجة في الوجود فيكون الناس محاسبين عليها، وهل هي متقنة حقاً وصدقاً، وفي فهم جميع دروسها وهل يأخذون منها ما يكفيهم ويواسون غيرهم بالباقي، وهل يعرفون نعمة الله أم هم ينكرونها ﴿ صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ الصعيد: وجه الأرض، والجرز: الأملس اليابس الذي لا ينبت فيه شيء، ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ بل أحسبت ﴿ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ ﴾ الكهف: الغار الواسع في الجبل، والرقيم: لوح حجري رقمت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية المشهورة التي يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء ﴿ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أي: لا تحسب يا محمد أن قصة أصحاب الكهف والرقيم المذكورة في كتب الأمم السالفة وإبقاء حياتهم أمداً طويلاً عجباً بالإضافة إلى ما جعلناه على الأرض

من زينتها عجباً فليست هي عجباً من بين آياتنا فقط بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعظم من قصة أصحاب الكهف، فإذا وقف علماء الأديان الأخرى على أمثالها فأنا أدعوك وأمتك إلى ما هو أعظم منها والنظر في هذا العالم الذي تعيشون فيه لتفوزوا في الدنيا والآخرة بالعلو والجنة. فأما الوقوف على القصص وغرائبها فذلك ليس يكفي الإنسانية في مستقبل الزمان وإنّما يقف عندها العامة والخاصة يقرؤون ما نقشته في الطبيعة وهو الموصل إلى خيري الدنيا والآخرة والوصول إلى الله.

لقد تقدم في سورة الإسراء أن الحديث المشهور وهو أنهم سألوه صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن ذي القرنين وعن أصحاب الكهف لم يرد في الصحيح فلا يعول عليه. ولنذكر لك نبذة صغيرة مما ذكره المفسرون على أنه من غير الصحيح لتقف على ما قاله العلماء لمجرد المعرفة. يقال: إن النضر بن الحارث كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومتى جلس صلى الله عليه وسلم مجلساً ليبلغ الرسالة يخلفه النضر ويقول بعد أن يقوم: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ويحدثهم عن ملوك فارس، ثم إن قريشاً بعثوه ومعه آخر إلى اليهود ليسألوهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فلما وصلا إلى المدينة قال الأحبار: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب، وعن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح وما هو؟ فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقوّل، فلما قدم النضر وصاحبه مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم، قال: أخبركم بما سألتم عنه غداً ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة، فشقّ عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية وخبر الرجل الطواف وهو ذو القرنين.

قصة أهل الكهف ملخصة

روي أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها الناس، فشدد أكثر من الجميع في ذلك «دقيانوس» الملك، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الدين، فنزع ثيابهم وحليهم وتوعدهم ولكنه رحم شبابهم فأمهلهم حتى يرجعوا إلى رشدهم، وانطلق «دقيانوس» إلى مدن أخرى ليأمرهم بعبادة الأصنام أو ليقتلوا.

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم المسماة «أفسوس» وهذا الجبل يسمى «ينحايوس» وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم «دقيانوس» وقتلهم ماتوا طائعين عابدين وقد كانوا سبعة، فلما مروا في الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلبه فجلسوا هناك على العبادة والتسبيح، وكان أحدهم المسمى «تمليخا» هو الذي يبتاع لهم أرزاقهم ويوصل لهم أخبار «دقيانوس» وهو مجد في طلبهم، وبقوا كذلك أياماً حتى رجع «دقيانوس» إلى بلدتهم وبحث عن عابدي الله يذبحهم أو فليسجدوا للأصنام، فسمع بذلك «تمليخا» وهو يشتري الطعام في اختفاء فأخبرهم فبكوا ثم ضرب الله على آذانهم فناموا، وتذكرهم «دقيانوس» فهدد آباءهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم في الكهف، فتوجه إلى الكهف فسده عليهم ليموتوا، وانتهى الأمر على ذلك.

ثم إنه كان هناك رجلان مؤمنان في حاشية الملك « دقيانوس » يكتمان إيمانهما ، وهما « بيدروس » و« روناس » فكتبا قصة هؤلاء الفتية سراً في لوحين من حجر وجعلاهما في تابوت من نحاس وجعلا التابوت في البنيان ليكون عبرة وتاريخاً فيما بعد . ثم مضت قرون تبعتها قرون ولم يبق لـ « دقيانوس » ذكر ولا أثر ، وملك البلاد ملك صالح يقال له « بيدروس » وبقي ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم الناس في أمر البعث فرقتين : كافرة ومؤمنة فحزن الملك حزناً شديداً وتضرع إلى الله تعالى أن يري الناس آية حتى يعلموا أن الساعة لا ريب فيها .

واتفق إذ ذاك أن راعياً اسمه « أولياس » خطر له أن يهدم باب هذا الكهف ويبني به حظيرة لغنمه ، ولكن الله لم يمكنه من رؤيتهم ، فلما فتح الكهف استيقظوا جميعاً فجلسوا مستبشرين وقاموا للصلاة ، ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياماً؟ ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ الخ ، فذهب « تمليخا » على عادته يشتري الطعام ويتلطف في السؤال متخفياً حذراً من « دقيانوس » . فلما خرج « تمليخا » من باب الكهف عجب من الحجارة التي حوله وذهب إلى المدينة فرأى جميع معالمها متغيرة .

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى رجال الحي غير رجالها

وسمع اسم المسيح ينادى به في كل مكان ، فقال : عجباً لِمَ لَمْ يذبح « دقيانوس » هؤلاء المؤمنين ؟ .

ولما تحير قال : ربما كنت نائماً ولعل هذه ليست مدينتنا ، فسأل رجلاً : ما اسم هذه المدينة ؟ قال : « أفسوس » . وأخيراً تقدم إلى رجل فأعطاه الورق ليشتري به طعاماً ، فدهش الرجل وأخذ يقلبها ويعطيها إلى جيرانه وهم يعجبون ويقولون : هذا كنز عثرت عليه فإن هذه الدراهم عليها اسم « دقيانوس » وذلك من زمان بعيد ، فسحبوه حتى دخلوا على رجلين يقومان بأحكام المدينة ، فظن « تمليخا » أنهم أخذوه إلى « دقيانوس » ، فلما عرف أنه لم يؤت به إلى « دقيانوس » سرى عنه الغم وذهب البكاء ، فسأله الحاكمان وهما « أريوس » و« طنطيوس » أين الكنز الذي وجدت يا فتى؟ وبعد أخذ وردّ ذكر لهما خبر الفتية و« دقيانوس » ، وأن أمرهما كان أمس ، ولكنه متحير في أمره ، وإنكم إن شئتم فهاهو ذا الكهف فاذهبوا معي فانظروه وفيه أصحابي ، فقاموا معه حتى وصلوا إلى باب الكهف وتقدمهم « تمليخا » فأخبرهم الخبر كله فعجبوا وعرفوا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين وأنهم أوقظوا ليكونوا آية للناس ، ثم دخل « أريوس » فرأى تابوتاً من نحاس مكتوباً مختوماً بخاتم وفيه قصتهم في اللوحين المذكورين .

وملخصها أنهم فتية هربوا من « دقيانوس » خوفاً على دينهم فسدّ عليهم بالحجارة . وقد كتبنا هذه القصة ليعرفها من بعدنا ، فخرّ « أريوس » ومن معه سجداً لله وأرسلوا بريداً إلى ملكهم الذي تضرع لله « بيدروس » أن عجل واحضر لترى آية الله في أمر البعث فهؤلاء فتية ناموا منذ ٣٠٠ سنة الخ ، فحمد الملك الله وركب معه أهل مدينته حتى أتوا مدينة « أفسوس » وكان يوماً مشهوداً .

ولما رأى الفتية « بيدروس » خرّ ساجداً لله ثم اعتنقهم وبكى وهم لا يزالون يسبحون الله تعالى . ثم قال الفتية له : نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ، فرجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم ، فأمر الملك أن يجعل كل منهم في تابوت من ذهب ، فلما أمسى ونام رآهم في المنام

يقولون: اتركنا كما كنا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله، فأمر الملك أن يكونوا في تابوت من ساج فجعلوا فيه ولم يقدر أحد بعد ذلك أن يدخل عليهم، وأمر الملك أن يتخذ على باب الكهف مسجداً يصلي الناس فيه وجعل لهم عيداً عظيماً. انتهى.

هذا ملخص القصة ذكرتها لك حتى يسهل عليك فهم الآيات الآتية ولم يبق إلا تفسير ألفاظها. فهذه هي القصة التي كان النصارى يجعلونها دليلاً على البعث. فأما القرآن فإن الله يقول فيه: إن آياتي على البعث وعلى بقاء أرواحكم ورجوعها بعد الموت وعلى وجودي ليست قاصرة على هذه القصة، فآياتي لا تعد والأقلام لا تحصيها، فلا تقفوا على هذا بل اقرؤوا نقوش هذا الوجود لا نقوش أهل الكهف والرقيم وحدها، فأنتم خير أمة أخرجت للناس ونظركم عام في الكائنات لا في مجرد القصص والحكايات وإن كانت فيها دلائل ولكن دلائلها أوسع.

يقول الله تعالى: اذكر يا محمد ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك، وهي المغفرة والرزق والأمن من الأعداء، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿ رَشَدًا ﴾ حتى نكون بسببه راشدين مهتدين ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ أي: ضربنا عليهم حجاباً يمنع السماع، بمعنى أننا أنمناهم إنامة لا تنبههم فيها الأصوات فحذف المفعول الذي هو الحجاب ﴿ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ ﴾ ظرفان لـ « ضربنا » ﴿ عَدَدًا ﴾ أي: ذوات عدد ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أيقظناهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ ﴾ الطائفتين المتنازعتين في مدة لبثهم منهم ومن غيرهم ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾ أي: لنعلم اختلافهما موجوداً كما علمناه قبل وجوده أنه سيوجد ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ بالصدق ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ شبان جمع فتى كصبية جمع صبي ﴿ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ بالتثبيت ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قويناها بالصبر لهجر الوطن والحال والجراءة على إظهار الحق والرد على « دقيانوس » الجبار ﴿ إِذْ قَامُواْ ﴾ بين يديه في مدينة « أفسوس » ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ شَطَطًا ﴾ أي والله لقد قلنا إذن قولاً ذا شطط، أي: ذا بعد عن الحق مفرط في الظلم. ثم قال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ﴾ مبتدأ وعطف بيان عليه وخبره ﴿ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا ﴾ هلا ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ ﴾ على عبادتهم بحجة بينة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة الشريك إليه. ثم خاطب بعضهم بعضاً لما رحم الملك شبابهم وأرجأ أمرهم ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أي: وإذا اعتزلتم القوم ومعبوديهم إلا الله لأنهم كانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ في الجبل الذي هو بالقرب من « أفسوس » ﴿ يَنشُرْ ﴾ يبسط ﴿ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ في الدارين ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ أي: ما ترتفقون به، أي: تنتفعون، وذلك لوثوقهم بأن الله معهم لإخلاصهم، وقد فعل الله ذلك بهم إذ أقفل « دقيانوس » عليهم فم الكهف ليكون ذلك آية ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ ﴾ أيها الإنسان ﴿ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي: تميل جهة اليمين، أي: الجهة صاحبة اسم اليمين. وقرئ « تَزَّاوَرُ » بالتشديد وأصلها تتزاور فأدغمت التاء في الزاي ﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ﴾ تقطعهم وتتركهم وتعدل عنهم ﴿ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي: في متسع من الكهف، أي:

إنهم في ظل نهارهم لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، وكان باب الكهف في مقابلة بنات نعش فهو إلى الجهة الشمالية والشمس لا تسامت ذلك أبداً لأنها لا تصل إلى أبعد من خط السرطان وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلاً جهة الشمال طول السنة كما يعرفه من له أدنى إلمام بعلم الفلك ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي: شأنهم وإيواؤهم إلى كهف بهذه الصفة وأخبارك بقصتهم ووضعهم في موضع بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة وتقرضهم غاربة؛ كل ذلك من آيات الله ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ أي: من يوفقه الله بالتأمل في آياته الكثيرة هذه وغيرها فهو الذي يصيب الفلاح ﴿ وَمَن يُضْلِلْ ﴾ ومن يضلله الله ولم يرشده ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ معيناً يرشده ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ وتحسبهم أيها الإنسان متنبهين لأن أعينهم مفتحة وهم نيام ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ لئلا تأكل الأرض لحومهم ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ أي: فناء الكهف أو عتبة الباب ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ يا محمد ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ لما ألبسهم الله من الهيبة ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ خوفاً يملأ صدرك، وكما أنمناهم آية بعثناهم آية على كمال قدرتنا، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً وليثقوا بالبعث ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾ فضتكم ﴿ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي: أيّ أهل المدينة أحل طعاماً لأن منهم مؤمنين يخفون إيمانهم فلنأكل من ذبائحهم أو أجود، ﴿ بِرِزْقٍ ﴾ من قوت وطعام تأكلونه، ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ يترفق في الطريق وفي المدينة ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ من غير المؤمنين ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ ﴾ يعلموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم بالحجارة وهو أخبث القتل أو يعذبوكم ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ كما تقدم في أعمال « دقيانوس » الذي أرجأ أمرهم ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ أي: إن عدتم إليهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي: وكما أنمناهم وبعثناهم أطلعنا عليهم ﴿ لِيَعْلَمُوٓا۟ ﴾ أي: ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ﴿ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ بالبعث ﴿ حَقٌّ ﴾ فنومهم كحال الأموات واستيقاظهم كحال البعث ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ وأن القيامة لا ريب في إمكانها، فمن حفظ أجسامهم مدة ثلاثمائة سنة ولم تتعفن ثم أيقظهم قادر أن يحفظ الأرواح أمداً طويلاً ثم يردها إلى أبدانها ﴿ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ متعلق بـ« أعثرنا »، أي: أطلعنا عليهم « بيدروس » وقومه حين يتنازع بعضهم بعضاً بعد ما فرحوا وفرح الملك بآية الله تعالى على البعث وذهب ما بينهم من الشقاق في أمر القيامة وحمدوا الله تعالى إلى آخر ما في القصة، ففريق يقول: نبني عليهم قرية نسكنها، وفريق يقول: نبني مسجداً يصلي فيه الناس، فغلب هذا الفريق الفريق الآخر في الرأي وبنوا عليهم مسجداً، وهذا قوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾، إلى قوله: ﴿ مَّسْجِدًا ﴾. وقوله: ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ جملة اعتراضية من الله.

ولما فرغ من الكلام على القصة وعلى نزاع المتخاصمين فيما يبني عليهم؛ أخذ الله يقص علينا ما دار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما قص ما دار في زمن « بيدروس » الذي بنى المسجد إذا اختلف الناس في عدد أهل الكهف، فقال السيد وهو نصراني يعقوبي من نجران: إنهم ثلاثة ورابعهم

كلبهم ، وقال العاقب منهم وكان نسطورياً : هم خمسة وسادسهم كلبهم ، وقال أصحاب الملك وهم الملكانية : سبعة وثامنهم كلبهم قطمير ، وهذا قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . وقوله : ﴿ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ﴾ ظناً بالغيب بغير علم . ويروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنا من القليل هم ثمانية سوى الكلب . ولم يرد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء في هذا دلالة على أن أمر العدد لا يهم والمهم الاعتبار بمجموع القصة وما يكون نافعاً لعقولنا وارتقائنا في حياتنا الدنيا وفي الأخرى . هذا هو القصص الذي طلبوه ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ أي : لا تجادل في شأن الفتية إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه فتقص عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم ولا رد عليهم ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي : لا تستفت في أصحاب الكهف من أهل الكتاب أحداً أي لا ترجع إلى قول أحد منهم بعد ما أخبرناك ، وإنما كان التعمق غير مرغوب فيه لأن المقام مقام عظات واعتبار ، فالبحث عن العدد مثلاً هل كان (٣) أو (٥) أو (٧) لا فائدة في تحقيقه ولا غرض في معرفته . وإذا كانت القصة كلها ليست بالنسبة لآيات الله إلا أمراً قليلاً فكيف يكون البحث عن مفصلاتها .

إن القصص لم يكن الغرض منها سوى الوعظ ، وهذه القصة يقصد منها أمر البعث ، وأمر البعث يعرف بأمور من العوالم المحيطة بكم لا تتناهى ، كما سيأتي بيانه من علم الطبيعة في العلوم الحديثة ، فكيف تضيعون الوقت في ذلك؟ والوقت يجب أن يوفر للعلوم الطبيعية التي دخلت في ضمن ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ ﴾ الخ . يقول العلماء رحمهم الله تعالى : إن هذا تأديب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم حين قالت العرب بإشارة اليهود ما تقدم من طلب الأمور الثلاثة ، فقال : ائتوني غداً أخبركم ، ولم يقل إن شاء الله ، أي : ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه : إني فاعل ذلك الشيء غداً إلا حال كونك متلبساً بمشيئة الله ، أي : قائلاً إن شاء الله ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ ﴾ أي : مشيئته ، وقل : إن شاء الله ؛ ﴿ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أي : إذا فرط منك نسيان ذلك ، أي : إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تذكرتها فتداركها بالذكر ما دمت في المجلس ؛ عن الحسن ، وبعد سنة ؛ عن ابن عباس وفي أقرب زمن عند بعضهم ، والأحكام الفقهية مبنية على أن يكون الاستثناء متصلاً .

حكاية

حكي أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضي الله عنهما في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه ، فقال له أبو حنيفة : هذا يرجع عليك إنك تأخذ البيعة بالإيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ، هذا هو الذي يقصده هذا الذي وشى بي إليك . فاستحسن كلامه وأمر أن يخرج الطاعن في الإمام من عنده . انتهت الحكاية .

وجوه أخرى في الآية

(١) واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء .

(٢) وصلّ صلاة نسيتها إذا ذكرتها .

(٣) إذا نسيت شيئاً فاذكره ليذكرك المنسي .

أقول: وهذه الأخيرة جربتها فتذكرت ما نسيت، وكان الذكر بلفظ: «يا رب». واعلم أن هذه القصة المذكورة جيء بها كما تقدم على أنها ليس العجب خاصاً بها، بل أعجب منها عجائب الله في الأرض والسماء، فما على الأرض من نبات وحيوان الخ أعجب، وما في الفلك من بهجة أجمل وأبهى من خوارق العادات في هذه القصة أو في غيرها، ولذلك أتبعه بما بعده فأمره صلى الله عليه وسلم أن يسأله تعالى فقال: ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي لأظهر دلالة على أني نبي من نبأ أصحاب الكهف الذي هو عبارة عن حديث جرى لأمم النصارى مع أن آيات الله لا تتناهى في أرضه وسمائه فهو قادر أن يعطيني منهما ما يشاء، ولذلك أجاب دعاءه حالاً وأنزل عليه: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ ﴾ وأبدل منها لفظ ﴿ سِنِينَ ﴾ وقرئ بالإضافة على وضع «سنين» موضع «سنة» التي هي الأصل في تمييز المائة.

يقول الله إخباراً من عنده: ولبث أهل الكهف إلى يوم النبوة المحمدية ثلاثمائة سنة وتسع سنين ولما سمع أهل الكتاب وهم نصارى نجران ذلك قالوا: أما الثلاثمائة فقد عرفناها وأما التسع فلا علم لنا بها، فقال الله له: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ كما قلنا لك من قبل ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ الخ، لأن المقام مقام اعتبار وحكم، والمشاغبة والجدال يضيع المقصود من الرسالة ومن العلم.

ثم اعلم أيها الفطن أن هذه معجزة أهم من ذكر قصة أهل الكهف، لأن الله يقول: أيها الناس هذا النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس علم الحساب ولا الهندسة ولا الفلك من أين جاء له أن كل ثلاثمائة سنة تزداد تسع سنين؟ وبعبارة أخرى: من أين عرف أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية وكل سنة شمسية تزيد نحو (١١) يوماً. من جاء له ذلك وهو لم يدرس ذلك؟ وكيف ينزل عليه لفظ ﴿ وَٱزْدَادُوا۟ ﴾ ليفصل بين الزيادة في القمرية والمزيد عليه في الشمسية. هل هذه رمية من غير رام؟ وإذا وقف أهل نجران وقالوا: لا نعرف التسع ونعرف الثلاثمائة أفلا يتفطن الناس لهذا القول ويعرفوا أن هناك معاني وأن أهل عصر النبوة عجزوا عن فهم مثل هذه الأمور، وإذا كان حبر عظيم من أكبر علماء الإسلام كالعلامة الرازي رحمه الله يقول: إن الحساب لا يوافق هذا القول فيكف بغيره من الذين لا علم لهم. فإذا كان فلاسفة الإسلام وحكماؤهم يترددون في هذا القول من حيث السنين الشمسية والقمرية ويقولون ليس ذلك حقيقة فكيف بغيرهم ممن لا علم لهم بحساب ولا فلك؟ ولقد أريتك الحقيقة ناصعة كما أثبتها المحققون وقرأناه في الفلك وأصبح معلوماً مشهوراً عند علمائه، أفلا تعجب من حكمة عالية وآيات ظاهرة وعجائب باهرة؟.

إذن عرفت كيف هداه الله لأقرب من هذا رشداً، وكيف لفت الأنظار إلى علم ما على الأرض من زينة لها كضوء الشمس المشرق على وجهها وحسابه وزينته وما نتج عن الضوء من بهجة الأرض وزينتها لأنه لولا اختلاف الفصول لم تكن للأرض زينة، ولا اختلاف للفصول إلا بتقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي وتنقلها في البروج، فهذا التقلب هو الذي يعطي الأرض زينتها، فما من دابة ولا حيوان ولا جمال إلا وكان أسه ضوء الشمس الذي أرسله الله إلى الأرض كما يرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ليهدينا للعلم ويقول لنا: إن النظر فيما على الأرض من زينة الناجم من ضوء

الكواكب أقرب رشداً من قصص الأولين وحكايات الغابرين، وإن ما ترونه في هذه الأرض أبهر وأجمل من كل ما يصدر من خوارق العادات، فكم في العوالم المحيطة بكم من خوارق، فإياكم أن تذروها ابتغاء ما يقع على يدي أنبيائكم وأوليائكم، فإني أرسلت الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكي حتى إني لم أشغلكم بما جاء على يدي المختارين منكم، لأن ذلك يسير بالإضافة إلى عجائبي في خلقي، وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلقي. فخلق السماوات والأرضين أكبر من خلق الناس فانظروا فيما هو أكبر، والأنبياء ما جاءوا لكم إلا ليرشدوكم إليّ وإلى نظامي وعجائبي، فإذا قصرتم عقولكم على بعض ما يقع لهم كنتم غافلين عما هو أقرب رشداً. وسيأتي إيضاح هذا المقام فانتظر يسيراً ترَ العجب العجاب. واعلم أن هذا ينافي ما جاء في القصة وهو أن ثلاثمائة سنة كان آخرها العثور عليهم وقت أن بنوا المسجد، ولكن القصة فيها تساهل والحكايات يدخلها التحريف، فالقول: إن المدة إلى زمن النبوة أقرب إلى التاريخ وهي المنقولة عن كثير من العلماء ورجحوها، ثم قال تعالى: ﴿ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ أي ما غاب وخفي فيهما، ومن ذلك الغائب على كثير من العقول حساب السنين الشمسية والقمرية غيبه الله عن بعض الناس حتى يطلع عليه العارفون بحساب الفلك فيعجبون من أمر نبيهم ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها، ويتعجبون ويدرسون العلوم المتعلقة بهذا؛ التي مبدؤها العلوم الرياضية ونهايتها العلوم الطبيعية، أي: إني أعلم غيب السماوات والأرض، وغيبها هو ما غاب عن العقول وسأفطن لها الأجيال المقبلة حتى يدرسوا الرياضة التي أشرت لها بالسنين المذكورة، ونتيجة الأضواء والشموس زينة الأرض وهي علوم الطبيعة ﴿ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ ﴾ أي: ما أبصر الله وما أسمعه، صيغة تعجب من أن الله يسمع ويبصر ما لا علم لنا به وهو خارج عن إدراكنا ﴿ مَا لَهُم ﴾ لأهل السماوات والأرض ﴿ مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ ﴾ من يتولى أمورهم ﴿ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ ﴾ في قضائه ﴿ أَحَدٗا ﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلاً. ومثل هذا القول لا يذكر عادة في القرآن إلا عند الأمور العظيمة للتنبيه على ما فيها من خفايا، وقد أرشدك الله في هذا التفسير كأنه يقول: انظروا في جمال الفلك وحسابه ونتائج الإشراق وجمال زينة الأرض التي جعلتها لكم ابتلاء واختباراً لعقولكم وأعمالكم فلتجدوا في العلوم لتعرفوني ولتكونوا أقوياء في الأرض.

أيها المسلمون، هذا أوانه وهذا أوان ظهور مقاصد القرآن وعلومه وقد أرشد الله كتاب الإسلام أن يظهر الله على أيديهم غرائب القرآن لتتجهوا إلى عجائب ربكم في أرضه وسمائه والله ولي حميد.

واعلم أن الكلام على ما زينت به الأرض المذكور في أول السورة جاء في خمسة فصول:

الفصل الأول: قصة أهل الكهف وأنها أقل عجباً من زينة الأرض وما عليها.

الفصل الثاني: حساب السنين الشمسية والقمرية وجمالها وبدائعها، وهذا أول قطرة من بحر الزينة الفائض وهي مجملة، وقدّمت لأنها أصل ما على الأرض كما تقدم في أن النيل والفرات جاءا من الحركات السماوية.

الفصل الثالث: إيضاح المقام بذكر أن القلوب قسمان: قسم غافل وقسم مستبصر، فالمستبصرون يفكرون والغافلون يطلبون الزينة المذكورة في أول السورة للشهوات والحياة الدنيا إلى قوله: ﴿ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴾[الآية: ٢٩].

الفصل الرابع: دخول في المقصود فعلاً وإيضاحه بضرب مثل لرجلين فأحدهما له بستان والآخر لا بستان له واغترار الأول وتبصر الثاني. فهذا بيان لمن غفل قلبه فتعلق بظاهر الزينة ومن فكر قلبه فعرف حقائقها وفناءها إلى قوله: ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾[الآية: ٤٤].

الفصل الخامس: في استخراج النتيجة كما هي والرجوع لأول السورة إذ ضرب مثل الدنيا بمثل النبات يخضر ثم يصير هشيماً تذروه الرياح، وأن المال والبنين كالنبات كلاهما متاع الحياة الدنيا ذاهب أيضاً كما يذهب النبات فالمدار على الحقائق لا المظاهر. ثم اتبع ذلك بذكر خراب الأرض وذهاب الجبال وقراءة الناس كتبهم وذكر إبليس وعصيانه الذي هو أصل هذه الأخلاق؛ وأن هؤلاء الضالين المضلين ومن تبعهم لا يعرفون حقائق الأشياء في السماوات والأرض إلى آخر ما سيأتي.

تفسير كلمات الفصل الثالث

قال تعالى: ﴿ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ القرآن، ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ لا أحد يقدر على تغييرها، ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ ملتجأ تعدل إليه إن هممت به ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ احبسها وثبتها ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ أي: في جميع أوقاتهم أو في طرفي النهار ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ رضا الله تعالى ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي: لا تجاوزهم عيناك، يقال: عداه: جاوزه، ولكن عدى هنا بـ« عن » لتضمن معنى نبا، يقال: نبت عنه عينه، إذا لم تبصره ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ في موضع الحال ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ من جعلنا قلبه غافلاً عن الذكر كأمية بن خلف لما دعاك إلى طرد الفقراء من مجلسك ليحل محلهم صناديد قريش ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ في طلب الشهوات ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ مجاوزاً الحق مخالفاً له ﴿ وَقُلِ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الحق ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ لا أبالي بإيمان من آمن ولا بكفر من كفر ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ هيأنا ﴿ سُرَادِقُهَا ﴾ فسطاطها فقد شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق، أو السرادق: الدخان لأنه محيط بالنار وبهم فيها، فهو كالفسطاط من وجه الشمول والإحاطة ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ ﴾ من العطش ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ هو دردي الزيت أو ما أذيب من الجواهر المعدنية كالرصاص والنحاس ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ أي: ينضج الوجوه من حره ﴿ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ ﴾ فعلان للذم، والمخصوص بالذم المهل والنار ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكأ جيء به لمشاكلة قوله: ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ في الجنة ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ أي: لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجازيهم بأعمالهم الصالحة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ خبر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وجملة ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ اعتراضية، وقوله: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ خبر ثان من الأولى ابتدائية والثانية للبيان، بيّن الأساور بأنها من الذهب، أي: أساور كائنة من ذهب وهي جمع أسورة جمع سوار ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾ لأن الخضرة أوفق للأبصار، ولذلك جعلها الله عامة في النبات وزين بها الأشجار كما لون السماء بالزرقة وهما معاً مقبولان نافعان لأبصار الحيوان ﴿ مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما رق من الديباج وما غلظ منه ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ السرر ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ ﴾ الجنة ﴿ وَحَسُنَتْ ﴾ الأرائك ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ متكأ. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع: ضرب المثل

قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾ للكافر والمؤمن والمتبصر والغافل، أي: وبيّن لهم الخ صفة ﴿ رَّجُلَيْنِ ﴾ أخوين في بني إسرائيل أو من مكة ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ بساتين ﴿ مِنْ أَعْنَـٰبٍ ﴾ من كروم ﴿ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أي: وجعلنا النخل محيطاً بهما. يقال: حفوه إذا طافوا به، وحففته بهم أي: جعلتهم حافين حوله، وهو متعد إلى مفعول واحد وتزيده الباء مفعولاً ثانياً، ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أي: جعلناها أرضاً جمعت القوت والفاكهة وهي متواصلة متشابكة فليس هناك ما يقطع شكلها الحسن الجميل البهيج ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ ﴾ أعطت، وجاء الخبر على لفظ ﴿ كِلْتَا ﴾ وهو مفرد ويصح أن يراعى المعنى في اللغة ﴿ أُكُلَهَا ﴾ ثمرها ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾ ولم تنقص من أكلها شيئاً. ثم ذكر ما هو أصل هذا الخير والبهجة، فقال: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ ليدوم شربهما ولتظهر بهجتهما، ووجود النهر مما يجعل الثمر لا ينقص ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ أي: وكان لصاحب الجنتين مال سوى ما في الجنتين. يقال: ثمر ماله إذا كثره فهو الأموال الكثيرة المثمرة من الذهب والفضة وغيرهما ﴿ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ يراجعه الكلام، يقال: حار يحور إذا رجع. يقال: إن هذين الرجلين هما «فطروس» وهو كافر، و«يهوذا» وهو مؤمن، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطرا فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً، وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآل أمرهما إلى ما حكاه الله، أو هما إخوان من بني مخزوم ولا يهمنا شيء من ذلك لأن الآية تسري على كل اثنين هذه صفتهما، وهذه حال عامة والناس في كل جيل يحسون بهذه المعاني ويتعالى الغني على الفقير غروراً وجهالة، ولو كانا مؤمنين على سبيل الغفلة، والمؤمن قد تكون له جهالة تنسيه الآخرة، وإيمانه لا يمنعه من الغفلة، فقال صاحب الجنة لصاحبه: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ حشماً وأعواناً وأولاداً ذكوراً لأن هؤلاء ينفرون معه ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ ضار لها بعجبه وبكبره وكفره، ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ ﴾ تفنى ﴿ هَـٰذِهِۦٓ ﴾ الجنة ﴿ أَبَدًا ﴾ لطول أمله وتمادي الغفلة، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ كائنة ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ بالبعث كما زعمت ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ أي: يعطيني هنالك خيراً منها وهو لم يعطني هنا إلا لأنه يعطيني هناك ﴿ مُنقَلَبًا ﴾ مرجعاً ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ ﴾ المؤمن ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ كيف تقول: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾؟ ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ وذلك التراب تغذى به وبالماء النبات والحيوان فأكله أبواك فولداك وأكلته أنت فكان منه الدم فصرت بشراً سوياً، وهو قادر أن يخلقك مرة أخرى كما خلقك هذه المرة بهذا النظام، وهذا قوله: ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ ﴾ أي: لكن أنا، فحذفت الهمزة بنقل حركتها إلى ما قبلها وحصل الإدغام، وقرئ: «لكن أنا» على الأصل ﴿ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ الضمير للشأن ﴿ وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ ﴾ هلا ﴿ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي: الأمر، «ما شاء الله»: مبتدأ وخبر، أو: «ما شاء الله كان» على أنها شرطية ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ إقراراً بأن عمارتها لم تكن بقوتك بل بقوة الله ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ولذلك تكبرت عليّ ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ على جنتك ﴿ حُسْبَانًا ﴾ جمع حسبانة، أي:

صاعقة ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أرضاً ملساء يزلق عليها باستئصال نباتها وأشجارها، ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أي: غائراً في الأرض، فهو مصدر وصف به ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ أي للماء الغائر. ملخص المحاورات ثلاث: الافتخار بالمال والأعوان، والأمل الطويل ببقائها، وإنكار الساعة.

هذه هي المقالات التي قالها الكافر، والإجابات ثلاث على نظام عكسي، إذ قال صاحبه: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ ﴾ الخ رداً على الثالث، وقوله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ رداً على الثاني، وهو: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ رد على قوله: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾، يقول له: هذا لا يدوم وزخرف الحياة ذاهب لا بقاء له. وكل هذا تطبيق على القاعدة التي في أول السورة.

ثم تم ما قال له صاحبه إذ هلك ثمره، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أهلكت أمواله، أي: أحاط الهلاك بثمر جنتيه فوقعت عليها نار من السماء وغار الماء ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أي: يصفق بكف على كف أو يقلب كفيه ظهراً لبطن تأسفاً وتلهفاً ﴿ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾ أي: فأصبح يندم على ما أنفق في عمارتها ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي: إن عروشها سقطت على الأرض وسقطت الكروم عليها وهو يقلب كفيه ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ هناك تذكر موعظة أخيه ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ جماعة ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يقدرون على نصرته فيدفعون عنه الهلاك ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ أي: ممتنعاً بقوته عن انتقام الله ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في ذلك المقام ﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ الولاية «بالفتح» النصرة والتولي، و«بالكسر» السلطان والملك، فهنالك النصر بيد الله فلا فئة ناصرة، أو السلطان والملك له فهو الغالب فمنه النصر وله السلطان وحده ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أي: أفضل جزاء ﴿ وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ أي: عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره، وهذا نهاية الفصل الرابع.

الفصل الخامس

قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ أي بين لهم ﴿ مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: صفتها الغريبة، أو بين ما تشبهه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها. مثلها كائن ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فاختلط بعضه ببعض وتكاثف بسبب الماء ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ﴾ يابساً متكسراً واحدته هشيمة ﴿ تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ أي: تنسفه وتطيره، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ فهو قادر على الإفناء والإنشاء، شبه الدنيا في نضرتها وبهجتها ثم تصير إلى الزوال، بحال النبات أخضرّ والتفّ وأزهر ثم صار هشيماً تذروه الرياح، ثم أخذ يبين المقصود من ضرب المثل فقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ لا تنفع في القبر ولا يوم القيامة، وهنا أوضح المقصود من هذا كله فقال: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أعمال الخيرات التي تبقى ثمرتها للإنسان كالصلوات والصدقات والجهاد والحج وفعل البرّ ومساعدة المسلمين جميعاً، ومن الباقيات الصالحات: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وغيرها، وكل كلمة طيبة ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا ﴾ من المال والبنين ﴿ ثَوَابًا ﴾ جزاء ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ وما يؤمله الإنسان.

فانظر كيف يقول في أول السورة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾[الآية: ٧]، ويذم هنا المال والولد لأنهما من تلك الزينة، فالكلام مرتبط بعضه ببعض أيّما ارتباط، ثم أخذ سبحانه يزيد المقام إيضاحاً فقال: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ نذهب بها فنجعلها هباء منثورا ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من الجبال والأشجار ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ ﴾ أي: الموتى ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أي: فلم نترك أحداً، يقال: غادره فتركه ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ مصطفين ظاهرين لا يحجب أحد أحداً، فحالهم أشبهت حال الجند الذين يعرضون على السلطان، وقد قلنا لهم: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ عراة حفاة لا شيء معكم من المال والولد ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ يقول ذلك يوم القيامة لمنكري البعث، فهاهنا سيرت الجبال وبرزت الأرض وحشر الناس عراة بعد ما استبان أن الدنيا لا قيمة لها، وذلك على الترتيب الطبيعي ولم يبق إلا عرض الأعمال، ولذلك قال: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ ﴾ صحائف الأعمال في أيمان قوم وشمائل آخرين ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب ﴿ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا ﴾ يا هلا كنا؛ كما هو شأن من وقع في الهلاك ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يتعجبون من شأنه ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أي: أيّ هنة صغيرة أو كبيرة من ذنوبنا ﴿ إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ إلا عدّها وأحاط بها، لأننا قدّمنا أن النفس أشبه بالزجاجة التي يضعها المصور في صندوق الآلة المصوّرة فكل صورة تقع عليها تحفظها.

فهكذا نفوسنا تلتقط كل شيء تحصل عليه من ضار ونافع، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ورأينا صورنا بحالها، فتظهر لنا جميع المحاسن وجميع الرذائل فتفعل في عقولنا فعلها بلا كلام ولا كتابة، وكل امرئ يقرأ هذه الكتابة والناس فيها سواء ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ ﴾ كيف لا وهو مرسوم واضح ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ومن أين يأتي الظلم إذا كانت المسألة صوراً مرسومة في قوالب حافظة لها فليس يمكن الإنسان دفعها، ولا ظلم في ذلك كما لا نعدّ التخمة بعد الأكل الكثير ظلماً، ولا المرض بعد الشرب من ماء آسن مملوء أدراناً ظلماً، بل نرى ذلك أسباباً ومسببات. وهنا انتهى مبحث الإنسان في دنياه وآخرته.

ولما كان ذلك تابعاً لعالم ألطف من عالمنا وكان للشياطين مدخل في كل ما تقدّم أعقبه بذكر إبليس وعصيانه الذي هو قدوة هؤلاء، فقال: ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ لأنه ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ فخرج عن أمر ربه بترك السجود، ولو كان من الملائكة لسجد، وقد شرحنا هذا الكلام مراراً في سورة «البقرة» وفي غيرها فارجع إليها إن شئت، وإذا كان هذه حاله وقد عصى أن يسجد لأبيكم آدم كما رأيتم الآساد والنمور والحيوانات المحدثة للطاعون خلقت لإيذائكم. فعجباً لكم كيف تتخذونه وذريته أولياء توالونهم؟ وهذا قوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ أي: أتغفلون وتجهلون فتبدلونهم بي ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ﴾ أي: أعداء، والجملة حالية ﴿ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ أي: بئس ما استبدلوا ولاية الله بولاية الشيطان، ولا جرم أن عالم الأرواح فيه الأخيار والأشرار، والأشرار يلحقون بعالم الجن، والأخيار بعالم الملائكة، وسترى بعضه قريباً كما تقدم غير مرة، فالأرواح الطيبة كالأنبياء والحكماء والملائكة يطلعهم

الله على بعض أسرار خلقه، والأرواح الشريرة من الناس الذين هم أحياء والذين ماتوا ومن نحا نحوهم من أرواح الشياطين يحجبون عن تلك العوالم، وهذا المقام أوضحناه في سورة «البقرة»، أي: مقام الملائكة والشياطين ونحوهما، وهذا قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ فهم لا علم عندهم، والذي لا علم عنده بالحقائق كيف تتبعونه وتعملون بما يوسوس به إليكم، والمتبوع يجب أن يكون ذا بصيرة ولا بصيرة لهؤلاء كما نرى ذلك عياناً في الدنيا، فالشياطين المجسمة تراهم لا يعرفون شيئاً من هذا الوجود إلا طعامهم وشرابهم، هكذا إبليس وجنوده فليس لهم علم إلا بالأمور التي تحوم حول الإضلال والزخارف ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أعواناً وأنصاراً وهم الشياطين فكيف اتبعوهم أو عبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فاستغاثوا بهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ أي: فلم يغيثوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي: جعلنا بينهم وبين آلهتهم مهلكاً يهلكون فيه وهو النار ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ داخلوها وواقعون فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي معدلاً؛ لأنها أحاطت بهم من كل جانب، وهاهنا وصل القول إلى آخر الأحوال الإنسانية، غرور بالحياة وزوال وموت وزوال الجبال وبروز الأرض وحشر وعرض وهم حفاة عراة وكتاب يقرؤونه وحرق المجرم وحضور جميع الأعمال ووسوسة الشياطين وتوبيخ على اتباعهم وجهلهم وتجريدهم من العلم ودخول النار والهلاك فيها، وهنا قد تم كل ما يتعلق بالإنسان، وأصل هذا كله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[الآية: ٧].

وهنا أخذ يصف القرآن وآثاره لأن هذه الفصول المتتابعة حوت علماً جماً وسأنبئك ببعضه فيما يأتي، فكان جديراً أن يوصف القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا فيه من كل وجه من وجوه العبر والعلم، والمثل هو وصف فيه غرابة ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ خصومة بالباطل، و«جدلاً»: تمييز ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: من الإيمان ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو الرسول والقرآن ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ من الكفر والذنوب ﴿إِلَّآ﴾ طلب أو انتظار ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سنتنا في إهلاك الأولين إن لم يؤمنوا وهو عذاب الاستئصال وإبادتهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: عياناً، أو جمع قبيل، أي: أنواعاً، ولما كانت الهداية بالقرآن، والرسول هو الذي أنزل الله عليه؛ قال بعد أن وصف القرآن: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ للمؤمنين والكافرين ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات كأن يسألوا عن أصحاب الكهف ونحوهم تعنتاً، مع أن الأنبياء لم يرسلوا لهذا، أي: لم يرسلوا للبحث عن غرائب التاريخ ولا غيرها، ولكنهم جاؤوا ليدربوا الناس على العلم من طرقه، وطرقه هي النظر في الذي فوق هذه الأرض من عجائب فليدرسوها ولا يتخذوها للشهوات فحسب، ثم ليتزودوا من الدنيا ليسافروا إلى الآخرة. هذا هو المقصود وقد تقدم ذلك، فهؤلاء الكافرون يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ أي: ليزيلوا بالجدال ﴿ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي: وإنذارهم ﴿هُزُوًا﴾ أي: استهزاء ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بالقرآن ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرها

ولم يتذكرها ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يفكر في عاقبة ذلك، أي: لا أحد أظلم منه. ثم بيّن سبب ذلك فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يفقهوه ﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي: ثقلاً وصمماً ﴿ وَإِن تَدْعُهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ إِلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ في الدين ﴿ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ وذلك فيمن علم الله أنهم لا يؤمنون ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ﴾ البليغ المغفرة ﴿ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ الموصوف بها ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ كما فعل مع قريش إذ أمهلهم مع كفرهم ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ ملجأ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ أي: قرى قوم نوح وعاد وثمود الخ ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ كفروا ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ أي: أجلاً لإهلاكهم. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول مع بعض تحقيق، وهنا لطائف:

اللطيفة الأولى: في ملخص هذا القسم وبعض مباحثه

لقد علمت أن هذا القسم من السورة أصل وخمسة فصول، أما الأصل فهو: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَسَفًا ﴾، وأما الفصول الخمسة فقد بينا أنها:

(١) قصة أهل الكهف.

(٢) وحساب السنين.

(٣) وبيان القلوب الفاضلة وغيرها.

(٤) ومثل الرجلين المتحاورين.

(٥) ومثل الحياة الدنيا وقد تقدم ذلك فلنبدأ الكلام على الأصل الذي بنيت عليه تلك الفصول.

فأقول ليكن الكلام عليه من وجوه:

(١) وجه اتصال السورة بما قبلها فوق ما تقدم في أول السورة.

(٢) وبيان الحمد فيها والسور التي في أولها الحمد وما القصد من ذلك.

(٣) وبيان أن ما على الأرض زينة لها.

الوجه الأول: اتصال السورة بما قبلها

(١) لقد تبين فيما تقدم أن سورة «الإسراء» بدئت بخلوص أكبر نفس بشرية من علائق المادة حال كونها في عالمنا وارتقت طبقاً عن طبق تدريجاً حتى جاوزت الأفلاك والسبع الطباق، وذلك راجع لصفاء النفس وخلوصها من كثافتها سواء أكان الجسم يسري ليلاً مع الروح أم لا فالأمر واضح.

إن المقام مقام تجرد النفوس عن العلائق المادية وقد جاء فيها الكلام على الروح وأنها من أمر ربي فهي من عالم الأمر لا من عالم الخلق الذي له طول وعرض وعمق، وفيها: ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٥٠] الخ. وملخص ذلك أن السورة في أولها وفي آخرها تمهد وتبرهن على البعث وانتقال الأرواح من هذا العالم إلى عالم غيره نعيم أو جحيم.

(٢) وهذا القسم من هذه السورة مباحثه كلها في مسألة البعث وانتقال الروح إلى ذلك العالم فإن قصة أصحاب الكهف ما قصت في القرآن ولا جاءت في الكتب السابقة عند الأمم الخالية إلا للبرهنة على بقاء أرواحنا وبعثها، ولقد علمت كيف كانت الفصول الخمسة متلاحقة لإثبات ذلك.

(٣) وأيضاً جاء في سورة «الإسراء» السابقة أنهم قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[الإسراء: ٩٠] الخ، وهكذا هنا طلبوا قصص أهل الكهف تعنتاً فأراهم في كلتا الحالين أن هذا غير المطلوب، والمهم العلم بالنظام والعجائب فيه.

(٤) الوجه الثاني والثالث قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[الكهف: ١] وما بعده. ابتدأ الله هذه السورة بالحمد لله وهكذا «الفاتحة» وسورة «الأنعام»، يقول في «الفاتحة»: الله يستحق الحمد لأنه ربى العالم كله من نبات وحيوان وإنسان وقد شرحناه هناك، ومعناه: لتكونوا دارسين للتربية التي نظمها في هذه الكائنات حتى يكون الحمد على نعم عرفتموها وتكون قلوبكم مملوءة بحبه وحمده وإعظامه لا بمجرد اللفظ، وقال في سورة «الأنعام»: ليكن حمدكم على أني خلقت السماوات والأرض وجعلت الظلمات والنور فلتكونوا دارسين لنظامهما وجمالهما وآثارهما ونواميسهما حتى يكون الحمد على علم، وقال هنا: لتحمدوني على القرآن وإنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الكتاب فيه الإنذار والتبشير، وفيه ذكر أن ما على الأرض زينة لها، فإذا كان ما على الأرض زينة لها ثم يكون معدوماً فهو لثمرتين:

الثمرة الأولى: أن لا تحزن يا محمد فإن كل شيء هالك وسيزول عنك هذا الألم بمفارقة هذه الدنيا فلا تحزن على عدم إيمانهم.

والثمرة الثانية: أن كل ذلك عجب فآل الأمر إلى أن الحمد على إنزال القرآن يدخل فيه الحمد على عجائب هذه الدنيا وغرائبها العلمية، فأصبحت «الفاتحة» و«الأنعام» و«الكهف» من حيث الحمد في أوائلها ترجع إلى أن المسلم يحمد الله على هذه الكائنات وتربيتها وأنوارها وعجائبها.

وهاهنا فريدتان: الفريدة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾[الكهف: ١-٢].

الفريدة الثانية: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ أَمْ حَسِبْتَ﴾[الكهف: ٧-٨-٩] الخ.

الفريدة الأولى

وصف الله الكتاب بأنه لا عوج فيه فلا لفظه مختل ولا معانيه متنافية ولا دعوته منحرفة عن جناب الحق، وفوق ذلك هو معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط وقائم بمصالح العباد، فإذا كان كاملاً بالوصف الأول فهو مكمل بالوصف الثاني، فهنا أقول: اللهم إن هذا وصف كتابك فكتابك لا نقص فيه فهو كامل وهو مكمل وهو معتدل، ولقد حرت في أمري حينما نظرت في هذه الدنيا، ولما دخلت الجامع الأزهر وأخذت عن شيوخي الفضلاء عجبت يا رب من نظام هذه الدنيا ورأيت نظام التعليم في الأمم الإسلامية عموماً لا يوافق كتابك ولا نظام حقولك ومزارعك التي أنعمت بها على الناس جميعاً، فقد كنت حينما أذهب إلى بلاد الريف والقرى أفكر بنفسي في هذه الدنيا وأبحث عن خالقها ومدبرها ذلك المتكبر المتعال القهار الذي لا يرينا ذاته وقد احتجب عنا فكنت لا أذر زهراً ولا ثمراً ولا فاكهة ولا أباً ولا لوناً لنبات ولا رائحة لأمثال الورد إلا فكرت في أمرها ودرستها دراسة نظرية بلا مرشد ولا معلم، وكنت أقول: من هذا فليدرس الإنسان ومن هذا فليكن العلم، وتارة أنظر في السحاب

المسخر بين السماء والأرض وما ينزل من المطر، وآونة أفكر في سير الشمس وكيف اختلفت الفصول باختلاف قربها وبعدها عنا، وكيف كان هذا الزرع والثمر يتبع ضوء الشمس، وهكذا مما كتبته في كتابي « التاج المرصع ».

ثم نظرت في أحوال الأمم الإسلامية كما ذكرته كثيراً في هذا التفسير فوجدتهم مختلفين اختلافاً بيناً فما تركت صوفياً يمرّ بيلادنا إلا جلست أمامه طالباً اليقين ولا عالماً دينياً إلا سألته عن الحقائق، وهكذا كانت هذه حالي مدة الشباب، فقد رأيت اختلافاً بيناً؛ فأما أكثر الصوفية فهم يذمون العلوم الشرعية ويقولون العلم حجاب ويظهرون بهيئة الوقار والخشوع ويقولون إن عندهم أسراراً، وهكذا رجال الدين أكثرهم يقولون إن أكثر هؤلاء جهال. ثم إني بعد هذه الحيرة قرأت العلوم التي تدرس في الأمم المحيطة بنا وذلك في « دار العلوم » وهذا دأبي إلى الآن، وقد كتبت في سورة « آل عمران » ما فتحت به عليّ عند آية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[آل عمران: ٢٣] إذ بينت بما شرحت به صدري أن علماء الصوفية والعباد والأغنياء جميعاً مقصرون نقلاً عن الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، لأن الأمة انقسمت وصارت فرقاً وشيعاً، وكل حزب بما لديهم فرحون، ولم أجد سبيلاً لإنقاذ الأمة من هذا التفرّق إلا بأمر واحد وهو الذي كنت عليه أيام الشباب، أي: البحث في نظام العالم الذي نعيش فيه. فالصوفي والفقيه والعابد والغني بالمال كل هؤلاء لا مندوحة لهم عن دراسة العلوم التي تدرس في المدارس الثانوية في الأمم المحيطة بنا، وهذه هي الطريقة المثلى التي بها تعتدل العقول الإسلامية في العالم الذي نعيش فيه ويشاركون غيرهم. فكتاب الله لا عوج فيه وهو مكمل لأتباعه قائم بمصالحهم في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، ومن أراد المزيد فليقرأ هذا المقام هناك.

ثم إني أقول الآن: لقد نظرت نظراً عاماً في أمر الأمم الإسلامية بعد ما تقدم، فكنت أقول: يا ليت شعري لماذا أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في القرون الثلاثة لا تسمع عنهم ما نقرؤه عن المتأخرين من الصوفية بعد الصدر الأول، أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل ويشرب ويتزوج، وهكذا أصحابه والتابعون، فلماذا أرى المسلمين بعد الصدر الأول قد اختطوا خطة أخرى فمنهم من يأمر تلاميذه بالجوع تدريجاً حتى يأكل كل أربعين يوماً مرة واحدة ويترك بعضهم المال فلا يقتنيه، وبعضهم يصير عالة على الناس، وهكذا مما هو ظاهر معلوم، بل بعضهم يرقصون رقصاً دينياً وهم المولوية وقد رصدت لهم الأوقاف في مصر، حتى إن ناظر الأوقاف أخبرني بأن لهم (٧٠) جنيهاً كل شهر من الأوقاف. ثم فكرت في هذا الأمر فوجدت المسيحيين سبقونا بأمر يشبه هذا، وذلك هو الذي ستراه في سورة « الحديد » من معجزات القرآن الكريم إذ يقول تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾[الحديد: ٢٧] والرهبانية من الرهبة والخوف، إذ كان رجال الدين المسيحي يخافون من الملوك الوثنيين فكانوا يزهدون ويتركون التزوج ويعتكفون في الجبال ويبنون هناك الصوامع، فهؤلاء الرهبان لم يتعلموا ذلك من المسيح وإنما ابتدعوه ابتداعاً اضطروا إليه اضطراراً، والله يقول: ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾[الحديد: ٢٧]، وهذا هو الذي جاء به الكشف حديثاً، فإنك سترى ما سأنقله هناك من كتاب « الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة » الذي ألف في عصرنا الحاضر من أن عالما دينياً مصرياً في القرن الثالث المسيحي هو الذي خاف من صهره أن يقول للحكومة المصرية إذ

ذاك : إنه من أتباع المسيح ، فتزهد وترك النساء وعبد الله في الجبال فنجا . ثم إن هذه البدعة صارت من قواعد الدين ، ويقول المسيحيون القبط بمصر : إنهم لم يعرفوا هذه الحقيقة إلا في أيامنا هذه ، ونحن نقول : إن هذه من أكبر المعجزات في الإسلام ، فإن هذا الابتداع لم يعرفه الناس إلا في هذه الأيام مصداقاً للقرآن ، والمهمّ في هذا المقام أن أقول : فلعل ابتداع تقليل الأكل واعتزال الناس وترك المال بعد القرون الثلاثة الأولى في الإسلام كان أشبه بما ابتدعته النصارى من الرهبنة ، فأولئك ابتدعوا الرهبنة للفرار من ظلم الملوك فصارت من الدين ، وهؤلاء ابتدعوا تقليل الطعام والاعتزال عن الناس والبحث عن الإسرار إذ وجدوا الشهوات قد اغتالت الأمم الإسلامية ، وإذا قال الله تعالى في الرهبان : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : ٢٧] ؛ فهل المسلمون راعوا التصوّف حق رعايته . المسلمون ابتدعوا طرائق حديثة في التصوّف غير طرائق أكابرهم الذين ذكرهم القشيري في القرن الرابع في رسالته . فهل هذه الطرائق التي ابتدعوها راعوها حق رعايتها ؟ . ألم تنحرف انحرافاً قليلاً أو كثيراً بعد القرون الأولى ، بل ألم يكن أكثر العاطلين والجاهلين وعباد المال والمناصب والمرشدين للفرنجة أن يحتلوا البلاد منهم ؟ .

نعم هذا هو الذي حصل في أمم الإسلام حقاً وصدقاً . إن كثيراً من الصوفية قد تنعموا وعاشوا في رغد العيش وأغدق الناس عليهم المال من كل جانب ، وجبيت إليهم الثمرات ، وهوت إليهم القلوب ، لما ركز في النفوس من قربهم إلى الله . فلما رأوا الفرنجة أحاطوا بالمسلمين لم يسعهم إلا أن يسلموا لهم القياد ليعيشوا في أمن وسلام ، وهذا هو الذي حصل في أيامنا وذكره الفرنسيون في جرائدهم قبل الهجوم على مراكش وقرأناه نحن فيها ، إذ صرحوا بأن المسلمين خاضعون لمشايخ الطرق وأن الشرفاء القائمين بالملك في تلك البلاد ورجال الصوفية هم الذين يسلموننا البضاعة ، فعلى رجال السياسة أن يغدقوا النعم على مشايخ الطرق وعلى الشريف الذي يملك السلطة في البلاد ، وقالوا هكذا بصريح العبارة « إن هؤلاء جميعاً متمتعون بالعيش الهنيء ورغد المعيشة في ظلال جهل المسلمين وغفلتهم فمتى أكرمناهم وأنعمنا عليهم فهم يكونون معنا ويشاركوننا في جر المغنم ، وبصريح العبارة يكونون أشبه بالغربان والنسور والعقبان التي تأكل ما فضل من فرائس الآساد والنمور » . ولقد مرّ بعض هذا في سورة « البقرة » ، ولكن الكلام هنا أوضح لا سيما ما ستراه في نفس هذه السورة عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] فسترى هناك مسألة حسن بن الصباح وتعاليمه ، ومنعه الناس من قراءة العلوم ، وأن طريقته لا تزال متبعة إلى الآن في الهند . أقول : هذا هو الذي كتبوه في جرائدهم وقرأناه في زمن الشباب ، ولقد نفذه الفرنسيون بالدقة وملكوا البلاد وتعاونت أمم الفرنجة على ابتلاع تلك الممالك . حجة الله لا تزال قائمة على عباده ، فهل تحب أيها الذكي أن أسمعك بعض ما اطلعت عليه بعد ذلك ؟ لقد ذكرت لك في سورة « الإسراء » عند قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] أن صاحب كتاب « الإبريز » الفاضل الشيخ أحمد بن المبارك تلقى عن شيخه الأمي علوماً وذكرت بعضها هناك . فلعلك تسرّ إذا رأيت ما ذكرناه هنا بطريق الاستنتاج قد صرح به ذلك الصالح الأمي . الله تعالى هو الذي أرسل نور الشمس والمطر والهواء فالنور دائم والهواء محيط بنا . إن النعم تحيط بالناس ، ومن اطلع على هذا التفسير أيقن أن الله لم يذر نملاً ولا حشرات ولا حيواناً ذرياً لا تراه العيون إلا دبر أمره تدبيراً خاصاً .

فإذا كان الله عز وجل حاضراً عند كل حيوان صغير فهو لا جرم يراعي أمة الإسلام في كل زمان ومكان. علم الله أن الجهل فشا في الإسلام وقلّ العلماء بعد ذهاب الدولة العباسية وأخذ الناس العلوم عن جهال المجاذيب ومشايخ الطرق فألقوا إليهم الأكاذيب والأساطير والخرافات باسم الدين. فماذا فعل الله تعالى تلقاء هذا؟ ألهم رجلاً لا علم عنده بالدين أن يعلم أكبر كبار علماء الإسلام في ذلك الوقت وأفاض عليه العلم حتى يأخذ المسلمون عنه العلم وذلك في القرن الثاني عشر الهجري، وذلك ليس أمراً بدعاً فإن علم الأرواح أثبت اتصال الناس بالأرواح، وقد اشتهر في أمريكا وأوربا هذا العلم فاقرأه في كتاب «الأرواح» تأليفي، فهناك ترى غلاماً صيرفياً جاهلاً أكمل رواية مات مؤلفها قبل إتمامها في جلسات روحية بحيث يمسك القلم، وروح المؤلف الذي مات قد سلطت عليها، وكتبت فوق ألف صفحة وانتشرت تلك الرواية وذلك كثير مشهور.

علم الله أن بلاد الإسلام خلت من الحكمة، والنابغون من المسلمين كالعلامة أحمد بن المبارك بمراكش قد درسوا كتب الفلسفة القديمة وتضلعوا من العلوم الشرعية، فألهم الله ذلك الأمي الشيخ عبد العزيز الدباغ علوماً تظهر بعض الحقائق، والذي يهمنا في هذا المقام أن نذكر ما جاء عنه في أمر الصوفية وتاريخهم، وما مثل هذا الشيخ في ظهور العلم على يديه بلا معلم في الأمة الإسلامية إلا كمثل الدين الإسلامي في الديانات مع الفرق بينهما، وإنما هو تنظير لا غير، فإن الكشف الحديث قد أظهر أن أديان الأمم مقتبسة بعضها من بعض، وأن التثليث متوارث ينقله كابر عن كابر كما تقدم في آخر سورة «المائدة» وكما سيأتي في سورة «مريم»، فالذي في «المائدة» أن التثليث دين هندي، والذي في سورة «مريم» أن التثليث دين بابلي آشوري، وفي الوصفين إيضاح تام منقول من الآثار التي عرفت حديثاً فاقرأه تر العجب العجاب.

هنالك أرسل الله نبياً أمياً لم يقرأ تلك الديانات لئلا تعلق بذهنه فتمنع عنه قبول الوحي فصدع بالحق وقال: أيها الناس، الله واحد. فهكذا هذه الأمة الإسلامية علم الله أن كل عالم إسلامي لا يقرأ إلا كتب أسلافه المصنفة في الأصول والفقه وبعض شذرات من الفلسفة القديمة المضادة للدين. هنالك أفاض بعض العلوم على قلب هذا الشيخ الذي لم يتعلم فأدهش علماء الإسلام، وسأنقل في هذا الكتاب بعض ما قاله مما لم يكن معروفاً إذ ذاك وظهر في الكشف الحديث إن شاء الله تعالى، وأنقل هنا ما يناسب ما نحن فيه وهو ما جاء في صفحة ١٩٣ من الكتاب:

سأل الشيخ الدباغ بعض الفقهاء عما قاله الشيخ «زروق» إن التربية انقطعت بالاصطلاح ولم يبق إلا التربية بالهمة والحال فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان الخ. فأجابه بما ملخصه: إن مقصود التربية تطهير الذات بإزالة الظلام منها وقطع علائق الباطل عنها، ثم قسم الطرق لقطع علائق الباطل إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: طريق السلف الصالح فقد كانوا في القرون الثلاثة الأولى لا يصرفون وقتاً في تطهير نفوس تلاميذهم، قال: وإنما يلقى الشيخ مريده وصاحب سرّه ووارث نوره فيكلمه في أذنه الخ. القسم الثاني: ما كان بعد القرون الثلاثة الأولى إذ فسدت النيات وعمت الشهوات الخ، فأمروهم بالخلوة وبالذكر وبتقليل الأكل لينقطع بالخلوة عن المبطلين الذين هم في عداد الموتى، وبالذكر يزول الكلام الباطل واللهو واللغو، وبقلة الأكل تقلّ الشهوة فيرجع العقل

إلى التعلق بالله ورسوله الخ . القسم الثالث : قال : لما اختلط الحقّ بالباطل صار أهل الباطل يربون من يأتيهم بإدخال الخلوة وتلقين الأسماء على نية فاسدة وغرض مخالف للحق ، وقد يضيفون إلى ذلك عزائم واستخدامات تفضي إلى مكر الله واستدراجاته . ثم قال : إن الشيخ « زروق » لما رأى هذا نصح بالرجوع إلى الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقص . قال : وهذا خرج مخرج الاحتياط ، إلا فالبركة باقية إلى يوم القيامة الخ . انتهى باختصار جامع لما فيه من المعاني .

سؤال آخر من هذا الفقيه

وجاء في صفحة (١٩٦) أن هذا الفقيه سأله أيضاً قائلاً : أيهما أفضل أطريق الشكر أم طريق المجاهدة؟ والأولى : طريقة الشاذلي إذ يأمر بالشكر والفرح ، والثانية : طريق أبي حامد محمد الغزالي وهذه الطريقة تحثّ على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع . فأجابه بأن كلاً من هاتين الطريقتين لها فضل ولكنه فضل طريقة الشكر على طريقة المجاهدة ، وجعل أن المجاهد بالسهر والجوع وقلة الطعام يعاني ما يعاني ليصفي نفسه قاصداً أن يفتح الله عليه فيطلع على ما لا يعرفه غيره . أما طريقة الشكر فهي التسليم لله وذكره في كل لحظة فلا يحول عنه كل حين ، وهذه الطريقة لا يقصد سالكها إلا حب الله لا شيء سواه فلا هو طالب الاطلاع على أسرار كالمجاهد ، ولا هو متوان في ملاحظة جناب الحق ، وما عمل المجاهد إلا باب من أبواب الحظوظ النفسية ، إذ كشف الحجاب لذة يصرف المريد أوقاته لنيلها . فأما الشاكر فإن كشف له الحجاب فإنه لم يعمل لأجله بل عبد الله حباً فيه لا طلباً لشيء سواه ، ومتى كشف الحجاب عن نفس المجاهد ربما انقلب على عقبيه وفرح بما نال من الفتح واغترّ بما يشاهد من العوالم ويفرح بما نال من ذلك ويرى أن ذلك هو الغاية ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ١٠٣-١٠٤] .

ثم قال : ومنهم من تتبدل نيته بعد الفتح فيرحمه الله ويأخذ بيده وهذه الحالة التي حصلت لهذا بعد الفتح هي التي كانت البداية في طريق الشكر . ثم قال : فيا بعد ما بين الطريقتين وتباين ما بين الطلبين . فطريق الشكر سير القلوب ، وطريق المجاهدة سير الأبدان . وأعرب بعد ذلك عن أن هذا القول لم يقصد به إلا التعليم العام . وأما الإمام الغزالي فهو إمام حق وصدق . ثم قال : وطريق الشكر لا ينال الفتح فيه إلا المؤمن العارف الحبيب القريب ، بخلاف الفتح في طريق المجاهدة فإنه يكون للرهبان وأحبار اليهود ، فإن لهم رياضات يتوصلون بها إلى شيء من الاستدراجات . ومن قوله أيضاً : « إن النية في طرق الرياضة مشوبة ، وفي طريق الشكر خالصة ، والفتح في الأولى إنما ينال بحيلة وسبب ، والفتح في الثانية يكون هجومياً . قال : وما هذه الطريقة إلا تعليق القلب بالله عز وجل والدوام على ذلك وإن كان في الظاهر غير متلبس بكبير عبادة ، ولذا كان صاحبها يصوم ويفطر ويقوم وينام ويقارب النساء ويأتي بسائر وظائف الشرع التي تضاد رياضة الأبدان . وقال مرة أخرى : والهجرة في طريقة رياضة الأبدان قصد بها الفتح ونيل الرغائب ، ثم بعد الفتح منهم من يبقى على نيته الأولى فينقطع قلبه مع الأمور التي يشاهدها في العوالم ويفرح بما يرى من الكشف » الخ ما تقدم . انتهى . وهذا عجب عجاب .

ثم انظر كيف أعلن الوهابية في زماننا أنهم يمقتون طرق الصوفية بلا استثناء ، ويرون أنها حائدة عن الصواب كما شرحه العلامة ابن تيمية واعترض على الإمام الغزالي وعلى ابن الفارض .

فتاوى الشيخ الخواص للشيخ الشعراني

ألا تعجب معي أيها الذكي كيف تكون هذه الآراء في أمم الإسلام وتبقى مدفونة في الكتب يقرؤها الناس ولكنهم لا يدعون إلى ما فيها من الآراء، وتجد رجال الصوفية يجوبون البلاد ويهيمنون على العقول ويسدون المسالك أمام المسلمين ويمنعونهم من العلم الصحيح إلا قليلاً منهم، والله عليم بالمفسدين. فانظر كيف كانت فتاوى ذلك الشيخ الذي لم يتعلم علماً، ثم وازن هذا القول بما حكاه الشيخ الشعراني قبل تاريخ الشيخ الدباغ عن شيخه الخواص الذي لم يقرأ ولم يكتب.

جاء في كتاب الشيخ الشعراني المسمى « درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص » ما يأتي: سأله عن قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه إذ قال: « رأيت ربي عز وجل فقلت له: بم يتقرب إليك المتقربون؟ قال: يا أحمد بكلامي. فقلت: يا رب بفهم وبغير فهم؟ فقال تعالى: بفهم وبغير فهم» انتهى.

فأجابه أن الفهم خاص بعلماء الشريعة المطهرة، وأما غير الفهم فذلك هو الكشف للعارفين وعلماء الحقيقة، لأن العلم يفاض عليهم بالذوق، وليس ذلك ككشف الصور. إلى أن قال: واعلم أن الله تعالى قد أخبره في كتابه عن أقوام فقال: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وأخبر صلى الله عليه وسلم عن أقوام من أمته يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، فكيف تكون هذه الأقوام متقربين إليه، وكيف يتقربون بعدم العلم الذي هو الجهل؟ هذا عجيب والله أعلم. انتهى.

قال: ثم سألته عن مقام المجاذيب في الجنة. فأجاب: إن المجاذيب ليس لهم مقام عملي فليس لهم في جنة الأعمال نصيب، ولكن لهم نوع من التنعم يتميزون به. ثم قال: بل أقول إن السوقة وأرباب الحرف والصنائع أعظم نفعاً من المجاذيب لقيامهم في الأسباب النافعة لغيرهم ولكثرة خوفهم من الله تعالى إذا وقعوا في ذنب، ولا يرون لهم عملاً يكفر ذلك الذنب أبداً مع احتقارهم نفوسهم وعدم رؤيتهم لها على أحد من الخلق فضلاً، وهذه الصفات عزيزة في أهل الجدال الخ.

ثم قال: وسألته عن قول بعضهم: إن الفقير إذا عرف الله لا يؤثر فيه الأكل من طعام الناس نقصاً. فقال: إن المدد يتلوّن بحسب القلب، والقلب يتلون بحسب الأطعمة وفسادها. ثم قال: إن الله لينطق على لسان عبده بحسب مضغته، فإن كان طاهر القلب من سائر الرذائل كان كلامه شبيهاً بالوحي، وإن كان ملطخاً بالقاذورات نطق بما يشبه كلام الشياطين، ومنعه من أخذ الهدية إلا بمقابل لها ولو بالدعاء في أوقات الإجابة.

وسأله عن الأنبياء هل يتخذون واسطة؟ فأجابه قائلاً: لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبداً من نبي أو غيره، لأن الرسول إنما هو واسطة بين العبد وبين الرب في الدعوة إلى الله لا إلى نفسه، فإذا وقع الإيمان الذي هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله، ولم يبق للرسول إلا حكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع كما في حال المناجاة في السجود، فنفس الرسول يغار أن يقفوا معه دون الله، فإنه تعالى يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك، كما أشار له صلى الله عليه وسلم بقوله « من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ». الحديث.

وانظر أيها الأخ إلى غيرة الحق تعالى على عباده لقوله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة:١٨٦] ، فأعلمنا الله بأنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذي جعله تعالى واسطة لنا في كل خير، مع أنه تعالى بالغ في مدحه صلى الله عليه وسلم حتى يكاد يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال في نحو قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾[النساء: ٨٠] ، وبقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾[الفتح: ١٠] ومع ذلك قال له: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٢٨] الخ.

ومما يناسب هذا ما ذكره الشيخ أحمد بن المبارك في كتاب «الإبريز» المتقدم ذكره أنه سأله قائلاً: لم استغاث الناس بالصالحين دون الله ويحلفون بهم؟ فأجابه بأن الناس انقطعوا باطناً عن ربهم وأظلمت قلوبهم، وأطال في ذلك. ثم قال: ومما يدلك على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام في ذواتهم أنك ترى الواحد منهم يؤدي الدراهم إلى ضريح الأولياء ولا يعطي فقيراً من الفقراء الذين يقابلونه حاجة، وهذا أقبح ما يكون، وسبب ذلك أن الصدقة لم تخرج لله وإنما قصده أن يخص بها الولي ليقضي حاجته. ثم أفاد أسباب انقطاع هذه الأمة عن الله عز وجل وأبان الذنوب الشاغلة للناس حتى نسوا ربهم. انتهى.

أقول: وهاأنا ذا أذكرك أيها الذكي بما تقدم في سورة «المائدة» إذ ذكرت هناك محادثة المسيح عليه السلام مع الحواريين وما قصه عليهم من ذلك النبي الذي سبقه وأنكر على الأعمى حبه له. فكلما ألحف الأعمى في السؤال عنه وهو لا يعلم أنه هو، أجابه بأن من تسأل عنه حجاب بينك وبين الله، فارجع إليه هناك، فإنه هو روح ما ذكره الشيخ الخوّاص. وأنا أقول: ما كنت أظنّ قبل هذا اليوم أن أحداً من علماء الإسلام صرح بذلك قبل ابن تيمية والوهابية، وعجبت أن يكون من علماء الصوفية من يقول هذا القول. واعلم أيها الذكي أن الله عز وجل قد جعل هذا التفسير في هذا الزمان الذي ظهرت فيه مفاسد ومصالح وعلوم لم تكن فيما مضى. فالخواص والشعراني وابن المبارك والدباغ كل هؤلاء في القرون المتأخرة، وهذه نعمة من الله على هذا التفسير، فلله الحمد على التوفيق. وانظر كيف يفضل الشيخ الخواص الصناع على المجاذيب ويجعل أرباب الصنعة أفضل منهم، وهذا هو عين ما جاء هذا التفسير لأجله. ولذا أحسن مصطفى باشا كمال صنعاً إذ أقفل التكايا وأخرج من فيها لينفعوا أمتهم بأعمالهم.

إن الله عز وجل ألهم هؤلاء الصالحين أن يلقوا هذه العلوم على أتباعهم، وبقي ذلك في الكتب حتى اطلعنا عليه، ولكن ثمرة أفكارهم ستظهر في زماننا هذا، وستكون هذه النهضة الحقيقية بعد انتشار هذا التفسير إن شاء الله تعالى، فهو الذي جمع زبدة آراء العلماء، وأنعم علي وشرح صدري بنقلها، لعلمه عز وجل أن المسلمين لا يقنعون غالباً إلا بأن يسمعوا كلام الأكابر، وهذا في العامة.

أما الخاصة فلا يسمعون إلا آراء الفلاسفة لا سيما علماء أوربا، وهذا الكتاب والحمد لله قد أعطي النعمتين ليرضي الفريقين، وإن طريقة الشكر يقرب منها هذا التفسير، والله عز وجل هو الملهم للخير وهو الجواد الكريم والحمد لله رب العالمين. انتهت هذه الفريدة يوم الخميس ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٦ هـ.

فوائد الفريدة الأولى

الفائدة الأولى: إن الطرق التي انتشرت في الإسلام بعد الصدر الأول جاءت لتصفية النفوس ولكن هذا الدواء انقلب داء، فليرجع الناس إلى نفس القرآن والسنة كالصدر الأول.

الفائدة الثانية: إن الخلوة والسهر وترك الطعام أصل القصد بها الاطلاع على ما وراء الحس وهذا مذموم، بل يصرف القلب عن الله، وطريق الشكر أفضل منها، لأن القصد منها كمال النفس وحب الله لا حب الاطلاع على الغيب الذي هو شأن الكهان والعرافين وصغار النفوس. وأذكرك بما تقدم في سورة «الأنفال» عند قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[الأنفال: ٢٤] فقد أوضحت هذا المقال هناك بما فتح الله به، وهاهو ذا كلام الصالحين قد أيده تأييداً فاقرأه فسيشرح صدرك مما ترى من الموافقة التامة، فالحمد لله الذي وفق وشرح الصدر وهو الحكيم العليم وهدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الفائدة الثالثة: إن قراءة القرآن بلا عقل مذمومة، والرواية المروية عن أحمد بن حنبل إما باطلة وإما مؤولة.

الفائدة الرابعة: إن الصناع لهم مقام في الجنة أعلى من نصيب المجاذيب لأنهم ينفعون الناس بأعمالهم، وهذا هو الذي حث عليه هذا التفسير كثيراً، وبه ظهر بطلان الفكرة العامة في بلاد الإسلام وهي أن الانقطاع عن الناس أو الاعتكاف على العبادة هما المقصودان من الإسلام.

الفائدة الخامسة: إن تعلق القلب بالناس في أمر الرزق صارف للقلب عن الله وعن العلم.

الفائدة السادسة: إن المسلم يجب عليه بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجعل بينه وبين الله واسطة، بل يكون القلب معلقاً بربه لا يصرفه عنه صارف، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة: ٥]، ويقول: «اللهم لك سجدت»، وأيضاً النبي صلى الله عليه وسلم لا يرضى من المسلم أن يجعله واسطة بينه وبين الله في العبادة، لأنه دله على الله وهو يعبده رأساً، والفضل في ذلك له صلى الله عليه وسلم.

هذه الفوائد الست لم يكن ليخطر بفكر أكثر المتعلمين في ديار الإسلام أنها في دين الإسلام بل هذه تقلب أفكار أهل العلم جميعاً، لأنها صادرة ممن يعتقدهم أكثر المسلمين. وأنا أعجب أن تكون هذه الصراحة عند رجال الصوفية والناس عنها غافلون. وليس يزيل الخرافات من بلاد الإسلام إلا الإطلاع على تاريخ العلوم ومنها التصوف.

علماء الألمان يعرفون حقائق التصوف وتاريخه والمسلمون نائمون

من عجائب الحكم الإلهية أن خمسة علماء أتوا ضيوفاً في بلاد مصر وأنا أكتب هذا الموضوع، ثلاثة منهم يعلمون الفلسفة الشرقية في جامعات ألمانيا، واثنان من الإنجليز يعلمان تلك الفلسفة، أحدهما: في إنكلترا، والثاني: في «اسكوتلانده»، فحادثهم أحد مكاتبي الصحف المصرية، وهذا نص المحادثة:

ظننت في أول الأمر أنهم قنعوا بمشاهدة بعض الطرق وقد عرفتهم الشيء الكثير عنها، فإذا بهم يريدون أن يشهدوا جميعها وأن يعرفوا كل شيء عنها، وقد تمّ لهم ذلك أو كاد. وقد أدهشني منهم ما علمته أثناء الحديث من أنهم درسوا كل شيء عن التصوف والصوفية في الصدر الأول، بل الأدهى من ذلك أن أحدهم يحفظ من كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي أضعاف ما يحفظ مدمنو قراءته منا. وآخر منهم يعلم كل شيء عن آثار الحسن البصري والجنيد والإمام جعفر الصادق. والبعض الآخر يعلم من أمر السيد أحمد الرفاعي والسيد عبد القادر الجيلاني والسيد أحمد البدوي وسيدي إبراهيم الدسوقي أكثر مما نعلم نحن المسلمين، بل طرق التفهم مع الدقة في الاستقراء والاستقصاء. سألني أحدهم: هلا يعقد شيوخ الصوفية لتلاميذهم دروساً في التصوف ونشأته وتاريخ أطواره في الإسلام؟ فأجبته بأنهم يعلمونهم بقدر ما يعلمون. وقال آخر: هل يدرس التصوف في الأزهر؟ قلت: نعم ولكن مع عدم اعتباره علماً أساسياً. قال: وهل يدرس في الجامعة المصرية؟ قلت: نعم تدرس الفلسفة الإسلامية. قال: وهلا يحاضر عن غير الإمام الغزالي من فلاسفة الإسلام؟ قلت: قد يكون ذلك بعد هذا العام بحيث يفرد بكل عام فيلسوف مسلم. قال: وابن رشد. قلت: وجعفر بن الطفيل قد يكون لهما نصيب من عناية أستاذ الجامعة. وهنا قال: هل تستطيع أن تطلعني على مقدار ما وصل إليه درس الأستاذ في فلسفة الإمام الغزالي. قلت: لا أستطيع لأن دروسه لم تذع بعد، قال: يؤخذ من مجمل إجابتك أنكم لا تعنون بدرس الفلسفة الإسلامية مع أنها ثروة عظيمة من ثروات تعاليم الإسلام. قلت: سنعنى إن شاء الله ولكن جامعتنا حديثة النشأة وستؤتي أكلها بعد حين، وأسأل الله أن يكون شهياً، حتى إذا وفدت استطعت أن تجد من يحدثك عن الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي ومبلغ علاقتهما بالفلسفة الحديثة.

ثم أطلعني أحد العلماء الألمان على سبع كراسات مطبوعة احتوت مباحثه في فلسفة الغزالي، فقلت في نفسي: ليتها تعرّب ليدرسها الطلبة والعلماء ما داموا قد أضربوا عن إحياء كتاب «إحياء علوم الدين» وغيره. أما بقية فلاسفة الإسلام فعلى فلسفتهم في مصر العفاء ما دام لا يعنى بها أحد ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن عجب أن يحض هؤلاء العلماء على دراسة تاريخ التصوف، فإن ذلك هو الذي يزيل الخرافات، كما جاء في هذه الفريدة عن الشيخ الدباغ الذي أجمل تاريخ التصوف. انتهى.

الفريدة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ أَمْ حَسِبْتَ ﴾[الكهف: ٧-٨-٩] الخ.

مع قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[الأعراف: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[الحجر: ١٦-١٧].

ولأجعل الكلام في هذه الفريدة في ستة فصول:

الفصل الأول: في بهجة الجمال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] وبيان حكمة التأكيد بـ«إنّ» و«اللام» من جمال علوم الطبيعة السارة للناظرين.

الفصل الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

الفصل الثالث: في بيان قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف:٣٢] الخ.

الفصل الرابع: في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

الفصل الخامس: في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

الفصل السادس: في قوله تعالى بعدها: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ [الكهف: ٩] الخ، وبيان الصلة بين الآيتين.

الفصل الأول: في بهجة الجمال في قوله تعالى:
﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾

اعلم أن ما على الأرض من العجائب لا حصر له، ولنقتصر في هذا المقام على صنفين من الجمال وعجائب المخلوقات: أولهما: عجائب الجمال في الماء. ثانيهما: عجائب الجمال في الحيوان.

الصنف الأول: عجائب الجمال في الماء وغرائبه

لقد تقدم في سورة «الأنعام» عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الآية: ٩٥] عجائب الثلج القطبي وأن هناك جبالاً من الثلج تعوم على سطح الماء، وهناك في بلاد «لابونيا» و«المسكوف» وبلاد «الإسويجيين» الثلج المصقول السميك الصلب المسهل للمسير، وأن الثلج يكون عند القطبين على الأرض ثم يرتفع يسيراً يسيراً حتى يصير على ارتفاع ١٣ ألف متر عند قرب خط الاستواء، وهكذا يأخذ ذلك الخط في الانحطاط حتى يبلغ القطب الجنوبي، وهناك ذكرت لك ألوان ماء البحر وأنها تكون ذات ألوان بهجة فيما بين المدارين، وهكذا ذكرت المياه المعدنية النابعة من الأرض واختلاف أوصافها. فهاك اليوم عجباً عجاباً لم يذكر هناك. أذكر لك اليوم من جمال الله عز وجل الذي اختاره وأنزله إلى هذه الأرض واختصنا به وقال: انظروا، وفي هذه السورة يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧].

فإذا قلنا فيما تقدم في «الأنعام»: إن الثلج يكون في الجوّ دائماً؛ فكما يدوم في القطبين على وجه الأرض؛ يدوم في الارتفاعات المختلفة المذكورة هناك؛ نقول هنا: إن الثلج المرتفع لا تؤثر فيه حرارة الشمس في خط الاستواء إلا قليلاً كما ذكر العلامة «بريت»، فهو الذي بمقاله فتح لي الباب على مصراعيه هنا ونقلت الصور منه. وقد قال: لا شيء من الأعمال العجيبة الطبيعية تلفت النظر وتدهش اللب وتحدث المسرة بالفكر الجميل أكثر من مظاهرتين فاخرتين وهما:

(١) ينابيع الماء الحار.

(٢) والمقادير الهائلة من الجليد. فينابيع الماء الحار تنبع:

(١) في الأقطار الثلجية بأبدع منظر وأبهج سناء.

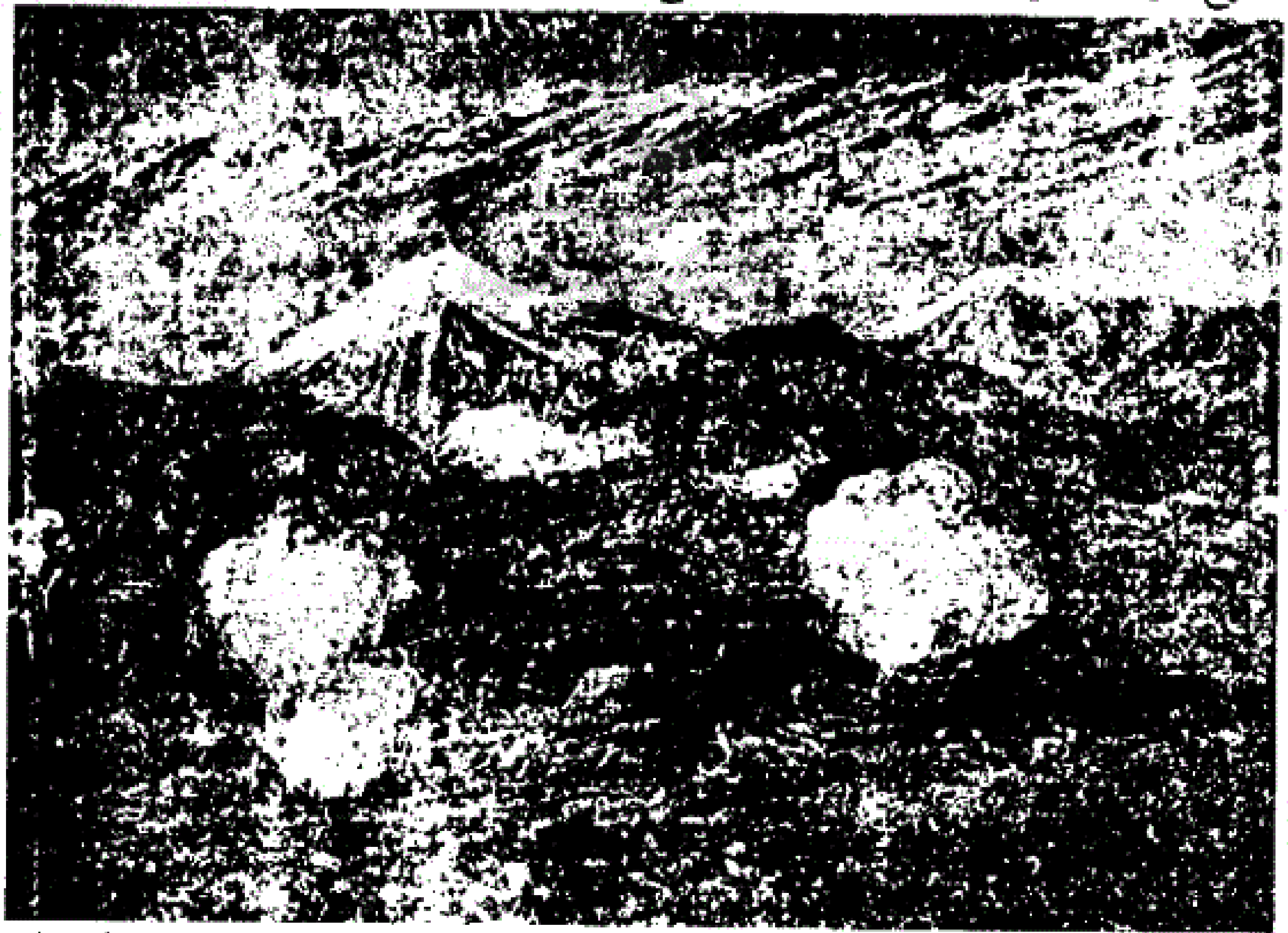
(٢) وفي «زيلنده» الجديدة.

(٣) وفي أمريكا الشمالية كمثل أرض الأحجار الصفراء فيها. (شكل ١).



(شكل ١ ـ رسم الينبوع العجيب الحار الفاخر في أرض الحجارة الصفراء في أمريكا الشمالية)

فأما المقادير الهائلة من أجراف الجليد فهي عبارة عن أنهار عظيمة مملوءة بالثلج بدل الماء، وهذا الثلج يتحرك بالتدريج حوالي جوانب الجبل ثم يأخذ بالتدريج في الذوبان بالحرارة التي تتخلله أثناء سقوطه في الوادي، كما يتجدد بالتدريج من تلك المملكة الثلجية في الجو على الجبل، وهذه الأنهر الثلجية تكون في « سويزرلند » أو في « نروي »، وهذا أصغر وأقل جداً من تلك المقادير الهائلة من الثلج التي تعم داخل أرض الجزيرة الخضراء، ومن التي كانت قديماً قد غطت أرض الجزائر البريطانية وعمت أرض قارة أوروبا جميعها، وليس الجمال في ذلك والبهجة قاصرين على محاسن المناظر الحسية. كلا بل إن العقل ليقف أمام تلك المناظر مسحوراً، وكيف لا يسحر العقل وقد رأى حادثين غريبين: أحدهما: أن القطع الثلجية تنزلت من أعلى الجو وأضواء الشمس المحرقة تتخلل تلك القطع الهائلة ولا تذيبها. فكيف مرت تلك الجروف الباردة وسط الحرارة المحرقة في خط الاستواء التي دلتنا على ممالك واسعة النطاق ثلجية، وكيف اجتمع النقيضان حار وبارد، وما أثر الأول على الثاني؟ وسترى صورة تلك الثلوج المتنزلة من أعلى الجبال في سورة « النور » عند قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾[النور: ٣٧] الخ. ثانيهما: تلك الينابيع الحارة التي نبعت من بين الثلوج المتراكمة على الأرض. فهاك صورة الينابيع الحارة في الأقطار الثلجية. (شكل ٢).



فهذه هي الغرائب التي تسحر العقل وتبهجه. هذا نهران: نهر حار نبع وسط البارد، وثلج بارد تنزل وسط الحرارة. إذن تلك الينابيع الحارة الهائلة لها مخزن عظيم تحت وجه الأرض لا يبرد. وهذه الينابيع لقوتها اخترقت الثلج كما يخترق العالم طبقات الجهل في أمته ويلقي إليهم العلم فيدفئ جوهم البارد، وذلك لأن البواطن أساس الظواهر فمتى اتقد الباطن بالحكمة أثارت الظواهر فأدفأتها قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الفرقان: ٥٠]، ويقول

تعالى أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[الفرقان: ٥٣]. فإذا كان الله لم يخلط البحر الملح بالحلو وهما متجاوران فهاهو هنا لم يخلط البحر الحار في باطن الأرض الذي لم نعرفه إلا من تلك الينابيع الحارة التي شاهدناها بالثلج الذي فوق سطح الأرض، بل اخترق الحار البارد ولم يختلط به وطار إلى الجو حاراً كما هو وهذا من العجب.

إذن ذكر الملح والعذب في الآية تنبيه على التميز وجعل كل واحد منهما مستقلاً عن الآخر إذ جعل الله بينهما حجراً محجوراً، وهذه الينابيع نابعة صاعدة في الجو يراها الإنسان كأنها الألماس البديع اللون الحسن الشكل لما تخلل الماء من المواد التي إذا قابلت الشمس عكست لوناً بديعاً، فلذلك ذكرنا هذه هنا، إذ صارت حلية للأرض وزينة لها وبهجة، فأرضنا كعروس زينها الله لنا، وقال: يا عبادي، انظروا هذه الحسناء الجميلة وانظروا أقراطها من الماس قد تدلى وظهر ببهاء وسناء وهذا القرط دائم لينظره العاشقون. وإلى هنا انتهى الكلام على الصنف الأول.

الصنف الثاني: في عجائب الجمال في الحيوان

أذكرك أيها الذكي بما تقدم في سورة «الرعد» إذ ذكرت هناك عند قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾[الآية: ١٣] الخ، الصوت والحرارة والنور، وما سبب تكون الحرارة، وأن الضوء مكون من سبعة ألوان أدناها الحمرة وأعلاها البنفسجية. وهناك إيضاح بعض الألوان وعدد اهتزازات الضوء فيها. وهنا أريد أن أشرح لك شرحاً مستفيضاً في جمال هذه الدنيا، وكيف رأينا الله عز وجل جعل شمسه أشبه بريشة المصور، فكما يرسم المصور بريشته ويصنع بفكر وعقل ويخرج صوراً بديعة؛ هكذا رأينا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل: ٦٠]، لله هذه الشمس التي يطلعها صباحاً ويغيبها مساء، فنجدها قد أبدع الله بها التصوير والنقش الغريب والجمال والبهاء والحسن في الإبداع. لقد ذكرت في هذا التفسير سابقاً أن الله هو الذي أنزل القرآن وهو نفسه الذي أبدع العقول. بينما نسمعه يقول في القرآن: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[الكهف: ٧] الخ؛ نراه قد فسر هذه الآية في أوروبا: أي أنه ألهم قلوباً وقلوباً فدرسوا بعض هذا النظام وجماله.

وقد اطلعت الآن في كلام «وليم اكرويد» تحت عنوان «مظاهر ما شيدته العلوم» على بهجة الجمال في نظام النبات والحيوان، وأن الناس اليوم جميعاً لا يزالون أطفالاً في معرفة أسرار الجمال في الحيوان والنبات، وأن ما عرفوه اليوم وإن كان قليلاً سيبهرك أن تقرأه وترى رسمه وتعرف بعض سر قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾[الكهف: ٧] بالتأكيد بـ«إن» و«اللام»، والتعبير بضمير العظمة في موضعين من الجملة.

لقد ابتدأ مقاله بالقاعدة المشهورة في الضوء وأنه مركب من سبعة ألوان وهي: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي، وأخذ يوضح أمر الألوان كما هو معروف. ذلك أن الناس فرضوا أن سطوح الأجسام على الأرض تمتص ألواناً من هذه السبعة وما فضل عن امتصاصها تعسكه فتراه العيون. وضرب مثلاً لذلك بالآجر الذي تبنى به البيوت، فإن عيوننا نرى لون الحمرة مع اللون البرتقالي قليلاً فهذان اللونان هما اللذان نشاهدهما من الآجر الذي بنيت به بيوتنا. ومعنى هذا أن ضوء الشمس قد ابتلع الآجر منه خمسة ألوان وهي الأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي

وعكس لونين اثنين الأحمر والبرتقالي، فارتدا إلى أعيننـا، فقلنا: هـذا أحمـر برتقـالي، وفي الحقيقة لا لون للأجسام، وإنما هي أضواء الشمس عكست عن الجسم، وأقول: كـأن هـذه الظاهرة تفهمنا نظام هذا الوجود كله، فإنك ستقرأ في سورة «النور» أن قطرة الماء مركبة مـن (٥٠٠) مليـون مليون مليـون جوهر فرد من الماء، وأن هذه الجواهر كلها التي كونت منها قطرة الماء إذا حللت رجعت إلى عنصرين: أحدهما: هو الأوكسجين. وثانيهما: هو الأودروجين، وكلاهما مركب من كهرباء مضيئة بحيث تـرى الكهرباء السالبة في كل منهما تجري حول الكـهرباء الموجبة دورات تعدّ بمئات آلاف الآلاف في الثانية الواحدة. إذن أصبحت المادة كلها سواء أكانت ماء أم هواء أم حجارة وحديداً عبارة عـن عنـاصر تبلـغ نحو (٩٠) الآن، وهذه العنـاصر بتحليلها ترجع إلى ضوء. إذن العوالم كلها نـور في الواقـع ونحـن محجوبون عنه، وإنما ظهر لنا جموده وسيولته وكونه جسماً غازياً ـ كالحجر والماء والـهواء ـ بتركيبنا ووضعنا في عوالم متأخرة. فما يقوله العلمـاء هنـا مـن أن لـون الأجسام لا حقيقـة لـها وإنمـا هـو ضـوء الشمس لا غير؛ هكذا يقول نظيره هناك عظماء الفلاسفة: إن المادة لا وجود لها وإنما موجـود هـو نـور تنوع فصار جواهر فردة وهذه بتنوع تركيبها صارت عنـاصر مختلفـة، والعنـاصر المختلفة كونـت منـها هذه المخلوقات في الأرض والسماء، والنور ما هو إلا حركات في الأثير. إذن المادة قوة فرجعت العوالم إلى قوة وهي الحركة، وإذن قول القدماء: إن المادة لا دليل على وجودها؛ هو عـين قـول علمـاء العصـر الحاضر: إنها قوة. فإذا قال الناس بحسب الظاهر هنا مادة وهنا قوة فالحقيقة لا موجود إلا القوة، وهذه القوة صارت حركة، فالحركة تنوعت فصـارت كـهرباء ونـوراً، والنـور باجتماعـه صـار عنـاصر، ومـن الأنوار ما نحن بصدده من الألوان في كلام العلامة «وليم» الذي هو أصل كلامنا في ترجمـة مـا رآه في جمال هذا الوجود إذ قال:

«ليست دراسة الألوان في الحيوان سهلة بل لابد من أن نبتدئ في البسـائط قبـل المركبات، فإذا أحكمنا البسـائط وفهمناها أدركنا سر المركبات، فلندرس ألوان العناصر، فإذا عرفناها أدركنـا ألـوان مـا تركب منها من حيوان ونبات. قال: وهاك مثلاً: إن المعـادن المتحدة مـع الأوكسـجين تحصـل لـها حـال نسميها نحن «صدأ»، فهذا الصدأ ما هو إلا أوكسجين الهواء اتحد مـع معـدن من المعـادن كالرصـاص والزئبق والزنك، ويقال لذلك المتحد «أكسيد الرصاص وأكسيد الزئبق وأكسيد الزنك». ثم إن ألـوان ذلك المركب وهو الأوكسيد تكون تابعة لدرجة الحرارة فنجد أوكسيد الزئبق لونه على الدرجة المعتـادة برتقالياً مع الصفرة، ثم كلما ازدادت الحرارة يزداد تغير اللون تبعاً لها، فيصير أولاً برتقالياً ثم أحمر ثـم أسمر ثم أسود بالتتابع والتدريج، ويصير ذلك قانوناً مسنوناً ونظاماً ثابتاً تغير في الحـرارة يتبعـه تغير في اللون. فهذا قانون لا يتغير: «الأسود، الأسمر، الأحمر، البرتقالي، الأصفر»، وهكـذا إلى الأبيض. فالأسود أكثر حرارة وما بعده أقل، والأبيض نهاية القلة في الحرارة فلا يتشرب الألـوان، وبقيـة الألـوان بين السواد والبياض على هذه القاعدة.

نظر علماء الحيوان في أمره فقالوا: هل ندرس الحيوان المنزلي، كلا ثـم كـلا. إن الحيـوان المنـزلي تحت سيطرتنا وتأثيرنا، فلا نبحث إلا في الحيوان المتوحش فإنه تحت التأثير الطبيعـي، فدراسته تبـين لنـا القانون الحقيقي، وقد انضم إلى ذلك ما تحت سيطرتنا مـن الحيوان إذا لـم يكـن لنـا عليه تـأثير أو كـان

التأثير قليلاً . فلنراقب ذوات الأربع اللاتي ترضع أولادها ولها علي جلودها شعر ، وقد وضعوا هذه القواعد بعد البحث والاستقراء . أولاً : ما انكشف للهواء من أجسام ذوات الأربع يكون أزهى لوناً من ظهورها ، ذلك لأن ظهر الحيوان أشد تعرضاً للشمس من بطنه مثلاً ، ولا جرم أن ذلك تبع القاعدة المتقدمة ؛ فلون السمرة والسواد ناجم من شدة الحرارة ، والبياض وما يقاربه من الصفرة والحمرة ناجم من ضعف الحرارة على تفاوت في ذلك ، فلذلك يكون لون الظهر أقرب إلى السواد الذي هو الغاية العظمى للحرارة ، وضربوا لذلك مثلاً بحيوان « السنجاب » فظهره أسمر وبطنه وصدره أحمران والحمرة ابتعدت عن السواد درجة إلى البياض الذي هو النهاية الصغرى للحرارة ، ومثل هذا يشاهد في الحمار المعتاد الذي أجزاء ظهره أشد سواداً من بقية ظاهر جسمه . قال العلامة « وليم » : وهكذا يشاهد في بقرنا المعتاد . قال : ومن أراد أن يتحقق هذا القانون فليزر دار الآثار فإنه يجد هذه القاعدة تامة إلا قليلاً يشذ عنها . ثم أخذ الكاتب يذكر ما زوقته يد القدرة وما أبدعته من الصور الهندسية في جلود الحيوان . قاعدة وضعها الله في المعادن التي صدئت أن يختلف لونها باختلاف الحرارة ومثلها ذوات الأربع ، فيكون ما تعرض للشمس من ظهورها أقرب إلى السواد مما بعد عنها كبطونها .

هذا ظاهر ولكن هنا ظهرت بهجة العجائب ، إذ ظهرت نقط وخطوط هندسية وتناسبت الأجزاء تناسباً تاماً منتظماً . فهذه خارجة عن القاعدة أبدعت على شكل بهيج يبهج الناظرين ، ولذلك يقول العلامة « وليم » : إن هذا العلم لا يزال في طفوليته لم تنظم دراسته ولم تعرف حقائقه ، فمن ذلك تلك الخطوط في رأسه « نمر البنغال » في بلاد الهند أنها تقترب اقتراباً بيناً من النموذج الهندسي من حيث تناسب الأجزاء ، وأن الخطوط على أحد الجانبين جعلت لها نظائرها بهيئة جميلة من الجانب الآخر . ومثل هذا التناسب الجميل يشاهد في حمار الحبشة وفي حيوان آخر في الهند اسمه « تبر » وبعض الهرر المنزلية . إن ذراعي ذوات الأربع المذكورة ورجليها وذيولها معرضات للشمس لاسيما الذيل فهذه أكثر امتصاصاً للضوء فتكون أقرب للسواد من بقية أجزاء الجسم والذيل أكثرها امتصاصاً وسواداً . (انظر شكل ٣) .



(شكل ٣)
(صورة حمار الحبشة)

ألا ترى إلى « السنجاب » المتقدم ذكره فإنه إذا كان بطنه أحمر وظهره أسمر فإن ذيله أسود. إذن الذيل يمتاز عن بقية الأجزاء. وقد وجدوا بالاختبار أن (٩٤) في المائة من الخيل السمر تكون ذيولها سوداء، وهذا تثبيت لقاعدة الذيل المتقدمة. وقد وجدوا أيضاً أن لون الذكر أوضح من ألوان الإناث، والقاعدة التي ذكرناها في ذوات الأربع موضحة سارية أيضاً في الطيور والزواحف وفي بعض أدنى الحيوان أي: التي ليس لها ظهر عظمي. فهذه ترى فيها الأجزاء المتناسبة والخطوط المنتظمة من الجانبين التي تشبه النماذج الهندسية وذلك كالحشرات. خذ مثلًا لذلك حشرة « أبي دقيق الطاووسية » قال الكاتب « وليم »: ابحث هذه الحشرة وانظر عجائب ألوانها فكل جزء منها محلى ببهجة الحلي والجمال البهيج من أحد الجانبين قد ازدان بنظيره الموازن له في الجانب الآخر. وهذه صورتها (شكل ٤).

(شكل ٤ ـ صورة حشرة أبي دقيق الطاووسية)

ثم أخذ الكاتب « وليم » يصف الطيور قائلاً: إن ظهر الطيور يكون أشد سواداً من بقية أجسامها مثل ذوات الأربع ويظهر هذا ظهوراً أتم في الطيور المائية المنسوجة أصابعها. انتهى.

فانظر كيف كان قانون الألوان سارياً في المعدن وذوات الأربع والطير. فكل هذه نرى الأعضاء التي هي أكثر تعرضاً للشمس كالظهر وكالذيل تكون أشد اسمراراً وسواداً، وبالعكس؛ ما كانت أسفل البطن مثلاً، فهذه تكون أكثر ظهوراً في ألوانها لبعدها عن السواد.

ولكن الذي سقنا له هذا المقال هو تلك النقوش المبدعة التي رأيتها في حمار الحبشة وفي حشرة أبي دقيق الطاووسي.

فانظر إلى الدوائر البديعة المتوازنة في الجانبين على وزان المحل الهندسي الذي شرحناه سابقاً في المجلد السابع في التفسير. فإذا كانت الحمرة والسواد جارية على ناموس عرفته؛ فما هو الناموس الذي به ابتدعت هذه النفوس وزين هذا الحيوان المزوّق كما يزوّق الطاووس؟ هذه هي الزينة التي أشار لها الله فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾[الكهف: ٧]، فهاهو ذا سبحانه يقول: ها أنتم أولاء يا أهل الأرض قد اعترفتم أن علم الألوان عندكم لا يزال في عام الطفولة، بدليل أنكم لم تعرفوا من أين أتت هذه النقوش، فإنه لو كانت الألوان راجعة إلى تأثير الشمس كما في ذوات الأربع والطيور فلماذا يكون التزويق المختلف الأشكال البهيج « نمر البنغال » وفي هذه الحشرة.

أيها الناس، إني أنا الذي وضعت القاعدة العامة لضوء الشمس، وأردت مخالفة القاعدة في هذه الحيوانات، لتعلموا أنني أنا الذي صورت هذه الصور وحليتها بتلك الحلي ليتذكر أولو الألباب.

واعلم أنه إنما اختير هذا النوع لأن جماله أظهر وأبهر من جمال غيره من أنواع « أبي دقيق » وفي كل جمال.

ولنعد رسم حشرة « أبي دقيق » التي تقدمت في سورة « النحل » عند الكلام على اختلاف الألوان لتنظر عجائب ربك وتفهم حكمته وتعجب مما ذكر هناك وذكر هنا، فهناك قد ذكرت لك أن الحشرة الواحدة في جناحيها ألف ألف وخمسمائة ألف بيت، وكل بيت منها إما مملوء مادة ملونة في ذرات الغبار التي فوق أجنحتها. وإما أن يكون مملوءاً هواء، وهذا الهواء متى وقعت الشمس عليه انعكس النور عنه. (انظر شكل ٥).



(شكل ٥ ـ صورة أخرى لحشرة أبي دقيق)

الفراشة العليا سبب اللون فيها مادة ملونة في تلك الآلاف من البيوت. والفراشة السفلى في بيوتها هواء يعكس النور كما علمت. فانظر لأنواع الجمال والتفنن في الحشرة، وكيف كانت أولاهن أجملهن فهي كالطاووس، وكانت الثانية فيها مواد ملونة، والثالثة ليس فيها إلا الهواء، والنتيجة الجمال. وهذا بعض تفسير التأكيد في الآية.

يقول الله: أيها الناس، إني جعلت للنور ناموساً وهذا الناموس يقتضي أنه كلما كانت قوة الحيوان أضعف كان لونه أميل إلى البياض، وكلما كانت قوته أشد كان أميل إلى السواد، وهو هكذا بالترتيب: « أبيض، أزرق، أخضر، أصفر، برتقالي، أحمر، أسمر، أسود ». فالرجل أيام قوته شعره أسود ومتى شاب ابيضّ شعره، والمقام لا يحتمل التفصيل، وقد علمت بعض التفصيل فيما مرّ آنفاً. فماذا يقول الحكماء في تزويق حمار الوحش وحشرات أبي دقيق المرسومات هنا، وما هذا الإبداع في أجنحتها.

الله أكبر! الأجنحة كما تقدم مكشوفة للشمس معرضة لها. وقد تقدم أن هذه تكون أميل إلى السمرة والسواد، فما هذه الحمرة وما هذا البياض؟ أين القاعدة إذن؟ ما هذا التزويق؟ الله أكبر! هاهنا ظهر الاختراع والإبداع.

القاعدة كانت تقضي أن يكون الجناح لونا واحداً. ولكن الحكمة قضت أن تضع فيه مخازن وتملأ موادّ ملونة أو هواء والنتيجة النظام الجميل. هذا هو السبب في التوكيد، يقولون في علم البلاغة:

جاء شقيق عارضاً رمحه إن بني عمك فيهم رماح

فشقيق لما ورد على بني عمه ورد عليهم غير مكترث بهم وجعل رمحه بهيئة من لا يكترث ببني عمه كأنه يعدّهم لا سلاح معهم وكأنهم عزّل من السلاح، فهو يعلم أن عندهم سلاحاً ولكنه لما لم يكترث

بهم نزل منزلة من ينكر سلاحهم وقوتهم فلذلك قالوا : إن بني عمك فيهم رماح ، هكذا هنا يقول الله للناس قاطبة سواء أكانوا من الجهلة أم من علماء الطبيعة : أيها الناس ، ما لكم لا تعجبون من صنعي فأنتم قسمان : إما معرضون لا يفكرون لجهلهم ، وإما مفكرون ولكنهم مقصرون .

فالأولون هم العامة ، والآخرون هم علماء الطبيعة الذين يقولون كما ذكرنا : إننا أطفال في علم ألوان الحيوان ، فيقول الله للطرفين : مالكم تعرضون عن هذا الجمال؟ إذن أنتم كالمنكرين فلذلك قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾[الكهف : ٧] ، فأكد لإنزال الطائفتين منزلة المنكرين ، فإنهم يشاهدون تنوع الألوان في مثل هذه الحشرة . ومن عجب أن يقول : ﴿ جَعَلْنَا ﴾ ، ففيها معنى التحويل كأنه حول وصرف هذه النواميس فلم يجعلها جامدة ، بل لون وأبدع وزوّق عند الحاجة . ذلك أن الحمار العادي لم يلونه بألوان مزخرفة وكذلك كثير من الحيوان . ولكن هذه الحشرة لما لزم الأمر لتزويقها لم يجعل قاعدة اللون مطردة على وتيرة واحدة ، بل حولّها ونوّعها وصرّفها وزوّقها . هذا هو المعنى الذي يؤخذ من لفظ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ﴾ ، ألسنا بهذا نفهم قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[السجدة : ٧] . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني : في قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ﴾[الملك : ٥]

الله عز وجل جعل الجمال في هذا العالم ليتذكر به أولو الألباب . فأما غيرهم فإن الجمال يكون لهم فتنة ، فإذا بهرهم الجمال في الأشكال الحيوانية والمعدنية والإنسانية أخذوا يحرصون عليه ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويحرصون على المال وجمعه غراماً به ، ويصدون عن حكم هذه الدنيا ويغفلون عنها ، ولا يفقهون من جمال هذا العالم إلا امرأة يشتهونها أو صوراً يغرمون بها . فأما جمال هذا العالم من سماواته وأرضه فلا يعرفونه ، فأصبح الجمال لهؤلاء رجوماً يرجمون به وكأنّما هو يريدون الصعود فيرهقهم هذا الجمال فيقعدهم عن النهوض إلى العلا ، وهذا قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » . فحلاوة الدنيا هذه هي التي تقعد بهمم أكثر الناس عن العلوم والمعارف فهي رجوم لشياطين الإنس والجن الذين لا يعقلون .

إيضاح هذا المقام

لقد تبين في هذا المقام وفي غيره من هذا التفسير أن الضوء ينزل على الأرض فتكون منه نفس الألوان ، إذن لا لون في الأرض إلا من الضوء . فألوان الشمس السبعة هي الألوان التي نشاهدها في الأرض . إذن جمال الوجوه وبهجة الحدائق ومحاسن الناس والحيوان كلها أصباغ من لون الشمس وهذه الأصباغ يعكف عليها الجهال ، فهم لا يعرفون الجمال الظاهري المثير للشهوة التي يشاركهم فيها الحيوان في الأرض . أما جمال الحكمة وبهجة العلم ورقي العقل فهم محرومون منها ، فصح إذن أن المشرقات من الكواكب تقذفهم من كل جانب بما يثير شهواتهم التي تصدّهم عن العقل . ولا فرق بين شهب تقتل قتلاً حقيقياً وبين صور تصدّ عن العلم فتميت القلب ، قال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت ... إنّما الميت ميت الأحياء
إنّما الميت من يعيش كئيباً ... كاسفاً باله قليل الرجاء

الفصل الثالث: في قوله تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾[الأعراف: ٣٢] الخ

هذه الآية وردت لإباحة اتخاذ الزينة والجمال من كهرباء وحدائق وبساتين جميلة وحقول ظريفة ومساكن لطيفة. فكل هذا من المباح ولا حرج في المباح. ومن ذلك الحلي المختلفة الأشكال البديعة الأوصاف، ولا زال الناس قديماً وحديثاً يقتنون الأحجار الكريمة، وقد شاهد الناس ما خلفه الأولون من تلك التحف الجميلة، فقد كشف الناس في عصرنا حلي كثيرة لقدماء المصريين مثل «توت عنخ أمون» وهكذا ورد عند كتابة هذا الموضوع أنه قد كشفت آثار في العراق هذا وصفها: يوم الأربعاء ٢١ مارس سنة ١٩٢٨م إذ زار مندوب الأوقاف البغدادية المتحف العراقي وشاهد الآثار النفيسة التي أضيفت حديثاً إلى المتحف والتي اكتشفتها بعثة المستر «وولي» في هذه السنة فكتب عن تلك الآثار ما يلي:

تقادم عهد الحضارة

كما توالت الحفريات في العراق ظهرت لنا آثار جديدة تدل على حضارة السلف، ومعظم الآثار عن حضارة العراق القديمة لا يزال مدفوناً تحت أطباق الثرى متوارياً عن الأنظار. وكل ما كان يحكى عن الآشوريين والكلدانيين والعيلاميين لم يكن يخرج عن حدود ما ورد في بعض فصول التوراة وما قيل عن سياحات «هيرودوتس واكسنوفون واسترابون»، ولم يكن اسم الشعب الشومري معلوماً إلا قبل بضع سنوات، لذلك لم يكن هناك من يجسر على القول بأن حضارة العراق تضارع حضارة مصر في قدمها. أما اليوم فلم يبق شك في أن حضارة العراق القديمة لم تكن متأخرة عن حضارة مصر في شيء؛ إن لم تكن هي السابقة لها في القدم، وأن الكنوز الأثرية لا تزال مطمورة في جميع أنحاء العراق لم تمسها آلة الحفارين والمنقبين بعد.

وهنا نذكر كلمة للبروفسور «كلي» العالم الأثري الأمريكي الذي كان قد قدم العراق وألقى على المعلمين محاضرة في المدرسة الثانوية في شتاء سنة ١٩٢٥، فقد قال: «لو أتت عشرات البعثات الأثرية إلى هذه البلاد واستمرت في العمل ٢٠٠ سنة لا تستطيع أن تكشف جميع الكنوز الأثرية التي في أرضها»». فلا يعلم والحالة هذه المدى الذي يرجع إليه مبدأ الحضارة في العراق بعد أن اكتشفت في «أوريا» آثار حضارة زاهية وبقايا قصور مشيدة يرجع عهدها إلى ٤٦٠٠ سنة قبل الميلاد، أي: قبل عصر الأهرام بقرون كثيرة.

١٧ قرناً قبل توت عنخ أمون

ليست الاكتشافات الحديثة التي عثر عليها المستر «وولي» في الشهر الماضي أقل قيمة من الوجهة العلمية والتاريخية من الاكتشافات التي عثر عليها المستر «هوارد أرثر» منذ أربع سنين في وادي الملوك، فإذا كانت آثار «توت عنخ أمون» تمثل الحضارة المصرية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد فإن التحف التي ظهرت في قبر الملكة «شوباد» ملكة «شومر» على يد المستر «وولي» في الشهر الماضي تمثل حضارة «الشومريين» إلى ما قبل القرن الثلاثين قبل الميلاد، أي أنها سابقة لعهد «توت عنخ أمون» بنحو سبعة عشر قرناً.

العظمة الحربية التالدة

يروي لنا التاريخ العربي أن أمير البصرة «معن بن زائدة الشيباني» كان يصيغ نصول سهامه من الذهب، وذلك ما حمل شعراء عصره على التغني بعظمته والإشادة بمدحه وإطراء سلطانه. ولم يكن يحكم أحد بأن ملوك العراق وأمراءه قبل خمسة آلاف سنة أو أكثر كانوا يلبسون الخوذة الذهبية ويتمنطقون بالخناجر المرصعة بالحجارة الكريمة، ولكن ذلك ما تثبته لنا الآثار التي أودعت المتحف العراقي قبل بضعة أيام.

ومن أهم الآثار التي وقعت في حصة المتحف العراقي وشاهدناها خوذة ذهبية كبيرة تلبس على الرأس وتغطيه حتى أسفل الأذنين، وتتجلى دقة الصنعة في هندامها ونقشها وإتقانها، ولها عقدة كبيرة لطيفة تشبه عقدة العقال في مؤخرة الرأس، وللأذنين فيها محل ناتئ مصنوع على قدر الأذن، والقسم الواقع أمام الأذن وتحته يكفي لأن يستر الصدغين والوجه، وبجانب الخوذة الأسلحة الذهبية الأخرى وهي عبارة عن خناجر وحراب ذهبية وضعت في المتحف وشكلها بديع يدل على عناية الشعب الشومري بأسلحته الحربية، وجميع ذلك قد ظهر في الحفريات الأخيرة التي نحن بصدد ذكرها.

حسن الذوق

لقد ألفنا في عصرنا هذا أدوات الزينة الدقيقة للرجال والنساء، وشاهدنا أنواعها المختلفة، ومع ذلك لا نتمالك من إبداء تعجبنا عندما نرى قرطاً جميلاً أو خاتماً أو دبوس صدر يوضع على رباط الرقبة أو ما شاكل ذلك، ولكن الأعجب من جميع ذلك أن نجد من هذا القبيل ما كان مألوفاً في العراق قبل خمسة آلاف سنة؛ ففي المتحف العراقي اليوم دبوس فضي ملتوي الرأس وعلى قمته تمثال قرد صغير لا يزيد ارتفاعه عن ثلث قيراط، فيه من دقة الصنعة وجمال المنظر ما يدهش الناظر.

إن مثل هذا الدبوس كان يحلي عصائب النساء في ذلك العهد أكثر مما كان يحلي صدور الرجال، وعلى كل حال فهو دليل على حسن ذوق الأسلاف وتفننهم في أساليب الزينة. وهناك دبوس آخر ينتهي رأسه بحجر كريم «لازوردي» ودبابيس أخرى مجردة.

التماثيل

من أجمل التماثيل التي ظهرت في الحفريات الأخيرة والتي أودعت المتحف العراقي رأس أسد ورأس ثور، وكلاهما من البرونز، إلا أن رأس الأسد يضرب إلى اللون النحاسي. والذي يدهش الناظر أن التمثالين عيناهما الصناعيتان اللتان قد قلدت الطبيعة في صنعهما أجمل تقليد، وقد وجدنا كثيراً من التماثيل المصرية والإفريقية والرومانية وشاهدنا صورها فلم نجد إلا عيناً من مادة التمثال نفسه، وقلما شوهدت تماثيل لها أعين تحاكي العين الطبيعية وتقلدها. أما في هذه التماثيل فالأعين تكاد تجعل التمثال حياً يحدق في وجه الناظر إليه.

الحلي والمصوغ

يظهر من القلائد الذهبية التي أودعت المتحف أن الشومريين كانوا يميلون جداً إلى تقليد الطبيعة في معظم مصنوعاتهم وأدوات الزينة عندهم. فهذه القلائد الذهبية عوضاً عن أن تكون على شكل عقود الخرز كما ظهرت بين آثار الأكاديين والآشوريين، وفي «بابل» نجد هذه القلائد منظمة من

قطع ذهبية ومطروقة ومسننة على هيئة أوراق الأشجار، وكانت هذه القلائد تحلي صدور الأوانس والسيدات قبل خمسة آلاف سنة. انتهى. وإنّما ذكرت هذا لتعلم أن الله الذي أنزل القرآن أبدع الجمال في تلك الحيوانات وغيرها؛ هو الذي أودع في قلوب الناس حبّ الجمال. فطائفة فتنت به فهلكت وطائفة أبيح لها فاعتدلت وما طغت، وقد ظهر هنا أن الناس قديماً وحديثاً مغرمون بالتحلي بكل جميل وهذا التحلي مباح. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع: في قوله تعالى في هذه السورة:

﴿ لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ ﴾

اعلم أن الصناعات كلها فرض كفاية كما تقدم في أكثر هذا التفسير، ومنها صناعة الحلي التي رأيتها فهي مباحات للابسين وواجبة وجوباً كفائياً على الصانعين. وبيانه أن هذه الحلي وإن كان لبسها مباحاً أو مندوباً لم تخرج عن كونها إحدى الصناعات إذ لم يقم بها طائفة من الأمة، ولو كانت للزينة كهذه الحلي اضطر الأغنياء إذا أرادوا أن يستعملوا الحلي أن يجلبوها من البلاد الأخرى، وهذا من أهم أسباب خراب الأمم كما هو الحاصل الآن في بلاد الشرق كمصر وغيرها، ففرق ما بين اللابسين والصانعين، بل الأمر فوق ذلك، لو أن امرأ وجدت فيه قابلية أكثر من غيره لمثل هذه الصناعة؛ وجب على رجال الدولة أن يخصصوه بهذه الصناعة تعلماً وتعليماً، فيكون فرض عين عليه؛ وإن كان هو في ذاته فرض كفاية، والأمة كلها تذنب إذا تركته كلها، والله هو الولي الحميد. انتهى الفصل الرابع.

الفصل الخامس: في قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[الحجر:١٦]

اعلم أن الله عز وجل لم يخلق الخلق عبثاً ومن أعجب خلقه الجمال والنقش والتصوير الذي رأيته في نحو الصورتين السابقتين. أما العامة وسائر الجهلاء بل مثلهم أكثر المتعلمين في ديار الإسلام؛ لا يهتمون بهذا الجمال، لأنهم غالباً محرومون من تذكير المذكرين به، وفاقد الشيء لا يعطيه. إذن هذا الجمال لطائفة خاصة من الناس وهم المفكرون.

تعجب ثم تعجب من نظم القرآن، لم يقل الله: وزيناها للابسين ولا زيناها للعاملين؛ بل جعل هذه الزينة خاصة بالناظرين، وهؤلاء الناظرون الذين زين لهم السماء هم المفكرون في خلق السماوات والأرض. فأما بقية الناس بالنسبة لهم فهم أشبه بالخدم والعبيد مسوقون للنظام العام، ولا ملوك لهؤلاء إلا حكماؤهم المفكرون فهم الذين زين الله لهم السماء.

حكمة باهرة في خرافة ظاهرة

لقد كنت في زمن الصبا أسمع في قريتنا الناس إذا رأوا في السماء سحاباً متقطعاً زمن الشتاء لا مطر فيه يقولون: إن السماء ازينت فهذا اليوم مات فيه عالم، فهم يظنون أن العالم إذا مات زين الله السماء له. أقول: وهذه الخرافة من الحقائق لأن الله يقول: ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحجر:١٦]، ولا ينظر إلا المفكر العالم.

إذن زينة السماء لن تكون إلا لمن يفرح بالزينة ويعقلها. فانظر كيف كان هذا الجمال مصائب على صغار النفوس الذين هم كالشياطين، وحلالاً للابسين وعملاً واجباً على العالمين، وزينة للمفكرين، والحمد لله رب العالمين.

الفصل السادس: في قوله تعالى بعدها:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾

اعلم أن هذه الآية أشبه بآية يوسف عليه السلام إذ ذكر القصة بتمامها ثم أفهم القارئين أن هذه القصة من آيات الله وهي كثيرة. وإذا كانوا لا يعقلونها فكم تركوا آيات في السماء والأرض فلم يعقلوها فهذه عادتهم، هكذا هنا يقول سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ [الكهف: ٧]، وهذه الزينة إنّما أبدعها لينظرها ويعقلها المفكرون.

إذن ليست قصة الفتية في الكهف أعجب آياتنا. فكم لنا من آيات ومنها صور الحيوانات والنباتات البديعة البهية السارة للناظرين. ولكن هذه العجائب والجمال والزينة ليست مقصودة لذاتها بل أنا سأجعلها ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾[الكهف: ٨] وأزيلها من الأرض. فإياكم أيها الناس أن تجعلوها قبلتكم وتؤموها مقصدكم، فما ذلك الجمال إلا صور من العوالم زوقتها لتدرسوها. كتبتها بيدي كما تكتبون في الألواح للصبيان فإذا قرأتموها محوت ما كتبت وجددت غيره. وما هذه الصور المتلاحقة إلا دلالة على جمال أعلى فانتهزوا الفرصة واخزنوا هذه الصور الجميلة في خيالكم وادرسوها في عقولكم حتى ترجعوا إليّ وقد علمتم نموذج أفعالي وجمال حكمتي ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].
انتهى ليلة الأحد الثالث من شهر شوال سنة ١٣٤٦هـ.

شمس عقد الزينة في بهجة الجمال

ألا يا رعى الله العلم وحيا أهله وأنار سبل الهدى بنوره. الجاهل لا يعقل الجمال، ليس الجمال كل الجمال ما يفهمه ذكران الناس والأنعام والغنم والبقر والآساد والخنافيس من محاسن إناثها، ولا ما يفهمه الإناث من قوة ذكورها وجمالهم. هذا جمال حيواني شهوي تساوى فيه الإنسان والحيوان قد أعد لغرض خاص وهو التنازل. ألا إنّما الجمال كل الجمال ما خبأته يد الأقدار عن عيون الجاهلين وأبرزته لبصائر الحكماء والعلماء والفهماء.

أول الجمال جمال البصر. وثانيهما جمال البصيرة. أبصار الجهال كأبصار الخفافيش لا ترى الصور والسبل إلا حيث يكون الظلام. وبصائر الحكماء والعلماء أشبه بأبصار سائر الحيوان ترى بنور الشمس من الصور والجمال وأنواع المحاسن ما أظلم على أعين الخفافيش في وضح النهار.

أكثر أهل الأرض الجاهلون وأقلهم الحكماء والمستبصرون، والله عز وجل لم يدع طريقاً لفتح البصائر حتى يلج منه الجهال إلى حظائر الجمال في العلوم والمعارف إلا أوضحه وجلاّه، ولا سبيلاً من سبل الهداية إلا سنها وسهلها. ألا إنّما مثل عقول الناس بالنسبة لجمال هذا الوجود كمثل الأرض، ومثل العلم كمثل الماء، والله تعالى يقول في الأولى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فصلت: ٣٩]، وهذا أمر مشاهد، فالناس يرون الأرض وهي ساكنة خاشعة لا مرعى فيها ولا نبات ولا شجر ولا حيوان، إذا مطر أصابها فتراها أخذت تتفتح وتنفلق عن صغر الحشائش والشجر وأنواع النبات فتزهر وتنمو وتصير عروساً جميلة شابة مقبلة بعد أن كانت عجوزاً شوهاء مدبرة.

الله أكبر، هكذا العقول، فإنك اليوم ترى أكثر العقول في بلاد الشرق نائمة خاملة خامدة هامدة. ولكن انظر انظر. فهاهو ذا يحييها ويخرجها من جهالتها وينيرها، ويقضي على ظلمتها. ألست ترى أن أهل الشرق الآن أخذوا يقرؤون العلوم ويحبونها ومنهم بل أكثرهم المسلمون.

ومن هذه النهضة الحديثة هذا التفسير الذي شرح الله قلبي له وزينه فيه وجعلني أكتب بشوق وحبّ عظيمين، وسترى في هذا المقام من الجمال والبهجة ما يشرح صدرك وصدور المؤمنين لحوز العلوم على اختلاف أنواعها وفنونها، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور: ٤٦].

إن قياس العقول الإنسانية على الأرض وقياس العلم على الماء جاء في نفس القرآن فليس هذا بدعاً فالله يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾[الرعد: ١٧] الخ فجعل الله القرآن والعلم أشبه بالماء والعقول أشبه بالأودية. وجاء في حديث البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، الخ»، فإذن هذا التشبيه معروف معقول، وإنّما أوضحته لأرتب عليه ما ترى من الجمال.

حصر أهم الطرق التي بها تثار العقول لإدراك الجمال وفهم زينة هذه العوالم

(١) خوارق العادات على أيدي الأنبياء.

(٢) ظهور غرائب من العلم على ألسنة قوم لم يتعلموا وهم صلحاء في أمة الإسلام.

(٣) غرائب من العلم ينتجها الخيال الإنساني فيثير في النفوس حب المعرفة فتدرك الجمال.

(٤) الجد والنصب في معرفة العلوم، وذلك بطريقين: طريق الدراسة المعروفة، وطريق السير في الأرض لمشاهدة العجائب الطبيعية.

فهذه خمس طرق: (١) طريق الأنبياء. (٢) طريق الأولياء. (٣) طريق وضع القصص والأخبار لأجل الحكمة. (٤) طريق التعليم في المدارس. (٥) طريق السير في الأرض كالسفر إلى القطبين مثلاً كما سيأتي بيانه.

الطريق الأول: طريق الأنبياء ومعجزاتهم

قلت لك إن أكثر العقول في هذا النوع الإنساني خامدة جامدة خمود الأرض وجمودها، وقد ابتلاها الله جميعها بالسير في الأرض لطلب المعاش ومدافعة الأعداء، حتى سد عليها طرقها وعميت عليها مسالكها، فأرسل أنبياء فجاؤوا بمعجزات، فرأوا أو سمعوا أن العصا قلبت حية، والميت قد حيي وأن أقوالاً نزلت على لسان لم يتعلم، فخر له المتعلمون من الأمم سجداً وخضعوا له. سمعت ذلك الأمم أو رأته، فقالوا أيام موسى: كيف تقلب العصا حية؟ فقال قوم: هذا يدل على أن هناك قوة فوق قوتنا، وهذه القوة بها صار هذا نبياً. فأخذوا يفكرون في العالم وفي صانعه. وقال آخرون: كلا، هذا سحر فنحن لا نصدقه.

فإذن يكون الناس فريقين: مصدق ومكذب، وهناك يكون جدال ونضال وأخذ ورد، وهذا فتح لباب العلوم والمعارف ومعرفة الجمال في هذا الوجود. إن الله قد جعل هذا العالم كله قائماً على الإعطاء بعد المنع.

وبعبارة أخرى: على الشوق. فأما شوق أحد الصنفين للآخر فهو طبيعي والجمال فيه لا يعوزه كبير عناء. أما الشوق لمعرفة جمال هذه الدنيا وما على الأرض من الزينة؛ فإنه لا يحصل إلا بمقدمات تتقدمه، ومنها: ثورة الفكر بحرب، أو ظهور بني يحدث حوله جدال. وبالجملة فكل ما يؤلم النفوس أو يهيجها يفتح لها باباً من أبواب المعرفة ويصقلها أنواع المزعجات من صروف الليالي، وثورة الأفكار كلها صاقلات للعقول منيرات لسبل العلوم وإدراك الجمال.

هنالك ينقسم المؤمنون فريقين: فريق لا يتعدّون الإيمان بالأنبياء، وفريق يقولون: إننا إذا رأينا أو سمعنا أن العصا قلبت حية؛ أو أن ميتاً رجع حياً على يد نبيّ؛ أو أن نبياً قرأ للناس قرآناً؛ فاتبعته أمم وأمم من دول شتى ولغات مختلفة وهو لم يتعلم حرفاً واحداً؛ فمعنى أن هذا الوجود فيه عجائب مخبوءة عنا وجمال مستتر، فلنمض قدماً في العلم ولنجدّ حتى نعرف قصة هذا الوجود الذي نعيش فيه، وقصة العصا والحية تفتح لنا باباً لدروس علوم العجائب وهي الكيمياء والطبيعة وأمثالها من كل ما يعرفنا جمال هذه الدنيا، وقصة الميت الذي حيي على يد المسيح كذلك تشير لنا أن ندرس مناهج عجائب الحيوان والنبات كما سيأتي في سورة « مريم ».

هذا إجمال الكلام على الطريق الأول وهو طريق معجزات الأنبياء الموقظات عقول الناس لإدراك ما على الأرض من زينة وجمال.

الطريق الثاني: العجائب التي تظهر على أيدي الصلحاء

أمامي الآن كتابان أحدهما: كتاب « الإبريز » ألفه نجم العرفان الحافظ الشيخ أحمد بن المبارك وهذا الكتاب يشهد بأن هذا المؤلف قرأ علوم الأوائل الفلسفية وعلوم الدين الإسلامي، وقد كان في القرن الثاني عشر الهجري، ولكن هذا العلامة النحرير يجلس أمام الشيخ عبد العزيز الدباغ الذي لم يتعلم علماً ولا ديناً؛ فيجد الرجل حكيماً في كل علم ديني أو فلسفي، فصار الشيخ ابن المبارك تلميذه يتلقى عنه العلم، وهذا عجب أن يكون من لا علم عنده أعلم من علماء الإسلام جميعاً بعلومهم وغيرها.

ومعنى هذا أن الله عز وجل يخلق في هذا العالم خوارق لعوائدهم تقرع أسماعهم وتوقظهم إلى التعقل والتفهم، وإنّما فعل ذلك الله في ذلك الزمن لأنه زمان جهالة والمسلمون قد أدبرت دولهم وذهبت ريحهم وكثرت خرافاتهم، فجاء لهم بالعلوم من طريق ما يعتقدون، وهم لما أدبرت دولهم وغابت شمس علومهم كانوا قد عكفوا على قبور الصالحين وتقربوا إليهم وطلبوا منهم المعونة، فأرسل الله لهم في ذلك الزمن علوماً على ألسنة بعض الصالحين ليرشدوهم، ويقولوا لهم: أيها المسلمون، أنتم في ضلال فارجعوا عنه وافهموا بعقولكم ولا تتكلوا إلا على ربكم، والصالحون والأنبياء ما هم إلا عبيد امتازوا عنكم والله ربكم وربهم. هذه بعض الحكم في خلق هذه النفوس النادرة الوجود في أمة الإسلام، هذا أحد الكتابين.

أما الكتاب الثاني فهو كتاب « درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص »، ومعه كتاب آخر وهو كتاب « الجواهر والدرر » مما استفاده الشيخ عبد الوهاب الشعراني من شيخه علي الخواص وكلا الكتابين للشعراني، وكان ذلك في القرن العاشر الهجري، أي: قبل ابن المبارك بقرنين.

إذن الموقظات للأمم الإسلامية تترى عليهم من حيث لا يشعرون، فيكون ظهور الحكمة على ألسنة بعض الصالحين في فترات لتوقظهم. ولكن يظهر أن هذا الزمان هو الذي سيكون فيه أجلى ظهور للعلم وأبهج السبل وبدائع العرفان.

فانظر إلى ما جاء في الكتاب الأول، فقد سأل الشيخ ابن المبارك شيخه الدباغ قائلاً ما ملخصه: إن الناس يستغيثون بالصالحين دون الله عز وجل ولا يحلفون إلاَّ بهم ولا يخافون إلاَّ منهم، فأجابه بما يفيد أن هناك أسباباً أوجبت انقطاع الناس عن الله عزَّ وجلَّ طرأت على هذه الأمة من غير أن تشعر بها. وهذه الأسباب التي أوجبت ارتباط قلوبهم بالصالحين وانقطاعها عن الله عز وجل، وذكر منها:

(١) الهدية للصالحين ليشفعوا لهم عند الله لوجه الله.

(٢) والتوسل للصالحين بالله عز وجل ليقضوا حاجاتهم.

(٣) أن يترك المسلم فرض الصلوات ويزور الصالحين.

(٤) أن يخاف الإنسان من الظالمين على العمر والزرق، مع أن المرء إذا قوي عمله بتصرف الله وحده في ذلك قرب منه بقدر ذلك العلم.

(٥) التقرب للظالم لينال منه رزقاً.

(٦) عدم النصيحة للمسلمين، إذ يرى ما يضرهم ولا يأمرهم بالتحرز منه، ويرى ما ينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له.

(٧) أن يعبد الإنسان ربه ليرحمه وينفعه، مع أن الأفضل أن يقصد وجهه مرة واحدة لا حظ الدنيا ولا الآخرة. انتهى.

وجاء في كتاب الشعراني حكم، مثل أن الشعراني رضي الله عنه سأل شيخه الخواص عن الأوراد التي يقرؤها المريدون التي لم ترد في الشرع مثل ما فعله البوني. فأجابه شيخه المذكور بما يفيد أن عباد الأوثان أحسن حالاً من هؤلاء، لأن هؤلاء اتخذوا هذه الأوراد لأجل النصر والجاه والرزق وانقياد الخلق لهم، وعباد الأوثان قالوا: إنّما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى.

وقال له في موضع آخر من آخر الكتاب الثاني: إن الشيخ يلقن ألف تلميذ أذكاراً وأوراداً فلا ينتج له مريد واحد. وعلى ذلك لا يعول هؤلاء الأشياخ في هذا الزمان ولا على أورادهم. أقول: إن هذا مبالغة ولكن فيه حقائق.

واعلم أيها الذكي أن هذه الكتب وأمثالها قد قرئت في أمة الإسلام في القرون المتأخرة وفيها حكم كثيرة جداً وعلوم جمة، ومنها علوم لم تكن معروفة وظهر بعضها في الكشف الحديث، ولكن فيها هناك أمور أخرى غامضة، وبعضها لا يوافق الحقائق. أتدري لم هذا؟ لأن الله يأتي بالمتناقضين في هذه كلها ليوجب علينا البحث والتنقيب ولا يجعلنا متكلين على أحد لا على الأولياء ولا على غيرهم، بل لا نتكل إلا على الله.

والله هو الذي أعطانا العقول، والأنبياء أيقظونا لاستعمالها، فحرام أن نترك عقولنا ونتكل على أحد، ولذلك جاء هذا التفسير وأمثاله من كتب المعاصرين لنا لنجدّ في بحث العلوم والحكمة بأسرها لنعرف الجمال فالعلم جمال، وما أقبح وصف الجهال.

الطريق الثالث: غرائب العلم التي ينتجها الخيال الإنساني فيثير في النفوس حب المعرفة فتدرك الجمال

إن العقول الإنسانية التي ليست بأنبياء ولا أولياء هي نور مستمد من نور الله عز وجل، فكل نور فهو مستمد من نوره. ولو خلا الإنسان بنفسه وفكر فيها لدهش من هذا العقل والخيال اللذين يسموان به إلى الأفلاك ويقطعان فيافي وموامي ومجاهل تخترق السبع الطباق وتهيم في تلك المخارق الفسيحة ولا تقف عند حد، ثم هي تعرج في مجاهل بعد مجاهل فتعرف ما شاء الله من الكواكب الثابتة طبقاً عن طبق ودائرة وراء دائرة إلى أن ينقطع الفكر، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣١]، ثم نراهما يرجعان إلى الأرض ـ أي الخيال والعقل ـ فيخترقانها ويجوسان خلالها ويدرسان معادنها وفحمها، ثم يغوصان على جواهر علومها فيقولان: إن هناك بحراً من نار في داخلها بحسب ما يتخيل المتخيلون. فهذا العقل وهذا الخيال الجميلان المرسلان من الله عز وجل لنا ـ الذي أحاطنا بالأنوار الحسية والأنوار المعنوية ـ هما اللذان بهما اخترعنا أنواع النقش والتصوير والنحت والشعر والموسيقى وأنواع صور الجمال والبهاء في هذه الدنيا، ومن ذلك الاختراع ما أنتجته العقول في علم البيان والبديع من الصور الجميلة الخيالية، مثل تشبيه معركة حربية واختلاف السيوف فيها بهيئة ليلة انتثرت نجومها وهي مضيئة في وسط الظلام وتقول:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ولا ريب أن الشعر وبدائعه أمر مشهور معروف فلا نطيل به. وأبدع من ذلك ما تراه من ضروب الخيال والسحر الحلال الذي يسميه الناس خرافات في أمثال كتاب «ألف ليلة وليلة» وكتاب «كليلة ودمنة»، وفي الثاني: محاورات بين أنواع الحيوان فيها ضروب الحكم والعلوم والسياسات. وفي الأول: اختراع أقاصيص تصور الأمور المستحيلة فتشوق العقول للاغتراف من بحار العلم. فهذه أكاذيب جعلت وسيلة للصدق في العلوم لقوم يعقلون.

وأذكر لك منها الآن قصتين اثنتين: قصة مدينة النحاس، وقصة أبي قير وأبي صير.

القصة الأولى: قصة مدينة النحاس

إن المؤلف اخترع قصة خيالية ملخصها: أن موسى بن نصير المعروف في التاريخ أنه هو وطارق ابن زياد فتحا الأندلس؛ كان معه رجل يقال له الشيخ عبد الصمد، وقد كان أمامهما جني من الجن التي حبسها سليمان عليه السلام في عمود، ولما خرج من العمود حكى لهما عن تاريخ حبسه وعن كل ما جرى له من أيام سليمان إلى أيام عبد الملك بن مروان وموسى بن نصير، وبعد ذلك رأيا مدينة من النحاس التي طاف حولها رجال على خيولهم يومين كاملين، وفي ثالث يوم رجعوا إلى إخوانهم فأدهشتهم المدينة لعظمتها وارتفاع أسوارها، ثم اجتهدوا حتى عثروا على مفاتيحها ففتحوها ووجدوا فيها من الجواهر والذهب والفضة ما لا حصر له، والقوم فيها صرعى جميعاً، والأسواق مفتحة والبضائع كثيرة، وهي خلية إلا من جثث الموتى، وإنهم عثروا على فتاة جميلة بعينين تنظران فسلما فلم تردّ، فعرفوا أن هذه ميتة، ولكن عينها تتحرك بالحكمة فالحركة صناعية، ولما قرب واحد منها تحرك سيافان واقفان حولها بتصوير الحكمة، فضرباه بالسيف فقتلاه، وقد كانت محلاة بأبدع الحلي التي لا

نظير لها في المدينة فتركوها، ثم وجدوا لوحاً مكتوباً فيه ما ملخصه: «إن ترمز ابن بنت عمالقة الملوك قد حبس المطر عن مملكته سبع سنين ولم يبق شيء يأكلونه بعد أكل الدواب والجيف، فأرسل بالمال من طاف الأقطار فلم يجد قوتاً يشتريه، فأغلقنا حصوننا ومتنا وهذه أموالنا لم تفدنا».

ولما رجع الأمير موسى ومن معه إلى عبد الملك بن مروان أخبره بما حصل، وأراه اثني عشر قمقماً من القماقم التي زعموا أن فيها جناً، وكلما فتح عبد الملك قمقماً خرج له شيطان صارخ يقول: التوبة الله يا نبيّ الله وما نعود لذلك أبداً.

هذا ملخص القصة، والقارئ لها أحد رجلين: إما جاهل يعتقد صحة هذه الخرافات التي لا توافق الحقائق ولا التاريخ، ولكنه قد خرج بعلم وحكمة وأشعار كلها حكم تزهد في الدنيا وتصغرها في عينه؛ وإما عالم أدرك أن هذا مجرد خيال وقد خرج بحكم وشعر وجمال.

ولا جرم أن أمثال هذا من الزينة التي زين الله بها أرضنا فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، فهذه زينة لم تكن زهر البساتين ولا نور النجوم، وإنّما هي أنوار العقول برزت فبهرت قوماً وهدتهم، وأضلت آخرين فأغوتهم. انتهت القصة الأولى.

القصة الثانية: قصة أبي قير وأبي صير

وملخصها أن الإسكندرية كان فيها رجلان صباغ وحلاق. فأما الصباغ فإنه كان رجلاً كاذباً خادعاً يبيع ما يعطى له ليصبغه. وأما الحلاق فكان رجلاً صادقاً مخلصاً، وقد عضهما الفقر بنابه فخرجا معاً في بلاد الله يطلبان الرزق، فصار الحلاق يعول الصباغ أسابيع وأسابيع.

ثم إن الحلاق أصابه مرض وأغشي عليه، فسرق الصباغ الدراهم من جيبه وأقفل عليه الحجرة وسار في المدينة التي هما فيها يتجول فيها، وقابل الصباغين فوجدهم لا يعرفون إلا قليلاً من فن الصباغة، فتوجه للملك وأخبره قائلاً: أنا أصبغ ألواناً كثيرة، مثلاً: الأحمر منه الوردي والعنابي، والأخضر منه الفستقي والزيتي وجناح الدرة، والأسود منه الفحمي والكحلي، والأصفر ألوان مختلفة منه النارنجي والليموني، وهكذا، فأمده الملك بالمال وفتح له مصبغة صبغ بها جميع الألوان، وأقبلت الدنيا عليه من كل حدب وصوب.

ثم إن الحلاق بعد أن هرب الصباغ بقي ثلاثة أيام وهو في الغيبوبة، وفي اليوم الرابع أفاق فعلم أن صاحبه هرب ومعه نقوده فصار يتعهده جيرانه، ولما صح جسمه خرج في المدينة فوصل إلى المصبغة المذكورة، فوجد صاحبه فيها، فلما رآه أمر بضربه ضرباً شديداً، فرجع حزيناً بائساً.

ثم خطر له أن يستحم في الحمام، فلم يجد في البلاد حمّاماً، فتوجه إلى الملك فواساه بمال كثيرة جداً وصنع الحمام واستحم فيه الملك وجنوده ومن أراد من الناس، ومنهم الصباغ، فجاء إليه فعرف أن الحلاق هو الذي فتحه، فأخبره بأنه لما ضربه لم يعرف أنه هو، وحلف له على ذلك، فتصافيا وتصادقا ثانياً لأن الحلاق صدقه.

ثم إن الصباغ قال للحلاق صاحب الحمّام: ضع الزرنيخ على الجير وأزل به شعر الملك حينما يدخل إلى الحمّام، ثم ذهب إلى الملك فقال له: إنه يريد قتلك بدواء قتّال، فلما دخل الملك الحمّام دلكه الحلاق كعادته، ولما أظهر الدواء الذي ينظف الشعر أمر بأن يمسكوه، ولما خرج من الحمّام أعطاه لرجل

ليرميه، فأخذه الرجل وتوجه به إلى جزيرة وقال: لا أقتلك بل خذ شبكة واصطد سمكاً، فوقعت سمكة في الشبكة، فرأى فيها خاتم الملك الذي سقط منه وهو يأمر بأن يرمى الحلاق في البحر، فلبس الخاتم وصار كلما أشار على إنسان بيده قتل وهو لا يشعر، فدهش أشد الدهش، وهذا الخاتم هو الذي لا يحكم الملك إلا به، فلما سقط منه بقي ضعيفاً والقوة انتقلت إلى الحلاق، فلما عرف هذه الخاصية في الخاتم حفظه معه، وتوجه إلى الملك فقال له: أنا أمرت بقتلك فكيف جئت حياً؟ فأخبره الخبر وأن هذا الخاتم خاتمك وإني أخاف أن أشير به فيقتلك أو يقتل أحداً من حاشيتك، فتقبله الملك منه وشكره شكراً جزيلاً، وطلب الصباغ وحقق أمر هذه السعاية، فعرف بعد التحقيق بينهما أن هذا الدواء ليس سماً، وأنه يريد قتل الحلاق الذي أحسن إليه بعد أن عرف قصتهما، فأمر الملك بأن يفضحوه في البلد ويضعوه في زكيبة ويرموه في البحر.

وأما الحلاق فإنه استأذن من الملك بعد أن عرض عليه أن يكون وزيره فرفض، فأذن له في السفر وأعطاه مالاً وفيراً كثيراً لا حصر له، فرجع إلى الإسكندرية بحشمه وخدمه، ورأى بعض خدمه أن هناك زكيبة بجوار الإسكندرية فأخرجوها فإذا هي جثة الصباغ، فأمر الحلاق بدفنها، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، وعمل لها مزاراً، وكتب على الضريح أبياتاً منها:

المرء يعرف في الأنام بفعله ... وفعائل الحر الكريم كأصله

إلى أن قال:

وتجنب الفحشاء لا تنطق بها ... ما دمت في هزل الكلام وجده

ثم عاش الحلاق ما عاش في هناء وسرور، ولما توفي دفنوه بجانب قبر الصباغ، فالصباغ اسمه أبو قير والحلاق اسمه أبو صير. فأبو قير هو الغادر الماكر الذي أحسن إليه أبو صير في حياته وبعد موته والمكان الذي بقرب الإسكندرية كان يسمى باسم «أبي قير وأبي صير»، وصار الآن يسمى «أباقير» لا غير. انتهى.

فهذه الحكاية التي أنتجها العقل الإنساني خرافة، ولكن الخرافة فيها موعظة حسنة، والموعظة هي أن فاعل الخير عاقبته السلامة، والغادر الخائن عاقبته الندامة، فأبو قير خائن فمات مقتولاً، وأبو صير صادق فعاش في نعمة وحبور.

وللأمم الأوروبية حكايات مثل هذه ألفوا لها الكتب ويقرؤها صغارهم وجهالهم، فيها صور من الخيال ينتفع بها الجهال والأطفال، كما في حكاية البنت المستضعفة المتواضعة التي ذهبت إلى البئر لتملأ منها، فقابلتها عجوز فطلبت منها الماء فسقتها، فدعت الله لها أن يخرج من فمها كلما نطقت جواهر وورد، فلما رجعت أدهشت امرأة أبيها بالورد والجواهر، فأرسلت امرأة أبيها ابنتها إلى البئر، فأظهرت الكبر على السيدة الجميلة التي قابلتها هناك، فدعت عليها أن يخرج من فمها عند الكلام الحيات وأنواع الثعابين، فلما رجعت إلى أمها ورأت ذلك طردتها من البيت ثم خرجت فماتت. أما البنت الأولى فلما رآها ابن الملك تزوجها.

وهناك حكايات أخرى كثيرة تمثل الصدق والكذب والخيانة والأمانة وهكذا، وفيما ذكرناه كفاية. انتهى الكلام على الطريق الثالث للعلوم الذي ينتجه الخيال.

الطريق الرابع : طريق التعليم في المدارس

وهذا معلوم مشهور، وهذا يرجع الأشياء إلى حقائقها كما رأيت من دراسة الألـوان بإرجاعها إلى ألوان الشمس السبعة .

الطريق الخامس : طريق السير في الأرض

وهذا هو الذي نريد إفاضة فيه ، ولقد ذكرنا فيما سبق قريباً عجائب ألـوان الحيـوان من حيث كونها زينة ، وهكذا أنواع الماء الجميلة التي تنبع مـن الأرض وهي حـارة وسط الثلـوج أو من مواضع حجرية ، وهذا يعرف بالسير في الأرض ومشاهدة هذه العجائب . فلأذكر الآن عجائب مما على الأرض من الزينة التي تشترك فيها غرائب الأرض وبدائع النور في السماوات . فلأذكـر ما دبجه يـراع الكـاتب القدير « جورج ويليم » تحت عنوان « الضوء الشمالي » . (انظر شكل ٦) .



(شكل ٦ ـ صورة الضوء الشمالي من كتاب « علوم للجميع » ملونة بالحمرة والخضرة والصفرة الخ في الأصل)

هذا الضوء الشمالي كنت في شوق إلى معرفته لما كنت أسمعه دائماً ونحن نتعلم في مدرسة « دار العلوم » من أستاذنا المرحوم إسماعيل بك رأفت، إذ كان يقول لنا: هناك أنوار عجيبة تسمى « الفجر الشمالي » فهاهي ذه الآن أحدثك عنها من قلم العلامة « ويليم » في كتاب « علوم للجميع » قال: إن بعض الناس في بلادنا ـ بلاد الإنجليز ـ قد يرى قباباً جميلة بهجة المنظر حسنة الشكل من النور تعترض ممتدة في الأفق بسرعة، وتأخذ صورتها وألوانها تتغيران بما يعرض لها من الأشعة والأنوار التي تكون عمودية عليها.

ومن أراد أن يحظى بمحاسن هذه المناظر في أبهج جمالها وأسطع أنوارها وأعجب أشكالها؛ فليتوجه إلى خطوط العرض العليا مثل عرض (٨٢) درجة و(٢٧) دقيقة شمالاً، فقد شوهد ذلك المنظر الجميل هناك سنة ١٨٧٥ وسنة ١٨٧٦، وبعض هذه المناظر تكون ذات ألوان بهيئة قباب لماعة مشرقة متلألئة ممتدّة من أفق من آفاق السماء إلى أفق آخر منها، محلاة بلون أحمر وبآخر أصفر مشرقين بهجين.

وهذه الأنوار تسمى « الضوء الشمالي » أو « الشفق الشمالي » وإنّما سميت بهذا الاسم لأن خطوط العرض الشمالية التي تظهر فيها هذه الأنوار يؤمها الزائرون ويسافر لها محبو الإطلاع أكثر من خطوط العرض الجنوبية العليا. إن مناظر هذه الأنوار ترى في الجهات الجنوبية في خطوط عروضها العليا كما ترى في خطوط الشمال، ويسمى النور هناك « شفقاً جنوبياً ».

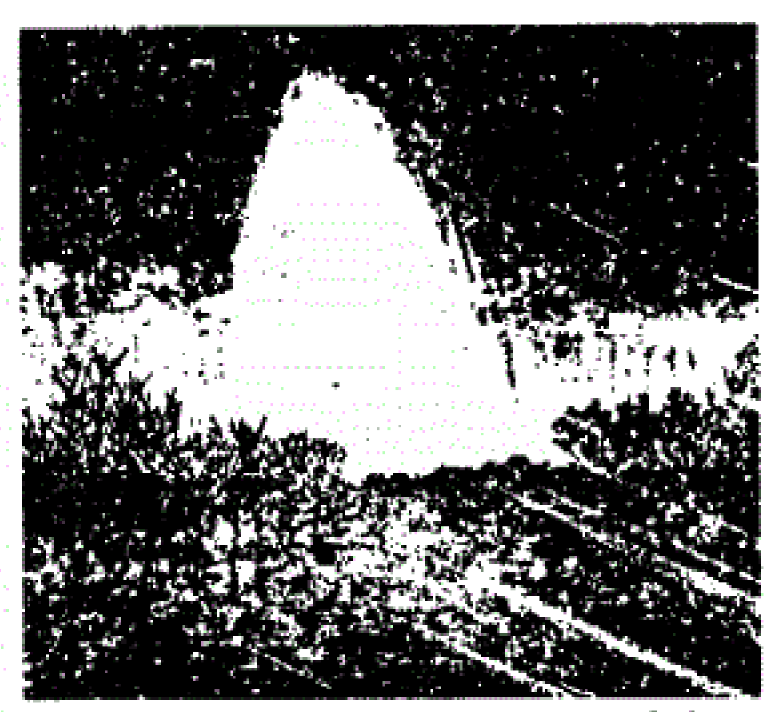
ثم قال: ونحن قد اصطفينا له اسم « النور الشمالي » وهذا الاسم مقبول عند الجمهور، وإن كانت التسمية المستعملة له عادة « الشفق القطبي ».

قال: وإذا كان بعض قراء هذا المقال ربما لا تتاح لهم الفرص لارتياد النور الشمالي في الأقطار الشمالية أو النور القطبي في الأقطار الجنوبية؛ فلنفرض أننا في الفصول القصيرة من السنة ـ أي: الخريف والشتاء ـ وقد ركبنا سفينة وسارت بنا ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾[هود: ٤١] إلى الجهات الشمالية القطبية، وليكن ذلك في أوائل فصل الخريف قبل أن يقترب منا الليل الطويل القطبي.

أقول: وإيضاح هذا أن الليل يكون ستة أشهر في السنة في الجهات القطبية من أول فصل الخريف إلى آخر فصل الشتاء، فتكون الزيارة في أول الليل أي أول الخريف، ليكون ضوء الشفق هناك كافياً لرؤية الأجسام.

ثم قال: فهناك نلاحظ أن كل ما حولنا في برد شديد وهو عرضة للرياح الشديدة، وأن هناك من الأنوار ما يكفي لترى في كل مكان تلك الصور السحرية العجيبة المناظر من جبال ثلجية عائمة على الماء في الظلام، وهناك نسمع أصواتاً هائلة بتصادم تلك الجبال الثلجية وتعارضها وارتطامها، فلا يمكننا أن ندفع عن أنفسنا الهلع والفزع والخوف من أن تقع سفينتنا بين جزيرتين من جزائر الجليد العائمة فيكون هلاكنا.

إننا نشاهد المناظر حولنا أشبه بما يفعله السحرة والمشعوذون بقضبانهم وصوالجهم، إذ تخيل لنا تلك المناظر أننا في قصور مزخرفة محلاة بأنواع الحلي والجواهر في « ألف ليلة وليلة ». وهذه صورة « الشفق الشمالي » الذي شوهد في ٢٤ فبراير سنة ١٨٧٢ عند « أورلين »، (شكل٧ و٨).



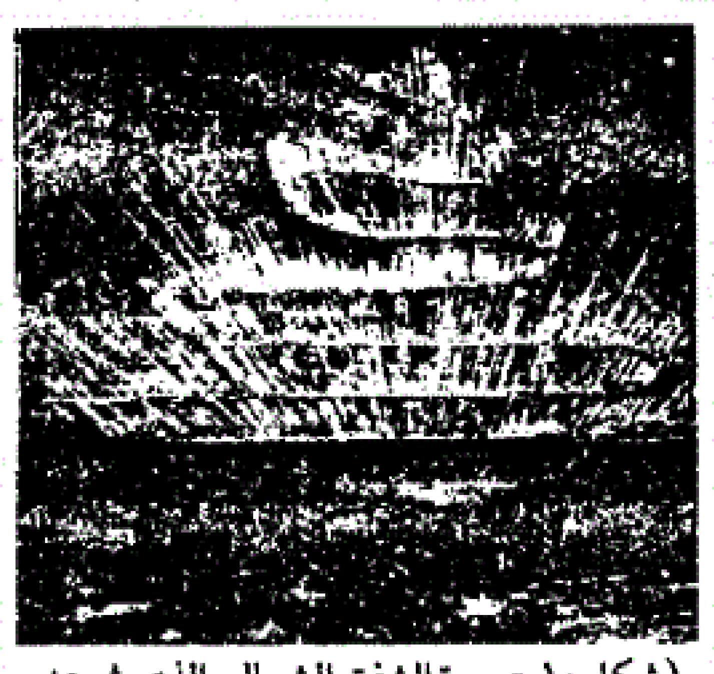


(شكل ٧ و٨ ـ صورة الشفق الشمالي الذي شوهد عند « أورلين » في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٢م)

إننا نرى هنا قباباً من النور المتلألئ البهيج ممتدة متسعة في أكناف السماء من الشرق إلى الغرب وهي تارة تكون واقفة وآونة تسير الهوينا نحو الشمال. ثم نرى ألواناً أخرى تأتي عمودية على تلك القباب المذكورة، وإذا كانت القباب تحت فإنا نرى تلك الأشعة وإن كانت متوازية غالباً تتجه إلى أن تكون على هيئة خطوط متجهات إلى نقطة سمت الرأس. وهذه الأشعة الضوئية في النادر جداً أنها تكون متجهة إلى جهة سمت الرأس في السماء، وكثيراً ما تولي وجهها شطر الشرق بهيئة حركة الثعبان التواء وانعطافاً من طرف إلى طرف، وقد يغطي هذا النور أكناف السماء. هذا نظرنا في السماء، فإذا حولّنا وجهة نظرنا إلى مباهج المناظر فيما يحيط بنا من الجبال الثلجية وهي مظلمة معتمة ساكنة فإننا لا نثق بثبات هذا المنظر، فإن هذه الجبال الهائلة تعكس علينا في سفينتنا ضوءاً مكوّناً من ألف لون آتياً لها من الجوّ فوقها. فلو رأيت ثم رأيت قمم تلك الجبال الثلجية الهائلة قد حليت بأنواع من الألوان كأنما هي محلاة بأنواع من الجواهر المختلفة الألوان وباهر الأنوار الساطعة التي تكاد تذهب بالأبصار، هذه الأشعة تظهر في صور مختلفة متنوعة ونماذج من أبهج الجمال. وهذه الأشعة قد تستبين كأنها مدلاة من السماء مثنية كهيئة الرداء. (انظر شكل ٩ و١٠).



(شكل ٩ ـ صورة الشفق الشمالي مشاهداً عند « ألاسكا » في ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٥)



(شكل ١٠ـ صورة الشفق الشمالي الذي شوهد عند « بريفلبونت » في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٣١)

هذا ما أردت شرحه في آية: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾[الكهف: ٧]. ولما كتبت هذا المقال سألني صاحبي الذي اعتاد أن يبحث معي هذا التفسير، فقال: هل هذه الآية يدخل فيها هذا كله؟ إن الزينة إذا صحت في الجبال الثلجية وفي الينابيع النابعة من الأرض لما فيها من جمال المناظر وفي مناظر الحيوان؛ لا يصح أن تكون في آراء الصوفية التي نقلتها ولا في خرافات « ألف ليلة وليلة » و« كليلة ودمنة » وأمثالها. فقلت: إن الزينة لا تختص بما يرى بالعين، وهي ثلاثة أنواع: زينة تعرف بالبصر. وزينة تعرف بالبصيرة والبصر، وزينة تعرف بالسمع. فأما الأوليان فهما كل زينة رأيناها أو عرفناها كما تقدم، والأخيرة هي التي نسمعها عن الأنبياء والصالحين أو مما تخيله أصحاب الروايات. فقال: هذا الأخير لا يسمى زينة.

فقلت: قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[الحجرات: ٧]، إذن الزينة تكون مرئية بالبصر ومرئية بالبصيرة، ولا جرم أن المجالس تزدان بزينة العلم سواء أكان دينياً أم دنيوياً. قال: أما الآن فإني قد اكتفيت. فقلت: الحمد لله. انتهى صباح الخميس ١٤ شوّال سنة ١٣٤٦هـ.

الكلام على الفصل الأول في قصة أصحاب الكهف

وهو وجهان: الوجه الأول: في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ ﴾ [الكهف: ٩] الخ

الوجه الثاني: في مقصود القصة.

الوجه الأول والثاني معاً

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ دالّ كما تقدم على أن آيات الله في السماوات والأرض لا نهاية لها، وأن أمثال هذه القصة ليست كل شيء، وهذا في الحقيقة غريب جداً وعجيب، بل إن هذه الآراء وإن كانت حقة وقالها المفسرون؛ بقيت مخبوءة عن العقول مبعدة عن ذكرها في المنقول. فليسمع المسلمون في أقاصي المعمورة كيف يقول علماؤنا رحمهم الله: إن آيات الله في السماوات والأرض أعجب من هذه القصة التي طلبوها تعنتاً، وأن الله يقول: إذا كان ولا بدّ من البحث عن أمر البعث فليكن في علوم الطبيعة وآياتها البديعة، فعلينا إذن أن نشرح ذلك في كلمات فنقول:

(١) انظر، أليس الناس ينامون كل ليلة ويستيقظون، وهذا نفسه وإن كان معلوماً أشبه بأمر البعث، ولعمري أيّ فرق بين نوم الآلاف المؤلفة من الناس ليلة؛ وبين نوم سبعة أنفس مئات من السنين؟ ألا إن الغرابة هناك هي التي ذهبت بعقول الناس فقط، وإلا فالبرهان واحد، فمتى ثبت نوم وإيقاظ لحظات كان ذلك كالسنوات، ولكن عادة الناس ألا يخضعوا إلا للغرائب.

عادة قدماء المصريين

كان الكهنة المصريون يستخدمون هذه الطريقة في عباداتهم الوثنية، ويجعلون غرابة العجل وكونه على هيئة مخصوصة نادرة جاذبة لعقول العامة، فهم كانوا مطلعين على أسرار الكون، وقد حجبوا العامة عن تلك الأسرار بالغرائب والعجائب. ألا ترى أنهم إذا مات العجل أخذوا يبحثون عن عجل غيره وهو المسمى « أبيس »؟ ولا يزالون يبحثون حتى يجدوه، فيفرح الكهنة بذلك، وتخدمه سيدات خاصات أربعين يوماً، ثم يضعونه في زورق ويذهبون به إلى الهيكل بمدينة « منفيس » مصحوباً

بالكهنة وسراة القوم وجماهير عظيمة من طبقات الأمة، ويستعملون لهذا الاحتفال ألف آلة موسيقية يوقعون عليها بمختلف الأنغام، ثم يختمون الاحتفال بأنواع الرقص المدهش وهو رقص ديني.

فما الذي أفرح المصريين القدماء بذلك؟ لا شيء إلا الغرابة، فالغرابة هي الباب الواحد لما يراد من الناس. ولكن لا تظن أني أجعل هؤلاء كأولئك، ولكن القرآن وإن كان يذكر القصة على أنها وعظ ديني مرشدة للبعث، فهو من جهة أخرى يقول: كيف يقف الناس عند هذا الحد؟ أي: كيف يكون للسلم عاكفاً على قراءة قصص الأولين. كلا، بل يقرأ ما خطه الله على لوح الوجود، فإن أراد ما هو أعجب من نوم أهل الكهف فهاكه.

(٢) لقد ذكرنا نوم الناس وقلنا لا فرق بينه وبين نوم أهل الكهف، ولكن أيها الذكي إن هذا القول غير مألوف، وأنت وأكثر الناس لا يرى فيه وضوح، فأسمع ما هو أعجب. النمل وكثير من الحشرات تنام طول الشتاء كأنها أموات، فإذا جاء فصل الربيع دبت فيها الحياة وعاشت كما كانت.

(٣) السمك إذا أثلج الماء الذي هو فيه أصبح كالثلج، فلو كسرت الثلج أو قطعته قطعاً قطع السمك معه لأنه صار ثلجاً ويبقى هكذا أمداً طويلاً. فإذا أدنيته من النار تحرك السمك وذاب الثلج.

(٤) أذكرك بما مضى في هذا التفسير أن حبة القمح الذي أصابه مرض في سنبله وهو في الحقل قد وجد العلماء فيها عشرات الألوف من الحيوانات الحية، ومتى يبست الحبة وزالت الرطوبة ماتت في تلك الحيوانات، ولقد جرب العلماء في ذلك تجارب، فمنهم من أخذ تلك الحيوانات ووضعها في الشمس أياماً ثم بلها في الماء فحييت كما كانت. ومنهم من وضعها في الشمس كذلك، ثم فرغ الهواء حولها مدة طويلة ثم بلها بالماء ثانياً فتحركت وعاشت كما كانت. ومنهم من أبقاها عنده فوق العشرين سنة وهي يابسة فلما أنزل عليها الماء تحركت وعاشت.

فالعجائب التي قال الله فيها: إنها أكثر من آية أهل الكهف، قد ظهرت لنا حقيقة واضحة، وأصبحت حبة القمح الواحدة فيها آلاف مؤلفة تموت وتحيا فعلاً بعد عشرات السنين، ويقولون: إنها لو كانت حية في حياتها العادية لم تتحمل كل هذا. فالله تعالى يسوقنا في القرآن إلى أن نأخذ الأدلة في هذا وأمثاله من الطبيعة ولا يريد منا إلا التوغل والترقي فيها. هذا هو الذي يطلبه القرآن.

أصحاب الكهف ومقترحات أهل مكة

طلب أهل مكة أن يزيح جبالها وأن يجعلها جنات، وطلبوا كما قيل نبأ أهل الكهف، فلم يجبهم في الأولى مع أخواتها وأجابهم في الثانية مفضلاً آيات الطبيعة عليها، كأنه يقول تعالى: وما مكتكم وما جبالها؟ وإذا أزحتها عن أماكنها فماذا تفهمون؟، إني أبحث لكم عجائب الطبيعة فانظروها، ألا ترون أني أجعل البر بحراً والبحر براً في مئات الآلاف من السنين؟ ألا ترون أن بحراً هناك ـ هو الذي ذكرته في قصة نوح ـ جهة بلاد الروس والترك فحصل زلزلة عظيمة فذهب ماء البحر واتجه إلى البحار الأخرى وأصبح الآن بلاداً عامرة؟ ـ انظره في سورة «هود» في قصة نوح» ـ أنا لا أنقل الجبال إلا بالزلازل فيكون الهلاك. فانظروا في عجائب هذا الكون ففيه ما تقولون، وأما التعنت فليس يفيدكم علماً. فلا قصة أهل الكهف بمغنية عن نظركم في الطبيعة والعلوم ولا الإجابة على مقترحاتكم بمغنية فتيلاً إذا أجبناكم. فلينظر في ذلك المفكرون.

الكلام في خوارق العادات وفي الكرامات والأولياء

خوارق العادات الجزئيـة توجد في الدنيا. أما الخوارق الكلية مثل ما في الطبيعة ـ أي: مثل الأحوال والانقلابات الطبيعية ـ فلا وجود له، إذ لم تقطع يد الإنسان ثم رجعت كرة أخرى، ولم تقلع عين ورجعت على يد ولي مثلاً أو ساحر أو كاهن. ولكن هناك غرائب تظهر وقد أوضحناها في سورة « البقرة » في مقامين: عند الكلام على عجائب الأرواح، وعند الكلام على السحر، فلا حاجة للإعادة. فعلم الأرواح قد انتشر في المعمورة، وعلم السحر أصبح بعضه صنائع في أيدي الناس بعد أن كانت أموراً مكتومة مخبوءة. فانظره في سورة « البقرة ».

بقي أن ننظر في أمور الأولياء ومن هو الولي، هو فعيل بمعنى مفعول، أو فعيل بمعنى فاعل، أي تولاه الله أو هو تولى الله بالطاعة.

صفته: لا صفة له إلا أن يكون في الظاهر متخلقاً بالشرع وفي باطنه مستغرقاً في الله وآياته وذكره.

كراماته: ربما ظهرت خوارق على يديه، وهذه الخوارق لا تعد، وما يظهر على يد محضري الأرواح فقد تصدر على أيديهم بعض لمحات مما نفوس من حولهم، ومنهم من شاهدتهم بنفسي وهم جهلاء، ولكن عند الذكر ووجود شيخ أمامه له أتباع كثيرون؛ ترى هذا التلميذ الجاهل قد أخذ يشرح مواضع علمية فلسفية تعلو على مدارك من حوله.

ولقد دهشت إذ اطلعت على هذا في بعض المجالس ورأيت من ذلك الذي ينشد في الذكر من العلم ما لا يقدر عليه أكبر العلماء والفلاسفة، فإذا رجع إلى حاله الأولى رأيته كما كان لا يدري شيئاً مما كان يقوله وقد أقرّ مراراً بهذا.

نظير هذا في أوروبا والهند

لقد ذكرت لك في سورة « النحل » الغلام الصيرفي الجاهل الذي كان يتكلم في الفلسفة وهو منوّم مع فصاحة وذلاقة، حتى إذا رجع إلى حاله الأولى لم يدرك شيئاً، وكذلك ابنة الحاكم المسماة « لاورا » كانت تنطق بلغات لا تعرف منها شيئاً، وتخاطب الأموات الذين يطلبهم أصحاب ذلك الحاكم الأمريكي المسمى « أدمون »، وقد نطقت بعشر لغات في مدة ساعة « الإسبانية والإفرنسية واليونانية والإيطالية والبرتغالية واللاتينية والهندية والإنجليزية » وغيرها من اللغات التي كان يجهلها الحضور.

هكذا في بلاد الهند يحصل عجائب وغرائب على يد الشيوخ المنقطعين في الغابات من هذا وأمثاله كثيراً، بل عند عباد الأوثان من الغرائب ما يحير الألباب، كما روي أن قوماً منهم أوقدوا ناراً على حجر أياماً، ثم قالوا للضابط الإنجليزي: مرّ معنا عليه على شريطة أن لا تنظر خلفك وإلا احترقت حالاً، ففعل فلم يحترق، وأخبار ذلك كثيرة.

آثار ذلك في الإسلام وما يجب أن يكون

المسلمون نظروا في أمر الشيوخ فرأوا الصالحين منهم لهم بعض كرامات من هذا النوع، وهنا بيت القصيد، فماذا نقول؟ نقول: إن الأمر موقوف على صاحب هذه الكرامة، فإن كان حقيقة مستغرقاً في جلال الله فهذه الكرامة يجب أن تزيده تواضعاً، ويجب على مريديه أن لا يظنوا أن هذا مقصود

الإسلام ، بل مقصود الإسلام ارتقاء العقول والبحث والفكر ، فلو عكف الناس على تلك الخوارق لأضاعت أعمالهم ولخسروا وضاع الإسلام .

إن الشيخ الذي منح هذه الكرامة إذا ظن أن الله اصطفاه بها وأنه سعيد وأنه مرموق من حضرة الحق وقد أصبح آمنا ، فإنه يصبح أبعد من الله ، وتكون الكرامات شراً ووبيلاً ، ويكون مثله كمثل الذي له جنتان ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾[الكهف : ٣٤] ، فلا فرق بين تلك الكرامة وبين المال ، فليس إكرام الله الصالح ببعض الخوارق ولا تسهيل مصالح الإنسان وإعطاؤه الغنى وسعة الرزق من أيدي سائر الناس بدليل على أنه من المقربين فقد يسلب العطية كما يسلب المال ، وإنّما رضا الله على مقتضى الإخلاص ؛ وكم من رجل دخل الخلوة وصفى نفسه وأعطي بعض الخوارق ثم خرج منها وأخذ الناس يقبلون يديه وقد أصبح شيطاناً رجيماً ، لأنه رجع لطلب الدنيا والشهرة والمال ، ومن أكرمه الله ببعض الخوارق من الصالحين أو ببعض اليسار والغنى منهم ومن غيرهم ثم فرح بالكرامة وفرح بالمال ، فليعلم ذلك الصالح وذلك الغني أنهما قد استدرجهما الله ، والاستدراج استبعاد عن الكمال واقتراب من النقص . فالفرح بالكرامة والفرح بالمال يحبيان النفس في الدنيا ، ومحبة الدنيا بعد عن الله ، فلا صلاح ينفع ولا مال يشفع . وكلما اقترب العبد من الدنيا بحبها ابتعد عن الله ، وهذا هو الطرد بعينه . وقد رأيت في كتاب « الروض المستطاب » لبعض تلاميذ الشيخ خالد رحمه الله تعالى ما يوضح هذا المقام إيضاحاً تاماً .

فكم من ذاكر الله وقلبه معلق بالدنيا ، ولذلك ترى كثيراً من شيوخ الطرق في الإسلام صاروا أعظم نكبة على الأمة وهم جشعون فرحون بالمال مغرمون بالدنيا ، لا سيما أعقاب أولئك الأولياء الذين لم يسيروا على طرقهم ، فتصبح العبادة مصيدة للدنيا مبعدة عن الآخرة .

الصوفية ودول أوروبا

ومما يناسب هذا ما عرفناه في زماننا أن فرنسا لما نظرت فوجدت أن المسلمين تحت أمر الشيوخ أعلنت في جرائدها أنها ستتخذ كل طريق لفتح مراكش ، وذلك بإعطاء شريف مراكش أموالاً طائلة ، وكذلك شيوخ الطرق ، وبعد ذلك نجحت فعلاً ، وقد قالوا : إن هؤلاء الشيوخ يخضع لهم الناس ، ومتى أغدقنا عليهم النعم والمال كان الناس تابعين لهم ، وهؤلاء الشيوخ متى نالوا النعيم والراحة أحبوا بقاء الحالة على ما هي عليه .

قصة أهل الكهف

علم الله عز وجل أن المسلمين سيقعون في هذه البلايا والنكبات ، وأنهم إذا عم الجهل ربوعهم سيكون الصلاح وما يتبعه من بعض الكرامات يستعملها قوم من الذين لا خلاق لهم في جلب المال ونصب المكائد للأمة ، وأنهم سيكون فيهم كذابون مخترعون لذلك ليصيدوا به القلوب ، وعلم أن أوروبا ستتخذ من هؤلاء شبكات للصيد ، فأنزل الله هذه السورة ولم ينزل ما اقترحه أهل مكة في سورة « الإسراء » بل اصطفى هذه القصة وما بعدها وبدأها بقوله : ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ ﴾ فجعل عجائب الملك أرقى من هذه العجائب ، وحث الناس على النظر في الكائنات لتصقل عقولهم بالمواهب ، وأن أمثال هذا يكتفي به الأصاغر من الرجال .

واجب المسلمين في المستقبل

لا جرم أن الأمم تبدأ بتعليمها بتوسيع الخيال من العجائب القصصية، فإذا ارتقى التلميذ في التعليم أروه حقائق الأشياء في الرياضة والطبيعة. هذا هو الصراط المستقيم في أوروبا الآن.

فهذه القصص يجب أن تعطى للتلاميذ في أول نشأتهم، ولكن حرام أن تترك العقول فلا يدرس لها نظام الطبيعة والفلك، وقولي: حرام، أي: على من قدر بالمال وبالعقل، وإنّما كان حراماً الترك، لأن ذلك فرض كفاية، ولا كفاية إلا بتعميم التعليم تقريباً في هذا الزمان، إذ كيف يقول الله: إن عجائب السماوات والأرض أعجب من هذه القصة. وكيف يقول في سورة «يوسف» عليه الصلاة والسلام بعد أن أتمها: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] ويخهم على جهلهم ما حولهم، وقال: إذا لم تعتبروا بسورة «يوسف» ولم تؤمنوا فأنتم قوم جهلتم ما هو أعظم.

عجب للقرآن يذكر السورة بتمامها، ويقول: هناك ما هو أعظم بلا نهاية. وهنا يقول: عجائبي أعظم.

اللهم إني كتبت في هذا المقام ما أعلم فلا تؤاخذني فيما لا أعلم، فليرشد العلماء أمتهم فإنها أصبحت في حاجة إلى المرشدين، وليعلم الناس من قدر فهذا ما في طاقتي. ولقد حاولت هذا الموضوع مدة حياتي ولكن هذا منتهى جهدي وطاقتي، والله ولي حميد. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: في حساب السنين وفي معنى (٣٠٩) في الآية

السنة العربية قد ذكرت في كتاب «نظام العالم والأمم» ما يأتي في صفحة ٢٣٣

أنا الآن في يوم الأربعاء خامس يوم من شهر المحرم سنة ١٣١٩ هجرية، أي: قبل الآن بأربع وعشرين سنة، فوجب إذن أن أجعل التمثيل بهذه السنة فأقول:

إذا أردت معرفة أول يوم من السنة العربية فاقسم عدد السنين الهجرية على (٢١٠) واقسم الباقي على (٣٠)، وما بقي فانقصه واحداً ثم اضرب البسيط في (٤) والكبيس في (٥)، واضرب الخارج من قسمة الباقي في (٥) أيضاً، وأضف (٥) أخرى، فهذه حواصل أربعة فاجمعها واقسمها على (٧)، وما بقي فأجره على أيام الأسبوع من يوم الأحد، فاليوم الذي يدل عليه العدد هو أول تلك السنة من زمن الهجرة.

ففي مثالنا هذا باقي قسمة سنة ١٣١٩ على (٢١٠) هو (٥٩)، وبقسمته على (٣٠) يكون خارج القسمة (١) والباقي (٢٩)، ويطرح واحد منه يكون (٢٨)، والسنين الكبيسة في كل سنة هي (٢ و٥ و٧ و١٠ و١٣ و١٥ و١٨ و٢١ و٢٤ و٢٦ و٢٩)، وبضرب الكبيسة في مثالنا في (٥) يكون (٥٠) والبسيطة في (٤) يكون (٧٢)، والباقي عندنا (١) نضربه في (٥) ونضيف (٥)، وهذه الحواصل الأربعة (١٣٢) وبقسمتها على (٧) يكون الباقي (٦)، فيكون أول السنة على هذا يوم الجمعة، ولكن الهلال لم ير إلا ليلة السبت، فأول السنة الشرعية يوم السبت، وقد مكث الهلال نحو ٤٣ دقيقة بعد الغروب، فدل على أن الاجتماع سبق بمدة طويلة. ولمعرفة أول الشهر اضرب عدد الأشهر السابقة على الشهر المطلوب على حساب أن المحرم (٣٠) وصفر (٢٩)، وهكذا شهر كامل وشهر ناقص

فاضرب التام في (٢) ويضاف إليه عدد الناقصة ، ويضاف إلى مجموعهما العدد الدال على أول يوم من السنة ، ويقسم الكل على (٧) . فلمعرفة أول شهر ربيع من هذه السنة نأخذ واحداً للناقص و٢ للتام فهن (٣) ويجمعها على (٦) وهو الذي كان ابتداء السنة يحصل (٩) ، فتسقط (٧) فالباقي (٢) ويكون أول شهر ربيع الأول من هذه السنة يوم الاثنين ، ولكن على حسب القاعدة نفسها لا على حساب الهلال . فهذا ملخص ما ذكره سعادة مختار باشا الفلكي في كتابه « علم الهيئة » .

فتأمل كيف دارت الأفلاك دورات منتظمة . وكيف كانت الأدوار كل دور (٢١٠) ، وهذه فيها (٧) أدوار لعدد (٣٠) المشتمل على الكبيسة والبسيطة ، بحيث يكون الكبس والبسط في كل (٣٠) منها مماثلاً تماماً للثلاثين بعدها . ثم إن أوائل الشهور والسنين في كل دور من الأدوار الكبيرة وهي (٢١٠) هي بعينها تماماً أوائل السنين والشهور في الدور الآخر ، بحيث إن السنة الثانية من الدور الأول تكون أول شهورها مثل أوائل نظيرتها في الدور الثاني . هذه هي السنة الشمسية والقمرية التي ذكرتها الآية نقلاً ملخصاً من كتابي « نظام العالم والأمم » .

اعلم أن قدماء المصريين وأهل أوروبا نظروا في أحوال الأرض من حيث الحر والبرد ، فوجدوا ذلك تابعاً لقرب الشمس وبعدها ، وأنها تقطع في كل دورة بحسب الظاهر٢٤٢٢١٧ , ٢٦٥ يوماً شمسياً بمعنى أنها تحدث قرباً منها وبعداً عنا ينتج عنهما الصيف والخريف والشتاء والربيع ، ومدة هذه الأربع تسمى سنة شمسية ، إذ النظر فيها إلى سير الشمس ٢٥ , ٣٦٥ يوماً ، وهذه السنة تسمى الانقلابية أيضاً لأنها عبارة عن مدة تنقضي ما بين مرورين متتالين للشمس بنقطة اعتدال واحد كالاعتدال الربيعي ، وأما السنة القمرية فإنها تتركب من ٣٦٧٠٦٨ , ٣٥٤ يوماً ، لأن كل شهر ٢٩ يوماً و١٢ ساعة و٢٤ دقيقة وثانيتان وتسعة أجزاء من عشرة من الثانية ، أو ٥٣٠٥٨٩ , ٢٩ يوماً أي ٢٩ يوماً وما ينوف عن نصف اليوم . وهذا الحساب مأخوذ من ملاحظة المدة بين كل كسوفين متواليين فيحسبون عدد الدورات الاقترانية المسماة « الحركات الدائرية » أيضاً ، ويقسمون تلك المدة الكلية على عدد تلك الدورات وقد تم المطلوب . فإذا طرحنا السنة القمرية من السنة الشمسية كان الفرق بينهما ٧٧٥١٤٩ , ١٠ أيام ، وهذا العدد يكون في كل ٣٣ سنة ٥٧٩٩١٧ , ٣٥٥ أي ٣٥٥ يوماً ونحو ٥٨ جزءاً من مائة من اليوم ، وهذا نحو سنة ، فتكون كل ٩٩ سنة شمسية زائدة ثلاث سنين إذا اعتبرت قمرية ، وبالتقريب تزيد كل مائة سنة ثلاث سنين ، فثلاثمائة تكون (٣٠٩) ، فهذا هو الذي ذكره القرآن فاعجب واعلم ، والحمد لله رب العالمين .

هذا هو الذي ذكره الله بقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ٢٤] ولعمري كم من الفرق بين هذا الحساب الدال على النظام الإلهي وعلى حكمة الله وعنايته وبين قصة أهل الكهف التي ليست على طراز عام كافل للمصلحة العامة ، وإنما هي خوارق جرت على أيدي أقوام شرفاء لتذكير الناس بربهم ، حتى إذا انتبهوا رجعوا إلى ربهم فقرؤوا نقشه وصناعته .

إن الله أفهمنا أن هذه العجائب أشبه بلبن الأم يرضعه الطفل صغيراً فإذا كبر فما أجدره أن يجدّ بنفسه لا يتكل عليها ، فلنقرأ ذلك ولنقرأ بعده العلوم الكونية . ولقد فتح الله الباب في مثل هذا التفسير فليلجه المسلمون . أقول : وسيلجونه وسيكونون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ،

وسيتم قول الله، وسيتعلم المسلمون وسيكون هذا التفسير من أسباب انتعاش العقول وذهاب الجهالة، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨]، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[الأحزاب: ٣٨]، وسيقرأ هذا من بعدنا وسيرونه حقاً والحمد لله. انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث: في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾[الكهف: ٢٨] الخ

لما ذكر الله عز وجل حساب السنة القمرية والسنة الشمسية وكان هذه معجزة واضحة بينة ولكنه مجمل؛ أخذ سبحانه يمهد للأمور الطبيعية الآتية بذكر القلوب الغافلة والمستبصرة، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون مع الذين قلوبهم مستبصرة ليمهد السبيل إلى ذكر الجنتين وهما من زينة الحياة الدنيا. فانظر كيف ذكر الزينة في أول السورة ثم قال هنا: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف: ٢٨]، وكأنه بهذا يفهم الناس ما المقصود من زينة ما على الأرض، فقال: ليس المقصود زينة الحياة الدنيا بل تزيين العقول بآثارها بعد استكمال الانتفاع بها. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع: في مسألة الجنتين

وأن أحد الأخوين اغترّ بهما والآخر عرف الحقائق وقال له كل ذلك لا بقاء له

إن هذه المحاورة التي بين الأخوين ضرب مثل للناس جميعاً. إنها حاصلة في كل مجتمع فالناس جميعاً على هذه الحال، فكل من أوتي مالاً أو جاهاً أو قوة يفتخر بما أعطيه، بل من أوتي علماً يفتخر على الجاهل، بل أرباب الكرامات من الأولياء بعضهم تكون هذه الكرامات من أسباب تكبره.

فالمثل هنا شامل كامل، وأن هذا الذي يفتخر به العالم والغني والصالح مما آتاه الله من المال أو الإقبال يكون وبالاً عليهم جميعاً ولا بقاء له. فكيف يفتخر هؤلاء والدنيا دار انتقال؟ ولكن الغفلة متى استحكمت على القلوب تركتها فارغة لا أرى لها. فكل واحد من هؤلاء يقول: الله أعطاني المال أو العلم لاستحقاق، وكل من أوتي شيئاً باستحقاق فإنه لا يسلبه، فأنا لا أسلب هذا المال ولا أسلب هذا العلم الخ، وهذا قوله تعالى: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾[الكهف: ٣٥].

وأيضاً يقولون في أنفسهم: إن الله أنعم عليّ في الدنيا، وكل من أنعم عليه في الدنيا لا بد أن ينال النعيم في الآخرة، فعليه أنا عزيز منعم في الدنيا والآخرة، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[الكهف: ٣٦].

ولعمري ما ضرّ الناس إلا هذان البرهانان اللذان هما من السفسطة، وهما أشبه بأدلة إبليس إذ جعل كون آدم من تراب سبباً في احتقاره، ولذلك جاءت قصة إبليس وذريته بعدها وأنهم عدوّ، فكيف نأتي بأدلة؟ يغتر الرجل فيقول: هذا مالي وهذا ملكي ولن يفنى، مع أنه يشاهد الأحوال المتغيرة أمامه، ويقول: إن الله ينعمني في الآخرة، وما درى أنه لا تلازم بين الحياتين، بل التلازم للعمل لا للمال، وقد يظن الصالح أن صلاحه أوجب له ما أنعم به عليه من بعض الأحوال، أوَما علم أنه لا دوام للأحوال، وأنه كان ذلك استدراجاً، ويظن العالم أن ما كسبه من العلم قربه من الله، والعلم قد يكون وبالاً على صاحبه يقربه من الدنيا ويفرحه بها وينفره من الله. أوَما درى من أوتي المال والحدائق أن هذه خلقت له ليعتبرها دروساً يدرسها ويفهم مغازيها ويقرأ علومها، فتكون جنة حقاً توصل لجنة مستقبلة.

إن في لذات المعاني المفهومة من المروج الواسعات ما يربو على لذات المحسوسات والثمرات ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣] ـ بكسر اللام . يقول الله : هذه الحدائق زينة الأرض فاحذروا أن تجعلوها خاصة باللذات الشهوية ، بل استخدموها في اللذات العقلية وانفعوا بها البرية . انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : في قوله تعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف: ٤٥] الخ

هاهنا كما تقدم تمّ الكلام في مسألة الزينة في الحياة الدنيا ، ووصلنا إلى يوم المعاد ، فيحاسب كل امرئ على ما عمل ، وقد قلنا : إن هذه السورة متصلة بما قبلها من وجوه ، وأن المقصد من هذا كله مسألة البعث ، وكنت أريد أن أسمعك تمام مبحث البعث والمحاورات التي دارت بيني وبين طالب روسي في كتاب « الأرواح » كما وعدت في سورة « الإسراء » ، وهذه المحاورة وقد امتزجت فيها الأدلة العقلية بالأدلة الشرعية مشاكلة لما في هذه السورة من اجتماع النوعين من الأدلة . ولكن اكتفيت في مثل هذا المقام بما تقدم في هذا التفسير في مواطن كثيرة ، فمن أراد ذلك فليقرأ الكتاب المذكور .

وهاهنا ثلاث جواهر :

الجوهرة الأولى : في أمر الجنة والنار .

الجوهرة الثانية : في ضرب المثلين .

الجوهرة الثالثة : في سجود الملائكة ، قد فتح الله بها بعد ما تقدم .

الجوهرة الأولى : في قوله تعالى :

﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

في صباح هذا اليوم (١٧) مايو سنة ١٩٢٨م خرجت للرياضة في روضة المنيل في ضاحية مصر فقابلني أحد الفضلاء وكان من حديثه معي أن قال : ما الذي يطبع من التفسير الآن . قلت : سورة الكهف فقال : عندي سؤال لا زال يعاودني طول حياتي . فقلت : وما هو؟ قال : يقول تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾[الكهف: ٣١] الخ ، ويقول في سورة « الحج » : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[الحج: ٢٣] ، ويقول في سورة أخرى : ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾[محمد: ١٥] ، ففي الجنة حرير ولؤلؤ وعسل . ولا جرم أن الحرير لذة حاسة اللمس ، فإنّ للمس الخشونة والملاسة والثقل والخفة وهكذا الخ مما اطلعت عليه في كتابك « بهجة العلوم » في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية ، وهذا الكتاب هو الذي جعلني أفكر فيما أقوله الآن ، وما العسل إلا لذة حاسة الذوق التي لها تسع صفات من صفات المادة مثل المرارة الحرافة والملوحة والحلاوة وهكذا ، وما اللؤلؤ إلا للذة الأبصار ، وللأبصار من صفات المادة عشر من الألوان والأشكال والحركات الخ .

كل ذلك قرأته في ذلك الكتاب ، وأرى الله خلق ذلك لنا في الأرض ، وأنزل سورة « النحل » وقال تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[النحل: ١٤] وهكذا ، وهذه الحواس ثلاث ،

وحواسنا خمس، فأرجو إيضاح ذلك المقام. فقلت: إن هذه المذكورات مفاتيح العلوم ورقي المسلمين في الدنيا والآخرة. فقال:

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

فقلت: لا أنا مشرق ولا أنت مغرب. إن المقام مقام علم وحكمة. اعلم أن هذا النوع الإنساني خلق في الأرض ليدرسها لا غير، والدليل على ذلك أنه جعل ألذ طعامه من حشرة طائرة بجناحيها وهو النحل، وألذ الملبوسات من دودة تمشي على بطنها فوق الأرض وهو الحرير، وأبهج الحلي من حيوان بحري لاصق بالصخور في البحر وهو الدرّ. عسل وحرير ودرّ، قلّ وجودها وغلا ثمنها وعسر تحصيلها وفرقت على عوالم الهواء والأرض والماء. ذلك درس جميل لهذا الإنسان. أفلا ترى أن هذه مفاتيح العلوم الجوية والأرضية والبحرية، وهل كرتنا الأرضية هي وما حولها غير ذلك؟ وقد قلت في كتابي «جوهرة الشعر والتعريب» ما يأتي من الأبيات:

ومن فحمة سوداء جاؤوا بجوهر بهيج فذاك الماس في صدر قنية

وخير لباس الناس من نسج دودة وخير طعام الناس من فم نحلة

وأعجب آيات الجمال جواهر من الصدف المخلوق في قاع لجة

فهذا على أرض وذلك في الهوا وآخر في لج البحار العميقة

أكثر هذا الإنسان يشبهون الحيوان، يعيشون ويتمتعون ويقفون عند الحواس الخمس، ولكن هذا الإنسان كله خدم وحشم لأولي الألباب الذين يتفكرون في هذه الدنيا ويعرفون أن هذه إنّما هي مفاتيح للعلم ويفطنون لهذا الوجود. وما هذا كله إلا تفسير لقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. يقول العلماء: إن أهل الجنة يتمتعون فيها، ولكن أعلاهم الناظرون لوجه ربهم، ولا ينال ذلك إلا أولو الألباب الذين عشقوا العلوم في الدنيا. إذن الناس قسمان: قسم اكتفى بالظواهر في هذه الأرض، وهؤلاء إذا كانوا صالحين دخلوا الجنة الحسية واكتفوا بها، وقسم عرف الحقائق في الدنيا، وأدهشه نظام هذا الوجود، وكيف كان هذا الإنسان قد قسمت عوالم الهواء والأرض والماء على حواسه، فكان منها آلامه ومنها لذاته، فهناك يجدّ في البحث والتفكير، وأمة هذا شأن عقلائها تنال الزيادة في سعادة الحياة، والزيادة في الجنة، وهي النظر لربها، والأمم الإسلامية إذا عقلت أمثال هذا نال أحياؤها العز في الحياة، وأمواتها في الآخرة النظر لوجه الله، ولا نظر لوجه الله إلا بمبادئ تكتسب في هذه الحياة. تلك المبادئ هي معرفة العالم الذي نعيش فيه، ولولا ذلك لم يكن هناك داعية إلى الإقلال من العسل والحرير والدر، وفي الإمكان أن يكون الدر في كل مكان والعسل أنهاراً والحرير كالقطن، وفي ذكر أنهار العسل واللبن والخمر في الجنة ما يشير إلى هذا الإمكان.

إنه لم يمنع ذلك إلا إرادة توجيه الأنظار للبحث فإن ما غلا ثمنه وصعب الحصول عليه تتجه إليه الجهلاء لتملكه والعلماء لتبحثه. هذا بعض السر في نظام هذا الوجود. فقال: وهل اللغة العربية تساعد على ذلك؟ فقلت: وهل اللغة العربية غير ذلك؟ فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: أسألك عن معنى ما قالته الخنساء في أخيها صخر:

طويل النجاد رفيع العما د كثير الرماد إذا ما شتا

ما معنى كثير الرماد؟ قال: إن كثرة الرماد تستلزم كثرة إحراق الحطب، وكثرة إحراق الحطب تستلزم كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ تستلزم كثرة الآكلين، وكثرة الآكلين تستلزم كثرة الأضياف، وكثرة الأضياف تستلزم الكرم. فإذن كثرة الرماد تستلزم الكرم بهذه الوسائط، وهذا يسمى كناية، فهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي. فقلت: إذن يكون أخوها صخر كان عنده رماد كثير وعنده كرم وثانيهما لازم لأولهما. قال: نعم، وهذه هي الكناية المسماة رمزاً، والرمز إما أن يكون بكثرة الوسائط، وإما بخفاء القرينة مع قلة الوسائط. فقلت له: هكذا هنا هي كناية، فالمعنى المفهوم من اللفظ للعموم والكناية المسماة رمزاً للخصوص، فالذين فهموا الرمز ودرسوا العلوم نفعوا أممهم في الدنيا ورأوا ربهم في الآخرة، والذين اكتفوا بظواهر الحرير والعسل واللؤلؤ من بعض علماء الدين والعامة والصلحاء فلا جنة لهم إلا ما فرحوا به، كما تقدم في كلام الإمام الغزالي في أول سورة «البقرة». فقال: وما القرينة هنا؟ قلت: القرينة هنا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[السجدة: ١٧]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ولا جرم أن الحرير والعسل واللؤلؤ رأتها العيون وسمعتها الآذان وخطرت على القلوب. فقال: ولم خص لون الخضرة؟ قلت: هذا مفتاح رابع للعلوم، فالخضرة نعم النبات وهو منتظم موزون جميل وهذا التفسير مملوء به. فقال: إن هذا البيان عجيب. فقلت: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فقال: هنا سؤال آخر وكيف تكون هذه رياضة؟ فقال: هذه رياضة تكون مصاحبة للرياضة الجسمية. فقلت: ما هو السؤال؟فقال: يقول الله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[الحج: ٢٢] وقال هنا: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾[الكهف: ٢٩] وإنّما قلت هذا لأن الشيء يخطر بالبال عند ذكر ضده. فقلت له: إن القول السابق يفسر اللاحق. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: أهل جهنم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها، وكلما استغاثوا أغيثوا بماء كالمهل كما هي الحال الآن تماماً.

إن أهل الأرض الذين لا يعرفون إلا الحواس الخمس ــ كالبهائم ــ إذا اقتصروا على تمتع الحواس من المال والولد والصيت وإقبال الناس عليهم؛ فإن كل لذة يحدث بعدها رد فعل؛ فيحتاجون للذة أعلى وهكذا، فكلما خرجوا من غم عادوا فيه، وكلما طلبوا مالاً أو جاهاً ازدادوا لوعة وحسرة، ولننظر في أنفسنا.

أليست هذه الحال عامة في أهل الأرض؟ وأقرب مثل لذلك من يدمنون الخمر، فكلما أراد أحدهم التوبة عاود الكرة فسكر فإذا صحا ندم وأراد الخروج من الغم فيعاد فيه، فأمر الخمر في هذه الحياة جعله الله مثلاً للناس ليعلموا أن هذه حال الحياة الدنيا، وكل ذلك للوقوف على المحسوسات والاكتفاء بظواهر الحياة في الأعمال وظواهر الألفاظ في الكتب السماوية، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٢].

فلما سمع ذلك صاحبي قال: قد فهمت وشفيت صدري، والحمد لله رب العالمين. انتهت الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية

في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾[الآية: ٣٢]

وفي قوله: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[الآية: ٤٥]

وقوله: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الآية: ٤٦]

ومع قوله في أول السورة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ ﴾ الخ [الآية: ٧]

يعجب القارئ لهذه السورة، فإنه يجد أنه في أولها ذكر أن ما على الأرض زينة لها، وأن هذه الزينة تذهب فلا وجود لها، ثم يجد هنا ضرب مثل الرجلين إذ اغتر أحدهما بزينة الدنيا فهلك ثمره، وضرب مثل الحياة الدنيا كلها فيجدها كالزرع يصير هشيماً فتذروه الرياح. إذن هذا المثلان وما قبلهما وما بعدهما كله إيضاح لما ذكر من الزينة الفانية في أولها، لهذا ابتدأ السورة بالحمد على إنزال الكتاب لأنه هو الذي أبان هذه الحقائق. ولما كتبت هذا حضر صديقي العالم واطلع عليه فقال: لقد جعلت في هذه السورة صوراً جميلة تمثل الزينة في هذه الأرض من حشرات طاووسية، إلى حمير مزوقة حبشية، إلى عيون ماء حارة بيضاء بهية، إلى أنوار بهجة في الأقطار الشمالية من قباب نورية بلورية وأشعة عمودية عليها إبرية وما يمثل الحياة الساعية الموسوية من الأنوار القطبية.

إن هذا جمال وأي جمال، ثم يتبع هذا احتقار الحياة ونبذ هذه الزينة والتبري منها. إن هذا يحير العقول. فبينما نرى جمالاً على جمال إذا هذا كله في وبال وذهاب وتباب، فكيف نجمع في عقولنا بين الوجود والعدم والحياة والموت والجمال والوبال؟ وكيف يجتمع الفرح والحزن؟. هذا هو الذي يحير الألباب. فقلت: لقد أشرت لهذا فيما تقدم في هذه السورة وغيرها، ولكن الآن أقول: إن الله لما أنزل هذا الدين ساقه لقوم عقلوه بلغتهم ففهموا غير ما نفهم نحن الآن، وعقلوه بلا فلسفة ولا تعليم ولا مدارس ولا دروس، ولا أزيدك على ما جاء في التاريخ من فتح المسلمين البلاد المصرية، فبهذا الذي أذكره يتضح هذا المقام. ذلك أن المسلمين فتحوا بلاد العرب والعراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها في مدة لا تتجاوز (١٨) سنة، هنالك دهش «هرقل» الروماني ملك القسطنطينية من هذا السيل الجارف، وأوجس خيفة على مصر، فأقام معاهدة بينه وبين عمر رضي الله عنه أن يدفع الرومان جزية سنوية للمسلمين في مقابلة تركهم لفتوح مصر، ولكن هذه الجزية ما كان الروم ليدفعوها في حينها، بل كانوا ينقصونها عما اتفقوا عليه، وكان إذ ذاك عمرو بن العاص لا يفتأ يذكر الخليفة بفتح مصر، وكان يقول: إنها أكثر الأرض أموالاً وأعجز عن القتال والحرب، ولكن عمر بن الخطاب لم يقدم على ما قاله عمرو بن العاص إلا بعد أن نقضت المعاهدة بين الطرفين، وتوجه عمرو بن العاص إلى مصر بأربعة آلاف.

(١) فأوّلًا دخل «رفح» وهي الآن قرية تسمى «رفغ» تبعد عشر ساعات عن العريش.

(٢) ثم العريش.

(٣) ثم توغل في مصر وانضم إليهم قوم من البدو في طريقهم.

(٤) فقاتلوا في «الفرما» عسكر الروم نحو شهر ففتحوها.

(٥) ثم قاتلوا في « بلبيس » نحو شهر ففتحوها .

(٦) ثم ساروا إلى « حصن بابليون » ، ويسمى عند قدمائنا مؤرخي العرب « باب اليون » .

ويقولون : إنه حصن بناه الفرس لما ملكوا مصر وسموه باسم عاصمة بابل ، لأنها كانت في ملكهم إذ ذاك ، ومكانه الآن مكان « قصر الشمع » وهو يبعد عن ضفة النيل الآن ، لأن النيل قد تغير مجراه بعد ذلك وهذا الحصن كان عظيماً على ضفة النيل الشرقية مقابل الأهرام ، وفي شرقيه جبل المقطم ، وهناك أرض فضاء فيها بعض الكنائس ، وأمام الحصن النيل ، وفي وسط النيل جزيرة الروضة والماء محيط بها طول السنة ، وكانت تسمى بجزيرة مصر ، وكان الممرّ من هذا الحصن إلى الجزيرة جسر من خشب ، وهكذا من هذه الجزيرة إلى الجيزة في البر الغربي للنيل ، فنصبوا الخيام فيما بين الحصن وجبل المقطم ، وقد شحن هذا الحصن بالمقاتلة والجيوش المصرية ، وكان في الحصن المقوقس مع هؤلاء الجيوش ، وهو حاكم البلاد من قبل « هرقل » ، والمقوقس كان رجلاً يونانياً ، ولكنه أصبح وطنياً مصرياً ، فحاربهم عمرو مدة ، وأمدّه الخليفة بأربعة آلاف أيضاً فشددوا في الحصار ، ولكن المقوقس ومن معه عبروا الجسر إلى الجزيرة ومنها توجهوا إلى « منف » وهي العاصمة في جهات الجيزة .

وأما عمرو ومن معه فقد دخلوا الحصن وتوجهوا إلى الجزيرة ، وهناك دارت مكاتبات بينهم وبين المقوقس ، فأرسل المقوقس لهم خطاباً يطلب فيه أن يرسلوا رجالاً من العرب ليكون الاتفاق على يديهم ، فأرسل عمرو خطاباً مع عشرة نفر رئيسهم عبادة بن الصامت ، وكان هائل المنظر أسود اللون طوله عشرة أشبار وهو المتكلم عنهم ، فركبوا السفن حتى أتوا المقوقس ، فتقدم عباده في صدر أصحابه فهابه المقوس لسواده وعظم جثته ، وقال : نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني ، فأجابوا : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا ، وإنّما نرجع جميعنا إلى قوله ورأيه ، وقد أمرنا الأمير أن لا نخالف له أمراً . فقال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود مقدّماً عليكم وهو أسود ، وإنّما ينبغي أن يكون دونكم . فقالوا : كلا ، وإن كان أسود فهو أفضلنا . فقال المقوقس لعبادة بن الصامت : تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك ، فتقدم عبادة إليه وقال : قد سمعت مقالتك وإنّ فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً مني وأفظع منظراً وجميعهم أشد هيبة مني ، وأنا قد وليت وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل ، وذلك إنّما لرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالاً ، وما يبالي أحدنا إن كان له قنطار ذهب أو كان لا يملك إلا درهماً ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسدّ بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في سبيل الله ، واقتصر على هذا الذي في يده ، ويبلغه ما كان في الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس نعيماً ، ورضاها ليس رضاً ، إنّما النعيم والرضا في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك به جوعه ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدّوه . فلما سمع المقوقس منه هذا الكلام قال لمن حوله بلغتهم : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره وإن قوله لأهيب ، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض ، ما أظن

ملكهم إلا سيغلب من على الأرض كلها. ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له: «أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي أحدهم بمن لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرقّ عليكم لضعفكم وقلة ما بين أيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم، على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به».

فقال عبادة: «يا هذا لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وإنا لا نقوى عليهم؛ فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به الذي يكسرنا عما نحن به، وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، إن قتلنا من آخرنا كان ذلك أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، وإننا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين: إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٩]، وما منا رجل إلا ويدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يردّه إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنّما همنا ما أمامنا.

وأما قولك: إننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا؛ فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه، فانظر الذي تريده فبينه، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال، فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله من قبل إلينا. أما إن أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته؛ أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية، وأن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، وأن نقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف، حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم. هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم».

فقال المقوقس: هذا ما لا يكون أبداً. ما تريدون إلا أن تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا. فقال عبادة: هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت. فقال المقوقس: فلا تجيبونا إلى غير هذه الثلاث خصال، فرفع عبادة يديه إلى السماء فقال: لا وربّ هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، ما لكم عندنا

خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم، فالتفت المقوقس إذ ذاك إلى أصحابه فقال: قد فرغ القوم فما تريدون؟ فقالوا: أيرضى أحد بهذا الذلّ؟ أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم؛ فهذا لا يكون أبداً أن نترك دين المسيح ابن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه، وأما ما أرادوا أن يسبونا ويجعلونا عبيداً؛ فالموت أيسر من ذلك، فلو رضوا أن نضاعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا. فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم فما ترى؟ فراجع أصحابك على أن نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون. فقال عبادة وأصحابه: لا. فقال المقوقس عند ذلك لأصحابه: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبهم إليها طائعين لتجيبهم إلى ما هو أعظم كارهين. فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟. قال: أما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم أحدكم به، وأما قتالكم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة، قالوا: فنكون لهم عبيداً أبداً. قال: نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم وأحوالكم وذراريكم فأطيعوني من قبل أن تندموا، فأذعن القوم للجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه. فقال المقوقس لعبادة: أعلم أميرك أني لا أزال حريصاً على إجابتكم إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت إليّ بها، فأعطني أن أجتمع به أنا في نفر من أصحابي وهو في نفر من أصحابه، فإن استقام الأمر بيننا تمّ ذلك جميعاً، وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه، فاجتمع عمرو بن العاص بالمقوقس، وكتبوا شروط الصلح بأن يعطوا الأمان للمصريين وهم يدفعون الجزية». انتهى.

فهذه المحاورات التي دارت بين عبادة بن الصامت والمقوقس تبين لنا ما كان يفهمه آباؤنا حين نزل القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾[الكهف: ٧]، وقوله: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف: ٤٥]، وقوله: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف: ٤٦]. ألا ترى إلى قوله: «وما يبالي أحدنا إن كان له قنطار ذهب أو كان لا يملك إلاّ درهماً»، وقوله: «إن كان له قنطار من الذهب أنفقه في سبيل الله» الخ، وقوله: «إن نعيم الدنيا ليس نعيماً، ورضاها ليس رضاً» وهكذا قوله: «وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده»، فهذا القول وأمثاله هو مقصود القرآن، والذي فهمه هم الذين نزل بلسانهم، وإنّما فتحو مصر وغير مصر لأنهم كانوا يريدون الله والدار الآخرة ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]، فضاعت هيبتهم وصار فتوح البلدان مقصوداً به الدنيا، فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها الخ»، فبعد أن كان فتوح البلدان قربة من القربات صار مخوفاً وفتنة يفتن بها المسلمون.

هذا هو التطبيق من التاريخ على هذه الآيات، فهذه زينة الحياة الدنيا وهذا ضرب مثلها، وهذا نتيجة العمل بها والمخالفة لها. فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد اتضح هذا المقام وانشرح صدري لهذا البيان، ولكن ماذا تقول في المسلمين اليوم؟ هاهم أولاء أبناء العرب من المسلمين هل ترى لهم قوة على فتح البلدان كالسابقين؟ فقلت: أذكرك بأني قلت فيما مضى في هذا التفسير ما ملخصه: «إن آخر سورة الفتح فيه تشبيهان يمثلان الأمة الإسلامية، فهم في التوراة: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وهم في الإنجيل: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾[الفتح: ٢٩] الخ».

فمثل التوراة هو الذي ظهر أولاً من فتح البلدان، ولذلك ترى الإسلام الآن في الصين واليابان وأمريكا والهند وفي إنكلترا وفرنسا وألمانيا وبلاد الروسيا وبولونيا وبلاد أخرى، إذن نحن جئنا في زمان فيه وجدنا الإسلام منتشراً في العالم؛ فجهادنا الآن يختلف عن جهاد آبائنا. هم فتحوا البلدان، فهانحن أولاء نفتح العقول الإسلامية وذلك بالتشويق للعلم. فإذا رأينا عبادة بن الصامت يقف أمام المقوقس ويقول له: نحن إذا ملكنا أنفقنا في سبيل الله؛ وإذا لم نملك لم نرد شيئاً من الدنيا ولم نبال بها، فهكذا هنا فلنقل: لنقرأ العلوم حباً لها وغراماً بها وشوقاً إلى ربها وفرحاً بلقائه أقبلت الدنيا أم أدبرت وبهذا نرضي ربنا، وهذا الفتح العلمي هو الذي يعطي الأمم الإسلامية اليوم قوة المال والجاه الثروة ويحفظهم في أي مكان كانوا، على شرط أن يكون طلب العلم لذات العلم ولوجه الله تعالى ولحبه، فإذا انتشرت هذه الفكرة فبشر المسلمين بالعز، فليس الجهاد قاصراً على ضرب الأعداء، فالجهاد يرجع إلى كل عمل شريف فاضل في كل ضرب من ضروب الحياة، وأفضله كله العلم، فالعلم أسّ العمل.

وأنا أرجو أن يكون هذا التفسير حامل لواء الرقي الإسلامي والفتح العلمي ونبوغ طوائف من أمم الإسلام، فيرجعون مجدهم ويسبقون غيرهم ويكونون نوراً للعالمين. وهذا هو المثل الثاني وهو مثلهم في الإنجيل، وأنهم كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرع، فهذا الزمان هو الذي يوافق مثل المسلمين في الإنجيل، لأن الإنجيل يرجع إلى الرقي الأخلاقي والإخلاص والحكمة، وبالعلم يقتعون الأمم في دخول دين الإسلام فهناك لم يكن للعلم سلطان. أما الآن فالعلم هو الذي به تفتح العقول، ودين الإسلام الآن ينتشر بالتعقل والفهم. وإذا كان الذين يحملون الإسلام جهلاء فقولهم غير مسموع. أما إذا اتصفوا بالعلم فإن الناس لقولهم يسمعون ولدينهم يتبعون.

ولقد قال عالم من علماء الألمان: «نحن عرفنا دين الإسلام ولكن أين المسلمون الذين نقتدي بهم». فليكن هذا زمان الرقي العلمي، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾[الآية: ٥٠]

إلى قوله: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[الآية: ٥١]

إن هذه القصة ذكرت في مواضع في القرآن، في «البقرة» وفي «الأعراف» وفي «الحجر»، فانظر ما كتب عليها هناك تجد أنها فتحت باباً للعلوم المهجورة في بلاد الإسلام لاسيما إذا قرأت ما كتبناه عليها في سورة «الحجر»، وأن عصيان آدم وحواء بالأكل من الشجرة تفرع عليه نقائض المدنية الحاضرة في طعامنا وشرابنا، ونجم من تلك النقائض أمراض وتدهور في الأخلاق، وذكرت في غيرها على هذه القصة أن الطمع والجشع قد نجما من الشهوة البهيمية في الإنسان المعبر عنها بالأكل من الشجرة، وأن العداوات والحروب والحقد والغيظ والحسد وأمثالها ترتبت على القوة الغضبية فيه التي يشير إليها كبرياء إبليس وقوله: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[ص: ٧٦]، فهذه الكبرياء فتحت أبواب الشرور والعداوات على مصراعيها فاحتدم وطيس الحروب والعداوات بين الناس أمماً وأفراداً.

ثم إن الوساوس الشيطانية أكثرت من الخرافات في الأرض فضلت الأمم فعبدوا الأصنام اتباعاً للهوى. فانظر عبادة الأصنام في أول سورة « البقرة » عند قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ [الآية: ٢٢]، وفي سورة « إبراهيم » عند قوله تعالى: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [الآية: ٣٥]، وما جاء تحت عنوان « جوهرة في أديان القدماء » من الكلام على ديانة البراهمة والتثليث عندهم، وأن برهم جوهر نقي وله ثلاث صفات وهي واحدة، فهي ثلاثة من وجه، واحدة من وجه، وهكذا نظام هذه الدنيا مثلث وموحد وكذا نظام هذا الإنسان مثلث وموحد، وهكذا أخذوا يعبدون الأصنام بعد التثليث ثم اخترعوا أقاصيص وأساطير الخ ما هناك فراجعه.

ولقد تقدم في سورة الإسراء عند مسألة الروح ما نصه:

وهاهنا سألني بعض الأصدقاء هذا السؤال قائلاً: أيها الحبيب أريد أن تذكر شيئاً مما دخل في البدع في الأمم الإسلامية حتى نتنور ونميز الغث من السمين. فقلت: أنا الآن ليس أمامي كتب مهمة في هذا الموضوع ولكن سأذكر لك ثلاث مسائل من أفعال المضلين:

المسألة الأولى: مذهب الباطنية الذي تغلغل في بلاد الإسلام واتصل من العصور الأولى إلى الآن.

المسألة الثانية: الكلام على نظام الملك الوزير وعمر الخيام الفيلسوف وحسن بن الصباح الباطني توضيحاً للمسألة الأولى.

المسألة الثالثة: زهد أكثر الأمم الإسلامية اليوم في فهم القرآن والاهتداء به مكتفين بشيوخهم وأن هذا مسبب عن المسألتين السابقتين.

المسألة الأولى: من هم الباطنية؟

اعلم أن دولة الفرس ودولة الروم هما اللتان كانتا سائدتين قبل ظهور الإسلام، وكان لكل منهما الغلبة على العرب فيما يليها، كما هو واضح في سورة « التوبة » فاقرأه هناك منقولاً من كلام العلامة « سديو » الفرنسي. فلما ظهر الإسلام انتزع الملك من الفرس ودخلوا في دين الإسلام. هنالك غلت مراجل الحقد في قلوب بعض الأمة الفارسية، فأخذوا يكيدون للإسلام كيداً ليكسروا شوكة العرب، فأخذوا يجتمعون سراً ويبطنون غير ما يظهرون، وكان ما كان من مسألة أبي مسلم الخراساني الذي حارب تحت إمرة بني العباس وانتزع الملك من بني أمية.

ولما استقر القرار لبني العباس أراد أبو مسلم أن يقلب لهم ظهر المجنّ ويتخذ الرياسة لنفسه ففطن أبو جعفر المنصور وقتله غيلة، وهكذا هارون الرشيد حفيده، ذلك الذي علم ما انطوت عليه أفئدة الفرس والبرامكة يشدون أزرهم، لأن يحيى وجعفراً ابنه كانا من نسل سدنة معبد النار بفارس فكان هؤلاء يجدون سراً في نزع الملك من بني العباس وجعله في بني علي كرم الله وجهه، ليكون الأمر لهم ويديرونه كما يشاؤون، ففتك الرشيد بجعفر والبرامكة في ليلة واحدة. فلما رأوا أن لا فائدة من ذلك عمدوا إلى الخديعة والكتمان وأسسوا جمعية سرية سموها « الباطنية ».

قال في شرح المواقف: إن « الغبارية » وهم طائفة من المجوس راموا عند شوكة الإسلام تأويل الشرائع على وجوه تعود على قواعد أسلافهم، وذلك أنهم اجتمعوا وتذاكروا ما كان عليه أسلافهم

من الملك، وقالوا: لا سبيل لنا إلى دفع المسلمين بالسيف لغلبتهم واستيلائهم على الممالك، لكنا نحتال بتأويل شرائعهم إلى ما يعود إلى قواعدنا ونستدرج به الضعفاء منهم، فإن ذلك يوجب اختلافهم واضطراب كلماتهم، ورئيسهم في ذلك « حمدان قرمط »، وقيل: « عبد الله بن ميمون القداح » أولهم في الدعوة. ثم ذكر أن استدراج الطغام سبع مراتب:

(١) الرزق: تفرس حال المدعو هل هو قابل للدعوة؟ ويقولون بمنع إلقاء البذر في السبخة، أي: دعوة من ليس قابلاً.

(٢) التأنيس: وهي أن يستميلوا كل واحد إلى ما يهواه، فالفاسق بالخلاعة والعفيف بتحسين الصلاح والعفة.

(٣) التشكيك في أركان الشريعة: كأن يقال: (أ) ما معنى الحروف في أوائل السور؟ (ب) ولِمَ تقضي الحائض إذا أفطرت أيام رمضان دون صلاتها؟ (ج) ولِمَ يكون الغسل من المني دون البول؟ (د) ولِمَ كان عدد الركعات أربعاً أو اثنين؟ وهكذا، ولا يجيبونهم على ذلك ليربطوا قلوبهم.

(٤) الربط: وهو أمران: الأول: أخذ الميثاق منه أن لا يفشي سرهم. الثاني: أن يحيله على الإمام في حل ما أشكل عليه لأنه هو العليم به وحده.

(٥) التدليس والتأسيس: والأول: دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا لهم حتى يزيد ميله إلى ما دعاهم إليه. والثاني: تمهيد مقدمات يقبلها ويسلمها المدعو، تدعوه إلى ما سيسمعه من الباطل.

(٦) الخلع: وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية.

(٧) السلخ: وهو أن يسلخه من الاعتقادات الدينية، وحينئذ يأخذون في الإباحة واستعجال اللذات وتأويل الشرائع: (أ) كأن يقال: لوضوء معناه موالاة الإمام. (ب) والتيمم الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام. (ج) الصلاة عبارة عن الناطق وهو الرسول. (د) والاحتلام هو إفشاء سر من أسرارهم إلى من ليس هو بأهل بلا قصد منه. (هـ) الغسل تجديد العهد. (و) الزكاة تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين. (ز) الكعبة النبي والباب علي الخ.

بهذا تفهم أيها الذكي ما تقدم في سورة « إبراهيم » من تلك الشكوى المرة التي شكاها أتباع « أغا ممنون »، وقولهم: إنه يقول: إنه مسلم، ولكن يقول: القرآن ليس منزلاً لكم. وهذا المقام واضح هناك، ولكن سره ظاهر هنا، فهو مسلم ولكن الشريعة كلها حولت إلى عبادة الإمام والإخلاص له، وبهذا تفهم قولهم له: ماذا فعلت للإسلام ونشره وأنت مسلم وتنكر اتباعنا للقرآن. فافهم ذلك وافرح بنعمة العلم والعرفان.

وهذه الطائفة تسمى بأسماء مختلفة:

(١) الإسماعيلية لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أبنائه.

(٢) الباطنية لقولهم بباطن الكتاب دون ظاهره والمتمسك بظاهره معذب بالتكاليف والمتمسك بباطنه تارك العمل بالظاهر سعيد.

(٣) القرامطة لأن أولهم الذي دعا إلى مذهبهم هو رجل يقال له « حمدان قرمط » وهي إحدى قرى واسط. ومن هؤلاء القرامطة طائفة هجمت على مصر أيام المعز لدين الله الفاطمي، فأسدى وزيره

العطايا إلى عرب مصر الذين اتحدوا مع القرامطة بأن أعطاهم دنانير في أكياس، وكان ظاهرها ذهباً خالصاً والباقي تحتها ذهب مزيف. فلما التقى الجمعان تقهقرت العرب المصريون ففنيت القرامطة إلا قليلاً، ثم إن الإنجليز لما دخلوا مصر في أيامنا هذه منذ (٤٥) سنة فعلوا مع عرب مصر بجهة «رأس الوادي» وهم زاحفون على مصر لمحاربة عرابي باشا وجيش المصريين ما فعله وزير المعز لدين الله سواء بسواءفأعطوا هؤلاء العرب ذهباً في أكياس ظاهرها ذهب خالص وباطنها مزيف، مما دلّ على أن أوروبا متيقظة تمام التيقظ للتاريخ تنتفع به، كما انتفعوا بمسألة جلد الثور في قصة حسن بن الصباح الآتي بيانها.

(٤) الحرمية لقولهم بإباحة الحرمات والمحارم.

(٥) وبالسبعية لأنهم يقولون إن النطقاء سبعة سيأتي ذكرهم.

(٦) وبالمحمرة للبسهم الحمرة وغلب عليهم اسم «القرامطة» و«الباطنية» و«المزدكية» بالعراق و«التعليمية» و«الملحدة» بخراسان في أيام «بابك»، أو لتسميتهم المخالفين لهم من المسلمين حميراً.

أما النطقاء السبع المتقدم ذكرهم فهم:

(١) إمام يؤدي عن الله.

(٢) حجة تؤدى عن الإمام.

(٣) وذو مصة يمص العلم من الحجة.

(٤) أكبر أي داع أكبر.

(٥) داع مأذون يأخذ العهود على الطالبين من أهل الظاهر فيدخلهم في ذمة الإمام.

(٦) وكلب رفيع الدرجات في الدين لم يؤذن له في الدعوة بل في الاحتجاج على الناس، فهو ككلب الصائد، فهذا يكسر مذهب أهل الظاهر، ومتى شك سامعه أداه الكلب إلى الداعي ليفهمه المعاني التي جهلها ويأخذ عليه العهود.

(٧) ومؤمن يتبع الداعي وهو الذي أخذ عليه العهود وآمن وأيقن بالعهود ودخل في ذمة الإمام وحزبه، ومنهم جماعة يلقبون بـ«البابكية» إذ تبع طائفة منهم «بابك الحزمي» في الخروج بأذربيجان.

غرام الإسماعيلية بالأعداد

لعلك أيها الذكي آنست في هذا المقام التسبع في ألقابهم وفي أسماء دعاتهم الناطقين بمذهبهم ذلك أنهم يقولون: إن ذلك مطابق للسماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبع وأيام الأسبوع السبع والكواكب السيارة السبعة وهي «المدبرات أمراً». وقد برعوا في هذه المسائل العديدة التي يمكن أن تقابل بمثلها ودخلوا في آيات القرآن وعددها بالجمل وهكذا الأسماء، وذلك مسطور في كتب مطولة كـ«شمس المعارف الكبرى» وغيره، ولقد صرف الناس عن القرآن العلم بهذه الأمور التي قهقرت الأمم الإسلامية بشيوع أمثال هذه الآراء، لا سيما أن حسن بن الصباح لما ظهر جدد الدعوة على أنه الحجة الذي يؤدي عن الإمام الذي لا يجوز خلو الزمان عنه، والناس جميعاً محتاجون إلى العلم، ومنع العوام عن الخوض في العلوم والخواص من النظر في الكتب المتقدمة، لئلا يطلعوا على فضائحهم،

كما اطلع أتباع « أغا ممنون » في زماننا ووجهوا شكواهم للعالم في الجرائد، كما تقدم في سورة « إبراهيم » عليه السلام.

ومما يزيدني ويزيدك أيها الذكي مسرة ما مسّنا الله من العلم وحبانا من الفضل، ذلك أنني أنا وأنت قد عرفنا سر ما تصنعه أوروبا في بلاد الشرق. ذلك أنهم أجمعوا أن يحصروا الأفكار ويمنعوا حقائق العلم ليبقى الناس تحت أمرهم، يفعل ذلك الإنجليز والفرنسيون والأمة الهولاندية والبلجيكية وغيرهم. أليس هذا بعينه هو ما فعله حسن بن الصباح ومشائخ الصوفية، أي: أكثرهم، فإنهم موقنون أنهم لا يتبعهم إلا الجهلاء. اللهم إنك أنت الرب والشهيد على هذا الإنسان خصوصاً الأمم الإسلامية.

ترعرع الدين وازدهى في القرون الأولى، فقامت فرق الباطنية فحرّمت العلم وقفى على آثارهم أكثر شيوخ الصوفية، وافترق أهل الجزائر وتونس ومراكش ومصر والعراق وغيرهم. افترقوا لأنهم ورثوا التفرّق عن آبائهم وشيوخهم. أولئك الشيوخ الذين منعوا العلم. ولما أخذت أوروبا العلوم عن آبائنا أخذت تقلد الباطنية كحسن بن الصباح وشيوخ الصوفية، وتعاونت معهم على إخماد أنفاس المسلمين.

فهنا مصيبتان حلتا بالمسلمين: مصيبة قديمة وأخرى حديثة، فالقديمة هم بعض شيوخ الصوفية الذين يحرمون العلم إلا ما نطقوا به، والحديثة هي الأمم الأوروبية الذين اتخذوا أولئك الشيوخ أدوات فعالة لإخضاع أهل الشرق، فالشرق هو الذي علم أوروبا كيف تعمم الجهل وهو الذي أنبت الباطنية كحسن بن الصباح الذين منعوا العلم.

فهاهنا اجتمع الأمران في أبناء العرب والفرس والترك وغيرهم، ومتى اشتد الكرب هان، وبعد هذا التفسير إن شاء الله وأمثاله سيخرج المسلمون من هذين المحبسين ويعمم التعليم وتزول سلطة أولئك الشيوخ المضلين، ويصبح الإسلام صافياً نقياً كما بدأ، ويتخرج فيه رجال لا سلطة لأوروبا ولا لشيوخ الباطنية أو الصوفية عليهم وهم كاملون.

المسألة الثانية: في الكلام على نظام الملك الوزير وعمر الخيام الفيلسوف، وحسن بن الصباح الباطني

اعلم أن هؤلاء الثلاثة كانوا يحضرون دروس إمام الحرمين في القرن الخامس الهجري. وقد قالوا وهم تلامذته: إن أستاذنا ذو فضل عظيم، وما تلقى عنه أحد إلا ارتقى ذروة المجد، فهلموا نتعاهد أن يكون الفائز بالعز والسلطان والدولة آخذاً بيد أخويه في المستقبل، فكان أول من نال العز والقوة نظام الدولة، إذ صار وزير الدولة، فقدم إليه عمر الخيام وحسن بن الصباح وذكراه بالعهد فقال لهما: اطلبا ما تريدان، فطلب عمر الخيام أن يتوفر على الفلسفة وزهد في الوظائف، فأجرى عليه رزقاً معلوماً كل شهر، فقضى حياته في حوز الحكمة، وله نظم رائق باللغة الفارسية يسمى « رباعيات الخيام »، ظهر منذ نحو (٨٠) سنة في بلاد الإنجليز، وترجم إلى اللغة الإنجليزية ومنها إلى العربية، وعندي نسخة منه، وقد اطلعت على الإنجليزية وفيها تاريخ حياته، هذه الرباعيات ترجمها إلى العربية وديع أفندي البستاني، وهي في وصف أحوال هذا الوجود واحتقار الدنيا مع الوصف العجيب، فهي أشبه بما في شعر أبي العلاء المعري، وبما ذكره سيدنا سليمان عليه السلام في التوراة، إذ يذم الحياة الدنيا ويقول:

كل ذلك باطل، وقبض الريح . ورباعيات الخيام قد اشتهرت في أمريكا في هذا العصر ولها هناك مسارح للتمثيل عددها (١٢) . هذا هو الخيام .

أما حسن الصباح فإنه اختار أن يكون صاحب عمل في الحكومة، فجعله في الديوان، ولكنه لم يحفظ الجميل فأراد العار على من أحسن إليه . وذلك أنه قال للملك : نريد أن نجعل للبلاد ميزانية تسير عليها الحكومة، فطلب الملك من نظام الملك ذلك، فقال : لا سبيل إلى ذلك، فعهد بذلك إلى حسن بن الصباح، فشرط أن يجعل الديوان تحت إمرته أربعين يوماً، وفي أثناء ذلك احتال كاتب نظام الملك فتقرب إلى كاتب السرّ لابن الصباح وغمره بالهدايا والعطف والمودة، حتى إذا كان يوم تسليم أوراق الميزانية قابله قبل الوقت المعين بزمن وجيز فقال له : أرني هذا الورق، فأخذ ينظر إليه وتعمد وقوعه على الأرض، فاختل نظام وضع الصحائف، فقد جعل ابن الصباح لكل مدينة صحيفة مخصوصة بنمرة خاصة، فلما أن اختلف الوضع عند جمع الصحائف الواقعة حضر ابن الصباح وتسلمه من كاتب سره، ودخل فرأى الملك والوزير معاً، فطلب منه الملك ميزانية إحدى البلاد فلم يجدها في محلها، فأخذ يبحث عنها، فقال نظام الملك : أين هي ؟ وكيف تدّعي أنك تعرف ذلك ؟ وأين دعواك ــ منتهزاً الفرصة قبل عثوره على تلك الصحيفة ـ فخرج مغضباً وتوجه إلى مصر التي فيها الدولة الفاطمية .

ولأذكر نبذة من ذلك التاريخ لإيضاح المقام، فأقول : إن الفاطميين بمصر قد كان أول عهدهم ببلاد المغرب، لأن المهدوية لا تنبث إلى في قوم غير متعلمين، وكان ابتداء ذلك في نهاية القرن الثالث الهجري، ولما انتهى الأمر إلى المعز لدين الله الفاطمي في القرن الرابع دخل البلاد المصرية بعد ذهاب دولة الأخشيديين ومن قبلها دولة الطولونيين فدخلها بلا حرب وبنى القاهرة والجامع الأزهر في منتصف القرن الرابع الهجري بهمة وزيره جعفر بن فلاح، والقاهرة تسمى « المعزية » نسبة للمعز لدين الله المذكور . وكان مقرهم المسمى بـ« الباطنية » الذي يسمى بهذا الاسم الآن جنوبي الجامع الأزهر وبقيت دولتهم إلى أواخر القرن السادس الهجري، ثم حصل بمصر مجاعة لقلة ماء النيل، فأكل الناس القطط والكلاب والضيوف والأطباء وأكل الأبوان ابنيهما وهكذا، حتى بغلة الملك أكلوها والملك نفسه لم يجد له كل يوم إلا رغيفاً وطبقاً مملوء لبناً . وفي ذلك الزمن كان نور الدين الشهيد بالشام وله دولة، وقد أرسل إلى مصر « شيركوه » ومعه « صلاح الدين الأيوبي »، وكان هذا الأخير ليست له شوكة فاستوزره الخليفة الفاطمي، فضبط البلاد وحافظ عليها حتى مات الخليفة، فأولاً جعل الخطبة لنور الدين الشهيد بدل الخليفة الفاطمي، ثم جعلها لنفسه، ثم أفنى أسرة الخليفة بأن جعلهم جميعاً في بيوت خاصة، وجعل النساء لا يختلطن بالرجال حتى لا يتوالدوا، وكان ما كان من الحروب الصليبية في الشام وانتصاره عليهم .

وقد كان الملوك الفاطميون لهم مقابر في غرب المشهد الحسيني فيما بينه وبين بيت القاضي في موضع خان الخليلي فهدمت وبنى الناس عليها، وحفظ المشهد الحسيني إعظاماً له ولآل البيت الكرام، وكانت له دعوة منتشرة في الأقطار . ولما زالت دولتهم من مصر انتقلت إلى بلاد أخرى منها ما تقدم في سورة « إبراهيم » من شكوى الإسماعيلية عن « أغا ممنون » الذي يدعي الألوهية ويأخذ منهم أموالهم . فاقرأ ما هناك .

إذا عرفت هذه المقدّمة فانظر أمر حسن بن الصباح فإنه لما غلب على أمره في جهات الفرس سار إلى مصر وبقي فيها نحو (١٨) سنة على ما أذكر، ثم رجع إلى بلاد الفرس، وقد كان من دعاة الفاطمية إذ تعلم أسرارهم وأتقنها. هنالك استظهر بالرجال والسلاح وتحصن بالقلاع، وكان بدء صعوده على قلعة الموت في شهر شعبان سنة ٤٨٣هـ، وكانت لهم حيل منها شرب الحشيش الذي يجعل المرء أشبه بالمنوَّم ـ بالفتح ـ الذي يفعل كل ما يلقى إليه، ومنها أنهم كانوا يختارون أقوى الرجال وأجهلهم، ويخدّرونهم بمواد ثم يضعونهم في بستان عظيم فيه الجواري الحسان الجميلات وهناك يوقظونهم، فيدهش الرجل منهم إذ يراه في جنات الخلد، ويرى هناك ما لا يحلم به، ثم يخدّر ثانياً ويوضع في مكان الضيافة فيستيقظ ويوقن بأنه كان في جنات النعيم عياناً، فيعتقد أن الإمام هو صاحب التصريف فيصبح من « الفدائيين »، إذا قال له اقتل نفسك يمتثل حالاً لأنه سيدخل الجنة والحور في انتظاره الآن. وقد كان استيلاؤه على قلعة الموت بحيلة، وهي أنه فعل ما اقتبسه الإنجليز بعد ذلك في الهند، إذ اشترى من صاحب القلعة مقدار جلد الثور، أو كان ذلك في مقابلة مداواته له من مرض لا أتذكر أيهما كان، فلما أراد أن يستولي على ما اتفقا عليه جعل ابن الصباح جلد الثور سيوراً مدّها فأخذت أرضاً واسعة جداً، فأبى صاحب القلعة إلا محاربته فانتصر عليه. هنالك كانت تلاميذه الذين يعادهم سراً قد تدخلوا في بيت الملك والوزير، فذبحوا الملك ونظام الملك في ليلة واحدة بدهائه ومكره الخفي، وما هم إلاّ خدم من تلاميذه السريين، وابن الأثير يقول: ماتا في زمانين متقاربين والله أعلم.

فهاأنت ذا أيها الذكي وقفت على خبر ابن الصباح الذي تقدّم اسمه في سورة « إبراهيم »، إذ يقول أتباع « أغا ممنون » بالهند له: إنكم من فرقة حسن بن الصباح. فهذا هو قد ذكرته لك هنا لتفرح بنعمة الله والعلم وينشرح صدرك وتنفع أمم الإسلام بحكمتك، فإن هذا التفسير من النعم التي أنعم الله بها على المسلمين، وسينطلقون سراعاً إلى الحكمة ويردون مواردها ويصلون إلى نهايات الحكمة والعلوم. انتهى الكلام على المسألة الثانية.

المسألة الثالثة: زهد أكثر الأمم الإسلامية اليوم في فهم القرآن

اعلم أن هذه الأمم الإسلامية بأمثال هذه الطوائف وببعض علماء الفقه وبالملوك الظالمين قد تركوا العلوم بتاتاً ونسوا مواهبهم التي خلقها الله لهم، وأصبحنا نرى أبناء العرب وغير العرب في ذهول مستمر بسبب الجهالة الشائعة في بلاد الشام. وأذكر لك حادثة واحدة: ذلك أن السلطان عبد العزيز سلطان مراكش وهو من آل البيت لعبت به الأمة الفرنسية لعباً مهلكاً فأزالوا ملك هذه الأسرة من تلك البلاد. وأبين السبب لك فأقول:

اعلم أن أمم أوروبا قد استكملت عددها وقواتها، والمسلمون نائمون، وقد بلغني ممن أثق به أن السلطان عبد العزيز كان رجلاً صالحاً، ولكن ماذا حصل؟ كنت أنا في عنفوان شبابي بمدرسة « دار العلوم » وكنت أقرأ الجرائد السياسية وأتتبع مسألة مراكش وهي بلاد إسلامية مستقلة، وبلادنا كانت محتلة بالإنجليز فرأيت الكلام كثر على بلاد مراكش ورأيت اقتراحاً في الجرائد هذا ملخصه:

« إن الأمم الإسلامية يخضعون لشيوخهم والشيوخ على قسمين: شيوخ آل البيت كالسلطان عبد العزيز، وشيوخ هم شيوخ الطرق مثل ماء العينين ومثل الكتاني ومثل التيجاني. وهؤلاء إذا

غمرناهم بالعطايا وألنا لهم مراقدهم وأنعمنا عليهم وأسعدناهم فإنهم لا يالون بالشعب، لأنهم يريدون المحافظة على مراكزهم، وهم يعلمون حق العلم أن في الثورة ضياعاً لمراكزهم. فعلى قادة الأمة الفرنسية أن يفعلوا ذلك».

فمضت بعد ذلك سنون فرأينا في الجرائد أنهم أخذوا نساء راقصات من مصر إلى السلطان عبد العزيز فنفر الناس من ذلك الخبر وشاع الخبر في أقطار المعمورة. ثم خلعوا عبد العزيز ثم تولى عبد الحفيظ. ثم خلعوه واستولوا على البلاد. وحقيقة الأمر أن المسلمين لما تركوا العلوم وجهلوا التاريخ وعلم السياسة ولم يجاروا الأمم لعبت بهم الدول فأخذوا يشيعون هذه الإشاعات في مصر وغيرها ويأخذون هؤلاء النساء بأجرة، وهو لا علم له بها لأنه لا جرائد في بلاده ولا سفراء ذوي حزم يخبرونه بما يقال عنه، بل هم ساهون لاهون يتوارثون هذا الجهل كابراً عن كابر. هذا ما كان من أمر ملوك آل البيت في مراكش. وأما الكتاني فقد بلغني أنه أوذي كثيراً في أمر بلاده وابتلوه بنقص الأموال والأنفس والثمرات. ويقال: إن ماء العينين قد أوذي أيضاً.

هذه أحوال أمم الإسلام اليوم. ويظهر أن المسلمين الآن أخذوا يقلعون عن هذه الجهالة العمياء واستيقظوا، وترى من آثار الجهل طوائف من الصوفية يحرّمون على تلاميذهم قراءة العلوم ليبقى في قبضتهم وتحت إرادتهم وحكمهم يأمرونه فيأتمر. كل ذلك من الضلال الفاشي والجهل المخيم في بلاد الشام، والله يقول: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، وهذا أوان زوال هذا الضلال من بلاد الإسلام. واعلم أن أكثر الصوفية الآن في بلاد الإسلام يدقون الطبول ويحملون البيارق ويأخذون العهود والمواثيق على تلاميذهم، وهم لا يعلمون أن هذا الميراث الذي توارثوه إنّما هو غالباً لإحراز الملك وقيام الدولة، كما حصل أيام أبي مسلم الخراساني وقلب الدولة الأموية وكذلك الملك في الدولة الفاطمية والقرامطة، كل ذلك بالعهود والبنود، ولكن شيوخ الصوفية اليوم اكتفوا بانغماس تلاميذهم في الجهالة حتى لا يعرفوا سواهم، وحقروا لهم علماء الدين وكل علم وحكمة إلا ما خرج من أفواههم، حتى صار الأتباع يحقر بعضهم بعضاً، لأن كل شيخ أفهم تابعيه أنه وحده على الحق، حتى ترى أبناء العرب متفرقة قلوبهم. فلا المراكشي يتعارف مع المصري ولا كلاهما مع العراقي، وهؤلاء لا يتزاورون مع الحضرمي ولا اليمني، لأنهم متقاطعون لجهالتهم بالتاريخ السياسي والعلمي والديني. كل ذلك سر قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]. فاقرأ دواء هذا الداء في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الآية: ٢٣]. انتهى. والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في إيضاح الكلام على حسن بن الصباح وإجمال تاريخ الإمامية والزيدية والكيسانية

اعلم أن الشيعة أتباع سيدنا علي كرم الله وجهه وبنيه رضي الله عنهم أجمعين، ومذهبهم أن الإمامة ليست من المصالح العامة، بل هي تكون بالتعيين، وهي من أركان الإسلام، والإمام المعين يكون معصوماً من الكبائر والصغائر، ومن هؤلاء إمامية وزيدية. فالأولون يتبرؤون من الشيخين أبي بكر وعمر، والآخرون يجيزون إمامة المفضول مع وجود الفاضل فلا يتبرؤون منهما.

فأما الإمامية فإنهم يقولون : إن الإمامة تنتقل في ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها بالنص واحداً بعد واحد .

وأما الزيدية فإنهم يقولون : يكون الإمام في ولد فاطمة رضي الله عنها ولكن ذلك باختيار الشيوخ والانتخاب لا بالتعيين ، وصاحب المذهب زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم أجمعين .

ولا بد من أن يخرج الإمام فهذا شرط من شروط مذهبه . ولما ناظر الإمامية زيداً ورأوه يقول بإمامة الشيخين رفضوه فسموا « رافضة » ، ولم يجعلوه من الأئمة . وطائفة ساقوا الخلافة في محمد بن الحنفية ثم إلى ولده وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاه . ومن هذه الأصول الثلاثة تفرعت فروع يطول شرحها ولا محل لذكرها . ومن هؤلاء طوائف يسمون « الغلاة » قالوا بألوهية هؤلاء الأئمة ، فهم إما بشر اتصفوا بصفات الألوهية ، وإما أن الإله نفسه قد حلّ في ذواتهم البشرية كما يقوله النصارى في عيسى عليه السلام ، وهذا هو القول بالحلول . ولقد حرق هذه الطائفة سيدنا علي بالنار ، وسخط محمد بن الحنفية على المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه ولعنه ، وهكذا جعفر الصادق رضي الله عنه لما بلغه مثل ذلك بالنسبة له .

ومنهم من يقول : إن الإمام إذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون كماله فيه على طريقة التناسخ كمذاهب أهل الهند .

ومن هؤلاء الغلاة من يقول بإمام واحد ويحكمون بأن هذا الإمام لم يمت بل هو حي ولكنه غائب عن الناس كمسألة الخضر عليه السلام ، وهم « الواقفية » . فترى منهم طائفة يقولون : إن الإمام علي وحده رضي الله عنه ، وإنه في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه ، والإمامية قالوا مثل هذا في بنيه لاسيما الاثني عشرية منهم ، أي الذين يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري الملقب المهدي عندهم دخل سرداباً بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً ، وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه « المنتظر » لذلك ، ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركباً ، فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجعوا إلى الليلة الآتية . إذن الاثنا عشرية يقولون في محمد بن الحسن العسكري ما يقوله الذين وقفوا على عليّ كرم الله وجهه من حيث البقاء في الحياة والتغيب عن الناس . ومن الواقفية من يقول : إن الإمام الذي مات يرجع إلى حياته كقصة أهل الكهف . وهؤلاء الغلاة رد عليهم الفطاحل من علماء الشيعة أنفسهم وأبطلوا حججهم .

الكلام على الكيسانية

إن الكيسانية ساقوا الإمامة من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم ويسمون « الهاشمية » ، وتزعم طائفة أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفاً من الشام أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام ، وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح ، وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبي جعفر المنصور ، وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحداً بعد واحد ، وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بني العباس ، وكان منهم أبو مسلم الخراساني ، ويستدلون بأن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو أولى بالوراثة .

الزيدية

وأما الزيدية فقالوا بإمامة علي رضي الله عنه، فالحسن، فالحسين، فابنه علي زين العابدين، فابنه زيد بن علي، وهو صاحب هذا المذهب، وقد خرج بالكوفة داعياً إلى الإمامة وقتل وصلب بـ« الكناسة »، وبعده يحيى فظهر بخراسان وقتل بالجوزجان، وبعده محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسين السبط، ويقال له « النفس الزكية » وذلك بوصية يحيى المذكور، فخرج بالحجاز وقتله عساكر المنصور. وهناك طوائف كثيرة من الزيدية ونخص بالذكر منهم من نقلوا الإمامة من محمد بن عبد الله المذكور إلى أخيه إدريس الذي فرّ إلى المغرب، وقام بعده بالأمر ابنه إدريس واختط مدينة « فاس » وأعقب ملوكاً بالمغرب ثم انقرضوا.

ومن الزيدية من كانت لهم دولة بـ« طبرستان » وتوصل « الديلم » من نسلهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد.

الإمامية

إن الإمامية ساقوا الإمامة من عليّ كرم الله وجهه إلى ابنه حتى أوصلوها إلى جعفر الصادق وهناك افترقوا فرقتين: فرقة ساقوها في ولده إسماعيل ويعرفونه بينهم بالإمام وهم الإسماعيلية.

وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان كما علمت، فأما الإسماعيلية فيقولون بإمامة الإمام بالنص من أبيه جعفر الصادق ومن إسماعيل انتقلت إلى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين، والمستور عندهم من لا شوكة له فيستتر، وتكون دعاته ظاهرين إقامة للحجة على الخلق، وإذا كان له شوكة ظهر وأظهر دعوته، وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق ثم ابنه محمد الحبيب وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله التيمي في كتامة بالمغرب، وتتابع الناس على دعوته، ثم أخرجه من معتقله بـ« سجلماسة »، وملك القيروان والمغرب، وملك بنوه من بعده مصر، وهذا معروف مشهور في التاريخ، ويسمى هؤلاء « الإسماعيلية » نسبة إلى القول بإمامة إسماعيل، ويسمون أيضاً بـ« الباطنية » نسبة إلى قولهم بالإمام الباطني أي المستور، ويسمون « الملحدة » لما في مقالاتهم من الإلحاد، وهؤلاء لهم مقالات قديمة ومقالات حديثة، وهي التي دعا إليها الحسن بن محمد الصباح الذي تقدم كلامنا فيه، وقد ملك حصوناً بالشام والعراق، ولم تزل دعوته فيها إلى أن توزّعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت.

واعلم أن الباطنية القديمة خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة، وتكلموا على النفس والعقل وما أشبه ذلك، وتكلموا على أسرار الحروف والأعداد، ويقولون مثلاً: التسمية مركبة من سبع واثني عشر والتهليل مركب من أربع كلمات في إحدى الشهادتين، وثلاث كلمات في الشهادة الثانية، وسبع قطع في الأولى، وست في الثانية، واثني عشر حرفاً في الأولى، واثني عشر في الثانية، وهكذا في كل آية استخرجوا أعداداً فأضاعوا زمانهم فيما لا فائدة فيه. وأذكر من ذلك أني قرأت في بعض كتبهم في قوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾[غافر: ١٥] أن جمل رفيع ٣٦٠ وهي عدد درجات الدوائر الفلكية وغيرها، لأن الدائرة ٣٦٠ درجة، فكأنه يقول الدرجات ٣٦٠، ويعتبرون أمثال هذا أسراراً

للقرآن ولن يعرفها أحد إلا الإمام. وهكذا يقولون: إن جمل اسم «محمد» عليه الصلاة والسلام بحسب ما ينطق به (١٣٢) وحروف الفاتحة بحسب النطق أيضاً (١٣٢)، وهذه يجعلونها أسراراً عالية، وتورث قلوب الذين يعرفونها تصديقاً بالدين وبالسر المحمدي وبالإمام القائم بمذهبهم.

ومعلوم أن كل عدد من هذه الأعداد يقابل بضده ويعكس الأمر على قائله، ويدخل في هذا علم الأوفاق الذي فيه يظهر توافق الأعداد كما هو مشهور، وهذا قد اتخذوه عن قدماء المصريين والهنود، فهؤلاء عندهم هذه الأوفاق كما أوضحنا في غير هذا المكان إيضاحاً تاماً، فهذا ضياع وقت يصد الناس عن النظام الجميل في السماوات والأرض، فهناك التطابق العجيب والنظام البديع الذي ظهر لك في أمثال هذا التفسير، وهو الذي قامت به المدنية العصرية في العالم كله. فأما أصحاب الدعوة الجديدة فقد تركوا هذا وأظهر حسن بن الصباح دعوته كما تقدم، وتحصن في قلعة الموت وبقي الأمر متوارثاً إلى زماننا هذا. وقد عرفت فيما تقدم في هذا التفسير في المجلد السابع أنّ «أغا ممنون» بالهند في زماننا قد شكا منه أتباعه لأنه على رأي حسن بن الصباح منذ ثمانمائة سنة.

حسن بن الصباح

قال أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ في كتابه «الملل والنحل» ما ملخصه: أن ابن الصباح هاجر إلى إمامه وتلقى منه كيفية الدعوة لأبناء زمانه فجعل كيفية الدعوة فصولاً أربعة:

الفصل الأول: إن الإنسان إذا اعتقد عقيدة فهذه إما أن تكون بالعقل وإما أن تكون بالتعليم، والقائل بالنظر بالعقل إذا أنكر على المتعلم عن غيره فمعناه أن هذا المنكر عليه جاهل محتاج إلى تعليم غيره، فهو إذن مقر بأن التعليم واجب وإذن صار الأمران ضروريين معاً العقل والعلم الذي يعلمنا كيف نعقل ونفهم.

الفصل الثاني: إنه ليس كل معلم يصلح لتعليمنا، لأنه إذا ثبت في الفصل الأول أن المعلم لا بد منه فهنا نقول: ليس كل معلم يصلح لذلك وإلا كانت الفوضى. فلا بد إذن من معلم صادق. فهنا أمران: أولاً: لابد من معلم. ثانياً: لا بد من معلم صادق.

الفصل الثالث: أن هذا المعلم الصادق لا بد من معرفته والظفر به ثم التعلم منه، إذ لا يجوز التعلم من أيّ معلم كان.

الفصل الرابع: أن في العالم حقاً وباطلاً، وعلامة الحق هي الوحدة وعلامة الباطل هي الكثرة، وإن الناس متى تعلموا من الإمام المعصوم الذي يعرفه هو صاروا إلى الوحدة والجماعة، وإذا تعلموا من أي معلم كان صاروا إلى الفرقة والآراء المختلفة. إذن جميع المذاهب والفرق والآراء في الأمم الإسلامية عنده منبوذة لأنها متفرقة، وهم وحدهم على الحق لاتحادهم. ثم إن كلمة الشهادة وترتيبها فيها نفي وإثبات، فالنفي للباطل وهي الفرق المختلفة، والإثبات للحق وهي الفرقة التي هو قائم برياستها ويقول: «إلهنا إله محمد» صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم أنه منع أصحابه من العلم وسد عليهم أبوابه. وإنّما أطلت في هذا المقام لأشبع تلك العقول المتعطشة للعلم من الأمم الإسلامية التي في زماننا وبعدنا، ليعلموا لماذا تخاذل المسلمون وكسرت شوكتهم وضاع مجدهم، والحق أحق أن يتبع.

إن هذه الأمة ليس لها إلا طريق واحد هو الذي ندعو إليه في هذا التفسي ، وهو ارتقاء جميع العلوم في بلاد الإسلام قاطبة ، والحمد لله ، إن هذا التفسير قد أوضحه إيضاحاً تاماً . فأنا أحمد الله وأشكره أن أوفق له ، وسيريح قلوباً وقلوباً وسيشرح الله به صدوراً وصدوراً . فليعمم التعليم في بلاد الإسلام وليكن لكل ذكر ولكل أنثى ، وليكن ابتدائياً وثانوياً وعالياً . وهذه هي الطريقة المثلى التي بها نتجاوز تلك السبل الضالة الجاهلة التي مزقت أمم الإسلام ، وليكن الكرام من آل البيت قدوة في العلم ورفعة الأمة وشرفها .

هذا هو الحق الصراح ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الخميس (١٥) مارس سنة ١٩٢٨ .

القسم الثاني

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ

زَكَوٰةً وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا
فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ
سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ
سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا
يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ
يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ
وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ
عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾
قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن
تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ
وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا
﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾
۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضۡنَا
جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا
يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ
أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴿١٠٢﴾ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا
كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ
جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا
لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠
بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا
صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

جاء في البخاري ومسلم ما ملخصه : أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه تعالى ، فأوحى الله سبحانه إليه « إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتاً في مكتل فحيثما فقد الحوت فهو ثمة ، ففعل ذلك وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط في البحر ، ﴿ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ وصار الماء كالطاق عليه وهو يجري ، فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، وانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد طلب موسى الغداء ووجد النصب ، ولم يكن ذلك النصب إلا بعد أن جاوزا المكان الذي أمر الله به ، فقال فتاه : ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلاً مسجى بثوب أبيض » . وكان من أمرهما ما سترى من مسألة السفينة والغلام والجدار .

التفسير اللفظي

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ أي : اذكر إذ قال الخ ﴿ لِفَتَىٰهُ ﴾ يوشع بن نون من ذرية يوسف عليه السلام وكان يخدمه ﴿ لَآ أَبْرَحُ ﴾ لا أزال أسير ﴿ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ ملتقى بحر فارس والروم من جهة المشرق ، أو بحري العلم : موسى في علم الشريعة ، والخضر في علم الحقائق ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ أو أسير زماناً طويلاً ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ وهو المكان الذي وعده الله بلقائه عنده أي مجمع وصلهما ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ أي : فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً وصار الماء كالطاق عليه ، فكان ذلك للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ﴾ أي : قال موسى ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ ما نتغدى به ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ ولم ينصب حتى جاوز الموعد ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ ﴾ أرأيت ما دهاني إذ أوينا ﴿ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ ﴾ يعني الصخرة التي رقد عندها موسى ﴿ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ نسيت أن أخبرك بما رأيت منه ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ أي : وما أنساني ذكره إلا الشيطان ، فـ« أن أذكره » بدل من « الهاء » ﴿ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسرب ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ ﴾ أي : أمر الحوت ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ نطلب لأنه المطلوب ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ فرجعا في الطريق الذي جاءا فيه يقصان ﴿ قَصَصًا ﴾ يتبعان آثارهما اتباعاً حتى أتيا الصخرة ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ وهو الخضر مسجى بثوب أبيض ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ، فقال : أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل؟ قال : نعم ، ووصف العبد بقوله : ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ هو الوحي والنبوة ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ مما يختص بنا ولا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ أي على شرط أن تعلمني وهو حال من « الكاف » ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ أي : علماً ذا رشد وهو إصابة الخير والرشد ، والرشد كفعل وسبب قراءتان ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ عن الإنكار ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ وكيف تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها مجهولة ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا ﴾ معك غير منكر عليك ﴿ وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ عطف على « ستجدني » ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ ﴾ فلا تفاتحني

في شيء أنكرته عليّ ﴿ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أي، حتى ابتدئ بذكره فأبين لك شأنه. قال تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ يمشيان على الساحل يطلبان سفينة فوجداها فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول أي عوض ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ وذلك حين توسطوا في لجة البحر إذ أخذ الخضر فأساً فخرق لوحاً من ألواح السفينة ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ عظيماً منكراً، فأخذ موسى ثوبه فحشا به الخرق ﴿ قَالَ ﴾ الخضر ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ بالذي نسيته ﴿ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ ولا تغشني عسراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذة. قال النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح: «كانت الأولى من موسى نسياناً، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة». ﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾ يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله، وهذا قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي نفساً طاهرة من الذنوب بغير نفس، أي: لمَ تقتل نفساً لم يجب عليها القتل؟﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ أي: منكراً عظيماً ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ وأتى هنا بلفظ «لك» ليواجهه بصريح العتاب ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا ﴾ بعد هذه المرة ﴿ فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ أي: فارقني ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ اتضح لك العذر في مفارقتي، والمعنى أنه مدحه لاحتماله مرتين، قال صلى الله عليه وسلم: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال: إن سألتك عن شيء الخ، فلو صبر لرأى العجب».

قال تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ قرية أنطاكية ﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾ استضافاهم ﴿ فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ يقال: ضافه إذا نزل به ضيفاً، وأضافه وضيفه أنزله ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يداني أن يسقط ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ بعمارته أو بعمود عمده به، وقيل: نقضه وبناه ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي: جعلاً لتعشى به ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ أي: هذا وقت فراق بيني وبينك ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قيل: إن موسى أخذ بثوب الخضر وقال: أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني، فقال الخضر: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ وهم لعجزهم عن دفع الملك أو لزمانهم أو لحاجتهم مساكين، وقيل: كانوا عشرة، خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أجعلها ذات عيب ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ قدامهم ملك ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ أي: كل سفينة صالحة، ولذلك عبتها، فإذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ ﴾ أي: خفنا ﴿ أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾ أن يغشيهما أو يكلفهما ﴿ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ أي: فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾ صلاحاً وتقوى رداً على قوله: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ فقال الخضر: أردنا أن يرزقهما الله خيراً منه زكاة ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أي: رحمة وعطفاً على والديه. قيل: ولدت أمه جارية فتزوجها نبي فولدت نبياً هدى الله به أمة من الأمم. ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ

يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ وكان هذا الكنز جامعاً للمال وللعلم إذ كان لوحاً من ذهب مكتوباً عليه « عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟! عجباً لمن أيقن بالقدر كيف يغضب؟! عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب؟! عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يغفل؟! عجباً لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ». وقيل: هو كنز من ذهب وفضة ولا تنافي بينهما. ثم قال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ قيل: هو جدهما السابع ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ أي: الحلم ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً ﴾ أي: لأجل الرحمة ﴿ مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ ﴾ أي: وما فعلت ما رأيت ﴿ عَنْ أَمْرِى ﴾ أي: عن اجتهادي، إنّما فعلته بأمر الله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الأجوبة الثلاثة ﴿ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

اعلم أن هذه القصة كلها ترجع إلى طلب العلم وعدم الوقوف عند حد، لأن المكتفي بما عنده مغتر ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٩] ﴿ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣]. ويروى في سبب هذه القصة أيضاً: أن موسى سأل ربه: أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: فأي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى. فقال: إن كان في عبادك أعلم مني فدلني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، إلى آخر ما تقدم. ثم جاء فيها إن علمي وعلمك الخ.

مغزى هذه القصة

اعلم أن هذه القصة جاءت هنا لإتمام ما قبلها. ذلك أن الله في أول السورة أرانا أن آياته كلها عجب، وقال لنا: إن قصة أهل الكهف وقصة يوسف بالنسبة لآيات الله شيء قليل؛ فآيات الله لا تتناهى فلا تقتصروا على أنباء القرون الخالية والأمم الماضية وسير الصالحين، فإن الصالحين والأمم ما هم إلا بعض ملكي، والبعض المذكور قليل بالنسبة لهذه الأرض والسماء المحيطة بها، فإياكم أن تضيعوا حياتكم في ذلك بل اقرؤوها للإيمان، ثم ادرسوا هذا الكون المحيط بكم دراسة علمية ولا تقفوا عند الشهوات، فإن زينة الحياة الدنيا فانية. إلى آخر ما تقدم.

ولقد ظهر هذا المعنى في حديث الشيخين المتقدم، إذ جاء فيه أن علم موسى وعلم الخضر في جانب علم الله كما أخذ الطائر من البحر.

هذا تصريح من جانب الحضرة النبوية بما ذكرناه سابقاً، فإن الخضر وموسى لم يخرجا عن كونهما مخلوقين نبيين ولهما قصص وحكايات وأعاجيب، فقال الخضر لموسى: على الناس أن لا يقفوا عند حد ما سمعوا لأنا لا نسمعهم إلا على قدر الهداية العامة، فنحن أشبه بالهادي الخريت الذي يهدي الناس إلى السبيل، وعلى الناس أن يسيروا، فليس الذي يهدي الطريق هو المقصود، بل الأرض والسماء أوسع منه، والمسافر يسافر لأغراض غير الدليل، وإنّما عليه أن يتبع الدليل، فعلمي وعلمك قليل وعلم الله كثير، إشارة إلى ما ذكره الله أول السورة: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ فجعل آيات الله في السماوات والأرض عجائبها أبدع من

قصص أهل الكهف، كذلك علم موسى وعلم الخضر أقل من علم السماوات والأرض وهو المستمد من علم الله. فعلم موسى وعلم الخضر يدلان على علم الله، ونحن ندرس مخلوقات الله لنتوصل إلى الحقائق.

إن علم الأنبياء الذي يلقونه إلينا إجمالياً وقراءة هذا الكون تفصيل، وليس على الأنبياء أن يعلمونا غير ما هو أصل الدين، وعلينا نحن التفصيل بعقولنا والنظر في خلق ربنا. والأنبياء بما أرشدوا إليها صاروا هم المعلمين لها وإن لم يكن مباشرة. فإذا قال الله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٧٣] فعلينا أن نبحث لنصل إلى الحقائق ولسنا نصل إلى ما أنيرت به بصائر الأنبياء، ولكن نصل إلى ما تحتمله عقولنا ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

إيضاح هذا المقام، أي: أسرار هذه القصة

حدثني الحارث بن همام، قال: أخذتني سنة من النوم فرأيت فيما يرى النائمون رجلين أحدهما فلاح بحقله والثاني شيخ عالم بالقرآن وتفسيره والبلاغة وآدابها، فأخذا يتحاوران وأنا مصغ لهما؛ قال الفلاح للشيخ الأديب: أيها الشيخ إن الله قد أنعم عليك بنعمة القرآن والعلم وآتاك حكمة ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، إني حرت في أمر هذه الدنيا، قال الشيخ: وكيف ذلك؟ قال: أنا واقف في الحقل أرى طيوراً فوقي تطير، وحيوانات وبهائم على الأرض تسير، وألفيت الطيور قد اكتست جلابيب الهناء وسرابيل السعادة، لم تكبل في الأرض بالحافر ولا بالخف ولا بالظلف، بل أرجلها خفيفة وريشها حريري وأمرها عجيب، تبيض البيض وتحضن أولادها وتربيهن مترفة ناعمة سعيدة فرحة مغردة مغنية، لا أسنان لها تعيقها عن الطيران بثقلها ولا آذان لكل منها، فإن ذات البيض خلقت بلا آذان ظاهرة، وذات الحمل والولادة آذانها ظاهرة. الأنعام حولي فأخفافها وأظلافها وغلظ أجسامها وحرمانها من الأجنحة كل ذلك أقعدها عن الطيران، وأكسبها السير في الغيطان، فخضعت لنا وذللناها فمنها ركوبنا وإنا لها لآكلون، ثم أرى طيور السماء وحيوانات الأرض والماء جميعاً لها شؤون وشؤون ونظام مسنون. كل له نظام يخصه لا عوج فيه، قد أعطي كل ما يؤهله لحياته؛ فالطير راض عن جوّه وعن هواه، وحيوان الأرض راض عن مثواه، وكأن هذا وذاك مشمولات بالعطاء، منعمات بكل يابسة وخضراء. أما الذي أذهلني وآذاني وهيج ببالي ما أراه من التناقض والاختلاف. فبينما ترى صانع العالم رحيماً لطيفاً إذا بك تراه قد انقض على المرحوم فآذاه ومنع عنه الرحمة وأرداه. فلما سمع ذلك الشيخ امتعض وقال له: لا تقل ذلك، فقال الفلاح: أجبني عن سؤالي وأزل شبهتي. أما قولك: لا تقل ذلك، فإنها صناعة العاجزين. قال الشيخ: قل وأوضح ما اشتبه عليك. فقال: أيها الشيخ:

(١) ألم تعلم أن الله مميت الناس وهم في متقلبهم يترددون؟ قال الشيخ: بلى.

(٢) قال الفلاح: ألم تر أن الباز ينقضّ على الخطاف والخطاف على العصفور فيبتلعه؟ قال الشيخ: بلى.

(٣) قال الفلاح: ألم تر إلى الطاعون كيف ينقضّ على جماعة من الناس وجماعة من الحيوان أخرى فيزيلها من الوجود؟ قال الشيخ: بلى.

(٤) قال الفلاح: ألا ترى أن رجلاً فقيراً عنده بقرة حلوب وعنده عشرة أطفال فمنها لبنهم وعليها حرثهم وسقيهم فتموت ويصير الرجل وأبناؤه فقراء؟ قال الشيخ: بلى.

(٥) قال الفلاح: ويكون جاره غنياً لا صلاح عنده ولا كرم وله ٩٩ بقرة أو أكثر ومع ذلك لا يصيبها الموت؟ قال الشيخ: بلى.

قال الفلاح هذه هي شبهتي، وهذه هي الحيرة، فقل لي بالله: أين العطف واللطف والرحمة التي رأيناها للأجنة في بطون الأمهات وفي الغدوّ والرواح؟ وأين هذا الجمال الساطع في هذا الوجود من هذا الفتك والقتل والإيلام؟ ولأكتف لك أيها الأستاذ بهذا وإلا فالأمر في مثل هذا لا حصر له فما أوسع الوجود، فقال الشيخ: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٣]، فقال الفلاح: أنا أسمع هذه الآية ولكن هل هذا هو العلم وهل هذه هي الحكمة؟ أين الجواب. يقول الله: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[يوسف: ٧٦] فأنا ذو العلم وأنت العليم فأفدني. قال الحارث بن همام: فلما رأيت الشيخ قد أرتج عليه تمنيت لو يفتح عليه بالجواب، فأطرق الشيخ رأسه قليلاً وبينما هو كذلك إذ انقض طائر أبيض من فوق الشجرة وأقبل إليهما وجلس بينهما، ثم انقلب فجأة رجلاً سوياً، فقلت في نفسي: يا سبحان الله، أفي يقظة أنا أم في منام. إذا هو ذو هيئة جميلة وشكل بهيج يسر الناظرين ويشرح الصدور فقال: قد سمعت قولكما وفهمت ما دار بينكما، ثم التفت إلى الشيخ وقال: هل قرأت قصة الخضر وموسى عليهما السلام في سورة الكهف؟ قال: نعم. قال: هل تدري ما فيها من الحكم؟ قال: نعم.

يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ ﴾[الآية: ٧١]، إلى أن قال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الآية: ٧٩] فنسب الخضر العيب إلى نفسه. قال: حسن. قال الشيخ: وقال: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً ﴾[الآية: ٨١]، ونسب هذا الخير إلى الله، وأيضاً قال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾[الآية: ٨٢]، ففي هذا نسبة الخير إلى الله والشر للعبد وهذا من الأدب الجميل في العبارة. فتبسم ذلك الطائف وقال: هل هذا هو محاسن القرآن؟. هذه يتعلمها الصغار في المدارس ليحسنوا النطق والتعبير، وليس القرآن منزلاً لمثل هذه النكات السهلة التي تلقى إلى المبتدئين، ولكن أريد منك أن تجعل جواب صاحبك من هذه القصة. حينئذ فكر الشيخ طويلاً وقال: أنا لم أر مناسبة بين سؤال صاحبي وبين قصة الخضر. إن ملخص ما فيها كما ذكره المفسرون أن العلم علمان: علم مكاشفة وحقيقة وعلم شريعة؛ فمن أدرك الآخرة أنكر الأولى، ومن أطلعه الله على الحقيقة كالخضر يكون فرحاً بمعرفتها ولا يكون لديه أيّ اعتراض على ما يخالفها. قال ذلك الطائف: ولكن لم تجب صاحبك إلى الآن؛ قال: هذا ما علمت فهل عندك علم؟ قال: فاستمع يا صاح، خذ لك عظة مما سيأتي:

(١) قال الله لموسى إن الخضر أعلم منك بعد أن عتب عليه.

(٢) ولما سأله عن مقره قال: مجمع البحرين، فلمَ عبر بالبحرين؟ فكأنّ المقام مقام تبحر في العلوم، ولذلك أشار لها الخضر عند نقر الطائر في البحر.

(٣) ذكر في الخبر أن عند الصخرة ماء عين الحياة ونام موسى، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت في الماء، وعين الحياة رمز للعلم، والعالم هو الحي الحقيقي بعد الموت وفي الدنيا والناس جميعاً أموات.

(٤) جاء في الخبر أن الخضر قال: يا موسى أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، ثم اتبعه موسى ليعلمه. كل ذلك ليقال لكم: إذا كانت هذه أحوال أنبيائكم فبالأحرى أنتم لا بد أن تزدادوا من العلم ولا تقفوا عند حد.

(٥) إذا علمت هذه المقدمات فاعلم أن هذه القصة تشير إلى أمور كثيرة منها ما ذكره صاحبك الفلاح. ألا ترى أن قتل الغلام وهو صغير لا ذنب له ترونه كل وقت في أرضكم هذه كما قال صاحبك الفلاح، فإن الطاعون وانقضاض الكواسر على الطير والوحوش والآساد على البهائم. كل ذلك من قبيل قتل الغلام، فما ذنب البهائم يصطادها السباع والإنسان؟ وما ذنب الأمم يصطادها الطاعون فيهلكها. إن الأمر لعجيب. هذا بعض المقصود من ذكر الغلام.

وأما ذكر خرق السفينة التي هي لمساكين فإشارة إلى ما ذكر صاحبك الفلاح من موت بقرة فلاح بجانبه رجل غني لم يصب. وأما ذكر الجدار وإقامته فتشير إلى كل من نرى أنه ليس أهلاً للنعمة ظاهراً وقد أغدقت عليه، وأهل «أنطاكية» ليسوا أهلاً للإكرام، فهكذا الغني ذو المال الكثير البخيل كيف تغدق عليه النعم وتبعد عن هذا الفقير.

فلما سمع ذلك الفلاح والشيخ قاما وقبلا رجليه وقالا: لقد آتاك الله علماً فحدثنا رعاك الله كيف يكون الجواب. فقال: ليس كل ما يعلم يقال، وأخاف أنكما إذا استيقظتما تخبران الجهلاء بالآراء فلا يفقهون. قالا: كلا، فنحن للأسرار حافظون.

(١) قال: أما موت الناس بعد حياتهم فمن حكمة أنهم لو بقوا على الأرض مائة عام جميعاً ولم يمت أحد لضاقت الأرض بما رحبت ولماتوا جوعاً ولأكل الابن أباه وأمه ولأصبحت الأرض منتنة قذرة ولهلك الناس أجمعون.

(٢) إن كواسر الطير تأكل غيرها ليخلو الجو والأرض من الحيوانات المزدحمة، ولولا ذلك لتعفنت هذه المخلوقات وأضرّت بالحيوانات والناس أجمعين، فاقتناصها رحمة فهي لا تتعفن هناك بل تصبح دماً ولحماً ونعمة على العالمين.

(٣) وهكذا اقتناص الوحوش والسباع للغزلان والأرانب لنفس الحكمة، وهكذا الحيات تقتنص الحشرات، وإلا لضاقت الأرض بما رحبت ومات الناس أجمعين.

(٤) وأما إبقاء مال الغني عنده وزيادة الفقير فقراً فذلك لأمور تخص أولئك الأشخاص لا يعلمها إلا الله، منها أن الفقراء عند الموت يكونون خفافاً ويفرحون فرحاً لا نهاية له، وأما الأغنياء إذا لم يهذبوا فإن عقولهم وأرواحهم تكون مجذوبة إلى هذا العالم، فأصبح النعيم جحيماً والجحيم نعيماً بعد الموت مباشرة، وهناك ما لا يعلمه أحد إلا رب العالمين، ويشير لذلك كله ولغيره عيب السفينة في البحر، وقتل الغلام في البر، وإقامة الجدار فيه، كأنه يقول: هاأنتم أولاء تشاهدون هذه الأحوال في البحر لأن السمك الكبير يأكل الصغير في البحر. وأما أمر البر فهو معلوم مما تقدم.

فقال الشيخ له: سألتك بالله من أين جاءك هذا العلم، إنه لقول جميل، قال له: بالنظر الصحيح وقراءة كتب الحكمة. قال له: نعم أنا أفهم ذلك، ولكن كيف خطر ببالك هذه المعاني في هذه القصة؟ قال له: من سابق الكلام ولاحقه، فإن سابق الكلام في عجائب الدنيا وإنها أكثر جداً من عجائب

القصص. وأما لاحقه فإنه قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[الآية: ١٠٩]، فهذا القول دلنا على أن هذه القصة مسوقة للتبحر في هذه الكائنات والنظر فيها، وأن العلم لا حدّ له، فأخذنا نبحث في نفس الكائنات كما أشار لذلك الأنبياء.

قال الشيخ: إن نفس هذه الإجابة أيضاً أسأل عنها كيف عبرت بها؟ وإني قرأت التفاسير فلم أجد هذه الطريقة فيما أعلم، فقال له: يقول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٥٧]، ويقول على لسان إبراهيم: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[البقرة: ٢٦٠]، فبهذا يكون الاطمئنان، وبمثل ما ذكرته لكما يكون الشفاء لما في الصدور، ألا ترى أن الخضر لما فعل ما فعل رجع فأبان الحكم والغايات التي أريد الفعل لها ثم قال: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[الآية: ٨٢]. يقول الخضر هذه الأعمال ليست من جنس أعمال الناس، بل هي من أعمال الله تعالى، وإنّما كنت واسطة، وهكذا الملائكة الأرضيون كلهم يفعلون نفس هذا العمل بما ألهمهم الله، فهم يحافظون ويساعدون النسور في الجور والآساد في البر والحيتان الكبار في البحر وافتراسها والحيات في التراب، وهذه المحافظة ليست مضرة على الناس خيفة تعفن الجو والبر والماء، إذ تلك هي الآكلات لهذه الحيوانات لئلا تكثر فتموت فيكون الهلاك لكم؛ فأما هذه الأمور الثلاثة فإنما هي نموذج لفعل ربكم. هذا مقصود الآيات.

فقال الشيخ: ولكن خبرني حفظك الله كيف غابت هذه الآراء عمن نعرفهم من العلماء وعني.

قال: اعلم أنك أنت وصاحبك الفلاح رجلان تقاربتما في طريقة الحياة. قالا له معاً: فما معنى هذا؟ قال: معناه أن الأمة في تربيتها متلائمة وجوها العلمي يكون متناسباً. قالا: ما فهمنا. قال: أوضح لكما ذلك. أنت أيها الشيخ حفظت القرآن من صغرك بلا تدبر على طريقة المسلمين في الأرض، وأنت أيها الفلاح خرجت فوجدت نفسك في وسط هذه الحقول وقد تركتما بلا مرشدين، فأما الشيخ فقرأ العلوم العربية ونهايتها البلاغة وهي نحو١٢ علماً وأفهمه شيوخه أنك بهذه العلوم تعرف سر القرآن، والدليل على ذلك أني حين سألتك أيها الشيخ أجبتني بإسناد الضمائر وذلك خاص بعلم المعاني، قال له: نعم. قال: هذا هو الذي أوقف عقول أمة الإسلام عاشت في القرون الأخيرة في جو من الألفاظ فحجبت عنها الأسرار، وقال قوم ممن جاهدوا أنفسهم إنهم وصلوا إلى معاني بتصفية الباطن، ولكنهم ما أبرزوها للناس، لأن الناس لا يصدقونها، فرجع الأمر أن الأمة وقفت في مربضها وتقدّم غيرها من الأمم، فدرسوا هذه الكائنات والمسلمون في سبات. قال الشيخ: صدقت. قال: وأنت أيها الشيخ ما أنت إلا واحد من آلاف حفظوا القرآن كما حفظت ولكنهم تعثروا في أذيال الخيبة والنكال، فإنهم اكتفوا منه بالتلاوة أو العبادة أو التبرك أو التغني به، وكل ذلك نزر يسير ولم ينزل القرآن ليقتصر على هذا، إنه نزل لإطلاق العقول. قال الشيخ: صدقت.

ثم قال: أما أنت يا أيها الفلاح فإنك درجت في قريتك ولم تسمع إلا أن الحمام يؤكل والطيور تذبح والبقر والجاموس للمحراث وما أشبه ذلك، فأنت وحافظ القرآن وأمثالكما كثيرون وتعيشون ما تعيشون ثم تموتون مزوّدين بزاد قليل من الدنيا. فلا أنت فهمت الموجودات التي تعيش فيها، ولا

الشيوخ درسوا القرآن الذي حفظوه، وكلما خلت أمة أتبعتها أخرى والعقول واقفة والنفوس نائمة والفرنجة حولكم فرحون مستبشرون.

حديث عجيب

ألا أحدثكما حديثاً سياسياً اقتصادياً. فقالا: نحب ذلك. قال: إن الملك «غليوم» ملك ألمانيا كان أرسل منذ عشرات السنين شاباً قد أكمل الدراسة في بلادهم وتخرج من مدارسهم وأخذ الشهادات العالية في الفلسفة والعلوم وهو ذكي الفؤاد. أرسل هذا الشاب إلى بلاد العراق فتعلم العلوم الإسلامية لا بقصد الإسلام، بل بقصد أن يعرف إلى أيّ حدّ وصلت أمة الإسلام، فتعلم كل شيء عند المسلمين وألّف كتاباً نشره بالألمانية فكان ملخصه ما يأتي: «هذه الأمم تتعلم لتموت فعلى ألمانيا أن تجدّ في طلب الحصول على مراكز اقتصادية وسياسية في البلاد قبل احتلال غيرها لها»، ومضت سنون ثم جاءت الحرب الكبرى. فقال الشيخ والفلاح: واأسفاه. أهكذا وصلنا؟ قال: نعم ولكن بأمثال هذه الآراء ستحيون ويغير نظام التعليم في الإسلام وترقى أمم الشرق وقد آن من أوانه وظل إبانه. إن الشرق مهد العرفان ومقر الأنبياء. إنكما أيها الإخوان قد تركتما عادة الخمول وبحثتما وفهمتما شيئاً من الوجود. فأما أنت أيها الفلاح فإنك فكرت في أمور لا يفكر فيها الفلاحون، وأنت أيها الشيخ عرفت علم اللغة وكفاك فضلاً أنك فهمت ما أقول. وأما غيرك فقد أقفل عقله بأقفال من الجهالات. فقالا له: زدنا. فقال: كفى. فألحا عليه. فقال: سأقول كلمة وإذا عاودتماني لم ترياني. فقالا: قل هذه الشريطة. فقال: ألم تنظر سورة الكهف قد تناسب طرفاها. ابتدأها بأن العجائب لا تتناهى وأن قصة أهل الكهف نزر يسير، وختم السورة كما ابتدأها قائلاً: إن البحر ومثل البحر لو كان مداداً لم تنفد عجائب الله. أقول هذا وأستغفر الله. ثم انتفض انتفاض العصفور وانقلب طائراً وغاب عن الأبصار. قال الحارث بن همام: فاستيقظت إذ ذاك ووددت لو أراه كرة أخرى. انتهى الكلام على قصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام الذي هو ميت لا حي، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

بهجة العلم ونور الحكمة

قد أشرقا صباح يوم الخميس الثالث من شهر مايو سنة ١٩٢٨ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

أصبحت هذا اليوم ونفسي متشبعة ببعض ما في هذه الآيات من المعاني، ولقد كانت ترد على قلبي وقتاً فوقتاً منذ أربعة أشهر، حتى إذا كان هذا اليوم ألمت هذه الآراء بنفسي ولم تفارقها وقامت البراهين على ما يخطر بالنفس، فأيقنت أن هذه الخواطر واجب كتابتها علي فإني لا أجد محيصاً من إثباتها ولا طريقاً لمقاومتها، فأذعنت للأمر الإلهي وكتبت ما ستسمعه والله هو الولي الحميد.

اعلم أن الله عز وجل علم قبل أن ينزل هذا القرآن وقبل أن يخلق هذا العالم أن الأمم الإسلامية ستنام قروناً وقروناً، وستأخذ أقوال الأئمة تقليداً في الفقه وتترك عقولها وراءها إلا قليلاً.

علم الله ذلك فأنزل هذه الآيات ليذكرنا بأصول هذا الدين. هذا الدين الإسلامي نزل إلى الأرض وقد كانت مرتبكة قد أضناها النصب والتعب وحلّ بعقول أهلها الخبل. أفلا ترى إلى الأمم الأوروبية وقد خيم على عقولها الدين المسيحي فأحاط بعقولهم القسيسون وأضروا بهم ضرراً شديداً فلم يفكهم من عقالهم إلا الإسلام ـ راجع ما كتبناه عن علمائهم في سورة «إبراهيم» وسورة «التوبة» وغيرهما ـ وبهذه الوسيلة انتشرت الحرية العقلية في العالم الإنساني في أمريكا واليابان والصين حديثاً وكذلك الهند. كل ذلك بانتشار الآراء الإسلامية. إن النهضة الحالية وانتشار الديمقراطية كل هذا سببه الإسلام، ولكن المسلمون الذين كانوا سبب ذلك الارتقاء كبلوا في قيود من حديد وغشي على عقول كثير منهم. ولقد أصبح كثير منهم أشبه بقدماء المصريين إذ جاء لهم ملك الفرس المسمى «قمبيز» محارباً، وقد أدرك أنهم يعبدون الهرة فأوقف الهرر بين الصفين، فلم يتجاسر العساكر المصريون على ضرب الآلهة، فتمكن الفرس من هزم المصريين وذلك في الأسرة (٢٦)، ومن ذلك الوقت ضاع استقلال مصر وذهب مجدها وطاح عزها. فأرباب الدين إذا حبست عقولهم كان ذلك الحبس من أقوى أسباب انحطاطهم وذلهم وشقائهم أجمعين.

الإسلام مبناه العقل فتأمل وتعجب

ألست ترى أن الأنبياء إنّما يصدقون بالمعجزات ولا معنى للمعجزة إلا أنها أمر خارق للعادة يجريه الله على أيدي أناس ادعوا النبوة. فهذا الأمر الخارق للعادة دليل على أن الله هو الذي اختارهم لذلك، فالإيمان بالأنبياء متوقف إذن على أن نعقل أن للعالم إلهاً موجوداً عالماً مريداً قادراً فلولا علمه وإرادته وقدرته ما ظهرت تلك المعجزات على أيدي الأنبياء، فهو علمهم وأراد تأييدهم وقدر على ذلك. إذن النبوة لا تعرف إلا بالعقل. وهذه النبوة إذا جاءت بأمور تخالف العقل فنحن بين أمرين: إما نقول: العقل لا قيمة له ونسلم للدين ما يقول بلا بحث، وهذا معناه أن العقل قد يكذب، وإذا كذب العقل فهذا يرجع على الدين بالنقض، لأن التصديق به بناء على العقل، والعقل قد سقط، فإذن سقط الدين بسقوط أساسه. فإذن نلتجئ إلى الأمر الثاني وهو أن نقول: إننا نؤول الشرع ليطابق العقل وحينئذ نكون وفقنا بين العقل والشرع. هذا كلام حكماء الإسلام في مثل هذا المقام، أي: مقام العقل والدين فلننظر في علوم الفقه الإسلامي أي شيء هي؟ إنّ علوم الفقه الإسلامي كلها ظنية لأن الفقه ما هو إلا الأحكام الشرعية الظنية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، قالوا: والمسائل التي ليست ظنية فهي ليست من الفقه. وهنا نقول: إذا حدث في الأمم الإسلامية حوادث أظهرت أن بعض الأحكام الشرعية التي يقول بها مذهب من مذاهب أهل السنة أو الشيعة أو الزيدية قد أضر بالشعب الإسلامي ضرراً محققاً وتحقق ذلك الضرر عند مجلس الشيوخ في الأمة ومجلس النواب. فماذا يكون الحكم إذا رأينا أقوالاً اجتهادية أو أحاديث صحيحة وكانت نتيجة العمل بها ضرراً محققاً، أي: إن المضار فيها كثيرة جداً تفوق المنافع أضعافاً مضاعفة. فماذا نفعل؟ نقول: إذا حصل هنا يقين بأن حكماً من الأحكام ضرره بيّن فإنه لا محالة لا يكون هذا شرعياً، وبيانه أن الضرر المحقق عند نواب الأمة يعارض الحكم المظنون، فالحكم مظنون شرعاً، ولكن الضرر محقق عقلاً، وقد حكمنا أولاً أن العقل لا يلغي حكمه إذا كان محققاً.

إذن يراجع هذا الحكم ويجب أن يعتقد أنه ليس مشرعاً لأنه ظن واليقين مقدم على الظن قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[النجم:٢٨]، فهذا ظن وهذا حق والحق يغلب الظن ويلغيه، لذلك أنزل الله هذه الآيات لتذكرنا بالحقائق الدينية وترجع المسلمين إلى التعقل والتفكر. انظر إلى السفينة وقد خرقها وخرق السفينة حرام، ولكن لما تحقق الخطر وجب عمل المصلحة. وقتل النفس حرام، ولكن قد تحقق أنه لا مصلحة في بقاء هذا الغلام، بل فيه مفسدة، هنالك أقدم على القتل. وليس معنى هذا أن نأخذ هذا القول بلفظه، بل نقول: متى ثبت لرجال الأمة وعقلائها ضرر أمر وجب تلافيه بحسب المصلحة فالشرع لم يكن لإحراج المتدينين.

انظر إلى مسالة الربا

الربا حرام، وإنّما حرم لسر ظهر في هذا الزمان، وذلك السر عرفه علماء الإسلام قديماً، ولكن لم ينفذ فعلاً إلا على يد «البولشفيك» فاقرأ ذلك في آية الربا في سورة «البقرة»، فقد اتفقت أدلتهم مع أدلة علماء الإسلام على أن المرابي لم ينفع الإنسانية بعمل ما؛ هذا سره. لكن انظر إلى المسلمين في مصر بلادي مثلاً.

نحن الآن نعيش مع الأوروبيين الذين يبيحون الربا، ولكن المسلمون يحرمونه، فماذا جرى؟.

حبس الأغنياء نحو (٨٠) ألف ألف جنيه في مصارف الفرنجة، والربا الذي يستخرج من هذه في السنة يبلغ فوق ثلاثة آلاف ألف جنيه، وهذا المبلغ يأخذه الفرنجي فيجعله ذخيرة وسلاحاً ومدافع ويحارب المسلمين به.

وهنا ننظر ونقول: الربا حرام، ولكن هذا الحرام جعل سبباً في تخريب بلاد الإسلام، ولو أن هذا الربا أخذ لدولتنا وسدت به ديون دولتنا لا للإفرنجة الذين يحيطون بنا، لكان ذلك واجباً لا جائزاً فقط، ولو أن الربا أخذ منهم وأعطي للفقراء والمساكين وللذين لا يجدون صناعة يعيشون بها فيشتري به آلات للزراعة مثلاً لكان ذلك من باب الاضطرار في المسألتين. فهذا اضطرار يبيح هذا المحظور مؤقتاً، أنا لست أبيح الربا، الربا خطر على الإنسانية وسيف قطاع ولم يفهم ضرره حق فهمه إلا البلشفية في الروسيا. هؤلاء هم الذين حققوا معجزة كبرى للنبي صلى الله عليه وسلم. ولست أقول إنا نأخذ الربا لفقرائنا، ولكن أقول إذا اجتمع «علتان»: علة أخذ الفرنجة لربا أموالنا وضربنا بالمدافع المشتراة به، وعلة أخذ فقرائنا له. أقول: إذا لم يكن في الأمة من ينمون هذا المال بزراعة أو تجارة أو صناعة، ووضع في مصارف الفرنجة الذين يعتدون على بلاد الإسلام بالسلاح، فمن الجهل الأكبر ومن مصائب الأمم الإسلامية أن يؤخذ الربح لهم، بل يجب أن يكون لفقرائنا، وكان على العلماء أن يفتوا بذلك من باب الاضطرار، والحكم الاضطراري ليس أمراً دائماً.

نظرة عامة في أمم الإسلام ونظام القضاء فيها وأحكامها الشرعية

اعلم أن الأمم الإسلامية قد نامت قروناً كثيرة منذ قهرها «جنكيز خان» وخلفاؤه وتولى الحكم فيها أمم تركية وغير تركية، فجمدت القرائح وعظمت الخطوب، وقد كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر أسمع شكوى الناس من القضاء الإسلامي، ومن ذلك أن المرأة إذا غاب زوجها ولم يعرف خبره يقضى عليها أن تبقى بلا زوج حتى سن الستين، وهذا عجب.

وقد بحثت بعد ذلك فوجدت أن القضاء في مصر لا يصح إلا إذا أقره الخاصة في بلاد الترك من آل عثمان، والحكم في مصر على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان الذي هو مذهب الخليفة، فقابلت المرحوم الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر منذ أمد، فقال لي: إن مذهب المالكية سهل جداً في هذه المسألة، ولكن الحكومة الإنجليزية التي احتلت البلاد لما رأت أنه لا بد من الاستئذان من الخليفة في العمل بمذهب غير الحنفي للتسهيل، أبت خيفة أن ترجع العلائق بيننا وبينهم. فقلت له: إنه من المؤلم أن يكون دين الإسلام الذي هو أسهل الأديان بسببه تكون المرأة عرضة للفاحشة، بل الفاحشة محققة في كثير من هؤلاء المسكينات. فقال: وما العمل؟. وبعد ذلك تغيرت الأحوال وانتهى ملك بني عثمان فقام القضاة بمصر في هذه الأيام وعلى رأسهم صديقنا الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي قاضي القضاة بمصر ورئيس المحكمة الشرعية العليا، فشمّر عن ساعد الجد وبحث في المذاهب كلها واستخرج منها زبدة صالحة للعمل بقدر الإمكان، وقدم للحكومة «مذكرات مشروع قانون الزواج» وسهل الأمر جداً في أحكام النفقة والزوج الغائب، بحيث انتفى الحرج، وسأنقل منها ما يناسب موضوعنا، إن علماء الدين الإسلامي في القرون المتأخرة مع الملوك استبدّوا بالأمة الإسلامية استبداداً أدى إلى ضعفها. ومن ذلك ما كان في القرن التاسع عشر المسيحي، أي: القرن الماضي، فإن أحد الباشوات بمصر قال للشيخ المهدي العباسي المصري ـ وهو المفتي بمذهب أبي حنيفة مع القاضي التركي من قبل السلطان التركي ـ: استخرجا من المذاهب الأربعة وغيرها قانوناً به نحكم البلاد فإن علماء الدين يناقض بعضهم بعضاً بل بعضهم يفتي تبع الدرهم قلة وكثرة، وهذا يوجب ارتباك الأحوال، فرضي قاضي الترك، أما المهدي العباسي فقد قال للقاضي: أنت مولى من قبل الخليفة على مذهب أبي حنيفة فما لك وللمذاهب الأخرى؟ فلما يئس حاكم مصر من علماء الدين؛ استجلب القانون الفرنسي وحكمت به البلاد إلى الآن. وهكذا في هذه الآونة لما قامت الحرب الكبرى وانتصر مصطفى كمال باشا على أوروبا جعل الدولة بلا دين، محتجاً بأن علماء الدين جعلوا الشريعة تحت أقدام الخلفاء، فهم الذين أفتوا بمحاربة الجيش التركي الذي كان يقاوم أوروبا وهي زاحفة على البلاد. كل ذلك لإرضاء الخليفة لتبقى له سلطته الظاهرية، وإن احتل البلاد أجنبي عنها فعلماء الدين وملوك الإسلام يرضون بأقل عيشة ومذلة تحت حكم الأجنبي ولا يبالون بالأمة. هذه حال المسلمين في وقتنا الحاضر، ولكن الله يقول لنا: كلا. ثم كلا، أنتم غافلون، أيها المسلمون، إذا كنتم نائمين فاستيقظوا فقد نبهتكم الحوادث. ألم تروا إلى قصة أهل الكهف ناموا ثم أيقظتهم. هكذا أنتم يوقظكم أمران: حوادث الدهر ومصائب الأيام. أولاً: قصة الغلام والسفينة والجدار. ثانياً: إن حوادث الدهر قد أحاطت بالمسلمين اليوم فالعلم ينفعهم، وعلى ذلك أنزلت محاورات موسى والخضر التي نحن بصدد الكلام عليها، ومنها يعلم الناس كما تقدم أنه إذا ثبت لأولي الأمر في الأمة ـ وهم نوابها ـ أن الأمة أصابها ضرر من أي حكم من الأحكام الشرعية، فإن هذا ينافي الإسلام، لأن الدين شرع لمنفعة الناس لا لمضرتهم، فإذا تحقق الضرر فليزل هذا الحكم حتماً، لأن الحكم الشرعي مظنون، والضرر محقق، والمحقق مقدم على المظنون، وهذا القول لا يتمارى فيه اثنان في الإسلام. إن علم الفقه هو الأحكام الشرعية الظنية، فإذا تحقق الضرر فكيف نعمل بالمظنون. هذه هي القاعدة التي تؤخذ من الآيات التي نحن بصددها والتي

أراد الله إظهار سرها في العصر الحاضر، بعد أن ذل كثير من المسلمين في ديارهم. هذه هي القاعدة التي ستكون نبراساً ونوراً مبيناً للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وسيكون هناك رجال لا تلهيهم مظاهرهم ولا حطام الدنيا عن النظرة العامة لأمم الإسلام أولئك هم المفلحون. ولعلك تقول: ماذا قال علماء الإسلام في أمثال هذا؟ أقول لك: سألخص لك فصلاً من فصول «مذكرات مشروع قانون الزواج والطلاق» الذي أرسله إليّ صديقي الفاضل الشيخ محمد مصطفى المراغي رئيس القضاة بمصر كما وعدتك تحت عنوان:

تغيير الأحكام بتغيير الأزمنة والأمكنة والعرف

(١) قال ابن القيم هذا فصل عظيم النفع جداً وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب الحرج والمشقة أو تكليف ما لا سبيل إليه، وما يعلم أن الشريعة الباهرة لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم والمصالح، وهي عدل كلها ورحمة ومصالح كلها وحكمة كلها، وكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل. وقد ضرب لذلك أمثلة:

(٢) منها أن شرع لهذه الأمة وجوب إنكار المنكر وتغييره، ولكن إذا كان إنكار المنكر يستدعي منكراً أشد منه؛ فإنه لا يسوغ الإنكار في هذه الحالة.

(٣) ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تقطع الأيدي في الغزو، وهذا حدّ نهى عنه خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض من تعطيله أو تأخيره.

(٤) ومنها أن عمر بن الخطاب أسقط الحد بالقطع عن السارق عام المجاعة. قال السعدي: حدثنا هارون بن إسماعيل الحرار، حدثنا على بن المبارك، حدثنا يحيى بن أبي كثير عن حسان بن زاهر أن ابن حدب حدثه عن عمر قال: لا تقطع اليد في عذق ولا عام سنة. قال السعدي: سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث، فقال: العذق: النخلة، وعام سنة: المجاعة. فقلت لأحمد: تقول به؟ قال: أي لعمري. قلت: إن سرق في عام المجاعة لا تقطعه؟ فقال: لا إذا حملته الحاجة إلى ذلك والناس في مجاعة وشدة، وهذا على نحو قضية عمر في غلمان حاطب.

(٥) ذلك أنهم سرقوا ناقة لرجل من مزينة وأتي بهم إلى عمر، فأقرّوا على أنفسهم، فأمر أن تقطع أيديهم، ثم ردّهم، وقال لعبد الرحمن بن حاطب سيد الغلمان: أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حلّ له لقطعت أيديهم، وأيم الله إذا لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك، ثم قال: يا مزني، بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة، قال عمر: اذهب فأعطه ثمانمائة.

(٦) العرف إذا خالف الدليل الشرعي في محرم، كأن يتعارف الناس شرب الخمر، وعمّ ذلك فلا يعتبر ذلك العرف، وإن خالف العرف العام النص الشرعي من بعض الوجوه فقط، فإن العرف يصير مخصصاً لذلك النص.

(٧) إذا خالف العرف العام بين الناس حكماً قياسياً فإن العرف يترك به القياس. إذن العرف مخصص للنص تارك للقياس.

(٨) العرف الخاص يقول بعض العلماء إنه يثبت به الحكم العالم والأكثرون على خلافه، مثال ذلك أن مشايخ «بلخ» كانوا يجيزون لأهل بلدهم أن يدفع أحدهم إلى حائك غزلاً على أن ينسجه بالثلث، وإنّما أجازوها لتعامل أهل بلدهم به؛ والتعامل كما تقدم حجة يترك به القياس ويخص به الأثر وقد ورد النص على خلاف ذلك في قفيز الطحان. فإذن يكون الحائك مثله. فإذن هذا تخصيص للنص ولا ترك له أصلاً.

(٩) إن علماء الحنفية أجازوا بيع الوفاء مع أنه بيع فاسد فراراً من الربا، قالوا: وما ضاق على الناس أمر إلا اتسع حكمه فهو جائز للضرورة.

(١٠) ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن البرّ والشعير والتمر والملح مكيلة، وأن الذهب والفضة موزونات. إذن إذا وزن الناس البرّ لم يجز، وإذا عدّوا الدراهم عداً ولم يراعوا وزنها لم يجز ذلك لمخالفته النص، ولكن أبو يوسف اعتبر العرف في هذه الأشياء حتى جوّز الشاري بالكيل في الذهب وبالوزن في الحنطة، إذا تعارف الناس ذلك فهذا اتبع فيه العرف وترك النص. والحجة في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنّما نص على وزن هذا، وكيل هذا، لأن العرف في زمانه كان كذلك، ولو كان العرف خلاف ذلك لنص عليه، فلو تعارف الناس بيع الدراهم بالدراهم واستقراضها بالعدد كان جائزاً إما بناء على العرف كما تقدم، وإما للضرورة.

(١١) إن المتأخرين الذين خالفوا النصوص في كتب المذهب في بعض الأحكام لم يخالفوه، إلا لتغير الزمن، وعلمهم أن صاحب المذهب لو كان في زمنهم لقال بما قالوه، مما يستخرج به الحق من ظالم، أو بدفع دعوة متعنت ونحوه بعدم سماع دعواه أو بحبسه أو نحو ذلك، ولكن لابد لكلّ من الحاكم والمفتي من نظر سديد، فللمفتي الآن أن يفتي على عرف أهل زمانه وإن خالف زمان المتقدمين وكذا للحاكم العمل بالقرائن في أمثال ما ذكر، قال: وفي رسم المفتي والتحقيق أن المفتي لابد له من ضرب اجتهاد ومعرفة بأحوال الناس، ومن جهل زمانه فهو جاهل.

ثم قال: فهذا وأمثاله دلائل واضحة على أن المفتي ليس له الجمود على المنقول في كتب ظاهر الرواية من غير مراعاة الزمان وأهله وإلا ضيع حقوقاً كثيرة، ويكون ضرره أعظم من نفعه. ثم قال بعد كلام ما نصه: وينبغي أن يطال النظر إلى هذه النصوص فهي تنطق بالروح العالي الذي كان يملأ صدور الفقهاء، وتدل على مقدار احترامهم لعرف الناس وعادتهم، وعلى مقدار فهمهم للقواعد الفقهية، وأنها ما وضعت إلا لمصلحة العباد، وضبط التعامل بينهم، وأنه يجب أن تخضع لعرفهم، وأن تخضع للضرورات والحرج، فلا يجوز أن تجمد الفقهيات الاجتهادية أمام حوادث الزمن، وأمام ما يجدّ فيه من عادات ومصطلحات وهي قابلة للتجدد وقابلة للتغيير أمام العرف العام وأمام العرف الخاص.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسقط الحد عام المجاعة ولم يقطع أيدي غلمان حاطب، لأن الضرورة قامت عذراً عنده درأ به الحد، وأحمد رضي الله عنه وافق عمر في الفصلين، والحنفية تركوا القياس وهو أحد الأدلة الشرعية بالعرف العام، وخصصوا النص بالعرف العام، وإذا رجعت إلى قواعدهم التي توجب في المخصص أن يكون متصلاً؛ قلت: إنهم نسخوا عموم النص بالعرف العام إذ العرف قد لا يطرأ إلا بعد قرون من ورود النص، فيظل النص معمولاً به قروناً طويلة، ثم يجد العرف

فينقبض النص ويقتصر على ما وراء المتعارف، ويأخذ المتعارف حكماً آخر خلاف حكم النص، فيصير الشيء مباحاً بالعرف بعد أن كان حراماً بالنص، وقد أهدر الخليفة دلالة النص وهي إحدى الدلالات اللفظية حيث جوّزوا الإجارة على نسج الغزل بالثلث، مع دلالة النص المستفادة من قفيز الطحان تحرم هذه الإجارة، وقد علل أبو يوسف النص في الربويات بالعرف، وبنى على هذا أنه إذا تغير الكيل في البر والشعير وتغير الوزن في الذهب والفضة اعتبر العرف الطارئ لا عرف النص، غير أن الفقهاء لم يقفوا عند هذا وأجازوا التعامل في الدراهم بالعدد بدلاً واستقراضاً، وإن تفاوت وزنها مراعاة للعرف ومراعاة للضرورة، وفي هذا خروج على النص جملة لأنه إلغاء للمعيارية بالكيل أو الوزن. وجعل الحنفية العرف الخاص قاضياً على النصوص المذهبية في مسألة ثمن البيع المتقدمة، إذا كان من عادة السوق دفع شيء من الثمن كل جمعة لا دفعه جملة واحدة، والمذهب ليس كذلك، وأجازوا بيع الثمار واعتبار تركها مشروطاً، وقد كان بيع الثمار باطلاً وكان شرط الترك فاسداً، ورأى بعضهم أن يعمل العرف الخاص ما يعمله العرف العام، أي أنه يلغي قياساً ويخصص نصاً ويهدر دلالة نص. وهاهم أولئك فتحوا الباب للمفتين ليفتوا تبعاً لتغير العرف العام والخاص وتبعاً للضرورة والحرج. وأجازوا للحاكم العمل بالقرائن.

وأجازوا له النهي عن سماع دعوى المتعنت وما أشبه ذلك. ولا يغيب عن الأذهان أن الأحكام المستفادة من النصوص قليلة جداً بالنسبة للأحكام الاجتهادية؛ فالأحكام الاجتهادية قابلة للتغير بالعرف العام والخاص، والأحكام المستفادة من النصوص قابلة للتخصيص بالعرف العام باتفاق، وبالعرف الخاص على رأي بعض الحنفية. فهل توجد مرونة في القوانين تسع الناس أكثر مما في هذه الأحكام، وهل يصح مع هذا أن يقول أحد إن قواعد الفقه جامدة لا تسع الناس في كل عصر ومكان، والحق أن هذا ظلم لهذه القواعد ولكنه ظلم جرّه تزمت الفقهاء والمحدّثين الذين لم يفهموا روح الدين ولا روح الفقهاء المتقدمين. انتهى ملخصاً.

هذه هي خلاصة الفصل الذي نحتاج إليه من هذه الرسالة، ومنه يتبين أن علماء الدين في مذهب واحد من المذاهب الإسلامية خطوا خطوات واسعة في الاجتهاد للأمة، وبناء على هذه الخطوات سهلت الأمور في مصر في زماننا، فوازن رعاك الله بين المفتي في القرن الماضي وبين قاضي القضاة في العصر الحاضر؛ تعرف مقدار ارتقاء عقول المسلمين إذ لا يلقي للناس إلا ما استعدّوا له. ومما عرفته من نفس قاضي القضاة المذكور ما قاله لي وأنا معه بحلوان: إن هذا القانون لم نستخرجه من المذاهب الأربعة فحسب، كلا، بل نظرنا في مذاهب أخرى كالزيدية ومذهب داود الظاهري الذي له كتاب في المكتبة الخديوية اطلعت عليه وعليه ختم أحد الملوك المسلمين. فلما سمعت ذلك داخلني السرور والفرح إذ رأيت هؤلاء أفضل من كثير من المتأخرين الذين يرون بأعينهم ضرر الناس ولا يفكرون في آيات القرآن.

فصل في مناسبة ما تقدم لقصة الخضر وموسى عليهما السلام

وأنا أقول: إذا كان عقول علماء الإسلام في العصر الحاضر قد تخطت الحدود التي رسمها المتأخرون وصاروا يأخذون من المذاهب ما يوافق العصر الحاضر.

(١) فكيف تكون حالهم إذا علم المسلمون في أقطار الإسلام أن الأحكام الشرعية مع كثرتها وكثرة مذاهبها ليس منها بالنص إلا قليل جداً كما تقدم في رسالة الزواج، وهذا لا يعرفه إلا قليل من أهل العلم. ألا ترى أن الإنسان إذا اتبع مذهباً من المذاهب وقف حياته كلها عليه، ورأى عشرات الكتب في فروعه، ولا يرى آية ولا حديثاً إلا قليلاً. ومن الأحاديث ما يكون ضعيفاً ولكن المقلد لا يتهم علماء مذهبه مع إجماع علماء الإسلام كما في مقدمة «فتح الباري على البخاري» أن الأحاديث الصحيحة المسلم بها عند المسلمين وهي التي في البخاري ومسلم وهي التي تلي القرآن في صحة نقلها؛ كلها ظنية إلا قليلاً جداً. فإذا كانت هذه ظنية فما بالك بغيرها؟ وما بالك بالأحكام المستنتجة منها؟ فهي ظن مستخرج من ظنّ. ومعلوم أن علم الفقه مبناه الظن، فليس قولي هذا من باب الشك بل هو من باب شرح الحال.

(٢) ثم كيف تكون حال المسلمين بعدنا إذا رفعوا أبصارهم قليلاً إلى أمثال ما نقول، وفهموا قصة الخضر وموسى كما قدمناه ونظروا بعقولهم في الأحكام التي في الكتب، فإذا رأوا حكماً قد أضر بالناس ضرراً محققاً فليزيلوه، لا لأنه ضرورة بل أنه يقين نسخ الظن. وإذا رأوا حكماً نصت عليه آية ورأوا بعض فروعه ضارة في حال أو زمان خصصوه كما تقدم اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في منعه قطع يد السارق في حال خاصة كما تقدم، وكما تقدم عن عمر رضي الله عنه. وأنا أكرر القول أن علماء الإسلام لا يتسنى لهم معرفة أمثال ما نقول، سواء أكان في الأحكام الشرعية، أم العلوم العقلية والمشاهد الطبيعية، إلا بأن يقرؤوا من كل فن طرفاً صالحاً حتى تستنير بصائرهم ويعرفوا هذه الحقائق في المقامين، ولقد ذكر العلامة الشاطبي هذا المقام ووافق على ما يسمى المصالح المرسلة وذكر منها ما يأتي:

(١) الضرب في التهم.

(٢) وما ذهب إليه مالك من السجن في التهم.

(٣) وما قرره ونقله مثله عن الغزالي وابن العربي من جواز وضع الإمام العادل ضرائب للمدافعة عن البلاد وإكثار الجند عند الضرورة.

(٤) أجاز بعض العلماء في بعض الجنايات أخذ المال.

(٥) الزيادة على سد الرمق إذا توالت ضرورة الأكل من المحرم كالميتة في المجاعات، أو عمّ الحرام بلداً فيؤخذ بالوجه الشرعي، ولا ينظر لأصل المال، وعزاه إلى ابن العربي والغزالي.

(٦) وقتل الجماعة بالواحد، ومستنده المصلحة المرسلة لأنه لم يرد لها نص، وقد نقل عن عمر وهو مذهب مالك والشفعي. وبالجملة إن حديث «لا ضرر ولا ضرار» إليه ترجع جميع مسائل المعاملات التي يرجع فيها إلى الحكام في القضاء والسياسة والحرب.

تنبيه: تقدم هنا ذكر مسألة ثمن البيع إذا كان من عادة السوق دفع شيء من الثمن كل جمعة لا دفعه واحدة، وإيضاحها: «أنه لو باع التاجر في السوق شيئاً بثمن ولم يصرحا بحلول ولا تأجيل، وكان المتعارف فيما بينهم أن البائع يأخذ كل جمعة قدراً معلوماً، انصرف إليه بلا بيان، واعتبر فيه عرف ذلك السوق الخاص، وإن لم يتعارف في أكثر البلاد، مع أن المنصوص عليه في كتب المذهب

حلول الثمن ما لم يشترط تأجيله، وعلى هذا فالحكم الخاص تثبيت بالعرف الخاص». انتهى من الرسالة المذكورة.

فائدة: مما أجازه علماء الإسلام وعملوا به أنهم يقولون: إن الإمام إذا أمر بمندوب وجب، وإذا رفع له قول ضعيف قواه. كل ذلك ليفتحوا للأمة باب درء المفاسد وجلب المصالح. وأنا أقول الحق والحق أحق أن يتبع: قد تقدم في سورة «النساء» أن أولي الأمر وهم أهل الحق والعقد في البلاد هم الذين لهم هذه المسائل ترفع إليهم، وما يقررونه يكون معمولاً به.

هذا هو الحق الصراح، والمسلمون اليوم لهم مجالس عامة. أما الأمراء وغيرهم فلا. والحمد لله رب العالمين. انتهى.

فاكهة: جاء في محادثة الشيخ الشعراني مع شيخه الخواص ما نصه بالحرف من كلام الخواص: «يمكن الإنسان الإحاطة بعلم جميع ما كلفه الله به من الأحكام في نحو شهر، فإن غالب اشتغال الفقهاء طول عمرهم إنّما هو في فهم كلام بعضهم بعضاً، وهذا لم يكلف الله أحداً بعلمه ولا العمل به لعدم عصمة قائله إلا أن أجمع عليه». انتهى المقصود منه. وأقول: هذا القول لا يصح إطلاقه على علاته لأن الأمة لابد لها من قضاة وحكام وعليهم البحث والجد والاجتهاد. فهذا القول منه نظر فيه إلى حال الصوفية ولكن الدين الإسلامي وسع نظام الشخص ونظام الأمة، فلابد من الاجتهاد حصل عليه إجماع أم لم يحصل. وأما قوله: إنه يكفي في معرفة الأحكام نحو شهر، فهذا يقرب مما أتذكره من كلام الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة إذ يقول: «إن الواجب تعلمه وجوباً عينياً هو ما تلقاه العامة جيلاً بعد جيل». انتهى بمعناه.

أما إن علم الفقه واجب وجوباً عينياً؛ فإنّما ذلك خاص بطائفة تخصصها الأمة بالقيام بنظام الدولة وحفظ أموالها وأعراضها.

إن الأمم الإسلامية اليوم مستعدة للرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة ثم الرجوع إلى العقل فيما تيقنوا ضرره، كما أن الخضر لم يبال بحرمة قتل النفس، ولا بحفظ سفينة اليتامى، ولا بأن أهل القرية بخلاء، فهو مع الحق أينما كان، أحسن ليتامى البخلاء، وعلم علماً يقيناً في مسألتين ضرراً فقلب المحرم بالنص حلالاً باليقين، وأيّ إثم أكبر من التعدي على النفس والمال في الغلام والسفينة.

ذكر الله هذين في القصة ليقول للمسلمين: ارفعوا عيونكم. انظروا ببصائركم. أليس موسى نبياً فكيف حلل الحرام أمامه. وهل أنا قصصت ذلك عليكم أيها المسلمون لمحبة القصص ليفرح بسماعه العامة يوم الجمعة في مساجدكم؟ كلا، إني أنزلت هذا لتنظروا فعل نبيك صلى الله عليه وسلم، فإذا نقل إليكم أنه منع قطع اليد في حال خاصة لحكمة خاصة، وإذا فعل عمر مثله كذلك؛ فهذا يذكركم بمعنى هذه الآية، الآية صريحة في القتل وهي من القرآن، والقرآن ليس ظنياً كالحديث، بل هو متواتر والمتواتر يقين. فهذه الآية التي جمعت كل هذه الشروط قد خصصت كما خصص الخضر قتل النفس وإتلاف المال بحال خاصة بيقين عنده. وليس معنى قولي هذا أننا نقضي بالكشف والاطلاع على الغيب. كلا ثم كلا. وإنّما هذا خاص بقليل من عباد الله، وإنّما المقام في فهم اليقين والظن. ومن عجب أن يصطلح الناس في مصر على سماع القرآن يوم الجمعة بالمسجد ولا يقرأ القارئ إلا الكهف.

فكأن الله يقول للمسلمين: هذه السورة تقرأ في اجتماعكم يوم الجمعة، أفليس منكم رجل رشيد شجاع يفكر في قصة الخضر وموسى ويخرج المسلمين من حصر الفكر إلى الاجتهاد المطلق المقيد بأصل الدين. هذا ما فتح الله به يوم الثلاثاء ٢٢ مايو سنة ١٩٢٨م.

قصة ذي القرنين

اعلم أن كثيراً من العلماء يقول إنه إسكندر الرومي بن فيليش، وقصته الآن معروفة تدرس في مدارسنا المصرية ومدارس العالم أجمع، وهو تلميذ «أورسطاطاليس» الفيلسوف ويسمى المعلم الأول، وهو الذي انتشرت فلسفته في الأمة الإسلامية، وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وقد تولى الملك بعد أبيه، وهو من أهل «مقدونيا»، وحارب الفرس وتولى على ملك «دارا»، وتزوج ابنته، وقتل الرجل الفارسي الذي قتل «دارا» وجاء ليأخذ الجائزة منه، وأظهر كرماً وشجاعة والناس اليوم يدرسون رسائل بينه وبين أستاذه في السياسة، ذلك أنه لما دخل بلاد فارس رأى هناك رجالاً ذوي وجاهة وبهجة وجمال وأبهة من أبناء الملوك والأمراء، فأراد قتلهم فاستشار أستاذه فأرسل إليه الأفضل في قتلهم، وأن قتل الرؤساء تتأجج ناره في قلوب الأمة ولا تخمد، وأمره أن ينعم ويعطي كلاً منهم ملك أبيه، ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائماً، ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوباً، فمشى على تلك السياسة. ولما مات قامت بعده ملوك الطوائف التي أسسها. ثم إنه سافر إلى الهند وحارب هناك في «البنغال» وغيرها، ثم إنه بنى الإسكندرية لما حكم مصر، لأن مصر كانت تحت حكم الفرس، فلما غلب الفرس حكم مصر وبنى الإسكندرية المسماة باسمه للآن وعاش ثلاثاً وثلاثين سنة، ومات عند رجوعه من الهند قبل أن يصل بلاده. هذا رأي، وهناك رأي آخر قاله أبو الريحان السروري المنجم في كتابه المسمى «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، إنه من حمير واسمه أبو كرب بن أفريقش، وأفريقش هذا قد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض فمنها إلى تونس وغيرها، فسميت القارّة كلها باسمه «أفريقيا»، وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول:

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكاً علا في الأرض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب ملك من كريم مرشد

فرأى مآب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأطة حرمد

مآب الشمس: ذهابها. في عين ذي خلب: أي حمأة. والثأطة أيضاً: الحمأة. والحرمد: الطين الأسود.

هذا ملخص ما قاله العلماء مع ذكر الحقائق الأصلية في التاريخ بلا تخليط. وإنّما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس. ولعلك تقول: أيّ القولين أصح؟. أقول لك: لا يهم القرآن أيهما فليست هذه من العقائد، وإنّما هي نصائح تتلى للموعظة الحسنة، فليكن إسكندر المقدوني أو فليكن رجلاً حميرياً في أزمان مضت وكان صالحاً كما قاله بعض العلماء، فليس القرآن جاءنا ليعلمنا تاريخ اليونان أو تاريخ الحميريين. القرآن أكبر من التاريخ العام ومن جميع العلوم، بل يكل التاريخ إلى علوم الأدب وعلم الطبيعة والفلك للعقول البشرية، ولكن لما سألوه صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين أجابهم بالقول الذي يجمع بين إجابة المطلب وبين الفائدة الدينية، ففيه الوعظ وفيه ذكر جملة مجملة من التاريخ.

فلعمرك ليس للقصص من فائدة إلا المواعظ، وقد تقدّم أن الفوائد في عجائب هذا الملك وعجائب أصحاب الكهف وأمثالهم وكقصة الخضر مثلاً؛ أقل بما لا يتناهى من عجائب هذه الكائنات فللتوفر الدواعي عليه وليؤخذ من هذا القصص وعظه، ولا تماري في حقائق هذه القصة إلا مراء ظاهراً ولا نستفتي فيها أحداً من المؤرخين، فالقرآن لم يكن للتاريخ بل للعظة والاعتبار.

وإذا كانت الأمم تعلم بحكايات الأشخاص خيالين كما أوجب ذلك في كتاب «أميل القرن التاسع عشر»؛ فكيف إذا علم القرآن بما يطابق الواقع مراعى فيه الوعظ مسنداً لأشخاص حقيقيين.

ولعلك أيها الذكي تقول: أنا أفضل أن يكون حميرياً في القرون الأولى، لأنه من العرب، وأنت إما عربي مسلم وإما مسلم من غير العرب، فتفضل أن يكون منهم، وأيضاً سيرة إسكندر المقدوني لا تنطبق على ما قصه الله في القرآن. أقول لك الحق في ذلك أن كون آبائنا كانوا عظماء لا ينفعنا، فهذه الأمم الأوروبية كان أجدادهم منذ ألف وأربعمائة سنة يحاربون دولة الرومان وكانوا يسمون برابرة ومع ذلك غلبونا ونحن أبناء الأكاسرة والفراعنة والأنبياء والفلاسفة، وهؤلاء جهلاء مجهولون فهذا الوجه ظاهر، وأما انطباق التاريخ بالحرف فقد قدمت أنه لا يعنينا، ولو أردنا أنه المقدوني لقلنا إن فحوى أعماله تقتضي ذلك من الوجهة العامة، ولكن فيه تكلف عظيم، فكونه إسكندر الحميري أولى، وسأجعل له مقالاً خاصاً قريباً مع يأجوج ومأجوج.

ولنشرع في المقصود وهو التفسير، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: من ذي القرنين خبراً ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أراده وتوجه إليه ﴿سَبَبًا﴾ أي: بلاغاً ووصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة، فأراد بلوغ المغرب ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ سلك طريقاً يوصله إليه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأة، يقال: حمئت البئر، صارت ذات حمأة. وفي قراءة أخرى «تغرب في عين حامية» أي: حارة، وذلك لأنه لما بلغ مغرب الشمس أي البلاد التي لا بلاد بعدها تغرب عليها الشمس حيث لم يكن عمران إلا ما عرفوه وذلك عند بحر الظلمات المسمى بالمحيط الأطلانطيقي، إذ وصل ذو القرنين الحميري إلى بلاد تونس ثم سار حتى وصل إلى بلاد مراكش ووصل إلى ذلك البحر، فوجد الشمس تغرب في البحر رأي العين، وكل بحر فيه ماء وطين أو ماؤه حار لإلحاح الشمس عليه ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: عند تلك العين ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل والأسر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع وتعفو وتصفح ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: كفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ نقتله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ منكراً، يعني النار فهي أنكر من القتل ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: جزاء أعماله الصالحة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: نلين له في القول ونعامله باليسر ﴿ثُمَّ﴾ لما أرد بلاد المشرق ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ سلك طريقاً يوصله إليه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من المعمورة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ فلا لباس ولا بناء فهم عراة في العراء أو في سراديب في الأرض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين كما

وصفناه من رفعة الشأن وبسطة الملك ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الجنود وآلات الحرب ﴿ خُبْرًا ﴾ علماً تعلق بظاهره وخفياته ﴿ ثُمَّ ﴾ لما أراد أن يتوسط بين المشرق والمغرب ﴿ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ سلك طريقاً ثالثاً بينهما ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ ﴾ الجبلين المبني بينهما سدّ وهما جبلا « أرمينية وأذربيجان » أو جبلان آخران عاليان في آخر الشمال في منقطع أرض الترك ، وسترى تحقيق هذا المقام بأجمل تحقيق قريباً فانتظره . ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ أي : قال مترجموهم ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴾ الآتي ذكرهما مع التحقيق ﴿ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ جعلاً نخرجه من أموالنا ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ يحجز دون خروجهم علينا ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ ﴾ أي : ما جعلني مكيناً فيه من المال والملك خير مما تبذلون لي من الخراج ، فان الدول القوية يجب عليها أن تحافظ على الضعيفة ، وليس يجوز لها أن تأخذ أموالها ما دامت قادرة على إغاثتها ، وإذا احتاجت إلى شيء فليكن على قدر الحاجة ، بخلاف ما عليه أوروبا الآن وأمم الإسلام في القرون الأخيرة ، فانهم ما حكموا الأمم إلا لأخذ أموالهم والتنعم بما جمعوا من الثروة ، وهذا هو الذي سيكون دأب الأمة الإسلامية حين تقوم قائمتها ألا يأخذوا من مال الأمم إذا حكموها شيئاً . وإذا أخذوا فليكن ذلك على قدر الحاجة ويوكل ذلك إلى رأي المجالس الشورية في الممالك الإسلامية التي ستكون أرقى ، ويعلمون أن الله لا يولي على عباده إلا أنفعهم ، ولا أنفع لهم من هذا ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ أي : ما أتقوى به من الآلات ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السدّ ، يقال : ثوب مردم ، إذا كان فيه رقاع فوق رقاع ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ الزبرة : القطعة الكبيرة ، أي : قطع الحديد ، فأتوه بها وبالحطب فجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾ جانبي الجبلين ، وإنما سميا صدفين لأنهما يتصادفان ، أي : يتقابلان ﴿ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ﴾ أي : قال للعملة : انفخوا في الأكوار والحديد ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ ﴾ جعل المنفوخ فيه ﴿ نَارًا ﴾ كالنار بالإحماء ﴿ قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أي : أصبّ عليه نحاساً مذاباً ، فجعلت النار تأكل الحطب وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أي : لعلوّه وملاسته ﴿ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ من أسفله لشدته وصلابته ﴿ قَالَ ﴾ ذو القرنين : ﴿ هَـٰذَا ﴾ السد ﴿ رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ أي : نعمة من نعمه ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أي : وقت خروجهم ﴿ جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ أرضاً ملساء ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ كائناً لا محالة ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ أي : وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد وبعض الناس يموج في بعض ويختلط العالم كله بحيث يدخل يأجوج ومأجوج في الأمم كلها ويختلطون أجيالاً وأجيالاً كما ستراه . كل ذلك قبل النفخ في الصور بزمن مجهول لا يعلم . ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ بعد ذلك لقيام الساعة ﴿ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴾ الضمير للمائجين وهم جميع الناس ومنهم يأجوج ومأجوج ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ وأبرزناها وأظهرنا ليشاهدوها عياناً ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ ﴾ غشاء وستر ﴿ عَن ذِكْرِى ﴾ أي : عن الإيمان والقرآن والهدى والتبصر في الدلائل ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أي : سمع قبول

للإيمان ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ أغفل الذين كفروا فحسبوا، أي: فظنوا، والاستفهام للإنكار ﴿ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ ﴾ أرباباً كعيسى والملائكة ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا ﴾ أعددنا ﴿ جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ﴾ ما يقام للنزيل، وهذا تهكم وإلا فأين الضيافة في النار. ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴾ منصوب على التمييز، هم ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ كالرهبان فإنهم لا ذرية خلفوا ولا ديناً حفظوا لأن دينهم لم يأمرهم بذلك وإنّما هم المبتدعون ﴿ وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ لما عندهم من العجب واعتقادهم أنهم على الحق ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ المنصوبة في الآفاق وبآياته المنزلة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلِقَآئِهِۦ ﴾ بالبعث ﴿ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ بكفرهم فلا يثابون عليها ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾ ميزاناً، وكيف توزن أعمالهم وقد حبطت فلا قيمة لها، الأمر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، ثم بينه فقال: ﴿ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِـمَا ﴾ سبب ﴿ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴾ حال كونهم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ والحال هنا مقدرة ﴿ لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾ تحولاً، والفردوس: الجنة الملتفة بالأشجار التي تنبت ضروباً من النبات. يطلق النزل على ما يهيأ للنازل، أي: كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلاً، وأزمان الجنة مهما طالت يعقبها خلوص الأرواح العالية إلى مراتب سامية ﴿ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾[القمر: ٥٥] وهو الذي يسمى «رضوان الله»، ويسمى أيضاً «زيادة» كما في قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾[يونس: ٢٦] كما تقدم في هذا التفسير.

ولما كانت الجنة في الحقيقة ترجع إلى العلوم والمعارف لأنها هي السعادة القصوى في الآخرة ومن لم يتصور ذلك ولم ير جنة إلا ما هو محسوس؛ فإنه يعلم أن العلوم تكون سبباً لها؛ أعقب ذكر الجنة بأن علم الله لا نهاية له.

ولا جرم أن هذه السورة مسوقة إلى العلم وأنه لا نهاية له كما في قصة الخضر وكما في قصة أهل الكهف التي قيل إنها بالنسبة لعجائب الله قليلة، وهذا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا ﴾ المداد ما يكتب به وهو اسم لما يمد به الشيء كالحبر للدواة ﴿ لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي ﴾ لكلمات علمه وحكمته ﴿ لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ ﴾ جنس البحر، فكل جسم فإنه متناه ﴿ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ ﴾ فإنها غير متناهية ﴿ وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ ﴾ بمثل البحر ﴿ مَدَدٗا ﴾ زيادة ومعونة. يروى أن اليهود قالوا: يا محمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك: ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾[البقرة: ٢٦٩]، ثم تقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[الإسراء: ٨٥]، فنزلت هذه الآية. وقيل إنه لما نزل: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾؛ قالت اليهود: أوتينا علم التوراة وفيها علم كل شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي ﴾ أي: ما يستمده الكاتب ويكتب به. قال مجاهد: «لو كان البحر مداداً للقلم والقلم يكتب والخلائق يكتبون لنفد البحر» الخ.

ثم قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ لا أدعي الإحاطة بعلم الله تعالى ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ فهذا هو الذي ميزني عنكم ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ يأمل رؤية ربه ﴿ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ أي: لا يرائي في عمله، فلابد من أمرين:

أحدهما: أن يكون لله وحده، والثاني: أن يكون مبرأ من الشرك. روى البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من سمع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به» أي: من عمل مراءاة للناس يشتهر بذلك شهره الله يوم القيامة. وروى مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه».

لطيفتان: في ذي القرنين والسد، وفي الكلام على يأجوج ومأجوج

اللطيفة الأولى: في سد ذي القرنين

اعلم أنه قد ورد في بعض الكتب التي تنشر حديثاً في مصر وبلاد الإسلام ما يأتي ملخصاً:

إن كتابة علماء العرب المسلمين عن شرقي البحر أسود دقيقة التحري، وقالوا: إن سكانها من الصقالبة «السلاف»، وإن هناك مدينة باب الأبواب وسداً منيعاً، وقد علم الروس أن مدينة «دربت» بجل قوقاف هي نفسها مدينة «باب الأبواب»، وكشفوا في القرن الماضي سوراً منيعاً ممتداً على مقربة منها كأنه خط انفصال، قال: وقد خلط كثير من الكتبة سد مدينة «باب الأبواب» بالسد الشهير، حتى إن أبا الفداء نفسه لم ينج من هذه العثرة، لكن الإدريسي أبان موقع كل منهما بجلاء، واتضح من مقابلة المصنفات العربية وجوب وجود السد الشهير وراء «جيجون» في عمالة «بلخ» واسمه «سد باب الحديد» بمقربة من مدينة «ترمذ»، وقد اجتازه «تيمورلنك» بجيشه، ودعا مؤرخه شرف الدين اسم المحل «خلوجة» ومر به أيضاً «شاه روح» وكان في خدمته ومن بطانته الألماني «سيلد برجسر» وذكر السد في كتابه وذلك في أوائل القرن الخامس عشر، وكذلك ذكره الإسباني «كلافيجو» في رحلته سنة ١٤٠٣م وكان رسولاً من ملك كستيل «قشتالة» بالأندلس إلى «تيمورلنك» قال: إن سد مدينة «باب الحديد» على الطريق الموصل بين سمرقند والهند.

وهذا ملخص من المقتطف سنة ١٨٨٨م، وبه تعلم أن السد موجود فعلاً، وأن هذا معجزة للقرآن حقاً، وهذا أمر عجيب. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في الكلام على يأجوج ومأجوج وذي القرنين

لقد كتب كاتب هندي حوالي سنة ١٨٩٩ في مجلة «الهلال» يسأل علماء مصر والشام: أين يأجوج ومأجوج وهل هم موجودون؟ وإذا كانوا موجودين فأين هم؟ والناس قد اطلعوا على أحوال أكثر الشعوب في الأرض، وهل قول الله تعالى يتغير؟ وإذا كان قول الله حقاً وصدقاً فأين هؤلاء؟ وقد كرر هذا الموضوع مجلة <الهلال> ثلاث مرات فلم يجب أحد.

وقد كنت إذ ذاك في أول خدمتي في المدارس المصرية بصفة مدرس وكان لي إلمام بهذا الموضوع ولم أكن اطلعت على ما كتبته في اللطيفة الأولى كما ذكرته لك، فكتبت ما يأتي وأرسلته إلى مجلة الهلال، وهذا أول موضوع كتبته ونشر في الجرائد، فأحمد الله أنني وفقت أن أسير في تفسير القرآن اليوم سنة ١٩٢٤م وإني أضم هذا الموضوع إليه بعد نشره في الجرائد بأمد طويل، فهاكه:

المقالة الثامنة التي كتبتها في كتابي نظام العالم والأمم

يأجوج ومأجوج

يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا في القرآن الشريف في سورة « الكهف » وسورة « الأنبياء » قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الكهف: ٩٤]، وقال في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧] الآية. فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضاربين صفحاً عن وجوه التفسير التي ليس لها مساس به ولنحصره في خمسة مباحث:

المبحث الأول: في معنى لفظ يأجوج ومأجوج وأصلهم وجغرافية بلادهم.

المبحث الثاني: في إفسادهم في الأرض ويستلزم ذكر تاريخهم.

المبحث الثالث: في معنى: ﴿ فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾[الأنبياء: ٩٦]، وذكر خروجهم وتعيين زمنه وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك.

المبحث الرابع: في ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين.

المبحث الخامس: اقتراب الوعد الحق.

المبحث الأول

أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح أخوذان من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم. وذكر بعض المدققين في البحث عن تأصيلهم أن أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له « ترك » وهو نفس الذي سماه أبو الفداء باسم مأجوج، فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج، وهم كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا، تمتد بلادهم من « التبت » و« الصين » إلى المحيط المتجمد الشمالي وتنتهي غرباً بما يلي بلاد « التركستان » كما في « فاكهة الخلفاء » وابن مسكويه في « تهذيب الأخلاق » وفي « رسائل إخوان الصفا » فقد ذكروا أن هؤلاء هم يأجوج ومأجوج.

المبحث الثاني: الكلام على إفسادهم في الأرض

وقد ذكر المؤرخون ومنهم الإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها، فكم أفسدوا وقلبوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميراً وجعلوا عاليه أسفله فهم مفسدون في الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ، فقد ذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا في قديم العهد فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون، وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقرّ الأنبياء، وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديماً قبل نزول القرآن، وكذلك ورد ذكرهم في القرآن كما تقدم وفي بعض الأحاديث أيضاً.

ثم إنهم لم يزالوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة، إذ ظهر منهم رجل يسمى « تموجين » لقب نفسه « جنكيز خان »، وقال مؤرخو الإفرنج إن معناه بلغة المغول: ملك العالم.

ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذ أعد نفسه فاتحاً لكل العالم، وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة، فإنه بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه أخضع الصين الشمالية أولاً ثم ذهب إلى بلاد الإسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها. وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم، فلم يرد شيئاً وسقطت الدولة بعد حرب مكثت عشر سنين.

ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع ما لم يسمع مثله في تاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة ولا صبي ولا صبية، فقتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أنواعاً. ولقد حسبوا القتلى في مدينة خوارزم وحدها فلحق كل واحد من جموع «جنكيز خان» التي لا تحصى عداً أربعة وعشرون قتيلاً، وأحرقوا المدينة وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً، فضلاً عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما، وفتكوا بأهل نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات والقطط والكلاب، وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى في واقعة «مرو» فكانوا مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً.

هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم ـ راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء ـ وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التي سنذكرها، فلقد أخضعوا بلاد الهند ومات «جنكيز خان» بعد قفوله من غزوها. ولما ملك بعد ابنه «أقطاي» أغار ابن أخيه المدعو «باتو» على الروس سنة ٧٢٢ ودمروا «بولونيا» و«بلاد المجر» وأحرقوا وخربوا ومات «أقطاي» فقام مقامه «جالوك» فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية. ثم مات «جالوك» وقام مقامه ابن أخيه «منجوا» فكلف أخويه «كيلاي» و«هولاكو» أن يستمرا في طريق الفتح، فيتجه الأول إلى بلاد الصين والثاني إلى الممالك الإسلامية، وقد فعل كل منهما ما أمر به فأخضع «كيلاي» بلاد الصين وزحف «هولاكو» على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية، وكان الخليفة إذ ذاك «المستعصم بالله» فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات فلم يفلح، وأخذت بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهراً وهو أمر معلوم مشهور، وطرحوا كتب العلم في دجلة وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم، وهذا الخليفة بعدما أحضر لتسليم ما لديه من الكنوز التي لا تحصى وقد ورثها عن أجداده ذبح وعلقت جثته في ذنب حصان وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد.

ولما استولت ذرية «جنكيز خان» على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشؤوا منها أربع ممالك منفصلة: فاختصت أسرة «كيلاي» بالصين والمغول، وملك «جافاتاي» أخو «أقطاي» تركستان، وملكت ذرية «باطرخان» البلاد التي على شواطئ نهر «فلجا»، وصارت الروسيا تدفع الجزية إليها زمناً طويلاً، وانضمت بلاد الفرس إلى «هولاكو» الذي دمر بغداد، وقد استمرت فتوحات المغول إلى بلاد الشام.

المبحث الثالث

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾[الأنبياء: ٩٦] أي: فتحت جهتهم على أحد تفسيرين، ولقد فتحت تلك الجهة في أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا في التاريخ، وخرج « جنكيز خان » وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: « اتركوا الترك ما تركوكم فإن أول من يسلب أمتي ملكهم بنو قنطورا » أي الترك، مع ملاحظة ما ذكرناه في التاريخ أنه لم يسلب الأمة الإسلامية ملكها إلا هؤلاء.

وقد ورد أيضاً في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون في الشام وساقتهم بخراسان، فهذه إشارة إلى سيرهم واتجاههم وطريق منتهى ملكهم إذ لم يتجاوز الشام إلى مصر ولا أفريقيا. وقد ورد أيضاً أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس. ومن العجيب أن « جنكيز خان » وقومه وذريته طافوا الأرض شرقاً وغرباً ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الأماكن الثلاثة، فما أجلها من معجزة ظاهرة.

ثم إن « جنكيز خان » هو المراد بحديث: « يخرج من آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها »، وقد حمله بعض العلماء قديماً على « جنكيز خان » المذكور. وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التاريخ قتل رسل « جنكيز خان » والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده، فاغتاظ « جنكيز خان » وكتب إليه كتاباً يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه ما نصه:

« كيف تجرأتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الأتقياء أو تعادوا من لا عاداكم وتكدروا صفو عيش من صادقكم وصافاكم؟. أتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة؟ أوَما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن الظلم الضعيف قويكم؟ أوَما خبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم « اتركوا الترك ما تركوكم » ؟ وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ما ذقتم طعم شهده أو صابه، ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه، ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر ما يطن ويروج بحر البلاء ويموج ويفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج، وسينصر الله المظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم، ولابد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله في بريته، فإن به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة، فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب ». انتهى المقصود من عبارات كتاب « جنكيز خان ».

وانظر كيف كان صريحاً بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان، وهذا مصداق ما رواه البخاري بسنده عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب ابنة جحش: « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعاً يقول: لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها. قالت زينب ابنة جحش: فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: نعم إذا كثر الخبث ».

ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ إلى القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخره، وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا، ولقد عثر على آثاره كما قدمنا. ولا ريب أن هؤلاء الأقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم، ولما صار لهم زعيم حرجوا بعد فتح السد في المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التي لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ما جاورها من بلاد خوارزم، وهذه من أجلّ المعجزات. ثم إنه كان بين بلاد « جنكيز خان » ومملكة خوارزم مملكة تسمى « انذار » كأنها حدّ فاصل بين الدولتين أو سد بين الأمتين، فغزاهم الملك السلجوقي واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين، فسرت السراير وابتهجت القلوب بهذا الفتح، وكان إذ ذاك في « نيسابور » عالمان فاضلان، فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الأرض بدموعهما، فسئلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله، فقالا: وأنتم تعدون هذا الثلم فتحاً وتتصورون هذا الفساد صلحاً، وإنّما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج، ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين، وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨].

فهذا تصريح من هذين العالمين بما أردناه ونص في فحواه ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره. وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه، وظهر التتر وأفنوا المسلمين وماج الناس بعضهم في بعض، فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فراراً وكذلك أهل أوروبا.

المبحث الرابع

قال تعالى: ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٦] الحدب: ما ارتفع من الأرض، وينسلون: أي يسرعون في النزول من الآكام والتلال المرتفعة، وهذه الحالة منطبقة تماماً على قوم « جنكيز خان » المتقدمين، فإنهم بإجماع مؤرخي العرب والإفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدبها كما ذكرنا.

المبحث الخامس

قال تعالى: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾[الأنبياء: ٩٧] أي: القيامة، ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾[الكهف: ٩٩] في مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة، ولكن هذا لا يدلنا على أنه لا فاصل بينه وبين الساعة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[القمر: ١]، وقوله صلى الله عليه وسلم: « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى، ومع ذلك فقد مضى نيف وثلاثمائة وألف سنة، فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾[الأنبياء: ٩٧] فكلاهما اقتراب.

ورب قائل يقول: أين الاقتراب في الموضعين؟ قلنا: معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناوله الإحصار، وما بقي من عمر الأرض الطبيعي قدره يسير جداً بالنسبة لذلك، ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بعداً ويعده الله الباقي الدائم قرباً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧] فآلاف السنين لا تنافي القرب مهما امتدت وطالت بنسبتها إلى الزمن كله، إذ من البديهي أن الآلاف لا تذكر في جانب الملايين.

ولذلك ورد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليحجنّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»، وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمناً ويعبدون الله عز وجل. وأما صفاتهم المشهورة في القصص وبعض الآثار فجميعها لا أصل لها.

هذا ما عنّ لي وهذا ما كنت أجبت به عن سؤال الأديب الهندي في حينه من أمد غير بعيد في «مجلة الهلال» في آخر القرن التاسع عشر. ثم وازنت بين حديث البخاري المار وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «ويل للعرب من شر قد اقترب قد فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج» الخ فيما ذكرناه مع اضطرابه وخوفه الشديد.

وبين كلام علماء الجغرافيا في نحو القرن الثالث والرابع، فزاد يقيني بما كتبت ورأيت هذه البلاد كانت معروفة عندهم باسم يأجوج ومأجوج، وزاد استغرابي جداً لمعجزة ظاهرة واضحة قد خفي رسمها عنا، وكيف تحقق هذا القول في الخارج وجاء مصداقاً للقرآن والحديث.

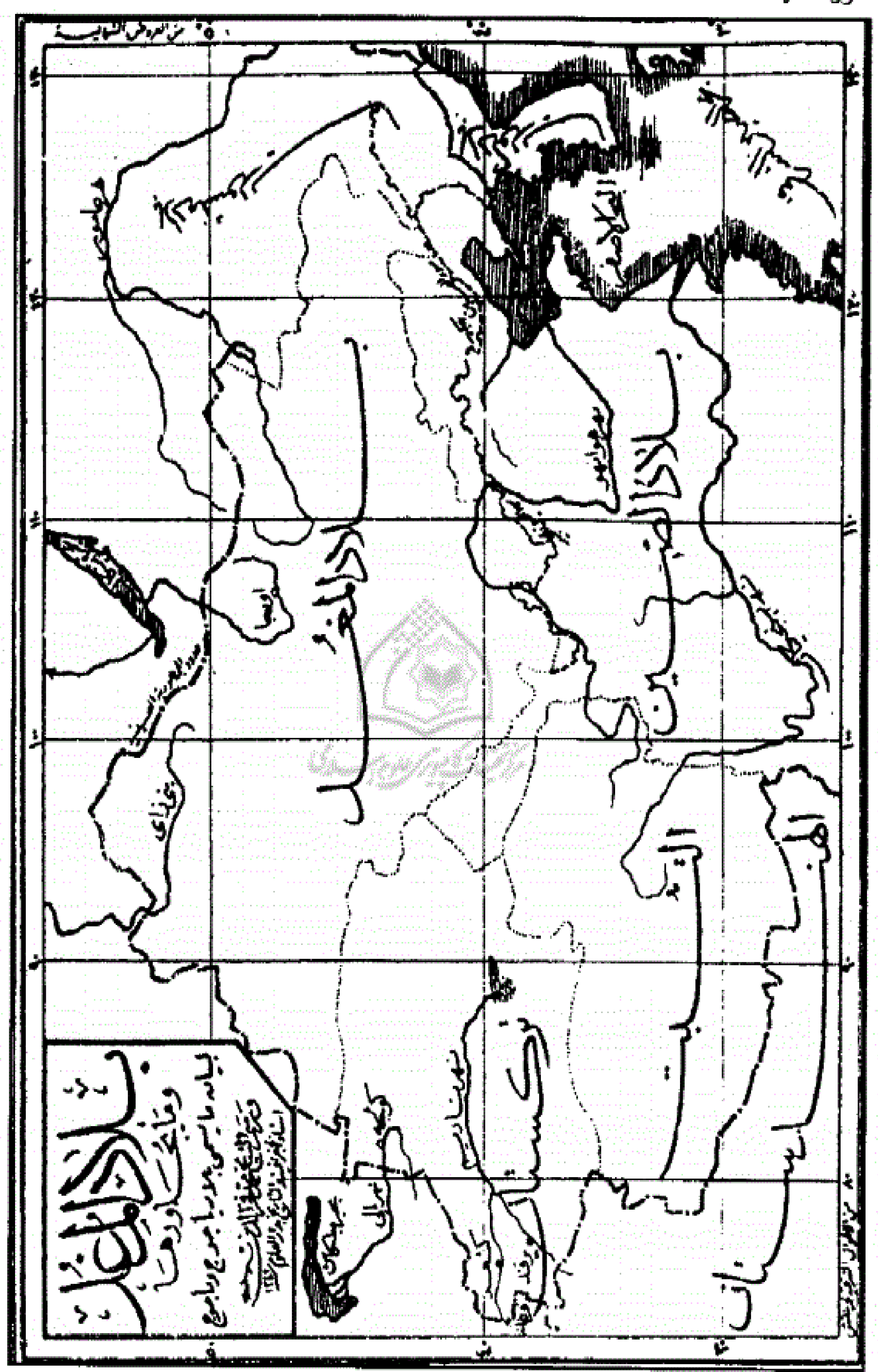
فالحقّ والحق أقول: إن هذا النبي والكتاب المنزل عليه لمما يدهش العقول، وكيف رأينا تلك الجهة تسمى باسم يأجوج ومأجوج في كتاب «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه، ولكنه إجمال لا يشفي غليلاً ولا يؤخذ حجة لإجماله، ولقد فصل في رسائل قديمة ألفت في نحو القرن الثالث والرابع، وذكر فيها أن أمة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجهة المتقدمة شمال الصين، وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالي إلى نحو خمسين درجة منه، وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها «بكين» عاصمتها الآن، ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعاً وكانوا كفاتحين للعالم كله فكانوا أشبه بأهل أوروبا الآن، فكأنهم أخلفوهم في عملهم وفتوحاتهم وسيطرتهم على العالم، ومن المقرر أن بينهم نسباً ورحماً. فانظر كيف أصبحت دولتهم الآن في قبضة الصين، بل هم الجزء العظيم، وهاهي «منشوريا» تتجاذبها الروسيا والصين وبلادهم تبلغ في العرض نحو ثلاث وعشرين درجة كما رأيت، وتلك البلاد في الإقليم الرابع والخامس والسادس والسابع من الأقاليم التي اعتبرها الأقدمون هي الحدود المعروفة لأقسام الأرض، وهي مبنية على مقادير العرض الذي لا يتغير بتغير الأيام والأمم وتداول السنين مما اختطه الملوك الأقدمون والحكماء الغابرون والأنبياء السابقون الذين طافوا الربع المسكون من الأرض، وغابت عنهم أمريكا والأوقيانوسية لبعد المواصلة وشقة السفر وحلولة الجبال والبحار، وذلك مثل الإسكندر الرومي اليوناني وتبع الحميري وأفريدون النبطي وأزدشير بن بايكان الفارسي وسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام الإسرائيلي وغيرهم.

ولما عثرت على هذا علمت علماً يقيناً أننا معاشر المسلمين الآن والدولة الإسلامية إما في حال الهرم وهي وقت نسيان كل معقول ومنقول، وإما أطفال والدهم شيخ كبير فهم يبحثون على آثاره. فيا عجباً كيف كانت هذه البلاد معروفة باسمها وصفتها ودرجاتها عرضاً وطولاً ونحن لا نعلم منها شيئاً، وكيف يخبر نبينا الصادق بهذا الأمر ويحصل في الوجود ونجهله نحن، ولعمري إنها لمعجزة ظاهرة واضحة، ولقد كان الأقدمون يجعلون علم الجغرافيا مما يجب النظر إليه في الكون مثل قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠]، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، بل لو لم يكن للنبيّ معجزة سوى هذه التي ظهرت بالتاريخ والجغرافيا لوفت بالمراد، وإني لأعجب من أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب» الخ. ثم إن هؤلاء أزالوا دولة العرب وانتهت الدولة العباسية بقتل «المستعصم» آخر ملوكها وبقي خليفة رسمي في مصر، وعند قرب الألف من السنين زال حكمهم مرة واحدة وتفرق الإسلام شذر مذر وما حفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب.

وأما أولئك التتار فهم كوّنوا أغلب المسلمين في الهند والصين وأغلب آسيا فكما ورثوا أرضهم ورثوا دينهم، وهذه المسألة وإن كانت بسيطة فعلاقتها بعلم العمران أمر عظيم جداً. والحق أن علم الحديث أوضح كيف تخرب الدول وعبر عنها بأشراط الساعة وسماها العلماء الأشراط الصغرى، إذ الكبرى بخراب الأرض كلها والصغرى بإبادة أمة أو أمم، فإذا جاءت الطامة الكبرى زالت الأمم من الوجود، ولقد أوضح الرسول الصادق أموراً كثيرة لا يسع المقام ذكرها الآن، ولنقصر عنان القلم ففي ما ذكرناه عبرة وتذكرة.

وجاء في كتاب «فاكهة الخلفاء» المتقدم أن المصريين هم الذين صدوا إغارة هؤلاء التتار عن بيت المقدس وفلسطين ومصر. ذلك أن الملك المظفر المسمى «قطز» من دولة المماليك بمصر صدهم بمائتي ألف من المصريين عند حلب، وكان من ضباط الجيش «الأمير بيبرس» المشهور، ولما شتتوا شمل التتار قتل «بيبرس» الملك «المظفر» غيلة، وذلك أن الملك أنعم عليه بجارية تتارية من السبي فتقدّم ليقبل يده فخانه وقتله، وتولى الملك بدله، وقد حزن المصريون حزناً شديداً على الملك «المظفر» لأنه هزم التتار. ولكن «بيبرس» أكثر الإحسان وقرّب العلماء إليه ليزيل ذلك الأثر السيئ.

ومن لطائف التاريخ أن الملك «المظفر» المذكور كان له صديق من المماليك في صغره، وهما يتعلمان مع الأطفال في كتاتيب مصر، وقد تعاهدا أن كل من وجد في ثوب أخيه ما يستقذر فليضربه بيده، فاتفق أن صاحب الملك «المظفر» يوماً ضربه مراراً، فقال له: لماذا أكثرت الضرب اليوم؟ فقال: لكثرة القذر في ثوبك ولأني أحب الإمارة، فضحك الملك وقال له: أتحبّ أن تتولى على مائة؟ فقال: أنا أوليك ذلك. فقال له: وكيف ذلك؟ فقال: رأيت في المنام النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي إنك ستقهر التتار وتكون إذ ذاك ملك مصر، قال: فمن ذلك اليوم هبته في نفسي وعظمته لأني ما جرّبت عليه كذباً قط. اهـ.



(شكل ١١ـ خريطة جغرافية بلاد يأجوج ومأجوج رسمها صديقنا الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة دار العلوم)

إيضاح الخريطة

اعلم أن السدّ المرسوم هنا الفاصل بين بلاد الصين قديماً وبين بلاد يأجوج ومأجوج، ذكر صاحب إخوان الصفاء أنه عند ٢٧ درجة شمالاً، والمرسوم في الخريطة أبعد منه بنحو ١٠ درجات، وهذا السدّ الجنوبي غير السدّ الآخر المذكور في القرآن المتقدم في هذا المقام. فإذن يأجوج ومأجوج كانوا محصورين بين سدين خيفة بطشهم بجيرانهم، والآن أصبح هم وأهل الصين أمة واحدة فافهم.

واعلم أن بلاد « التركستان » أو « بلاد الترك » تنقسم الآن إلى قسمين: قسم تابع للروسيا، وقسم تابع للصين، فالمرسومة هنا هي التابعة للصين. وأما الروسية فهي إلى الغرب من هذه وفيها بلاد « فرغانة » و« جنوة » و« بخارى » و« طاشقند » ونهرا « سيحون » و« جيحون » اللذان يصبان في بحيرة « خوارزم ». فـ« فرغانة » التي في الخريطة هنا اكتفي بها عن رسم بقية تركستان الروسية التي هذه منها وتنتهي غرباً إلى بحر « الخزر » أو بحر « قزوين » الذي هو غربي بحيرة « خوارزم » المتقدمة.

فائدة: ومن العجيب أن الأخبار التي ترد الآن من الشرق الأقصى تبين أن بلاد الصين منقسمة قسمين قسم الجنوب وقسم الشمال. فقسم الجنوب اشتهروا بأنهم يحافظون على البلاد، وقسم الشمال متهمون في وطنيتهم وصدقها. وجاء في الأخبار الآن أن عسكر التتار يحاربون مع أحد الفريقين المتحاربين، وأن فرقة من فرق جيوشهم تسمى « الجنكيزخانية »، فلما قرأت هذا الاسم في أخبار البرق العامة عجبت كل العجب، وأيقنت أن التتار الذين مزقوا العالم تمزيقاً لا يزالون يحافظون على تاريخهم ومجدهم وذكر أسلافهم وعظمائهم، بدليل أنهم سموا فرقة باسم « جنكيز خان » الذي شتت شمل المسلمين قديماً وشمل أكثر الأمم هو وذريته. وقد جاء في الأخبار اليوم أي ٧ يونية سنة ١٩٢٨ أن الوطنيين في الصين دخلوا « بكين » العاصمة. أفلا ترى أن العالم الذي نعيش فيه سينقلب انقلاباً تاماً.

الصين ثلث العالم وهي أمة واحدة وقد ارتقت، أفلا يقال إنهم يعيدون الكرة مرة أخرى ويقلبون وجه الأرض. أفلا يكون هناك خروج لهم مرة أخرى ويحصل في الأرض اضطراب آخر وهلاك لا ندريه مصداقاً للآية. أليس ذلك هو الذي أخبر به « غليوم » ملك الألمان سابقاً إذ قال: « ويل لأوروبا من الصين وسماه الخطر الأصفر ». أفلا يكون مبدأ الخطر قد ابتدأ هذا اليوم إذ أصبحت الصين مملكة واحدة راقية. الله أعلم بالمستقبل.

فإذا صح هذا كان هناك خروج آخر من موضع السد المتقدم ذكره. إذا صح هذا كان الخروج الأول خروجاً جزئياً لتأديب المسلمين على كسلهم ونومهم العميق وجهلهم، لأن قطب أرسلان كان يجهل هو والعلماء قوة القوم وعظمتهم، ولذلك قتل رسلهم التي أرسلوها، فلو كان يعلم قوتهم لأكرم رسلهم، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم: « ويل للعرب من شر قد اقترب الخ » راجعاً للخروج الأول.

أما خروجهم الثاني فهو الذي يقلب الأرض قلباً، كيف لا والحرب اليوم بالغازات الخانقة والمعمية والمهلكة، فإذا خرجوا هلكوا الحرث والنسل كما خرجوا قديماً قبل التاريخ وكوّنوا أمماً في أوروبا ثم خرجوا ثانياً لإبادة ملك العرب، والآن يخرجون لقلب وجه الأرض، ويكون قوله صلى الله

عليه وسلم : « إن الناس يحجون ويعتمرون بعد خروجهم » راجع للخروج السابق . أما الثالث فلا ندري ما الله فاعل بالناس ، ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

فجدير بالأمم الإسلامية اليوم أن يفكروا في مستقبلهم ، فإنهم اليوم بين أوروبا الظالمة والشرق الأقصى . وقد بينت هذا المقام في كتاب « نهضة الأمم وحياتها » .

قدوم عالم من علماء أمة يأجوج ومأجوج إلى مصر وزيارته لمنزلي بشارع طولون منذ نحو عشرين سنة

اعلم أيها الذكي أني أول ما ألفت كتاباً من كتبي كان انتشاره وترجمته في بلاد « الروسيا » بناحية « قازان » وما والاها من غيرها ، فقد نشرت تلك الكتب هناك وترجم بعضها ووصلت إلى الترجمة باللغة القازانية ، أما مقالة يأجوج ومأجوج فإني بعد أن نشرتها في أواخر القرن التاسع عشر بمجلة الهلال تحقق لي صدقها بالاطلاع على كتب القدماء ، فكتبتها في « جريدة المؤيد » المنتشرة إذ ذاك في أقطار الإسلام وذلك في نحو العشر سنين الأولى من القرن العشرين وهذا مقدمة لما ستسمعه :

بينما أنا بالمدرسة الخديوية أدرس للتلاميذ اللغة العربية إذ قابلني تلميذ فقال : قد قابلني الأستاذ عبد الله بوبي من مدينة « أوفا » ببلاد الروسيا ويريد موعداً للمقابلة بالمنزل ، فعينت له موعداً ليلاً ، فلما حضر خاطبني باللغة العربية الفصحى ، وأول ما بادرني به أن قال : عرفتك من مؤلفاتك وقرأت في « المؤيد » أنك تقول إننا من يأجوج ومأجوج ، وهذه المقالة ترجمتها بلغتنا ، ولم أطلع عليه الشيوخ الكبار لظنهم أن هذا كفر وقد جهلوا أصلنا وأننا نحن المغول ـ يأجوج ومأجوج ـ والتتر فريق من تلك الأمم . فأنا والشبان جميعاً فهمنا مقالك ، والمسلمون لا سعادة لهم إلا بقراءة التاريخ والجغرافيا وجميع العلوم ، وأخذ يتكلم في السياسة العامة وفي قيصر الروس . ومعلوم أن ذلك قبل ذبح البلشفية لذلك القيصر ، فوصفه بأنه جاهل واستدل على ذلك بأنه لم يستعمل تخدير أعصاب الشبان المسلمين كما خدرت الإنجليز أعصاب الشبان بمصر ، واستدل على ذلك بحوادث جرت في مصر ، وأنه رأى المتعلمين في المدارس يحبون الإنجليز ولغتهم ويكرهون اللغة العربية وما شاكلها . ومعلوم أن ذلك كان قبل النهضة الحالية التي غيرت أفكار المصريين جميعاً . ثم قال : إني لم أجد فتى متحمساً عندكم مثل « مصطفى كامل » ، وكل الشبان عندنا مثل مصطفى كامل ، فنحن نريد أن نأخذ بلاد الروسيا كلها ونحكمها كما كنا حكامها قديماً كما تشير إليه مقالتكم في يأجوج ومأجوج . أقول : وشبان مصر عند كتابة هذا الموضوع متحمسون كمصطفى كامل ونحوه ، فإن الحال تغيرت كما قدمت ذلك قريباً .

ثم أخذ يحدثني عن أخلاقهم ، فقال : إن أمي وزوجتي تخرجان من منزلنا كل صباح لتعليم بنات الفقراء والأغنياء الكتابة والقراءة والأعمال المنزلية ؛ فهل عندكم مثل هذا؟ فقلت : كلا . فقال : حركة العلم عندنا عظيمة وقوية ووطنية . وعرفت من قوله أن عنده ثروة عظيمة وهو يستخدمها في الكيد واستعمال الحيل في إحراج مركز ذلك القيصر .

حادثتان : الأولى

إنه كان لا يترك مجتمعاً إلا جلس فيه ، فجاءني يوماً وقال : في هذه الليلة رأيت عالماً مغربياً مع العلماء وهو يعلمهم حديث المصافحة ، وبقي يذكر أسماء الرواة من عصر النبوة إلى الآن . قال :

وعجبت أن يضيع المسلمون حياتهم في العنعنة المذكورة. ورأيي أن يغير التعليم في الأزهر وأن يدخل فيه الإصلاح.

الحادثة الثانية

جلست معه في المتسع الذي أمام دار التمثيل في مشرب القهوة الإفرنجية، فجاء لنا صاحب القهوة بالشاي فلما رآه، قال: هذا فيه مكسب للفرنجة عظيم، وأنتم في مصر تغرمون وهم يكسبون وهذا باب الاستعباد.

أما نحن فإن الشبان المسلمين هم الذين يتولون أمثال هذه الأعمال، وهم الذين يقومون بأمر الطعام والشراب في كل مكان، وفي القطرات بالطرق الحديدية، وهم يأخذون أموال الروس بطريق التجارة، فقلت له: إذن أنتم نصاراهم وهم نصارانا، فضحك، أي أن النصارى في بلادنا لهم الفوز في التجارة، فهم في بلادهم أخذوا هذه الوظيفة منهم. وحدثني مرة يقول: إنه ألف كتباً يحث فيه المسلمين على الجد والعمل، وأن هذا الكتاب لما انتشر في المسلمين هناك هبّوا للعمل وارتقوا.

ولأختم هذا الموضوع بحادثة: ذلك أنني في صباح يوم ورد لي خبر أن والدي سقط تحت القطار بجهة «بردين» فأسرعت للسفر، ولكن أحببت أن أقابل صديقي اليأجوجي المأجوجي قبل السفر، فخرجت من المدرسة بدرب الجماميز متوجهاً إلى المحطة مريداً أن أمر عليه في مأواه الذي هو أقرب إليها، ففي تلك اللحظة كان هو قد جاء إليّ يريد مقابلتي بالمدرسة، وهنا حصل لي أمر عجيب ذلك أني قبل أن أخرج من سراي درب الجماميز اضطررت أن أدخل لأحد أصحابي لمصلحة، فجلست دقيقة واحدة معه، فلما خرجت وجدت الصاحب اليأجوجي بالباب قبل خروجي من السراي، فدهشت وعلمت أنني لو لم تشغلني هذه المصلحة تلك الدقيقة لخرجت ولم أقابله فأخبرته الخبر وعجبت من حسن المصادفة. فقال لي: لا تعجب إن الله عز وجل مع كل مصلح ونحن لا نعمل إلا ما هو مصلحة للمسلمين، فكيف لا يكون الله معنا؟. ثم أخبرته خبر والدي وتوجهت إليه فوجدته قد أصيب بما يوجب الموت من جرح وكسر وهو لا يحسن النطق، ولكن الله قبل (٢٤) ساعة حسن حاله، وقال الطبيب: إن هناك لطفاً من الله به، ولو كان هذا الحادث لشاب من الشبان لمات وذلك لقوة والدك، ثم قال: إنه يحتاج لعلاج أربعين يوماً. فلما اطمأننت على والدي رجعت إلى المدرسة وأخبرت صاحبي تفصيلاً بتلك الألطاف في والدي. فقال لي: ألم أقل لك إن الله مع المخلصين للمسلمين.

ثم بعد ذلك شفي والدي تماماً وسافر صاحبي إلى بلاده وعين في مجلس «الدوما» بالروسيا، وقد علمت أخيراً أن القيصر كان نفاه لما علم بمناوأته لحكومته. ويقال إنه توجه لبلاد الصين يعلم المسلمين هناك، ولم أعلم بعد ذلك بما تم في أمره. أما المسلمون في تلك البلاد أيام البلشفية فقد بلغني أنهم مرتقون في هذه العلوم. والله أعلم. وبهذا تعلم أن السد موجود فعلاً وأن هذا معجزة للقرآن حقاً وهذا أمر عجيب.

اللطيفة الثانية: تحقيق المقام في ذي القرنين ويأجوج ومأجوج

اعلم أن الله عز وجل ما أنزل القرآن ولا الكتب السماوية قبله إلا لهداية الناس وإرشادهم، والإرشاد إنّما يكون على مقتضى الحال ويوجه القول للأمم توجيهاً يرشدها ويعلمها، فمن الإرشاد

أن يجمع بين اللين والشدة بالجنة والنار والنعيم والجحيم والقرب والبعد. ولا جرم أن طبع أهل هذه الأرض مبني على هذا النظام. انظر ماذا فعل الله في هذا الوجود. خلقنا وأراد ترقينا بهذا الخلق، وليس هناك من سبيل لأخذ العلم أخذاً حقيقياً عن الله، فاحتجنا إلى وسائط من تلك الوسائط أنه أجاعنا وأعرانا وخلق العداوة والحسد وما أشبه ذلك مع اختلاف الأخلاق والأحوال والعادات، ثم إنه مهد الأرض للزرع والبحر للسفر وغيره، وقال لنا: هاهو ذا ملكي وهاهو ذا نقصكم وضعفكم، فإما أن تعملوا مدة الحياة بنصب وتعب وإلا فلا أغذية لكم عندي ولا راحة. وفي المثل: «أثر حثواً في ارتغاء». فظاهر الأمر أننا نعيش بالعمل وباطنه إرادة رقينا علماً وأخلاقاً. أنا خلقتكم في نصب وتعب، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[البلد: ٤]، فاستخرجوا من الأرض أغذيتكم وملابسكم الخ.

وهذا هو مبدأ العلوم، فجميع العلوم في هذه الأرض ترجع إلى استخراج ما نحتاج إليه من أغذية وأدوية وأعمال أخرى، ونتيجة هذا هو رقي عقولنا وأحوالنا وأخلاقنا. لهذا خلقت الدنيا ولهذا خلق الله الناس، فما أصابنا من خير أو شر فهو راجع لهذه القاعدة، وإلا فالله قادر أن يخلق الإنسان في راحة تامة بأن يجعله كالدود يأكل مما حوله بلا تعب، وكالنبات في البر والبحر لا يحتاج إلى شيء، وكالمرجان يتغذى مما يحيط به من المواد الجيرية في ماء البحر الملح، ولكن الله يريد بهذا الخلق ارتقاء المخلوقات الإنسانية. إذا فهمت هذا فلتعلم أن القرآن نزل على هذا النمط فهو يدعو للعمل والفكر والبحث، ولو أن آيات القرآن كانت واضحة كل الوضوح بحيث لا يعوزنا عمل في فهمها لكان نفس القرآن من أهم أسباب سقوط الأمم التي تعتنقه، إذ لا حاجة لهم إلى بحث ولا تنقيب.

فانظر إلى قصة ذي القرنين وإلى قصة يأجوج ومأجوج: ذو القرنين وصفه الله بأوصاف تنطبق على رجل عظيم مصلح.

(١) فقد خيره الله لما بلغ مغرب الشمس بين اللين والشدة، فاختار وضع كل منهما في مقامه.

(٢) وعرض عليه القوم مالاً لأجل أن يجعل لهم سداً، فأبى وقال ما معناه: كلا الله أعطاني نعمة وسأصرفها في منفعة عباده ولكن أعينوني بقوة.

(٣) ثم قال: إن هذا رحمة من ربي وذكر أن كل أعمال الخلق لابد لها يوماً من الزوال.

فهذه الأقوال والأعمال لا يتصف بها إلا المصلحون، بل هي نموذج للمصلحين من الأمم الإسلامية، وليس يهم في الدين ولا القرآن شيء فوق هذا، فإن كل قصة في القرآن إنّما يؤتى بها لنتائجها أصالة.

فالنتائج في فتية الكهف أنهم فروا من الظلم كما فر الصحابة حين كانوا بمكة، فهاجر بعضهم إلى الحبشة وهاجر بعضهم إلى المدينة، ثم نصرهم الله في آخر الأمر. ففتية الكهف فروا من ظالم وهم مؤمنون بربهم. هكذا الصحابة فروا بدينهم وحافظوا عليه تأسياً بقصص القرآن. وهكذا قصة موسى والخضر عليهما السلام وخرق السفينة وقتل الغلام. لا يقصد من هذا كله إلا تعريف الناس أن هناك قضايا عجيبة في الوجود، وأن الإنسانية أشبه بجسم وهذا الجسم إذا أمكن بقاؤه بقطع سلعة منه أو أصبع معتلة إذا بقيت أضرت بالجسم كله، فإن الحكمة تقتضي بقاءه وإزالة ما به فساده وهذه هي حال الناس أيام النبوة.

فإذا قيل : لماذا استعمل السيف أيام النبوة وحصل الحرب حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ؟. قلنا : اقرأ قصة موسى والخضر فإن الشر القليل يحتمل للخير الكثير ، وقد تم هذا فعلاً فقتل صناديد قريش وغيرهم أثمر ظهور أمة عظيمة ملأت الكرة الأرضية ، فما ذلك إلا كأمر الطب سواء بسواء . هذا من أحسن ما يؤخذ من هذه القصة .

وهكذا إذا سمع الإنسان قوله صلى الله عليه وسلم : « الحرب خدعة » فهو من هذا الباب . فهذا هو المقصود العملي الديني من هذه القصص في القرآن . وأنا أحمد الله عز وجل إذ وفق وعلم وشرح الصدر لكتابة هذا . هذا ما ينبغي أن يفهم في هذا الزمان وفي كل زمان .

فوائد هذه الأخبار في هذا الزمان

أما فوائد هذه الأخبار في هذا الزمان فإنها تزيد على ذلك بالعلوم والحكمة ومعرفة تواريخ الأمم وتخطيط بلدانها .

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي العالم الذي اعتاد أن يخاطبني في المسائل العويصة . فقال : لقد أتيت بمقدمة تقول فيها إن نظام هذا العالم يرجع إلى الحث على طلب العلم ، فكما يقول في القرآن : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[طه : ١١٤] ؛ يخلق في الجسم ألم الجوع والعري ومرارة العداوة ، فيكون ذلك كله من أسباب ارتقاء الناس ، هذا مفهوم ، ولكن مسألة ذي القرنين ومسألة يأجوج ومأجوج توقع في القلوب شبهاً وتقتضي عند بعضها كفراً ، فإن الناس إذا قرؤوا التاريخ وعلم الجغرافية يرون أن ظهور رجل بلغ مشارق الأرض ومغاربها وبنى سداً كما في القرآن لم يقم عليه دليل . فمن أين ذو القرنين هذا؟ . ومن أي الممالك هو؟ . أهو إسكندر المقدوني أم هو رجل آخر من اليمن .

إن التاريخ الذي نقرؤه لا يهدينا إلى معرفة هذا الرجل ، ولذلك نجد كثيراً من المتعلمين في الديانات يكونون ملحدين وذلك لأجل شكهم في الديانات ، فيقولون : إن هذه القصص جاءت على مقتضى ذوق أهل عصورهم لا على مقتضى التاريخ . وأنا أسألك الآن : أكان الله يعلم أن الناس سيصبحون في شك وكفر بسبب هذه القصص ؛ أم هو لا يعلم ذلك؟ . فإن كان لا يعلم فقد انهدم كل دين في الأرض وطاحت أصول الفلسفة ، وإن كان يعلم تلك النتيجة فإذن هو أنزل القرآن لأجل الإضلال لا للهداية .

فإذن المسألة دائرة بين جهل الصانع سبحانه وبين إرادته الضلال وكلاهما نتيجة سيئة . فقلت : أنا أختار أنه عالم أن مثل هذه المسائل يكون بها الضلال وهو الذي أراد ذلك . قال : يا عجباً كيف هذا؟ قلت : قال الله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[البقرة : ٢٦] ، وما نتيجة هذه الأخبار في بعض النفوس إلا كنتيجة شرب العسل لمن به حمى فهو نافع للناس ضارّ لبعضهم . هكذا هذه القصة أعطت نموذجاً للمصلحين في الأمم ومن فعل به هم الأقلون والضرر القليل مغتفر في جانب النفع الكثير . قال : ولكن الأمم الإسلامية الآن قد أقبلت على زمان يكثر فيه علم التاريخ وعلم الجغرافية ، وهذه القصص خارجة عن هذه العلوم . فإذا تعلم المسلمون جميعاً رجالاً ونساء كما تعلم أهل أوروبا وأمريكا واليابان فإنهم يفعلون بالقرآن ما فعله النصارى بقصص التوراة ، أي : يجعلون هذه قصصاً تقرأ بلا تفكر ، ويضربون الذكر عنها صفحاً ، ويقولون : العلم شيء

والدين شيء، وتبقى الطبقة المتنورة غير مكترثة بالكتب السماوية. فما تقول في هذا؟ فقلت: إن نزول هذه الأخبار في القرآن كما تقدم سيكون في هذا الزمان سبباً لارتقاء الطبقة المتعلمة في علومها. قال: وكيف ذلك؟ أتقول هذا لأجل أنك في تفسير القرآن. قلت: كلا إنّما أنا أقول هذا عن علم. ألم تر أن قصة ذي القرنين قد جاء كلام المفسرين فيها غير متفق، فهذه ستدعونا أن نبحث في هذا المقام أي الأسماء أقرب إلى ذي القرنين أأسماء ملوك اليونان أم أسماء ملوك اليمن.

إذن وجب علينا أن نعرض أسماء ملوك الأمتين بوجه واضح، ونبين ما جاء في التاريخ الحديث من أسمائهم، ثم نبين إلى أيهما هو أقرب. ولماذا أبهم هذا الاسم؟ وما فائدة هذا الإبهام لأمم الإسلام المقبلة والحالية كما ذكرنا سابقاً الحقيقة الناصعة، وهي أن أمة يأجوج ومأجوج أمة موجودة قديماً وحديثاً، وبيّنا تخطيط بلدانها وجغرافيتهم، ونقلنا من الكتب المؤلفة منذ ألف سنة أيام الدولة العباسية أن اسم تلك البلاد كان معروفاً في الخرائط الجغرافية باسم يأجوج ومأجوج، وحددنا تلك البلاد وأهلها وكيف خرجوا وكيف أهلكوا أمم الإسلام وشتتوا الدولة العربية وأذاقوها سوء النكال. وكيف كانت هذه القصة نزلت في القرآن. ، وقد علم الله أن هؤلاء هم الذين سيكونون شراً على أمة العرب التي نفعت الأمم. والآن نبين أن فائدتها في هذه القرون أن يرجع أبناء الإسلام لدراسة التاريخ والجغرافيا، ويدرسوا ما حاق بآبائهم من ضعف وما أصابهم من ضر، ويعرفوا مواطن الأمم وأن دراسة ذلك كله من أسباب بقاء أممنا الحاضرة، وجهله يضيعها فتكون في خبر كان، لأن الأمم لا حياة لها إلا بدارسة تاريخها ونحوه، وإلا طاحت وهوت في أسفل سافلين. فهذا هو الذي سنذكره الآن:

(١) ملوك اليونان. (٢) ملوك اليمن. (٣) بلاد يأجوج ومأجوج. (٤) صلتهم بالأمة العربية في قوله صلى الله عليه وسلم: «ويل للعرب من شر قد اقترب لقد فتح الليلة من سد يأجوج ومأجوج» الخ، وكيف كان ذلك سراً للنبوة ظهر أثره بعد سبعمائة سنة، فهذه المسائل التي نبحثها هنا.

أما كون هذه العلوم من أسباب رقي الأمة وأن تركها مضيع للأمم فاقرأه فيما قدم في سورة «النحل» عند قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾[الآية: ٤٣]، فقد نقلت لك هناك أن قراءة أصول العلوم لابد منها لبقاء الأمة وإلا طاحت وتشتتت ناقلاً ذلك عن الأستاذ «ستلانه الطلياني». فلنبدأ أولاً بذكر ملوك اليونان.

المقام الأول في ذكر أسماء من اشتهروا في أمة اليونان

فهل نجد فيهم من جاء في اسمه لفظة «ذو» التي هي من الأسماء الخمسة في اللغة العربية ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء أو ما يفيد معناها، فلننظر نجد أن تاريخ «أثينه» القديم يبتدئ بالمدة الملوكية من نحو ١٣٠٠ سنة إلى ١٠٥٠ ق. م. وآخر ملك من ملوكهم يسمى (١) «كودروس» وكل ما يروى عن اليونان في القرن الحادي عشر ق. م غير موثوق به. (٢) وفي سنة ٨٥٠ ق. م نبذ القوم حكم الملوك المستبدين وساعدهم «ليكورغس» فسنّ لهم قانوناً ليكون شرعاً لهم، وكان من أعضاء الأسرة الحاكمة، وهذه القوانين سنها «لاسبرطة» ببلاد اليونان تعلم الشجاعة والصبر والقوة الجندية ويكون للأمة ملكان ومجلس أعيان مؤلف من ٣٠ عضواً كل واحد سنه ٦٠ سنة، والملكان منهم بالانتخاب، والمجلس يسمى مجلس الشيوخ والأعيان، والانتخاب لمدة الحياة، وهناك مجلس الأمة

يقدم لهم الأعمال ليبحثوها، والمولود ضعيفاً أو مشوه الخلقة يقتل على جبل « طايغتوس »، ويربى الولد بعد سبع سنين بتمرينات رياضية وبالصيد وتحمل الأخطار وبالضرب مع ثباته وعدم ضجره، ولو مات، وهكذا يتحمل الجوع والعطش والحر والبرد ليتعلم الصبر، ويتعلم الموسيقى بأشعار كلها تحث على الشجاعة، ثم يعلمون قلة الكلام لتقوى بصائرهم. (٣) وممن اشتهروا فيهم « هوميروس » الشاعر وأصح التواريخ عنه أنه كان نحو سنة ٨٥٠ ق. م، وشعره وحّد أمة اليونان فهم كانوا يقرؤونه في خلواتهم ومجتمعاتهم الخاصة والعامة، وعسى أن يوحد القرآن الأمم الإسلامية بعد ظهور حقائق القرآن في زماننا الحاضر. (٤) ومن ملوكهم « فيدون » سنة ٨٧٠ ق. م والحكومة هناك جمهورية، وبعد موته استمرّت « اسبرطة » على تعاليم « ليكورغس ». (٥) الملك « رافيطوس » سنة ٧٧٦ ق. م على الأصح هو الذي أحيا الألعاب الأولومبية وصارت بعد ذلك تقام كل أربع سنين مرة والمسافة بين كل دورين تسمى « المياد » وبقيت إلى سنة ٣٩٤ ق. م إذ حوّل مجراها الإمبراطور « طيودوسيوس » (٦) ومن ملوكهم « أريسطو قراطيس » ملك « أرخومينوس » وهذا الملك خان بلاده في موقعة حربية فرجموه لإفشائه السرّ للأعداء. (٧) ومن عظمائهم « أريسطومينس » سنة ٦٥٨ ق. م الذي أسره أعداء بلاده ووضعوه في جب ونجا بعد ذلك. (٨) ومن عظمائهم « سولون » الذي لما رأى الطغيان عم البلاد في نحو سنة ٦٠٠ ق. م سنّ قوانين لهم، وهو معدود من الحكماء السبعة، وهو من أهل « أثينه » وجعل الأمة في القانون أربع طبقات، وجعل الانتخاب عاماً، وغاب عن بلاده عشر سنين من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٥٦٠ ق. م. (٩) ومنهم « بيزيسطراطوس » ابن عم « سولون » مات سنة ٥٢٧ ق. م (١٠) ابنه « هبياس » وابنه الآخر « هيبارخوس ». (١١) « كيلومنس » من ملوك « اسبرطة ». (١٢) « ملتياد » نصر اليونان على الفرس بسياسته وبالجيوش. (١٣) « أريسطيدس ». (١٤) « تمثقل » من « أثينه » بسياسته وجيشه هزم الفرس. (١٥) ومنهم « سيمون » بأثينه قائد حزب الأشراف. (١٦) وأخيراً كان « فيليب الثاني » ابن « أمنطاس الثاني » وأخو « بردكياس » وتولى الحكم وعمره ١٣ سنة وجعل « تساليا » تحت حكمه سنة ٣٥٢ ق. م. (١٧) وبعد ابنه « الإسكندر الثالث » الملقب بالأكبر ولد سنة ٣٥٦ ق. م وكان عمره إذ تولى الملك بعد أبيه ٢٠ سنة وقد تعود في صغره على العوائد الاسبرطية من تحمل الآلام والإقدام والتجلد، ثم علمه « أرسطوطاليس » علم الحكمة. فهذه الأسماء هي من أهم الأسماء المشهورة في أمة اليونان. وقد بحثنا فيها فلم نجد للفظ « ذي القرنين » وجوداً. فيا ليت شعري كيف ساغ لبعض المفسرين بل لكثير منهم أن يجعلوا هذا الاسم علماً على « الإسكندر » وغاية ما لقبوه أنهم قالوا: « إسكندر الأكبر »، أما « ذو القرنين » فلم يرد لها ذكر في أسماء ملوكهم ولا شعرائهم ولا قوادهم. فبطل إذن أن يكون « ذو القرنين » من اليونان. إذن فلنبحث عن هذا الاسم في أمم العرب الذين كان لهم ملك وسلطان وعظمة وهم عرب اليمن.

الكلام على بلاد اليمن وملوكها

اعلم أن أعظم المدن القديمة التي كانت في اليمن قبل الإسلام خربت الآن، وسفت عليها السواقي وغطتها الرمال. وقد ذكر اليعقوبي أن تلك البلاد تنقسم أولاً إلى مخاليف جمع مخلاف وجعلها (٨٤) مخلافاً، والمخلاف تحته مدن ومحافل وقرى، ومن الأشهر فيها مخلاف « مأرب وذمار

والهان وحراز وحوزون وحضور » الخ ، ووصفه لها كان في القرن الثالث الهجري . وقد حدد هذه المخاليف الهمداني في كتابه المسمى « صفة جزيرة العرب » بأوائل القرن الرابع الهجري واعتمد العلماء على كتابه ووثقوا به .

كيفية نظام بلاد اليمن في الأزمان القديمة

لا جرم أن النوع الإنساني في الأعصر البائدة كان يعيش مع الحيوانات في الفلوات ويأكل الثمار ويعيش في الكهوف والمغارات ، ثم ارتقى شيئاً فشيئاً وكان العصر الحجري والعصر البرونزي ثم العصر الحديدي فالمدنية الحاضرة . وأما الإنسانية العامة ولا بعضها إلا كما يولد الطفل صغيراً ثم يقوى شيئاً فشيئاً . هكذا ما نحن بصدده وهي بلاد اليمن ، فبنوا البيت ثم ارتقى البيت على طول الزمان فصار قصراً ، والقصر عندهم جعلوه حصناً أو قلعة ، وهذه القلعة حولها سور . ومعنى هذا أنّ الأسرة الواحدة تجتمع في مكان واحد وتتخذ لها رئيساً منها وتجلسه في قصره وتبني بيوتاً حوله ، وتجعل ذلك القصر مئيعاً خيفة مفاجأة الأعداء ، وكل عدة قصور تخضع إلى رئيس واحد يحكم شيوخ هذه القصور ، وهذا المجموع يسمى « المخلاف » والجمع مخاليف ، فالمخاليف كالمديريات في القطر المصري والقصور أشبه بالمراكز في المديرية . ومعنى هذا أن القطر المصري (١٤) قسماً كل قسم مقسم إلى مراكز والمركز يشتمل على جملة بلاد . هكذا بلاد اليمن عبارة عن (٨٤) مخلافاً كل مخلاف يشتمل على محافد وعلى القصور المتقدّمة ، والمخلاف يتولاه أمير يقال له « قيل » والجمع أقيال أو ملك صغير والمخلاف يقابل « الكورة » أو « الرستاق » في اللغة العربية ، كالمديرية في الاصطلاح المصري حديثاً ، ويقال لذلك « القضاء » أيضاً ، وينسب المخلاف كله إلى أكبر محافده أو إلى المحفل الذي يقيم فيه « القيل » ، وهذه المحافد قد تنمو فتصير مدينة وتسمى جديد ، كما اتفق أن قصر أو محفل « ريدان » تحول إلى مدينة ظفار ، وقصر سلحين تحول إلى مأرب ، وهناك قاعدة وهي أن صاحب المحفد « القصر » يلقب بلفظ « ذو » أي : صاحب ، يضاف إلى اسم المحفد ، فيقال : ذو غمدان أي صاحب غمدان وذو معين ، وتعرف هذه الطبقة باسم « الأذواء » أو « الذوين » ، وهذه الألقاب أشبه بالألقاب في بلادنا المصرية الآن مثل قولهم فلان بك وفلان باشا ، وهذه بعض الأسماء : « ذو غمدان . ذو تلقم . ذو ناعط . ذو صرواح . ذو سلحين . ذو ظفار . ذو شيام . ذو بينون ، ذو ريام . ذو براقش . ذو روثان . ذو أرياب . ذو عمران » . فالأقيال ملوك صغار ، والأذواء يقابلون في بلادنا المصرية « الذوات » وهذه كلمة معناها الأغنياء الممتازون في بلادنا ، وهذا عجب أن يكون ذواتنا يقابلون أذواءهم وكلاهما راجع إلى « ذو » و« ذات » والمعنى واحد . ونظير هذا عند الإنجليز قولهم مثلاً « اللورد افبري » ومعنى اللورد « الرب » أو « السيد » ، ومعنى « أف » صاحب ، ويعد هذا اسم البلد التي جعل هذا صاحبها إذ هذا كأمير اليمن سواء بسواء والمعنى واحد . أفليس من العجب أن يكون « ذو » الوارد في القرآن كان موجوداً في اليمن وله نظير في أوروبا ، ولكن هذا لا نظير له في اليونان ، إذن لم يكن « ذو القرنين » في اليونان ويغلب أن يكون في اليمن ، فإن الأذواء في تلك البلاد هم الذين يحكمونها ، ومن بين هؤلاء الحكام يكون الأقيال والتابعة كما تقدّم ، وقد عجز المؤرخون جميعاً عن معرفة تاريخ الإمارات الصغرى وعن تاريخ الممالك الكبرى هناك ، ولكن المهم في هذا المقام وهم الأذواء قد حفظت أسماؤهم

ليكونوا دليلاً لهذه القصة في القرآن. والذي عرف الآن طبقتان طبقة تسمى الملوك المثامنة وهم ثمانية أذواء وهم ناهضوا حمير أيام دولتهم. والطبقة الثانية أذواء مستقلون وهؤلاء هم المثامنة. قال الشاعر:

أين المثامنة الملوك وملكهم ... ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو ثعلبان وذو خليل ثم ذو ... شجر وذو جدن وذو صرواح
أو ذو مغار بعد أو ذو جوفز ... ولقد محا ذا عثكلان ماحي

وسائر الأذواء أكبرهم مرثد وهو جدّ الناظم قال فيه:

أو ذو مراثد جدّنا القيل ابن ذي ... شجر أبو الأذواء رحب الساح
وبنوهم ذو فين ذو سفر وذو ... عمران أهل مكارم وسماح
والقيل ذو ذبيان من أبنائه ... راح الحمام إليه بالرداح
أم أين ذو الرمحين أو ذو يرحم ... سقيا بكأس للمنون ذباح
أم أين ذو بهر وذو يزن وذو ... نوش وذو نوح وذو الأنواح
أم أين ذو نيقان أو ذو أصبح ... لم ينج بالإمساء والإصباح
أم أين ذو الشعبين أصبح صدعه ... لم يلتئم لمثقف الأقداح
أو ذو حوال حيل دون مرامه ... أو ذو مناح لم يبح بمراح
أم أين ذو غمدان أو ذو فائش ... أو ذو رعين لم يفز بفلاح

والقصيدة ١٩ بيتاً بعد المثامنة. اكتفينا بما ذكرناه الآن، والأذواء في هذه القصيدة ٥٥، والذي علم قليل.

إذن ثبت أن «ذا القرنين» يمني وإن كان في زمن متوغل في الجهالة والإبهام، ليكون نموذجاً للكمال والشرف في الأمم الإسلامية في مستقبل الزمان. انتهى.

إذا عرفت هذا فانظر إلى دول اليمن فمنها دولة «معين» وعاصمتهم «قرنا»، ودولة «سبأ» وعاصمتهم «مأرب»، والقتابيون وعاصمتهم «شبوة»، والذي كشف «معين» هو «هاليفي» إذ رآها في شرقي «صنعاء» ببلاد الجوف وقرأ اسمها عليها ويجانبها مدينة «براقش»، فوجد هناك ٣٠٣ نقشاً ٧٩ منها في «معين» و١٥٤ نقشاً في «براقش» و٧٠ في السوداء، وقد عثروا على بعض ملوك هذه الدولة وهم ٢٦ ملكاً مثل أب يدع ومثل أب يدع يثيع أي المنقذ وهكذا. وقد عرف الناس أمة بهذا الاسم بالكشف الحديث سنة ٣٠٥٠٠ قبل الميلاد مكتوباً على نصب عليه نقوش مسمارية ذكرت في أقدم آثار بابل، وأن ملك بابل حمل على «معان» في جزيرة «سينا» وقهر ملكها، وأنه اقتلع حجراً منها ونصبه تذكاراً في بلاد «بابل»، ويقدر العلماء أن آثار دولة معين تبتدئ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع أو الثامن قبله، ويقولون: إن أصلهم من بابل.

دولة سبأ

هم من القحطانيين كانوا أولاً أذواء فأقيالاً، فكانت لهم المحافد فالمخاليف، والذي نبغ منهم «سبأ» صاحب قصر صرواح شرقي «صنعاء»، فاستولى على الجميع ومبدأ ملكهم من سنة ٨٥٠ق. م إلى سنة ١١٥ ق. م، والمعروف من ملوكهم ٢٧ ملكاً، ١٥ يسمى مكرباً و١٢ منهم يسمى ملكاً، مثال الأول «يثعمر» و«ذمر علي» فكل منهما اسمه «مكرب» ومثال الثاني «ذرح» و«يريم أيمن» فهذا ملكان.

الدولة الحميرية من سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٥٢٥ ب.م

وحمير بن سبأ وهم طبقتان: الطبقة الأولى: ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ ق. م إلى سنة ٢٧٥ ب. م، ومن ملوكهم «علهان نهفان» و«وتار» وهكذا. الطبقة الثانية: ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ ب. م إلى سنة ٥٢٥ ب. م، أولهم «شمر يرعش» ثانيهم «ذو القرنين» أو «افريقس الصعب» ثالثهم «عمرو» زوج بلقيس وهكذا إلى ١٤ ملكاً آخرهم «ذو جدن» وقبله «ذنواس»، وهذه الطبقة هم التابعة ومن قبلهم ملوك فقط. والتّبع ـ بتشديد التاء والباء ـ هو من ملك حضرموت والشحر مع مملكتهم. فأكثر ملوك الطبقة الثانية الحميرية تابعة أضافوا إلى ملك اليمن ملك حضرموت والشحر، وهذا ما قصدت ذكره في هذا المقام في أمر ملوك اليمن.

تحقيق هذا المقام

لقد اطلعت أيها الذكي على أسماء ملوك اليونان وأسماء ملوك اليمن، فظهر أن ذا القرنين لا صلة بينه وبين اليونان، وأن الاتصاف بـ«ذو» لم نجده إلا في اليمن، وأن الملوك والتابعة إنّما ينبغون من هؤلاء الأذواء، إذن لا شك أن هذا اللقب لا مناسبة بينه وبين اليونان، وإنّما صلته التامة ببلاد اليمن، بل تقدم في أسماء الملوك قريباً اسم ذي القرنين، فظهر الأمر واتضح، ولكن هل هذا هو ذو القرنين المذكور في القرآن؟ نحن نقول: كلا، لأن هذا مذكور في ملوك قريبي العهد منا جداً، ولم ينقل ذلك عنهم اللهم إلا في روايات ذكرها القصاصون في التاريخ مثل إن «شمر يرعش» وصل في حربه إلى بلاد العراق وفارس وخراسان والصفد، وقال العجم «شمركند» أي: شمر خرب وبنى مدينة فسميت «سمرقند» أي: شمر خرب وملك بلاد الروم. ويقولون: إن أسعد أبو كرب غزا «أذربيجان» وبعث حساناً ابنه إلى «الصفد» وابنه يعفر إلى الروم وابن أخيه إلى الفرس، وأن من الحميريين من بقوا في الصين لهذا العهد بعد غزو ذلك الملك لها. وكذب ابن خلدون وغيره هذه الأخبار ووسموها بأنها مبالغ فيها ونقضوها بأدلة جغرافية وأخرى تاريخية لا محل لذكرها هنا. إذن يكون ذو القرنين من أمة العرب ولكنه في تاريخ قديم قبل التاريخ المعروف. ألا ترى أن من الأمة العربية من غزوا مصر قبل الميلاد وبقوا فيها ٥٠٠ سنة، ثم طردوا من مصر في الأسرة الثامنة عشرة، ولقد أخبرنا المرحوم أحمد بك كمال أن المصريين كثروا جداً فخرجت منهم أمتان: إحداهما إلى بلاد العرب، والأخرى إلى شمال أفريقيا، وقال رحمه الله لنا: إن الذين خرجوا إلى بلاد العرب هم عاد وثمود.

حكمة نزول هذه الأخبار في القرآن

علم الله قبل أن ينزل القرآن أن أمة العرب خصوصاً وأمة الإسلام عموماً سينسون التاريخ وتخطيط البلدان ويجهلون ما حل بالأمة العربية من أمة يأجوج ومأجوج، لا يعرفون أن فتح البلدان بالجهاد الإسلامي كان هو السبب الذي جعل أمة الإسلام مجاورة لأمة يأجوج ومأجوج، وهذه المجاورة كانت سبباً في انقضاض القوم على أمم الإسلام فمزقت شملهم. علم الله أنهم يجهلون ذلك الأزمان المتأخرة، وأن الحروب الصليبية وحروب يأجوج ومأجوج ستقضي عليهم ويخرج أبناؤهم أي أهل مصر وشمال أفريقيا والعراق والحجاز وسوريا والفرس وغيرها، وهم يجهلون ما حل بآبائهم الأولين، ولا يعلمون أن أمة يأجوج ومأجوج احتلت البلاد لما آنست من العرب ضعفاً وتخاذلاً، ومن

المسلمين تفرقاً وانحلالاً ، فكانوا منقسمين إلى الشيعة والسنية وكل منهم يكيد للآخر ، وكان الوزير العلقمي رجلاً شيعياً ، والملك المستعصم رجلاً سنياً ، وكان هذا الوزير هو السبب في دخول التتار واحتلالها وذبح ألف ألف منها إلى آخر ما تقدم .

علم الله ذلك فأنزل في القرآن قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج ، وهما قصتان متلازمتان . فقصة « ذي القرنين » تفيد أن رجلاً عربياً أقامه الله مصلحاً عظيماً . فماذا فعل ؟ فعل ما فعله الخضر عليه السلام ، أقام الخضر جداراً يريد أن ينقضّ ، وأقام ذو القرنين سداً بين أمة وأمة ، والخضر لم يطلب أجراً من أهل البلد ، وذو القرنين لم يطلب أجراً من تلك الأمة . الله أكبر . هذا هو الشرف أن يصرف الإنسان نعمة الله فيما خلقت لأجله سواء أكان ذلك لمنفعة فردية أم منفعة عامة . فإقامة الجدار لمنفعة اليتامى ، وإقامة السد لمنفعة الأمة .

الله أكبر . نزل القرآن لارتقاء الأمم . نزل القرآن للاقتداء . ألم تر أن أول السورة يفيد أن قوماً هربوا من الظلم فاختفوا ، وقد قدمت أن هذا تم في زمن النبوة بالهجرة ، وأن آخر السورة يفيد أن الإنسان يعمل للمصلحة العامة إما لأفراد وإما لأمم . هذه السورة أشبه بتاريخ الإسلام فأوله ضعف المسلمون في مكة ، وبعد الضعف القوة ، وبالقوة تنفع الأفراد وتنفع الأمم . هذا هو دين الإسلام . والأمم الإسلامية التي ضلت هذه الطريقة يخذلها الله كأمم الإسلام أيام الدولة العباسية أي في آخرها ، إذ جعل الناس الملك مغنماً والزكاة مغرماً ، وأصبح الملك قليل العمل كثير الأمل والشهوات واللذات والخلاعة .

عاشت أمة الإسلام وهي تتقلب على نار الغضا ويكيد العلماء بعضهم لبعض ، فالخوارج والشيعة وأهل السنة بعضهم لبعض عدو ، حتى إن الشافعية والحنفية من أهل السنة لما دخل التتار أي يأجوج ومأجوج وجدوهم أشبه بأهل دينين كل يكاد يكفر الآخر . علم الله أننا نحن في عصرنا الحاضر سنجهل كل ذلك .

الله أكبر . إن الأمة الإسلامية لما فتحت البلاد لحفظها حفظهم الله ، ولكن لما فتحت البلاد للذاتها انحطت مداركهم فاستخلص الله منهم بلاده كما تقدم ، وجهل القوم علوم الجغرافيا فجهلوا جيرانهم من الأمم فانقضوا عليهم .

أقول : ومتى عرف المسلمون بعدنا السبب في تشتيت الأمم الإسلامية يرجعون مجدهم بجمع شملهم ، وذلك يستحيل إلا إذا قرؤوا جميع العلوم وعلموا ما جهله آباؤهم في تلك القرون ، ومن أهمها : علم الجغرافيا والتاريخ ثم بقية العلوم ، وحينئذ يعرف أبناء العرب والفرس والترك وغيرهم من أمم الإسلام أن الذي أضاع مجدهم هو الجهل وأن المسلمين ظنوا أن القصد من الملك التمتع ، مع أن ملك البلاد والتسلط عليها لا يقصد منه إلا رقيها وخدمتها وإسعادها .

أقول : علم الله ذلك ، وأننا في هذا الزمان سنقرأ هذا ويقرؤه أبناؤنا بعدنا ، ويعرفون خطأ الآباء ويقولون في « ذي القرنين » إنه وإن لم يكن معروفاً بشخصه فهو المعروف قدره ، وأن الله أبهمه علينا كما أبهم ليلة القدر ويوم القيامة ، ولو أن الله عرّفنا به فعلاً لكانت الفائدة ضئيلة . أما الفائدة العظيمة

فهي كثرة البحث والتنقيب في الكتب، فهانحن أولاء بحثنا عن ذي القرنين في أمة اليونان، ولما بحثنا عنه وجدنا هناك في القرن الثامن قبل الميلاد قوانين مشترع عظيم تقدمت الإشارة إليها، عرفتنا مجلس الشيوخ ومجلس الأمة التي نسج على منوالها أهل أوروبا الآن، وهكذا حوالي القرن السادس ق. م ظهر «سولون» الحكيم، ولهؤلاء قوانين تذكرنا بما يحاوله أهل الشرق الآن من الانتخاب وتشكيل المجالس النيابية. ولا جرم أن هذه الطريقة بالحال التي هي عليها لم تكن معروفة عند أسلافنا، فلم يكن لهم سبيل إلا الحرب والقتل، وإذا كانت أوروبا هي التي تعلمنا تلك القوانين كما علمت اليابان وأمريكا، فعلينا نحن أن نقرأ كل ما حصل من شرائع الأمم الانتخابية في اليونان والرومان وفرنسا، وما الذي فعله «روسو» الكاتب الشهير الذي أحدث ذلك في فرنسا، وما الذي فعلته إنكلترا قبل فرنسا بنحو مائة سنة وماذا فعلوه مع ملوكهم. كل ذلك تذكرناه في أثناء البحث عن اسم ذي القرنين، فإذا لم يكن في ذكر ذي القرنين نعمة سوى هذه لكفت، وهذه المباحث واجبة وجوباً كفائياً لأنها أولاً لفهم القرآن، وثانياً لأنها علوم والعلوم لابد فيها من قوم مختصين بها. وكم من فوائد غير هذه في هذه المباحث.

إن الأمم الإسلامية التي بعدنا ستقرأ هذا وأمثاله، وسيعلمون أن العلوم التي نقلوها عن أوروبا والأعمال السياسية لن يتم لهم الانتفاع بها إلا إذا درسوا أصولها، فهؤلاء أهل مصر وأهل العراق والشام وغيرهم قد أخذوا يقلدون الغرب في المجالس النيابية، ولكن لا يتم مقصدهم إلا بدراسة تاريخ تلك المجالس أيام «سولون» وأيام «ليكورغس»، ليقفوا على تنوع تلك المجالس وينظموا بلادهم على أحسن طراز، وسيعلمون حق العلم أن قوله صلى الله عليه وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زخرف الدنيا وزينتها» قد تم، ذلك لأن فتوح البلدان قد انتهى بتشتيت شمل الأمة العربية لأنهم لم يحفظوا النعمة في آخر أمرهم، ولم يقوموا على أنهم خلفاء الله فحسب، وأن قوله: «لقد فتح الليلة من سد يأجوج ومأجوج الخ» فيه تلميح إلى فتح البلدان كما تقدم، وسيعلمون أنهم لا نجاة لهم إلا بنظام أممهم وبلادهم بأحسن الطرق، وهكذا أن يدرسوا كل علم ويحققوه.

وسيعلم أبناء اليمن خاصة وأبناء العرب عامة أن الله ما ذكر ذا القرنين في القرآن إلا ليبعث فيهم النشاط والهمة والقوة، فهو يقول: يا أبناء العرب، ماذا أفعل لكم؟ خلقت رجلاً مصلحاً في زمان مجهول لكم بلغ مغرب الشمس ومطلعها ولم أشأ أن أبين لكم البلاد التي دخلها، لأن كل مكان في الأرض يصلح لطلوع الشمس وغروبها، وإنّما بينت السد لأجل أن تبحثوا عن التاريخ الذي حصل لآبائكم، فبينما أنتم تبحثون عن السد إذا بكم اهديتم إلى سبب انقراض دول آبائكم، فترجعون إلى أنفسكم وتقولون: كيف يكون منا من بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأصلح الأمم ونكون نحن بعد نزول القرآن أضعف من آبائنا قبل نزوله؟ وسيخجل أبناء اليوم حينما يدرون أن آباءهم كانوا أرقى منهم علماً وصناعة، وسيقولون: كيف يكون ذو القرنين منا؟ وكيف ينزل الله في آبائنا سورة «سبأ» ويذكر سيل العرم ونصبح نحن أضعف من آبائنا. إننا لمقصرون. فلنقرأ كل علم ولندرس كل فن وإنا إن شاء الله لموفقون. انتهى.

جوهرة في قوله تعالى:
﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ ﴾ الخ

إن المطلع على ما تقدم من التفسير يجد نعم الله لا حدّ لها في كل عالم من العوالم الأرضية والسماوية، ولكن الآن أذكر لإيضاح هذه الآية آخر الآراء التي وصل إليها العلماء في عصرنا الحاضر، ولم أجد أجمل ولا أجمع ولا أحدث من الخطبة التي خطبها الأستاذ «جينس» الإنجليزي العالم الفلكي الذي كان مدرساً لعلم الرياضيات التطبيقية في جامعة «بنسلفانيا» التي هي أشهر جامعات أمريكا، وقد عاد أخيراً إلى إنكلترا وصار سكرتيراً لجمعية العلوم والفنون الملكية، والخطبة المشار إليها هي التي ألقاها يوم ٧ مارس سنة ٢٨، أي قبل كتابة هذه الأسطر بشهر واحد، وهي كما قلنا أحدث الآراء في منشأ الكائنات، والكلام على النهاية وعلى عدم النهاية في الزمان والمكان، وهل يمكن حصر الأجرام العلوية ومقادير أعمارها. وهذه الخطبة ألقاها في تلك الجمعية في التاريخ المتقدم وملخصها ما يأتي:

(١) الاهتمام بعلم الكائنات ونشوئها قريب العهد جداً وهذا العلم لا يزال طفلاً.

(٢) يقول علماء الجيولوجيا: إن الإنسان لم يعش على الأرض إلا منذ ثلاثمائة ألف سنة فقط، إذن الأرض عاش عليها عشرة آلاف جيل، كلهم يرون الأرض مركز العالم، والعالم خلق لأجلها، إلا جيلاً واحداً عرف أن الأرض ليست شيئاً مذكوراً في العوالم.

(٣) عمر الأرض نحو ألفي مليون سنة.

(٤) الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هي الآن تقريباً، وتدور الأرض حولها كالوقت الحاضر.

(٥) الإنسان في المستقبل يكون أحكم من الإنسان الحاضر ثلاثة ملايين مرة على الأقل، فينظم المعيشة على مقتضى حال الكرة الأرضية في المستقبل.

(٦) يؤخذ مما تقدم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض فهو طفل، وهكذا هو طفل في علومه ومعارفه، وكل هم هذا الطفل كان موجهاً إلى غذائه ومسكنه، وهو يجهل العوالم ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم لا حد لها، وعرف أنه يجهلها وكأنه في حلم، ومعرفته تافهة جداً بالعوالم حوله، ويعيش بعد الآن ألفي مليون سنة على الأرض، أي أنها مدة تعادل عمر الأرض الماضي.

(٧) الأجرام التي حولنا لها نهاية. أما الفضاء الذي بعدها فلا نهاية له، أي أن الشمس والكواكب والمجرات ليست بلا نهاية ولكن وراءها فضاء لا نهاية له.

(٨) الأجرام العلوية التي نراها والتي لا نراها شكلها كروي، أي أنها كلها كرة واحدة كقطرة الماء وككرة الأرض والشمس الخ، والكرة تعرف كلها متى عرفنا نصف قطرها، ونصف القطر يعرف متى عرفنا درجة تقوّس محيط الشكل الكروي بين أية نقطتين مفروضتين على محيط الشكل.

(٩) الأستاذ «هويل» يقول على سبيل التقريب: إن الفضاء المشغول بالأجرام الفلكية لا يمتد على الأرجح إلى أكثر من ألف ضعف المسافة التي تفصل بيننا وبين أبعد السدم التي يمكن رؤيتها بأكبر «التلسكوبات»، إننا إن وصلنا تلك السدم فرضاً وجاوزناها فإننا نعود إلى النقطة التي بدأنا منها لأن ذلك الفضاء كما قلنا كروي الشكل.

(١٠) الإشارات اللاسلكية التي تنبثق من جهاز لاسلكي شديد الإحساس تدور حول الكرة الأرضية في أقل من سبع ثانية، وتعود إلى النقطة التي بدأت منها، فهكذا لو اخترقنا لهذه العوالم رجعنا إلى مبدأ سفرنا.

(١١) لو أننا صنعنا «تلسكوباً» قوياً جداً ورأينا جميع الكرات السماوية لرأينا النجوم بهيئتها الأصلية حينما أرسلت النور إلينا قبل الملايين من السنين، وأن النجوم ليست أعدادها بغير نهاية، ولو كانت في فضاء لا نهاية له للزم أن تكون هناك نجوم لا يصل لنا نورها إلى أبد الدهر، ويقول: إن هذا بعيد ويرجع فيقول: إن الإنسان اليوم طفل لا يدري في العلوم شيئاً فربما جاءه المستقبل بما لا يتخيله الآن.

(١٢) النور يسير في الثانية الواحدة (١٨٦) ألف ميل، ومثله في ذلك الكهربائية اللاسلكية لأنهما في جوهرهما شيء واحد، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروي مائة ألف مليون سنة أي أن النور يدور في هذا العالم المملوء بالأجرام العلوية الذي مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة، مع العلم بأنه يدور حول الأرض في سبع ثانية واحدة، فأين النسبة بين سبع ثانية وبين مائة ألف مليون سنة. ويقول: إن الأرقام لا تقدر أن تحصي المسافة المحصورة بين نقطتين أي أياً كانتا على محيط الفضاء الكروي.

(١٣) الشمس أكبر من الأرض حجماً مليون وثلاثمائة ألف مرة، وما هي إلا حبة رمل على شاطئ هذا الفضاء الكروي، وهي فرد من أسرة من أسر الكائنات، وفي الفضاء الكروي المذكور ألوف الملايين من تلك الأسر والجماعات. وقد قدر العلامة «سيرز» عددها ثلاثين ألف مليون مجموعة وتكون شمسنا وتوابعها حبة رمل في مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة.

(١٤) هناك سدم لولبية خارج المجرة وهي مجموعة من النجوم تمّ نشوؤها أو لا تزال في دور التكوين، وفي بعض تلك السدم من المادة ما يكفي لخلق ألف مليون شمس كشمسنا، مع العلم بأن مادتها في غاية اللطف، حتى إن جزءاً من اثني عشر مليون جزء من الرطل يعادل في حجمه جبل «ماترهورن» الذي هو من أكبر جبال أوروبا، فإذا كان السديم الواحد الذي هذه حال خفته في حجمه يشتمل على ما يكوّن ألف مليون شمس فكيف يكون حجمه؟ وبعبارة أخرى: إذا وضعت ألف مليون شمس في كفة ميزان ـ مع العلم بأن الشمس أكبر من مليون حجم الأرض وثلاثمائة ألف مرة ـ وفي الكفة الأخرى جزء من مليون جزء من الأوقية؛ كانت النسبة بينهما كنسبة أحد تلك السدم إلى جبل «ماترهورن» المشار إليه، وذلك كله حجم سليم واحد، فما بالك بمئات الملايين منها وهي سابحة في الفضاء الكروي.

(١٥) يقول «هويل» المتقدم ذكره: إن مرقب «تلسكوب» مونت ويلسون بأمريكا يريك نحو مليونين من تلك السدم، وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها، في كل منها من المادة ما يكفي لخلق الملايين من الشموس والأجرام الفلكية. ويقول: إن العلماء يقولون: إن الفضاء الذي تشغله المادة يجب أن يكون ألف مليون ضعف الفضاء الذي يستطيع أن يرصده «تلسكوب» مونت ويلسون المشار إليه الذي هو أعظم تلسكوب في العالم كله. ويقول: إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التي تسبح في الفضاء تقريباً فإنها عدد (٢) وعلى يمين (٢٤) صفراً، وهو

عدد النجوم السابحة في الفضاء، وعددها في الرمل يغطي سطح الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار، ومعلوم أن عالمنا الأرضي ليس إلا حبة من حبات ذلك الرمل.

(١٦) أضعف النجوم المعروفة نجمة «وولف» نورها جزء من عشرين من نور الشمس، ونور النجم «دور ادوس» يوازي ثلاثمائة ألف ضعف النور المنبثق من الشمس، وأصغر النجوم هو نجم «فان مانن» وحجمه كحجم الأرض، وأكبر النجوم هي الجوزاء وهي أكبر من الشمس خمساً وعشرين مليون مرة، ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة الحباحب.

(١٧) إن الشمس تخرج شعاعاً يعادل قوة خمسين حصاناً من كل بوصة مربعة، وبعض النجوم التي هي أعظم من الشمس تشع نوراً من البوصة المربعة يعادل قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة.

(١٨) الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ٢٥٠ مليون طن في الدقيقة ففي كل يوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن.

(١٩) إن أعمار الأجرام الفلكية تختلف من خمسة آلاف ألف مليون سنة إلى عشرة آلاف ألف مليون سنة.

(٢٠) يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف ألف مليون سنة، ويمكن أن تعيش ملايين الملايين من السنين فلا تنطفئ. انتهى.

هذه هي الآراء التي يستنتجها العلماء اليوم بحساباتهم تارة وبتخليهم تارة أخرى. ذلك كله يفهمنا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا ﴾[الكهف: ١٠٩] الخ، فهذه هي الكلمات الإلهية التي حيرت العقول وشغلت الأفكار وأضاعت الأعمار، ولم يصل الناس لأقل جزء من العلم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١٦]، والحمد لله رب العالمين. كتبت هذه المقالة يوم الجمعة ٢٧ إبريل سنة ١٩٢٨.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

اعلم أن هذا الوحي الذي أنزله الله على أنبيائه بأنه واحد قد أظهره في كلماته المذكورة قبل هذا في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى ﴾[الآية: ١٠٩] فالآية الثانية كالمتممة للأولى، وإيضاح هذا المقام أن الآية الأولى أفادت كثرة المخلوقات ولكن الكثرة كيف تكون عن الوحدة، فالكثرة ظهرت في الأولى والوحدة في الثانية. هناك حارت الأمم قديماً وحديثاً. رأوا كثرة لا تتناهى، وهذه الكثرة العظيمة لا تتم إلا بالوحدة، وإلا فكيف يضبط هذا الكثير. فانظر ماذا حصل، جاء قدماء الفلاسفة ونظروا في هذا الوجود فرأوا جواهر وأعراضاً أي المادة والصفات القائمة بها، فدرسوا أولاً العلوم الجزئية من الرياضيات والطبيعيات، وبعد ذلك درسوا علماً عاماً يعلمهم الوحدة، فقالوا: إن كل موجود يمكن أن يطلق عليه اسم الواحد سواء أكان كثيراً أم قليلاً، فإننا نقول: زيد واحد وعمرو واحد والإنسان جميعه واحد، فالأولان بشخصهما، والثالث

بنوعه، ونقول: الإنسان والحيوان والنبات والجماد واحد، أي: من حيث اشتراكها في الجسمية، إذن الكثرة تلازمها الوحدة، فليست الوحدة خاصة بالشخص. كلا. بل هذا العالم كله نسميه واحداً. هذا ما كان يقوله القدماء فاقرأه في كتاب «الشفا» لابن سينا. وتارة يقولون: إن الواحد أصل العدد، فليس هو بعدد، والعدد يشعر بالتعدد والواحد بتكراره مرة فأكثر أحدث الأعداد كلها ألوفاً وألوف ألوف والواحد إذا حذف من الوجود لم يكن عدد، والعدد إذا ذهب من الوجود لم يذهب الواحد.

إذن العالم كله واحد. وهذا كلام علماء «الارتماطيقي»، أي: علم خواص الأعداد. فعلماء الفلسفة القدماء يرون نفس العالم واحداً، وعلماء الرياضة يوحدون العدد، فانظر إلى علماء العصر الحاضر، ماذا فعلوا؟. نظروا بطريق العلوم الطبيعية فماذا قالوا؟. قالوا: إن العالم كله واحد من حيث إن الكواكب كلها مركبات من عناصر كعناصر الأرض. وقد تقدم شرح هذا في هذا التفسير فلا تفاوت في هذه المادة.

العناصر التي تبلغ نحو ثمانين الآن ركبت الأرض منها ومن غيرها، والشمس مثلها وكذلك سائر الكواكب، والذي عرفنا ذلك هو الضوء، فباختلاف الخطوط السود القاطعة للألوان السبعة تختلف العناصر في الجميع، وأيضاً يقولون كما تقدم أيضاً: إن السيارات تدور حول الشمس والعالم كله سيارات تدور حول شموس، وهذه المسالة عينها هي الحاصلة في الحجر والشجر والمدر والجبل. فهذه كلها مركبات من عناصر، والعناصر من جواهر فردة، والجواهر الفردة تحلل إلى كهارب، وتلك الكهارب ما هي إلا نقط ضوئية يدور بعضها على بعض، فنقطة من نوع الكهرباء السالبة وأخرى من نوع الموجبة، والدوران سريع جداً، بحيث يكون ملايين في الثانية الواحدة، والمسافات بين الذرات التي يتركب منها الجسم كالمسافات بين الشموس والسيارات، وباطن المادة خلاء يتخلله ذرات كهذا العالم الذي نراه، وهذا المقام قد مر قريباً في هذا المجلد وفي غيره. ويقولون أيضاً: إن قطرة الماء تحوي ذرات عددها (٥) يتبعها عشرون صفراً كما نقلناه سابقاً عن علماء أمريكا في عصرنا، وانظر إلى عدد نجوم السماء فيما تقدم آنفاً وأنها عدد (٢) على يمينه (٢٤) صفراً، انتهى.

خلاصة ما تقدم

(١) وحدة في آراء قدماء الفلاسفة من حيث إن العالم كله تلحقه الوحدة كثيراً أو قليلاً كلياً أو جزئياً.

(٢) وحدة عند علماء خواص الأعداد، إذ يقولون: إن الأعداد كلها ترجع للواحد، بل هي واحد مكرر.

(٣) وحدة عند علماء العصر الحاضر مثل أن النجوم والشموس مركبات من عناصر كما نرى في أرضنا فهنا اتحاد في التركيب وفي العناصر إجمالاً

(٤) اتحاد الكواكب المحيطة بنا في الحركات مع الجواهر الفردة، فالسيارات تدور حول الشمس والجواهر الكهربائية تدور بعضها على بعض في الجوهر الفرد، فالاتحاد هنا في الحركات.

(٥) الكواكب كلها مشرقات وجميع الذرات مكونات من كهرباء أي نقطة ضوئية، إذن العوالم اتحدت في الأنوار سواء أكانت مظلمة أم مضيئة، أي أن نحو الحديد والنحاس والأحجار عند البحث في ذراتها نجدها مركبات من أنوار لا غير كأنوار الكواكب، وهذا تقدم شرحه كثيراً في هذا التفسير.

(٦) الأضواء التي في هذه الجواهر الفردة التي يجري بعضها على بعض يتخللها خطوط سود سواء أكان ذلك في أضواء النجوم أو أضواء العناصر الأرضية.

(٧) بين كل ذرة وأخرى خلاء في سعته بالنسبة للذرتين، كالسعة بين شمسنا مثلاً وأرضنا بالنسبة لحجمهما.

(٨) القدر الصغير من المادة التي أمامنا كالقطرة المائية أعداد ذراته تفوق أعداد نجوم السماء بحسب ما يظن في الكشف الحديث. وهناك وحدة لم تذكر هنا وهي:

(٩) الوحدة في الأخلاق؛ ذلك أن هذا العالم كله فيه الحر والبرد والموت والحياة والعز والذل، ونجد الشرع السماوي يقول لنا: جاهدوا وتقدموا للقتال وسلموا أنفسكم للموت ولكل ما يعتوركم في الحياة وأنتم راضون، إذن الشريعة تقول بوحدة الأخلاق مع حوادث هذا العالم، فنكون مع هذا الوجود متحدين في أعمالنا نقدم أنفسنا للموت في الفضيلة ونرضى بكل حوادثه، بل إن ذلك قد جرى عليه الحكماء قبل دين الإسلام، فهناك دين « اودين » كان في أوروبا قديماً جداً، وهذا الدين يأمر أتباعه بأن لا يموتوا إلا مقتولين، ويحرم على المرء أن يموت على فراشه. وقد ذكر هذا الدين « كارليل » الإنجليزي في كتابه « البطولة والأبطال »، وأيضاً نذكر ما ذكرته آنفاً مذهب الفيلسوف « ليكورغس » في نحو القرن الثامن قبل الميلاد، فإنه علم اليونان بأسبرطة وغيرها أن رقي الناس لا يتم إلا بأن يعتادوا مرارة العالم ويذوقوا كل ألم من حر وبرد وضرب موجع ولا يتذمروا من ذلك كله، ولا يتم رقيهم إلا بذلك، ودرجوا على هذا النظام حيناً من الدهر، وهذا عجب أن تكون الوحدة سارية في العالم وفي أفعال الناس.

(١٠) ووحدة في العدل فانظرها في سورة « النحل » عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[النحل: ٩٠]، فهناك تجد نظام الجسم الإنساني ونظام أخلاق الإنسان ونظام الأمة كلها جاريات على قانون واحد يشمل العالم كله. اللهم إنا نحمدك أن علمتنا أن قولك لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[الآية: ١١٠] الخ، هو القانون المتفق عليه في طبقة هذا الوجود. اللهم أنك أنت الذي علمتنا ما لم نعلم، ونشكرك على الحكمة ونسألك المزيد وأن ترفع هذه الأمم الإسلامية إلى مقام الحكمة والعلم إنك على ما تشاء قدير.

أنا لست أقول لك إن ذرات قطرة الماء ونجوم السماء هذا المذكور هو عددها، وإنّما أقول لك هذا هو اتجاه عقول هذا النوع الإنساني، ففي الزمان الأول جعلوا هذا العالم واحداً من حيث إن كل موجود يطلق عليه اسم الواحد كثيراً كان أو قليلاً، حتى إن المقولات العشر التي ترجع إلى الجوهر والعرض قد شملت أقسام الوجود الحادث كله في كتابي « الفلسفة العربية »، فهي هناك واضحة كل الوضوح.

وفي هذا الزمان وجدوا أن عدد ذرات قطرة الماء أشبه بعدد نجوم السماء من حيث الكثرة، وأن العوالم ترجع إلى كهرباء، فالوحدة هي التي خطرت بعقول الفلاسفة قديماً وحديثاً، فهذا العالم يدل على وحدة الصانع التي أنزلها الله في القرآن وأوحى بها إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ولست أدعوكم إلى الفلسفة القديمة ولا الحديثة الدالتين على وحدة هذا الوجود على حسب عقولكم الدالة على وحدة صانعة، بل أنا يوحى إلي بوحدة الخالق التي بها

كانت وحدة العالم، وأنتم ابحثوا عنها بعقولكم بالطرق التي توافق عقولكم، فإن الوحدة مخبوءة في هذا العالم ومخبوءة في عقولكم ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأنبياء: ٧]، وأهل الذكر في هذا المقام هم الفلاسفة والحكماء في العالم قديماً وحديثاً. انتهى والحمد لله رب العالمين.

الوحدة في نظام الأمم

وبيانه أن الوحدة كلما كانت أعظم وأتم كان المتحدون بها أقوى وأكمل وهكذا. والدليل على ذلك أن الجبال تقوى على احتمال ما لا تقوى عليه البلاد من حوادث الجو والرياح والصواعق والزلازل. وهكذا نرى الفيلة والآساد والإنسان لقوة تركيبها واندماج عناصر كثيرة في أجسامها تقوى على ما لا يقوى عليه الجراد وأنواع الحشرات. فهكذا الأمم فإننا نجدها كلما كانت أشد ارتباطاً وأكثر عدداً كانت أقوى من غيرها.

ألا ترى أن الأمم الكبيرة القوية المتعلمة اليوم تهجم على الجاهلة. أتدري لماذا ذلك؟ لأن الأمم العظيمة قد سرت فيها أسرار الوحدة والوحدة سر الوجود. فالأمم التي غلبت غيرها سر الوحدة فيها أتم، إما لارتقاء صفاتها وإما لكثرة عددها وإما لهما معاً. أما الأمم التي تمزقت وحدتها لجهلها وقلة المفكرين فيها فإن الله يعاقبها على ذلك الجهل بأن يسلط عليها الأمم التي سرت فيها الوحدة ليذلوهم. لماذا هذا؟. لأنهم نسوا الله فنسيهم، ومن صفات الله الوحدة، وهؤلاء جهلوها عملاً فذلوا لمن اتصفوا بها. واعلم أن الأمم الإسلامية بعد القرون الأولى كانت كل همم رؤسائهم منصرفة إلى أن يتولوا أحكام المسلمين فتفرقوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض، وتركوا أكثر الشورى، والشورى في الأمم هي سر الوحدة، ومتى انتخب الناس رؤساء منهم وهؤلاء تشاوروا في أمورهم كانت هناك الوحدة التي ظهرت آثارها في العالم الإنساني في أمريكا واليابان وأوروبا.

تلك الشورى التي أمر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حضرته الوفاة، فبالشورى تكون الوحدة وبالغلبة يكون التفرق. فالحكم يكون لأهل الحل والعقد ويكون الملك أو رئيس الجمهورية عليه التنفيذ، ولا يتولى هو إلا بمشورتهم، ويقيد الملوك وميراث العرش بأوامر ذلك المجلس. هذا هو الذي جهله المتأخرون في الإسلام فأضاع مجدهم. ألا فليغير هذا النظام الآن. ومن عجبي أن يكون اليابان والطليان والألمان والفرنسيون وهكذا أمم أخرى جميع هؤلاء اتحدت طوائفهم التي هي من جنس واحد. أما أبناء العرب الذين هم إخواننا في النسب فقد تفرقوا قديماً وحديثاً، وميلهم للعلم غالباً منصب على الشعر والأدب. فهل يكون اتحادهم بعد نشر أمثال هذا التفسير. وهل يعرف أبناء مصر وشمال أفريقيا وأهل الشام والعراق والحجاز ونجد واليمن أنهم من حيث التجانس لا فرق بين تجانسهم وتجانس الألمان والطليان الخ، وأن دينهم واحد ثم هم متجاورون في البلاد متحدون في اللغة. أفليس من المخزي المحزن أنهم يتفرقون وحدهم دون سائر الأمم. يظهر لي أن هذا التفرق للجهل المطبق. تعلمت تلك الأمم فاتحدت، وجهل أبناء العرب فتفرقوا. نعم نشروا الدين وانتشروا في الأرض وليس يجمعهم بعد هذا التشتت إلا دراسة جميع العلوم. وبعبارة أخرى السير على ناموس هذا التفسير والعمل بما فيه، بذلك يظهر فيهم النابغون، وينشر التاريخ ملخصاً، والواقع والأحوال الماضية، فتزول الجهالة وينشر النور ويعم. ومن الوحدة في نظام الأمة استخراج ما كمن في الأفراد من القوى والملكات

وما في الأرض من الخيرات، معادن وزراعة وغيرها. ومن ذلك حفظ أرباب الصناعات في البلاد بالمحافظة على ما يصنعون بحيث يروج في بلادهم. وهذه قاعدة مطردة في الأمم جميعاً، ولكن البلاد لم تستقل استقلالاً تاماً كمصر وشمال أفريقيا وأمثالها. فكل هذه أبوابها مفتحات بلا حجاب، فبضاعة الأجانب هي التي تروج عندهم فيضعف صناعهم وتجارهم، فتقل الوحدة ويضعف الشعب وتذهب ريحهم. ولقد أخذ قواد الشعوب المهضومة يدعون إلى ذلك كما تقدم في آخر «آل عمران» من النداء الذي نشره «غاندي» بالهند لقومه فلبوه وقللوا من شراء بضاعة الأجانب. في كل ذلك تكميل للوحدة.

ومن هذا القبيل ما كتبته في هذه الأيام في مجلة «النهضة النسائية» بمصر وذلك لتقوية الوحدة في الأمة، وهذا نصه في عدد مايو سنة ١٩٢٨.

خطاب مفتوح
إلى جماعة نهضة السيدات

أيتها السيدات الفضليات. اطلعت اليوم على المجلة التي تصدر باسمكن بتحرير مديرتها فأعجبت بها وأيم الله أيّما إعجاب، وراقني أسلوبها وأدهشني المصطفيات من حكمها وغوالي دررها وجواهرها في حلاها وحللها، وتعجبت كل العجب من رقي علمي ومبحث فني ومطلب جدي وحكمة بالغة وآية ساحرة، فحركت تلك المناظر ما كمن في النفس من حبّ الأوطان وما خامرها من غرام برقيها وغرام ثابت في الوجدان.

وحرّك وجدي بعد ما كان نائماً ... برأد الضحى مشغوفة بالترنّم

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدي شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدم

أيتها السيدات الفضليات. إن الله خلق الإنسان صنفين: ذكراً وأنثى، وليس يقوم شأن أحدهما إلا بمساعدة الآخر له كما وضح، إن الله خلق للإنسان يدين تساعد إحداهما الأخرى وهكذا العينان والأذنان، هكذا أبرز هذين الصنفين في نوع الإنسان ليشتركا في نظام الأسرات وحفظ الأبناء والبنات فلم لا يشتركان في رقي البلاد وإنهاضها.

أيتها السيدات الفضليات. لقد علمتن نبأ الحوادث العرابية، فالنهضة المصطفوية الوطنية فالسعدية الوفدية، فما بالكن لم تقاسمن الرجال في حفظ البلاد. نحن لا نطلب منكن واحدة تمثل «جان دارك» في فرنسا فتتقدم صفوف الرجال للقتال وجهاد الأعداء، فنحن لسنا في حرب الميدان، ولا نطلب منكن أن تفعلن ما فعلته السيدات الهنديات اللاتي قفون أثر الزعيم الهندي الكبير الأستاذ «غاندي» من مقاطعة المنسوجات الأجنبية إذ قال كما جاء في مجلة «الجامعة الهندية» ما يأتي:

إن مقاطعة المنسوجات الأجنبية من الانتقام، ولكنه لا مفر منه لأنه لازم للوطنية لزوم النفس للحياة، إذ بدونه لا يكون استقلال وإن جاء لا يؤمن عليه. إن أنواع المنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما أقبح من هذا، وهو العار على كثير من الأسرات ولا شي يستطيع صد الوطني عن القيام بوظيفته ولو كان قوة الحكومة.

هذا بعض كلامه الذي اتبعه الرجال والنساء في الهند. وإنّما لم أطلب ذلك منكن لأن مصر فيها جاليات كثيرة لهن بها صلاة حسنة بخلاف الهند ففيها واحدة. إنّما أطلب منكن ما فعله فضليات النساء في تركيا، فقد جاء في الأهرام بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٩٢٨ ما نصه:

الأستانة في ٢٠ مارس سنة ١٩٢٨ «تألفت جمعية من السيدات المسلمات من الأسر الوجيهة لمقاومة التبرج «التواليت» بين النساء المسلمات، لأن ذلك لا مبرر له وهو من بواعث الفقر في الأمة».

هذه هي الجمعية التي ألفت من الأسر الوجيهة. أيتها السيدات المصريات أنتنّ أحق بذلك من السيدات التركيات. إن تركيا مستقلة استقلالاً تاماً، ولكن الرجال هناك لما علموا أن انكباب النساء على المنسوجات الأجنبية يورث الفقر، والفقر يتبعه ضياع البلاد. استعانوا بالنساء لحفظ المال والأخلاق وخص النساء بالطبقة الراقية، لأن غيرهن يسخر الشعب منهن إذا وعظن بالاقتصاد وعدم الإسراف، فينسب ذلك لفقرهن وقلة ذات يدهن. فحياكن الله أيتها السيدات الفضليات المصريات. فإذا كانت تركيا التام استقلالها قد أعوزها مساعدة السيدات؛ فما بالكن بمصر الأسيفة الباكية التي لا نصير لها ولا معين. فيا ليت شعري من عريقات المجد ونبيلات الشرف منكن تلبي هذا النداء.

أقسم الجوهري قسماً حقاً لا حانثاً فيه ولا آثماً أن التي تتقدم سيدات مصر في هذا لا يوازيها كثير من الرجال، ولا يكون إشراق شمسها ومجد عملها وحسن صنيعها قاصراً على مصر، بل يتعداها إلى كثير من بلدان الشرق ويقترن اسمها بأعظم الأسماء بعد الأنبياء وينالها من الثواب في الآخرة ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ناشدتكن الله أيتها السيدات إلا ما حركتن وجدان النفوس، وأثرتن ثائرة الشعور، وقصدتن سيدة ترفع رأس المصريين، فإلام أيتها السيدات النكوص وحتّام الجلوس؟. أفترضين أن تكون مصر معطلة أحد الشقين أو فاقدة إحدى العينين فيقل العدد وتضيع البلد ويذهب المال والولد. فيا ليت شعري من هذه السيدة التي ستطلع بدراً في سماء مصر فتحفظ أموالنا وتصون أعراضنا وتحل مشاكل الزواج عندنا ويكثر باتباعها نسلنا، ويكون اسمها عطر المجالس وهي قدوة الأوانس، ومن أشياعها تصطفى العرائس، ومن خالفها منهن حقرها الأهل والجيران ونبذها الشبان وأصبحت في خبر كان. إن هذه السيدة عين الله ترعاها وهي شمس مصر والبلاد ضحاها، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة: ١٠٥]. انتهى.

هذا ما كتبته ونشر في التاريخ المذكور. وما هذا وأمثاله إلا للسعي في وحدة الأمة ونشرها في هذا التفسير أتم ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن وحدة الشعب في تجارته وجميع أعماله مما يرقيه ويجعله أهلاً للاستقلال، وإلا فلماذا يقول الله عز وجل في آية أخرى: ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[إبراهيم: ٥٢]، نحن كلنا نعلم أن الله إله واحد.

إذن ما هو التذكر الذي يتذكره أولو الألباب. ومعلوم أن أولي الألباب هم أرباب العقول الصافية الراقية لأنهم أشبه باللب وغيرهم كالقشر.

فما هي الذكرى؟ الذكرى أشبه بما قلناه هنا. إن أبناء العرب نشروا الإسلام ولكن هم الآن لم يتذكروا به علم الوحدة في النظام الذي ذكرهم الله به وذلك لقلة المفكرين في أبناء العرب وقلة المفكرين لعدم انتشار التعليم.

ومتى انتشر التعليم أدركوا أن كل أمة من الأمم كالصين واليابان والفرنسيين قد اتخذوا لهم وحدة جمعتهم. أما أمة العرب وأمة الترك فلم يجتمعوا اجتماعاً تاماً.

فالترك في الأناضول لم يتحدوا مع الترك في الصين ولا مع الترك في الروسيا، فهذا معنى قوله: ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ المذكورة في سورة «إبراهيم الآية: ٥٢» فإنه قال تعالى: ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[إبراهيم: ٥٢]، فهذا من ذكرى أولي الألباب، ألا فليذكر المسلمون ولينشروا التعليم في الرجال والنساء، والحمد لله رب العالمين. انتهى.

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء التاسع من كتاب «الجواهر في تفسير القرآن الكريم»

ويليه الجزء العاشر

وأوله

تفسير سورة مريم

فهرست الجزء التاسع
من تفسير الجواهر